القصص القرآني

إيحاؤه ونفحاته

تأليف

الدكتور فضل حسن عباس

كلية الشريعة ـ الجامعة الأردنية

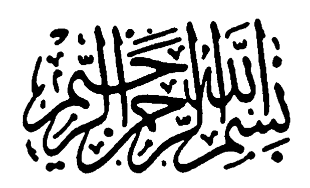



al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

رقم الإيداع لدى
مديرية المكتبات والوثائق الوطنية.
٣٦ / ١ / ١٩٨٥
عمان - الأردن

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَىَ اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ﴾ (الزمر آية٢٣)٠

أما بعد:

فهذه محاولة، نرجو أن تكون مفيدة مأجورة مع القصص القرآني، توخينا فيها جِدَّة العرض، ويُسر الأسلوب، واستيعاب الأهداف، وردَّ الشبهات، كما توخينا أن نجمع بين الطريقتين: التحليلية والموضوعية.

وسيرى القاريء الكريم الجوانب المتعددة من نفسية واجتماعية وفكرية، مما لاغناء لهذا الإنسان عنه. إلى جانب جمال الأسلوب، وروعة البيان، سيرى ذلك كله وغيره في هذا القصص الكريم، مما نرجو أن تُجلِّيه هذه الدراسة.

فلقد ركَّز هذا الكتاب كثيراً على إبراز هذه الجوانب بعامة، وقضية التكرار بخاصة، ولن أطيلَ الحديث، وسأدع الحكم للقاريء.

ولقد بدأته بتمهيد ضمنته مبحثين اثنين:

الأول: تحدثت فيه عن بعض المقدمات الضرورية التي لابُدَّ لدارس القصص القرآني من معرفتها، وبينت فيه المنهج الذي ترسمته في هذا الكتاب.

وتحدثت في **المبحث الثاني** عن السور القرآنية حسب ترتيبها في المصحف؛ مبيِّناً مافي هذه السور الكريمة من قصص، بحيث يكون كالكشاف ليسهل على الدارس معرفة القصة التي يريدها في أي سورة من كتاب الله تعالى.

وبعد ذلك ذكرت قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مرتباً - غالباً - ترتيباً زمنياً، وجعلت لكل قصة مبحثاً خاصاً بها، فبدأت بقصة آدم عليه السلام، فنوح، فهود، فصالح، فابراهيم، فلوط، فشعيب، فموسى، فيونس، فداود وسليمان، فأيوب، فيحيى وزكريا. . .

معقباً على كل قصة بما يناسب موضوعها، وبما يفتح به الله تعالى؛ تعقيباً نردُّ به شبهةً إن وُجدتْ، ونبيِّن به حكمة قد تخفى على بعض الناس.

وقد استلهمت من حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ مَثلي ومَثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[1]. فاجتهدت في استنتاج بيان هذه اللبنات التي وضعها انبياء الله تعالى بما يتناسب ويتسق مع حال كل واحد منهم عليهم صلوات الله وسلامه.

وخصصت المبحث الأخير من الكتاب لنماذج من القصص القصيرة التي لم تُذكر إلاَّ مرة واحدة في كتاب الله.

وختمته بخاتمة عرضت فيها للشبهات حول القصة القرآنية.

راجياً الله تعالى أن ينفع به، وأن يأجرني عليه، وأن يجزيني به ووالديَّ الخير في يوم لا يجزي فيه والد عن ولده. ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

المؤلف

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب خاتم النبيين ﷺ - حديث رقم ٣٥٣٥ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥٥٨/٦. واللفظ للبخاري.
ومسلم في كتاب الفضائل - باب كونه ﷺ خاتم النبيين.

تمهيد

ويتضمن مبحثين اثنين :

المبحث الأول : المقدمات الضرورية التي لابدَّ لدارس القصص القرآني من معرفتها :

أولاً : أهمية القصة القرآنية .

ثانياً : القصة القرآنية .

ثالثاً : هل في القصص القرآني تكرار؟ .

المبحث الثاني : ترتيب القصص القرآني في السور .



المبحث الأول

المقدمات الضرورية التي لابدَّ لدارس القصص القرآني من معرفتها

أولاً : أهمية القصة القرآنية .
ثانياً : القصة القرآنية .
ثالثاً : هل في القصص القرآني تكرار .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

أولاً : أهمية القصة القرآنية

الـدوحـة القـرآنية الباسقة الظلال، الدانية الجنى، ذات الأفنان المختلفة الثمرات؛ هذه الدوحة العميقة الأصل، السامقة الفرع، لا ينتهي ظلها، ولا يذهب رونقها؛ فهي ذات ظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، لذلك كان القرآن كما جاء في الأثر(1) لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق على كثرة الردِّ، وتلك طبيعة في الموضوعات القرآنية جميعها سواء كانت قصصاً أم أحكاماً أم عقائدَ، لذلك كانت هذه الموضوعات لا تضن على طلابها مهما تعددت مشاربهم، ولا تبخل عليهم مهما اختلفت رغباتهم ومطالبهم، فالأدباء يجدون فيها بغيتهم؛ رقـة اسلوب، وسـلاسـة لفظ، وصحـة معنى. وعلماء النفس يجدون فيها من الكوامن والدوافع النفسية، ومن الربط وتداعي المعاني مايوقظ الشعور، ويجلب الانتباه وغير ذلك من القواعد التي عرفت عند أولئك العلماء.

أما علماء الأخلاق (السلوك) فانهم يرقصون طرباً، ويهتفون عجباً؛ مما يجدونه في عرض هذه القواعد، ودقة الضوابط، وصدق الواقع، والكثير الكثير مما تحدث عنـه علماء الاخـلاق في القـديم والحديث. وكذلك علماء العقائد والتشريع، والمفكرون جميعاً كل يجد إن أنصف في هذا القرآن ضالته، ومع ذلك الوضوح، والسطوع الذي يشبه الشمس في شبيبة نهارها؛ فلقد وجدنا من يتصيد في هذه الموضوعات مطاعنَ ومثالب، وما هم ببالغين من ذلك شيئاً الاَّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه. ذلك عام في موضوعات القرآن جميعاً.

---

(1) أخرجه الترمذي في السنن - كتاب فضائل القرآن / باب: ماجاء في فضل القرآن - حديث رقم ٢٩٠٦ - ١٧٢/٥.

والذي نود أن نقفَ عنده من هذه الموضوعات ونخصَّه بالبحث؛ وهو حريٌّ بذلك: القصص القرآني؛ لأن المساحة التي شغلتها القصة القرآنية من كتاب الله كانت مساحة واسعة، مانظن أن موضوعاً آخر كان له ماكان للقصة من نصيب؛ فالقصص القرآني لا يقل الحيز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد قليلاً، فاذا كان القرآن ثلاثين جزءاً؛ فإن القصص يبلغ قرابة الثمانية أجزاء من هذا الكتاب الخالد، وإذا كان المصحف الذي بيدك يبلغ ثمانمائة صحيفة فانك تجد ان القصص يشغل منه مايزيد على المئتين، ولا تعجب من ذلك؛ لأن القصة القرآنية لم تأت لتقرر هدفاً واحداً؛ بل إن هذا القصص كانت له أهدافه الكثيرة وغاياته المتعددة؛ فعلى سبيل الاجمال يهدف القصص القرآني الى تربية نوع الانسان تربية تضمن له خير المسالك ليتبوأ أفضل المدن والممالك، وتحول بينه وبين المنزلقات والمهالك، واذا اردنا أن نفصل بعض التفصيل، فاننا نجد أن القصص القرآني جاء

أولاً: ليعمق العقيدة في النفوس ويبصر بها العقول، ويحيي بها القلوب، ويسلك لتلك القضية المهمة الخطيرة أحسن الطرق إمتاعاً وإقناعاً؛ إمتاعاً للعاطفة، وإقناعاً للعقل، هذه العقيدة بأسسها الكبرى؛ الالوهية والرسالة واليوم الآخر، وكل من هذه الأصول الثلاثة ذو قضايا رئيسة كثيرة؛ فلقد ركزت القصة القرآنية في مقام الألوهية على وحدانية الله، وعدله، وقدرته، وحكمته، وحبه، ووداته لعباده.

وفي مجال الرسالة ركزت القصة القرآنية على الصفات الخيرة للانبياء؛ ليكون للناس فيهم أسوة، وبهم قدوة فهم وان كانوا بشراً إلا أنهم اكرموا بالوحي والرسالة، وكذلك في الحديث عن اليوم الآخر، ومايكون فيه من أحداث ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾، وفي حديثها عن ذلك كله نجد الدليل القاطع، والبرهان الساطع منتزعاً من النفس تارة، ومن الآفاق تارة، وتسلك لذلك كله الترغيب تارة والترهيب أخرى.

ثانياً:ـ السمو بهذا الانسان حتى يمتاز عن الحيوان الذي يشترك معه في بعض الصفات؛ هذا السمو، الذي لا يركز على جانب واحد في هذا الانسان؛

فهو سمو روحي، وخلقي، ونفسي يشعر به الفرد، وتجد به حلاوته ولذته، وهو بعد ذلك سمو اجتماعي تجد الجماعة فيه بغيتها وأمنها وضالتها وفضيلتها، والقصص القرآني يسلك اكثر من اسلوبٍ للوصول بالإنسان إلى هذه النتيجة الطيبة.

ثالثاً:ـ ولا يظنن أحد أن هذا القصص كانت عنايته بالمعنويات فحسب، وإنما ركز كثيراً على الرقي المادي، وأسباب القوة؛ لأن هذه المادية عنصر أساسي رئيس في مقومات هذا الانسان.

رابعاً:ـ كان لهذا القصص عناية خاصة ببيان اسباب الهلاك التي يمكن ان تصيب الأمم والجماعات والأفراد، وقد فصَّل ذلك تفصيلاً عجيباً، وهو يتحدث عن الترف والطغيان، والبطر والظلم، والاستعباد الفكري والإرهاب والسخرية والرضا بالذل إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة المبثوثة في هذا القصص.

خامساً:ـ التركيز على أن التدين الحق لا ينفصل عن الحياة العملية، ولا ينفصم عن واقع هذا الانسان، وانما هو مرتبط به ارتباطاً وثيقاً؛ بل هو جزء منه.

سادساً:ـ كما فصل في اسباب السعادة الروحية فصل كذلك اسباب الرقي المادي؛ حتى تتم السعادة للمؤمنين بهذا القصص العاملين بتوجيهاته وارشاداته.

سابعاً:ـ في هذا القصص كثير من الحقائق العلمية المتعلقة بالكون، والانسان، والحياة والأحياء في السماوات والأرض، والتي تزيدها الأيام وضوحاً وظهوراً.

ثامناً:ـ هذا كله عدا مافي القصة القرآنية من رونق الأسلوب، وبديع النظم، وجمال الصورة؛ مما ترقص له قلوب الأدباء، وعدا مافيها كذلك من المواقف والتحاليل النفسية، والاستنتاجات الكامنة وراء الأحداث التي يجد فيها علماء النفس بغيتهم، وغير هؤلاء واولئك؛ مما يطلع عليه من يتأمل هذه القصص ويتدبره.

لاعجب إذن أن يكون هذا القصص بدعاً مما عرفته الانسانية من هذا اللون في القديم والحديث حتى ذلك القصص الذي جاء في الكتب السماوية نجده

يختلف تماماً عن القصة القرآنية، فأنت تجد القصة في هذه الكتب فضلاً عما فيها من مخالفة لقواعد العلم وقوانين التربية؛ فهي مع ذلك تذكر الله ورسله بما يأباه العقل وتشمئز منه النفس، وماذا اكثر من ان يوصف الله بالندم والبداء[1]، والظهور بصورة البشر -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- وان يوصف الرسل بالكذب والسكر والزنا!!.

اما القصة الأدبية في القديم والحديث فبعضها يقوم على الخيال الذي لا حقيقة له، وبعضها يقوم على تشويه الحقائق وثالث ينحرف به كاتبه عن القيم والمثل والمبادىء. ونظرة إلى كُتَّاب القصة الذين اشتُهروا تجد أن الشذوذ والانحلال الخلقي والإلحاد والتهريج كان الطابع لأكثرهم، هذا عن الكتاب العالميين للقصة؛ اما الكتّاب العرب فهم بين مترجم ترجمة حرفية، أو ناقل للفكرة؛ ليضعها في اسلوبه وقالب من الكلمات العربية، وقليل أولئك الذين ساروا بالقصة مسارها الصحيح نهجاً وموضوعاً مستوحين ذلك كله من بيئتنا وقيمنا[2].

---

(١) أي تبدو له الأمور بعد أن كان يجهلها.

(٢) من الأدباء الأجانب صامويل بتلر (١٨٣٥-١٩٠٢) من قادة الفكر الانجليزي لكننا نرى من مبادئه التشكيك في الماضي والتحذير من المستقبل والسخرية من الأديان عامة والمسيحية خاصة أما آراؤه ففيها تقلب وشذوذ وانحراف فهو يقول: «أن الجريمة مرض يجب أن لايعاقب عليه القانون والذي يجب أن يعاقب عليه القانون فعلا هو المرض مهما كان وراثياً».
وهناك تشارلز ديكنز (١٨١٢-١٨٧٠) الذي كان يعدُّ أعظم القصاصين في عصره باعتراف النقاد انفسهم غير أنه كان عصبي المزاج يحقد على المجتمع لذا نراه يسهب في الحديث عن جرائمه ومع ذلك كان كثير العيوب في كتابته فقصصه مليئة بالمتناقضات، وهو يطنب حيث يمكن الإيجاز، وهو في إطنابه يصل إلى حدِّ الثرثرة التي لا تجدي، وهناك «ابتمن سنكلر» في الربع الثاني من القرن العشرين: سمومه التي يبثها في كتبه لا تخرج عن الترويج للشيوعية ويدعو في كل سطر من كتاباته اليها، وغيرهم الكثير.

ومن الأدباء العرب محمود طاهر لاشين (ت١٩٥٤م) من ابرز أعضاء المدرسة الحديثة الذين أثروا في غيرهم تأثيراً كبيراً، وقد كان متعلقاً بالقصص الغربي الذي يصور حياة الأجانب بمتناقضاتها ومآسيها ومع اهتمامه بالاصلاح أساء شغفه بالادب الغربي إلى الحياة العربية ففضلاً عن أنه كان يكتب الحوار باللغة العامية ويستعمل في بعض الأحيان الاساليب العادية كان يبث في الناس بين حين وآخر سموماً تدفعهم إلى الإثم من حيث لا يشعرون.

ستبقى القصة القرآنية اذن الشعلة التي تضيء لهذا الانسان؛ لتصل حاضره بماضيه، وستبقى النفحة الربانية التي تشرق بها النفس وتعمر القلب، وستبقى الوثيقة الوحيدة الصادقة الخالدة التي يطمئن الانسان لمصداقيتها، وستبقى النمط السويَّ، الذي إن ترسمناه حقاً فَسيقينا سلبيات التشويش والتهويش والتشويه.

تلك بعض الحقائق عن القصة القرآنية؛ من شأنها أن تبعث في النفس الشوق للتفصيل، وان تجعل النفس تتشوق للوقوف مع الجزئيات والأحداث، ونرجو أن تنعم نفوسنا -ونحن نعيش مع القصة القرآنية- بمعرفة هذه الحقائق وغيرها، إلا أن الموضوع الذي نركز عليه كثيراً، والذي خصص له هذا الكتاب، هو موضوع التكرار؛ التكرار في القصص القرآني.

فالناظرون في كتاب الله تعالى من اجل تلاوته وتدبره، أو بهدف التشكيك والطعن يجدون لأول وهلة ان هناك قضايا ذكرت اكثر من مرة، وفي اكثر من موضع كالقصص وموضوعات العقيدة وبعض الجمل والآيات، وسَمَّوا ذلك تكراراً.

ومع ان إجماعهم على هذه التسمية، الا انهم اختلفت فيه مذاهبهم وتعددت مشاربهم، وتلك طبيعة في احوال الناس، بل هي سنة من سنن الله في هذا المجتمع البشري؛ فالكثرة الكثيرة من المتدبرين رأوا أن في هذا التكرار سحرُ بيان، وتثبيت بنيان، فعدُّوه بلاغة واعجازاً ووجدوا فيه منهجاً قويّاً، وهدفاً عظيّاً من مناهج التربية واهدافها، وحاولوا ان يبرهنوا على ذلك ببراهين مما عرفته العرب في كلامها شعراً ونثراً، وأن يقيموا عليه الأدلة مما قرره علماء النفس وعلماء الاجتماع واساطين التربية، وذووا الاختصاص في فن الاعلام والدعاية.

= وهناك نجيب محفوظ ومحمد عبدالحليم عبدالله ويوسف السباعي وغيرهم وهؤلاء بعضهم - حتى الآن - يكتب بالعامية بل يدافع عنها ولا يزالون يختلفون في قضايا مثل العامية والفصحى، والتخطيط والعشوائية، والمادية والمثالية، والفوضى والحرية، والكم والكيف، والفرد والمجتمع، ثم هم لم يتفقوا على منهج خاص أو عام يوجه الإنسانية عن طريق القصة الأدبية إلى حل مشكلاتها المختلفة».

انظر «القصص القرآن رسالة مقدمة من عبده ابراهيم محمد بلبول معيد بقسم التفسير كلية أصول الدين جامعة الأزهر لنيل درجة الدكتوراه في التفسير ص١٣١-١٤٦.

وفئة قليلة عميت او تعامت هيمن عليها الحقد فعدَّت هذا مثلبة ومطعناً في كتاب الله، وهؤلاء لم يظهروا الا بعد أن فسد الذوق البياني، وضعفت السليقة العربية؛ لذا رأينا أن هذه القضية لم تظهر مبكرة، فلم نسمع شيئاً عنها حتى من اعداء القرآن الذين كانوا ذوي سلائق سليمة في اللغة، بل على العكس من ذلك وجدنا ان هذا القرآن يملك عليهم كل شيء وان لم يؤمنوا به، ولكن هذه القضية ظهرت فيما بعد حينما فسد المزاج اللغوي، واجتمع الطاعنون على دين الله من كلِّ صوب، وتألبوا حسداً على دين الله؛ فبدأ الحديث عن شبهة التكرار. هذا وقد شمَّر العلماء عن سواعد الجدِّ ليردوا إلى النحور الظالمة سهام الحقد؛ فبينوا ان اللفظ حينما يكرر في الحس فإنما يقرر في النفس.

وعرض المفسرون والكاتبون في علوم القرآن والدراسات القرآنية لهذه القضية فلم يألوا جهداً في دراسة هذه القضية، ولعلّ من أقدم الذين عرضوا لقضية التكرار عرضاً موجزاً مركزاً امام اهل السنة اللغوي ابن قتيبة:-

قال رحمه الله: «واما تكرار الانباء والقصص، فان الله تبارك وتعالى انزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة بفرض بعد فرض، تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظ بعد وعظ تنبيهاً لهم من سِنَةِ الغَفْلَةِ وشحذاً لقلوبهم بتجدد الموعظة، وناسخٍ بعد منسوخ؛ استعباداً لهم، واختباراً لبصائرهم يقول الله عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا، لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾»(١).

ثم يقول: «وكانت وفود العرب تردُ على رسول الله ﷺ للإسلام فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم. وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم؛ فأراد الله بلطفه ورحمته ان يشهر هذه القصص في اطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

---

(١) تأويل مشكل القرآن ابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ص١٨٠.

وليست القصص كالفروض؛ لأن كتب رسول الله ﷺ كانت تنفذ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة، وعددها وأوقاتها، والزكاة وسنتها، وصوم شهر رمضان وحجُّ البيت، وهذا مالاتعرف كيفيته من الكتاب، ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، وكان هذا في صدر الاسلام قبل إكمال الله الدين، فلما نشره الله عزَّ وجل في كل قطر، وبثَّه في آفاق الأرض، وعلّم الأكابر الأصاغر، وجمع القرآن بين الدفتين :ـ زال هذا المعنى، واجتمعت الأنباء في كل مصر، وعند كل قوم»[1].

ثم جاء إمام آخر من أئمة أهل السنة اللغوي المفسر المحدِّث، ابو سليمان الخطَّابي (٣١٩هـ-٣٨٨) في رسالته «بيان إعجاز القرآن» فبعد أن بيَّن وجوه إعجاز القرآن -كما يراها- كرَّ على شبه المعارضين والمعاندين منها شبهة التكرار وهو مايعنينا هنا.

فقال رحمه الله: «وأما ماعابوه من التكرار؛ فإن تكرار الكلام على ضربين: احدهما مذموم، وهو ماكان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول؛ لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول، ولغواً، وليس في القرآن شيء من هذا النوع.

والضرب الآخر ماكان بخلاف هذه الصفة؛ فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه فيه أو بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وانما يحتاج إليه ويحسُن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها. وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على العمل: عجل عجل، ارم ارم، كما يكتب في الأمور المهمة على ظهور الكتب: مهم مهم مهم ونحوها من الأمور وكقول الشاعر:

هلَّا سألــتَ جُموعَ كِـنــ ـدَة يَوْمَ وَلَّــوا أين أينــا

---

(١) ص ١٨١، ١٨٢.

وقول الآخر:ـ

يال بكر أنشِروا لي كُلَيْبـاً
يال بكرٍ أيْنَ أيْنَ الـفَـرارُ

وقد اخبر الله عز وجل بالسبب الذي من اجله كرر الأقاصيص والاخبار في القـرآن فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وصّلنَا لُهم القول لعلَّهم يتذكَّرونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَصرَّفْنا فيه من الوعيدِ لعلَّهُم يتقونَ أو يُحدث لهم ذكراً﴾[1].

مما سبق ندرك أن أبـا سليمان -رحمه الله- يحدد شرطين اثنين لكي يكون التكرار مذموماً:

أحدهما: ان لايكون هناك حاجة من التكرار.

وثانيهما: أن لا يكون في التكرار زيادة، اما اذا كان في التكرار زيادة على ماذكر أولاً، وكان في الأمور المهمة التي تعظم العناية بها؛ فان ذلك تكراراً محموداً -كما يقول الخطابي رحمه الله-، ونحن اذ نوافق الشيخ من جهة، لكننا نخالفة من جهة أخرى، وسنرجيء مناقشته بعد ان نستمع لعالم آخر هو الإمام الزركشي -رحمه الله- فلقد أشار في كتابه البرهان الى التكرار في معاني القرآن بعامة، والى التكرار في القصـة بخاصة، فبعد ان بيَّن ان التكرار اسلوب من أساليب العرب، وان الكلام حينما يكرر فإنه في النفوس يقرر، وعاب على الذين ينكرونه عرَّفه بقوله: «وحقيقته اعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنىً، خشية تناسي الأول لطول العهد به؛ فان اعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه كقوله تعالى: ﴿قُلْ إنِّي أُمِرْتُ أن أعبُـد اللهَ مخلصاً له الدِّينَ، وأُمِرْتُ لأَنْ أكونَ أوَّلَ المُسْلِمينَ، قُلْ إنِّي أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربِّي عَذابَ يَوْمٍ عظيمٍ قُلْ الله أَعْبُدُ مُخْلِصَاً له ديني فاعْبُدُوا ماشِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ (الزمر: ١١-١٥)

فاعاد قوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْبُدُ مُخلصاً له ديني﴾ بعد قوله ﴿قُلْ إنِّي أُمِرْتُ أنْ أَعْبُدَ اللهَ مخلِصاً لَهُ الدِّين﴾ لَا لتقرير الأول، بل لغرض آخر، لأن معنى الأول: الأمر

(١) ثلاث رسـائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، رسالة الخطابي بيان إعجاز القرآن ص٥٢، ٥٣.

بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله والاخلاص له فيها، ومعنى الثاني: انه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والاخلاص... واعلم انه انَّما يحسُن سؤال الحكمة عن التكرار اذا خرج عن الأصل، اما إذا وافق الأصل فلا؛ ولهذا لا يتجه سؤالهم: لِمَ كرر «إياك» في قوله ﴿إِيَّاكَ نعبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعين﴾(١).

وبعد هذا التعريف ذكر فوائد التكرار وفي مقدمتها التأكيد، ولكنه قال بعد ذلك إن التكرار أبلغ من التأكيد، وبعد ان عدَّد فوائد التكرار كما يراها عرض للتكـرار في القصص القرآني وهو مانريده هنا. ومع ان ماذكره قد يكون بعضه متداخلاً في بعض وقد تكون بعض الأسباب التي ذكرها أكثر وجاهة من بعضـه الآخر إلا أن فيه فوائد يجمل للقاريء أن يقف عليها، لذا رأينا أن ننقل كلامه كما جاء.

قال رحمه الله: «ومنه تكرار القصص في القرآن، كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصـة موسى وغـيره من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه وقال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمس وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية. ا.هـ. وانما كرر لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:-

احدها: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السـلام، وذكـرها في موضع آخر ثعباناً، ففائدته ان ليس كل حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء ان يكرر احدهم في آخر خطبته او قصيدته كلمة لصفة زائدة.

الثانية: ان الرجل كان يسمع من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده اخرون يحكون عنه مانزل بعد صدور الأولين، وكان اكثر من آمن به مهاجرياً، فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون فيها إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين، وهم الحاضرون وعبَّر عن هذا ابن الجوزي وغيره.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي ٣/١٠، ١١.

الثالثة: تسليته لقلب النبي ﷺ مما اتفق للانبياء مثله مع اممهم قال تعالى: ﴿وكُلًا نَقُصُّ عَلَيْكَ من أَنْباءِ الرُسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]

الرابعة: ان ابراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، واساليب مختلفة، لا يخفى مافيه من الفصاحة.

الخامسة: انَّ الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام، فلذا كررت القصة دون الأحكام.

السادسة: ان الله تبارك وتعالى انزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد ﷺ ثم بين واوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، اعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأيِّ نظم جاء وبأي عبارة عبروا قال ابن فارس:- وهذا هو الصحيح.

السابعة: انه لما سخر العرب بالقرآن، قال: ﴿فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿فأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ فلو ذكر قصة آدم مثلاً في موضع واحد واكتفى بها لقال العربي بما قال الله تعالى: ﴿فأتُوا بِسُورةٍ من مثله﴾، «ايتُونا أنتُمْ بِسُورةٍ مِنْ مِثْلِه»؛ فانزلها سبحانه في تعداد السور دفعاً لحجتهم من كل وجه.

الثامنة: ان القصة الواحدة من هذه القصص؛ كقصة موسى مع فرعون، -وان ظُنَّ انها لا تغاير الأخرى- فقد يوجد في الفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ؛ فان كل واحدة لابدَّ وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد منه، لايوقف عليه الا منها دون غيرها؛ فكأن الله تعالى فرَّق ذكر مادار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متكررة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ماوجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة، من انفراد كل قصة منها بموضع، كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصَّة، فاجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة:-

منها: ان التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة، ولا أحدث مللًا، فباين بذلك كلام المخلوقين.

ومنها: انه البسها زيادة ونقصاناً، وتقديماً وتأخيراً؛ ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات.

ومنها: ان المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ -لما فيه من التغيير- ميلاً إلى سماعها، لما جبلت عليه النفوس من حبِّ التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في اخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد، وقد كان المشركون في عصر النبي ﷺ يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرَّفهم الله سبحانه ان الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع على كلامه عدد»[1].

ومما سبق نجد أن الخطابي والزركشي متفقان على أن ماذكر في كتاب الله تعالى اكثر من مرة كان في كل مرة زيادة معنى، ومع ذلك سمياه تكراراً، ونعجب من الزركشي اذ عرَّف التكرار؛ بانه اعادة اللفظ أو مرادفه، وهو في موضع آخر من كتابه، ينكر الترادف في كتاب الله تعالى، ولكننا نعترف له بلمحة طيبة جيِّدة، وهي ان ماذكر اكثر من مرة لتقرير معنى واحد هو الذي يسمى تكراراً، اما اذا كان لتقرير معنى آخر، فليس من التكرار في شيء، وكذلك قوله إنه يسأل عن حكمة التكرار لِمَ خرج عن الأصل؛ أي إذا صعب علينا ان ندرك الحكمة من ذكر اللفظ اكثر من مرة، اما مالم يخرج عن الأصل فلا يسأل فيه عن حكمة التكرار كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نستعينُ﴾ نحن اذن لسنا مع الخطابي في عدِّه من التكرار ماكان فيه زيادة معنى، ولسنا مع الزركشي في تعريفه التكرار بأنه اعادة اللفظ أو مرادفه.

والتكرار -كما نراه- هو اعادة اللفظ نفسه في سياق واحد، ولمعنى واحد، فإذا لم يتوفر هذان الشرطان، أي إذا لم يكن المعاد اللفظ نفسه، أو اذا ذكر اللفظ اكثر من مرة ولكن لكل موضع سياقه الخاص ومعناه الخاص؛ فانَّ ذلك لا نسميه تكراراً

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ص٢٥-٢٨.

أبداً. هذا هو التعريف الدقيق للتكرار كما يظهر لنا.

ولقد عرض بعض الكاتبين المحدثين لقضية التكرار، ومن هؤلاء الأستاذ عبدالكريم الخطيب في كتابيه «اعجاز القرآن» و «القصص القرآني» كما عرض لها الأستاذ محمد قطب في كتابه «الدراسات القرآنية» وكانت النتائج التي يمكن أن تُستفاد من هذه الدراسات ان التكرار قد يكون للتأكيد وماجاء منه في كتاب الله تعالى فإنَّ ماقصد من التأثير في النفوس وبخاصة إذا كانت الموضوعات المكررة موضوعات مهمة؛ كالعقيدة التي اراد القرآن ان ترسخ في النفوس، وتثبت في اعماق القلوب، -وهذا الذي قرره الخطابي كما رأينا من قبل- ويذكر الأستاذ محمد قطب: ان مافي القرآن مما يظن أنه تكرار، انما هو متشابه، ويمثله بثمار الجنة، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة من كتاب الله. أما الأستاذ الخطيب فلقد فصَّل في ما يخصُّ القصة القرآنية من التكرار مبيِّناً بعض الأمور التي توهم التكرار في القصص القرآني. ونود هنا ان نعرض لهذه القضية من الزاوية التي تهمنا في هذا البحث مستلهمين من القرآن الكريم مايفتح به علينا ربنا، وهو الفتاح العليم.

وبادىء ذي بدء؛ فإننا لا ننكر على الذين ذهبوا لوجود التكرار في القرآن معللين هذا بأنه لا يخرج عن الاساليب التي عرفتها العربُ؛ وبأنه إنما يراد به التأثير على النفوس، حتى يقرر فيها مايكرر، اقول: لا ننكر على اولئك؛ وليس معنى هذا اننا نتفق معهم فيما ذهبوا إليه، وانما نؤثر ان نرجيء الحكم بعد أن نعرض لهذه القضية من جميع جوانبها فنقول وبالله التوفيق:ـ

الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم مع كثرتها نجملها في هذه الأمور الرئيسة الثلاثة:ـ

١ـ الأحكام: وتشمل مااصطلح عليه فيما بعد بالعبادات، والمعاملات، والاحوال الشخصية، والحدود.
٢ـ العقيدة: وتشمل الألوهية، والرسالة، واليوم الآخر.
٣ـ واما الموضوع الثالث فقصص الأنبياء عليهم السلام، وأخبار الأمم الماضية.

وقد أجمعوا على أن لا تكرار في آيات الأحكام، وانما الذي يمكن ان يكون

فيه تكرار، هما الموضوعان الأخيران آيات العقيدة والقصص. هذا من حيث الموضوع.

أما من حيث اللفظ فقد قالوا: إن هناك جملاً أو آياتٍ ذكرت أكثر من مرة؛ مما يوجب القول بأنها مكررة. فالتكرار عند هٰؤلاء هو أن يذكر الموضوع، أو الجملة أو الآية اكثر من مرة، ولسنا معهم في هذا التعريف. والذي يهمنا هنا موضوع القصة، اما الموضوعان الآخران؛ وهما: آيات العقيدة، والتكرار في الألفاظ؛ فقد ضمناها كتابنا «نظرات في اعجاز القرآن».

ثانياً: القصة القرآنية

ليس غرضنا أن نتحدث عن القصة حديثاً مسهباً مستفيضاً، وعن مقارنة القصة القرآنية بما يحكيه المحدثون عن عناصر القصة الأدبية، ومكوناتها، والمقومات الأساسية الرئيسة، التي لا بد للقصة ان تشتمل عليها، وتتكون منها؛ إذ ذاك ليس من غرضنا اولاً، واما ثانياً: فلأننا لسنا مولعين، ولا مقتنعين كذلك بهذا المنهج الذي تطبق فيه القواعد النقدية للقصة في الأدب الحديث على القصة القرآنية، فهذه القواعد النقدية لَيْست ثابتة الأصول، بل انها قد لا تعمر كثيراً، ولا أدلَّ على ذلك من أنهم كانوا يرون أن كل قصة لابدَّ أن تكون مشتملة على أمور ثلاثة: العرض، والعقدة، والحل. ثم تغيرت تلك النظرة لمقومات القصة فلا مانع أن تكون هناك قصة دون عقدة، او دون حل كذلك.

على أن القرآن الكريم معجز في كل ماتحدث عنه من قصص وغيره، ولقد أدَّى التزام المنهج في القصة الحديثة وتطبيق ذلك على المنهج القرآني إلى منزلقات، وانحرافات عند بعض اولئك الذين حاولوا مثل هذه المحاولات[1].

هذا وسنقصر الحديث هنا عن القصة القرآنية من الجهة التي خصص لها هذا الكتاب، وهو موضوع التكرار، ونحب أن نبين أولاً أن القصص القرآني لم يكن الهدف منه قضية السرد التي تعني المؤرخين، وانما تُتلمس فيها العبر، ويبحث فيها

---

(١) البيان القرآني – الدكتور محمد رجب البيومي ص٢٠٠ ومابعدها.

عن موضع العظة. فهي لما يهدف إليه علماء الاجتماع، وعلماء النفس أقرب مما يقصده علماء التاريخ.

والقصص القرآني صدق كله لا ينبغي أن يرتاب فيه مرتاب؛ لأنه إنما ذكر في هذا الكتاب الذي لا ريب فيه: ﴿ماكانَ حَدِيْثاً يُفتَرَى ولكِنْ تصديقَ الذي بَيْنَ يَدِيهِ وتفصيلَ كُلِّ شيءٍ، وهُدَىً ورَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤمنون﴾، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بالْحَقِّ﴾ ليس إذن كما ادَّعى المتخيلون الذين رأوا ان عنصر الواقعية، ليس من الضروري أن يتحقق في هذا القصص، وكذلك لا ينبغي أن نعدل بالقصص القرآني عن ظاهره فنحمله على التمثيل، فنحن لا نهرع إلى التمثيل إذا كان الحمل على الظاهر ممكناً[1]. فالقصص القرآني واقعي من جهة، ولا يجوز أن يحمل على غير ظاهره من جهة أخرى.

ثالثاً: هل في القصص القرآني تكرار:-؟!

لانحب أن نتعجل الاجابة عن هذا السؤال، نرجئه حتى نلم بالموضوع من جميع الجهات، ولا بد أن نقرر هنا مايلي:-

١- لم تلتزم القصة القرآنية طريقاً واحداً من حيث الطولُ والقصرُ والاجمالُ والتفصيلُ، فهناك القصة المفصلة: كما في قصة موسى -عليه السلام- في سورة الأعراف، وقصة نوح -عليه السلام- في سورة هود.

وهناك القصة المجملة: كما في قصة نوح في سورة الأعراف، وقصة موسى في سورة هود؛ فلقد اجملت كل من السورتين مافصلته الأخرى.

كذلك سورة يونس فصلت بعض التفصيل في قصة موسى -عليه السلام-، واجملت في قصة نوح -عليه السلام-.

٢- ان كل قصة قرآنية مجملة أم مفصلة، قصيرة أم غير قصيرة، جاءت تفي بالغرض الذي سيقت من أجله، فليس قصر القصة يشعر القاريء بشيء من النقص؛ بل ربما يذكر في القصة القصيرة مالا يذكر في غيرها، ولعل خير مثال على ذلك ماذكرته قصة نوح في سورة العنكبوت -كما سنعرف ذلك ان شاء الله-.

---

(١) سنعقد ان شاء الله مبحثاً في آخر الكتاب نرد فيه على الشبهات التي أثيرت حول القصة.

٣ـ ان بعض القصص القرآني لم يذكر الا مرة واحدة، وبعضـه الآخر ذُكر أكثر من مرة؛ ولعلنا -ونحن نقرأ هذا القصص- ندرك السبب في ذلك، فالقصة التي ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله كانت ذات صلة وثيقة بقضية الدعوة والدعاة إلى الله تعالى.

أما التي ذكرت مرة واحدة فمع سمو الحقائق التي قررتها، ومافيها من مناهج تربوية، وغايات رائدة، الا أنها لم تكن تتحدث عن مجال الدعوة، وعما كان بين الأنبياء -عليهم السلام- واممهم، وما لاقاه هؤلاء من اولئك، انما كان حديثها في مجالات اجتماعية، وجوانب انسانية، وقيم خلقية تمد الباحثين والعلماء بقبس لا يخبو على مدى الدهر.

وهذا الضرب من القصص -اعني الذي لم يذكر كثيراً في كتاب الله تعالى- يظن البعض لأول وهلة أنه قليل إذا قيس بغيره، مما ذكر مرات كثيرة، لكن الأمر على العكس من ذلك، فقصة يوسف -عليه السلام- لم تذكر الا مرة واحدة، كذلـك قصـة موسى -عليه السـلام- مع العبـد الصالح التي جاءت في سورة الكهف، وقصة موسى مع قومه في دخول الأرض المقدسة التي جاءت في سورة المائدة، ومع قومه في ذبح البقرة. ومن هذا القبيل ماجاء في شأن ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام، حيث ذكرتا مرتين، احداهما: في مكة في سورة مريم، والأخرى: في المدينة في سورة آل عمران، وماجاء في شأن يونس -عليه السلام-، وماكان من خبر أيـوب وداود وسليمان عليهم صلاة الله وسلامه؛ فلقد ذكر خبر أولئك مفرقاً على عدة سور، حيث خصت كل سورة بجانب يتلاءم مع موضوعها وشخصيتها.

ولعـل القصة الوحيدة التي خرجت عن هذه القاعدة فذكرت أكثر من مرة وليس لها صلة مباشرة بالدعوة والدعاة؛ قصة آدم، ولكن اذا عرفنا ان قصة آدم أبي البشر جاءت تحدثنا عن النواحي الفطرية والجوانب الرئيسة في حياة الانسان، وعن الاستعدادات والغرائز التي تتكون منها طبيعته، اذا عرفنا ذلك ادركنا السر الذي ذكرت من أجله قصة آدم في اكثر من سورة.

فالقصص الذي ذكر اكثر من مرة، قصص أولئك الأنبياء الذين تحملوا المشقة

ولاقوا العنت، وهم بدعون اقوامهم كنوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام.

على أن في القرآن الكريم قصصاً لغير الأنبياء، او لمن اختلف في نبوتهم لم تذكر الا مرة واحدة في كتاب الله؛ كقصة ذي القرنين، وماكان من حديث لقمان لابنـه، ونبأ ابني آدم وقصة اهل الكهف وخبر المائدة التي طلبها الحواريون ونبأ اصحاب الجنة الذي جاء في سورة (ن).

فهـذه القصص جميعهـا مع ماتعطيه من قيم، ومع كثرة مافيها من عظات وفوائد، ومع مايستنتج منها من قواعد كثيرة في الاجتماع والتربية والسياسة والحكم وغير ذلك من المجالات الحيوية المفيدة التي اراد الله تبارك وتعالى لهذه الأمة أن تفيد منها. أقول: مع ماتعطيه هذه القصص من ذلك كله الا انه اكتفي بذكرها مرة واحدة؛ لانها تؤدي الغرض الذي سيقت من أجله من غير أن تذكر مرة أخرى.

٤ـ إن بعض السور القرآنية ذكر فيها أكثر من قصة من هذا اللون، أعني اللون الذي لم يذكر الا مرة واحدة، فاذا نظرنا لهذا القصص في هذه السورة وجدناه ذا ترتيب بديع، عجيب الشأن؛ إذ هو يكوِّن منهجاً متكاملاً لما ينبغي ان يكون عليه المسلمـون افـراداً وجمـاعات، ولنأخذ سورة الكهـف مثلاً؛ فلقد انفردت بقصص ثلاث لم تذكر في سواها وهي قصة أهل الكهـف، وقصة موسى مع العبد الصالح، وقصة ذي القرنين، والذي يبدو لنا -والله اعلم بما ينزل- أن ذلك إيحاء للمسلمين ليدركوا العناصر الرئيسة التي لابد أن تتوفر في شخصيتهم؛ فقصة أهل الكهف تمثل عنصر العبادة والعقيدة، ولما كان اكثر مايزلزل هذه العقيدة في النفوس ويفسد هذه العبادة. امران اثنان هما: طغيان المال واغواء الشيطان ذكرا بعد هذه القصـة مبـاشرة حتى يستـطيع المسلمـون أن يحصنـوا عقـائدهم ويحافظوا على عباداتهم، فذكرت قضية المال وما يسببه من طغيان في قوله سبحانه: ﴿واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنـــاب﴾ (الكهف ٣٢)، وذكر الامر الآخر وهو اجتيال الشيطان للناس في قوله سبحانه: ﴿وإذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ (البقـرة ٣٤)، وبعد ذلك ذكرت القصة الثانية، وهي قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع العبد الصالح، وهذه القصة انما تبين عنصراً آخر لا بد

أن يتوفر للمسلم وهو عنصر العلم، ذلك ان العبادة بدون علم لا يأمن صاحبها على نفسه من أن يضل ويطغى، وتزلَّ قدم بعد ثبوتها، ولعل في حديث جريج الذي أخرجه الإمام مسلم[1] عن سيدنا رسول الله ﷺ مايثبت ذلك، فلقد جاء أن جريجاً كان عبداً واتخذ صومعة له بعيداً عن الناس، وكانت أمه يهفُو إليه قلبُها، فتذهب لرؤيته؛ فتجده يتنفل في صلاته وتناديه فيأبى أن يكلمها. ففعل ذلك أكثر من مرة، وفي المرة الثالثة دعت عليه أن لا يميته الله حتى يريه وجوه المومسات، واستجاب الله الدعوة، وفي هذا الحديث تقرير لفضل العلم وأن العبادة وحدها لا تفي بما يريده الانسان من سعادة فلقد كان جريج عابداً بغير علم، ولقد كانت امه ذات علم ومعرفة فلم تدع عليه أن يفتن.

أما القصة الثالثة في سورة الكهف فهي قصة ذي القرنين؛ وهي تمثل العنصر الثالث في حياة المسلمين، وهو عنصر الجهاد، وهكذا رأينا هذه السورة الكريمة تحدثنا عن القضايا الاساسية التي لابد للمسلمين منها: العقيدة والعلم والجهاد[2].

٥ـ ان القصص الذي ذكر أكثر من مرة في كتاب الله لانجد منه قصة واحدة ذكرت في سورتين اثنتين بطريقة واحدة، بل نجد كل قصة جاء فيها مالم يجيء في الأخرى، ففي كل قصة من المشاهد والجزئيات والأحداث ماتفردت به السورة التي ذكرت فيها هذه القصة.

صحيح إن هناك قضايا مشتركة اقتضاها السياق، ولكن هذ القضايا المشتركة لم تأت على أسلوب واحد.

ولكي نصل إلى نتيجة حاسمة في هذا الأمر؛ فلا بد أن نلم به من زوايا ثلاث:ـ

أولاً:ـ من حيثُ الألفاظُ والتراكيب التي ذكرت في كل قصة.

ثانياً:ـ من حيثُ الموضوعاتُ والجزئياتُ والمشاهد والمواقف الموزعة على السور التي ذكرت فيها القصة.

(١) كتاب البر والصلة والآداب باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها رقم الحديث ٢٥٥ ١٩٧٦/٤.

(٢) ونحسب أنها من اجل هذه الحِكَم يُسن قراءتها يوم الجمعة.

ثالثاً:ـ من حيثَ اختصاص كل سورة بما جاء فيها من هذه المواقف والمشاهد.

ولا بد أن ننبه هنا وقبل أن نواصل المسيرة في كتابنا إلى أمْرٍ مهم أهمله كثيرون من الباحثين الذين عالجوا قضية القصة القرآنية. وهو أن الباحث في القصة كي تكـون نتائجه مقبولة، وأحكامه صحيحة، لابدَّ له من أن يقوم بدراسته دراسة موضوعية، وهذه لاتتم له إلا حينما تكون ركيزته الأولى بحث القصة من حيثُ ترتيبُ النـزول ليعـرف ما الذي نزل أولاً، وما الذي نزل بعد ذلك. هذه هي الدراسة الموضوعية التي يمكننا أن نصدر بها أحكاماً صحيحة، وان نصل بها إلى نتائج منطقية، والحق أن هذه الركيزة ليست لدراسة القصة فحسب، بل لابد منها إذا أردنا أن نتناول أي موضوع من موضوعات القرآن الكريم سواء كان ذلك في الأحكام أم في العقيدة أمْ في القصة، وأضرب مثلاً لذلك: إذا أردنا دراسة آيات الـرِّبـا في الكتـاب الكـريم، ولم نلتزم بالقاعدة التي المحت إليها، وهي دراسة المـوضـوع حسب ترتيب النزول، بل أخذناه حسب ترتيب السور الكريمة في المصحف فاننا سنأخذ أول آية تحدثت عن الرِّبا في سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿الَّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ﴾ (آية ٢٧٥)، ثم نأتي للآية التي بعدها وهي في سورة آل عمران: ﴿ياأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاتَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾ (آية ١٣٠)، والذي سينتج عن ذلك أمر خطير؛ لأنَّ آية البقرة مطلقة، والآية الثانية مقيدة بالأضعاف المضاعفة، فيحمل المطلق على المقيد، ولا يحرم الربا إلا إذا كان أضعافاً مضاعفة، وهذا ماذهب إليه بعض المنحرفين.

وكذلك آيات الجهاد حينما نأخذها حسب ترتيب السور في المصحف، كما فعـل كثير من الكـاتبـين المحـدثين، فكانت النتائج التي توصلوا إليها حسب طريقتهم أن أصـدروا أحكـامهم بأن الجهـاد في الإسـلام دفـاعي، ولا يجوز للمسلمين أن يبدأوا في القتال مهما كان حاله، وذلك لأنهم أخذوا بعض الآيات من حيث ترتيبهـا في المصحف كقـولـه تعـالى: ﴿وَقَـاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ الَّـذينَ يُقَـاتِلُونَكُم﴾ (البقـرة: ١٩٠)، فجعلوها الأساس، وحملوا عليها كل مانزل من الآيات بعد ذلك.

دراسة القصة إذن لابد أن يُراعى فيها هذا الأمر، وسنرى مايوصل إليه اتباع هذه الطريقة من نتائج سليمة وأحكام قويمة[1].

ولنرجع إلى ماخططناه لبحثنا في القصة القرآنية من حيثياتها الثلاث، مستمدين من الله العون والتوفيق، ضارعين أن يلهمنا الصواب.



---

(١) ولقد سلك الأستاذ سيد قطب رحمه الله الطريقة الموضوعية في دراسته لقصة موسى عليه السلام، والحق أن ماكتبه في التصوير الفني في القصة على قلة صفحاته كان الأساس الذي أفاد منه الكثيرون من بعده وبحثوا في القصة جوانب متعددة الا ان الكثير منهم لم يذكر المصدر الذي نقل عنه، وهذا مما يؤسف له، وقد بسطنا هذه القضية ودللنا عليها في كتاب «نظرات في إعجاز القرآن».

المبحث الثاني

ترتيب القصص القرآني في السور

ترتيبُ القَصص القرآني في السور

هناك قصص لغير الأنبياء ذكر في العهد المكي ، لم يذكر سوى مرة واحدة كخبر أصحـاب الجنة: ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مصبحينَ﴾، ومنا تقدم لنا من قبل كقصة أصحاب الكهف وذي القرنين وسيظهر لك أيها القاريء الكريم :-

(١) أن بعض القصص القرآني موزعٌ على القرآن مكيه ومدنيه، وإن كانت مساحته في العهد المكي أوسع منها في العهد المدني.

(٢) أن هناك سوراً قرآنية لم يذكر فيها شيء من القصص ،كما ان هناك سوراً ذكرت فيها قصة واحدة، ولو أننا استقرأنا القرآن الكريم لوجدنا أن نصف السور المكية تقريباً لم تخل من ذكر هذا القصص، سواء كان ذلك موجزاً أم منفصلاً.

وأما السور المدنية فإن بضع سور فقط هي التي ذكر فيها شيء من القصص بإيجاز، اللهم إلا إذا نظرنا إلى ما ذكر من أخبار بني إسرائيل في سورة البقرة.

(٣) إن هذا القصص كان موزعاً توزيعاً موضوعياً على السور القرآنية، فسورة آل عمران مثلاً فصِّل فيها نبأهم، وسورة مريم فصِّل فيها نبأ إبراهيم وبنيه، وذريته ومنهم مريم - بالطبع - وقصص الأنبياء العرب فصل أكثر ما فصل في السورة المكية، هذا على سبيل الإجمال.

أما من حيث التفصيلُ فنقول:

إن السبع الطوال التي تبدأ بسورة البقرة وتنتهي بسورة براءة كانت اكثر سورة فيها نالت نصيباً من القصص **سورة الأعراف**؛ وذلك لأنها جاءت تعالج موضوع العقيدة من حيثُ تاريخُها البعيد، لذلك نجدها ابتدأت بقصة آدم، ثم ذكرت قصة نوح بعد فصول كثيرة من الآيات، وبعد قصة نوح مباشرة ذكرت قصة هود

وصالح ولوط وشعيب، وموسى مع فرعون ومع بني إسرائيل، ونلحظ أن القصص في سورة الأعراف عدا قصة آدم كانت جميعها حديثاً عن الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وما لقي هؤلاء من أولئك من شدة وعنت.

أما السورة المكية الثانية في السبع الطوال فهي **سورة الأنعام**، وهذه جاءت تتحدث عن العقيدة من حيث ردُ الاقتراحات التي اقترحها المشركون، وعلاج الشبهات التي أثاروها، وما يتصل بذلك من أدلة الوحدانية والرسالة والبعث، ومن حيثُ ما حرَّمه المشركون على أنفسهم دون دليل، ومن هنا لا نجد في هذه السورة سوى قصة إبراهيم عليه السلام؛ ولكنها ذكرت من حيثُ استدلالُه عليه السلام على الإله الحق، وهو متسق تماماً مع موضوع السورة الكريمة.

وبقية السبع الطوال كلها سور مدنية، والقصص التي ذكرت في بعضها مع قلتها كانت حديثاً عن بني إسرائيل فحسب. فإذا تجاوزنا السبع الطوال وجدنا أن سورتي يونس وهود تحدثتا عن بعض القصص، وان كان نصيب الثانية اكثر من نصيب الأولى فسورة يونس حدثتنا حديثاً موجزاً عن نوح عليه السلام، وقد بدأت به السورة ثم حديثاً فيه بعض التفصيل عن قصة موسى مع فرعون، لكن سورة هود بدأت بالحديث عن قصة نوح مفصلة تفصيلاً تاماً، ثم جرت على هذا الترتيب التاريخي فذكرت قصة هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب واشارة موجزة لقصة موسى، ولكن قصة ابراهيم في سورة هود لم تكن عما جرى بينه وبين **قومه**، وإنما عما كان بينه وبين الرسل من الملائكة، وكأنما ذكرت مقدمة لقصة لوط التي فصلت الحديث عنه مع قومه بعض التفصيل. ثم جاءت **سورة يوسف** وهي كما نعلم خاصة به عليه السلام، لكن **سورة الرعد** خلت من ذكر هذا القصص القرآني.

وتأتي **سورة إبراهيم**، وفيها اشارة موجزة لقصة موسى، وشيء من نبأ إبراهيم عليهما السلام. كدت أنتقل إلى السورة الأخرى، وهي سورة الحجر ولكنني وأنا أستحضر السورة الكريمة في قلبي وإذ بي، أفاجأ بما يرقص القلب، ويثلج الصدر، هل سمعت عن أولئك الذين كانوا يحدثوننا عنهم، بأنهم أو بعضهم وجدوا كنزاً ففرحوا به؟، أظن ظناً يشبه اليقين، أن الذي يكرمه الله بشيء من هذا القرآن أو بقضية من قضايا العلم يكون أكثر فرحاً، وأعظم ابتهاجاً من هذا الذي

وجـد كنزاً، المهم أنني وأنا أستحضر السورة الكريمة أشرفُ بإمرارها على قلبي وقفتني قضية حريٌّ بها أن تسجَّل.

حدثنا القرآن الكريم عن ابراهيم عليه السلام، بأنه أمَّة وأنه أب الأنبياء؛ لأن أكثر الأنبياء الذين أرسلهم الله من بعده من ذريته. إن لم يكونوا جميعاً وما نعرف ممن قص الله علينا نبأهم بعده عليه السلام. أقول: ما نعرف واحداً ليس من ذريته ابتداءاً بإسماعيل وإسحاق، وختمًا بسيد البشر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وسورة إبراهيم؛ السورة التي سميت باسمه أرادها الله أن تكون أمَّة في السور كذلك فلها من اسمها نصيب. من أجل ذلك وجدنا هذه المحاضرة والمحاورة التي تنسب إلى الرسل، وما كان بينهم وبين أقوامهم، ولم نجد مثلها في غير هذه السور الكريمة. إنهم تجمعوا ولكن في هذه السورة كما يتجمع الأبناء في بيت الأب - وهذا يعلم الله - حريٌّ بمثله أنْ يدرس وأن توجه إليه العناية، إنه لمن عجيب أمر هذا القرآن وعلو شأنه!!.

إن الإشارة في قصة موسى في سورة إبراهيم كانت لبني إسرائيل دون فرعون وجميل أن يذكر في قصة ابراهيم بنو اسرائيل الذين ينتسبون إليه دون فرعون - وليس هذا فحسب، بل إنَّ ما يدعو للإعجاب حقاً ويطرب له كل فؤاد أن الرسل الـذين جاؤوا بعـد ابراهيم هم أبناؤه وذريته، ولنستمع إلى ماتقصه علينا سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نبأُ الَّذينَ من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ﴾ (آية ٩) وهؤلاء كانوا قبل إبراهيم - بالطبع - ولكن لنستمع بعد ذلك يُستأنف الكلام بعد ذكر الأقوام الثلاثة: قوم نوح وعاد وثمود، يستأنف الكلام فيقول الله: ﴿والَّذينَ مِنْ بَعدِهِمْ لا يَعْلَمُهم إلاَّ الله﴾ الذين من بعد قوم نوح وعاد وثمود، وهم الذين لا يعلمهم إلا الله لكثرتهم وتعدد منازلهم، واختلاف لغاتهم، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة.

ولكن ما بال أولئك ﴿جاءتهم رسلهم بالبيِّنات﴾ الآيات الظاهرة، فماذا كان منهم؟ يقـول الله: ﴿فـردُّوا أيديَهُمْ في أفـواهِهِمْ﴾، وهي كنـاية عن التقنيط والتيئيس، والحسد والغيظ، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿عضُّوا عليكُمْ الأناملَ من

الغيظ﴾ وهكذا ردَّ أولئك الأقوام أيديهم في أفواههم، معلنين للرسل أنهم لن يؤمنوا برسالتهم، وما كان ذلك إلا حسداً وغيظاً وكراهية للحق، أو ردُّوا أيديهم في أفواه الرسل حتى لا يتكلم الرسل ﴿وقالوا إنَّا كفرنَا بما أُرسلتم به﴾ بهذه الصراحة الوقحة ﴿وإنَّا لَفي شكٍّ مِمَّا تدعوننا إليه مريبٌ﴾ عجيب أمر أولئك جعلوا قضية الرسل المشرقة الواضحة قضية تدعو إلى الريبة والتهمة والقلق، وكذلك شأن الباطل يتهم الحق دائمًا ويعجبني قول أبي العلاء:

«وعيَّر قسّاً بالفهاهة باقلٌ» باقل الذي لا يستطيع أن يتكلم كلمتين، يعيّر الخطيب المصقع بالفهاهة وعدم القدرة على الكلام. ويرد الرسل جميعاً هذا الباطل ﴿أفي اللهِ شكٌ فاطِرِ السماواتِ والأرضِ﴾ لا ينبغي أن يكون في الله شك، وهو فاطر السماوات والأرض. ﴿لخلقُ السماواتِ والأرضِ اكبر من خلقِ النَّاسِ﴾ ﴿يدعوكُمْ ليغفِرَ لكُمْ من ذنوبِكُمْ ويؤخركم إلى أجلٍ مسمًّى﴾، ولكن مع هذا التحبب والتلطف لا يزيد الفريق الآخر على أن يقول للفريق الأول، وهم الرسل عليهم السلام: ﴿إنْ أنتُمْ إلاَّ بَشَرٌ مثلنا﴾ وهذه هي التهمة الأولى. وأما الثانية: ﴿تريدونَ أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾.

ثم يأتي دور التمحل فرغْمَ الحجج الواضحة ولكنهم مع ذلك لا يكتفون ﴿فأتونا بسلطانٍ مبينٍ﴾ وترد الرسل مقالة أولئك: نحن لا ننكر أننا بشر، نحن معترفون بهذه البشرية وهل ادَّعينا غيرها، ولكن أكُلُّ البشر سواء؟ ألستم تزعمون أنتم أنكم خير من غيركم فما دمتم ترون أنفسكم أفضل من غيركم، فلماذا تنكرون على غيركم أن يمنَّ الله عليهم بمننه وكرمه؟؟. أما ما طلبتموه من سلطان فمع أنه تمحل منكم، ولكن مع ذلك ماكان لنا أن نأتيكم بشيء مما طلبتم إلا بإذن الله، عليه نتوكل وعليه وحده يتوكل المؤمنون، ولماذا لا نتوكل عليه؛ وأي شيء يمنعنا من ذلك؟ وقد أكرمنا بالهداية. أما ما يلحقنا من إيذاء فلنصبرن عليه وعلى الله يتوكل المتوكلون.

وبعد تلك الرقة في القول والإقناع في المنطق بعد ذلكم القول الذي يمتع العواطف ويقنع العقول، ويوقظ المشاعر ويهز النفوس، يقول أولئك الكافرون لرسلهم بعد كل هذا ﴿لنخرجَّنكُمْ من أرضِنَا أو لتعودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ وهنا يعرض

المتكبرون عضلاتهم ويلوحون بعصا القوة ﴿لنخرجنَّكم من أرضنا﴾ سمعناها من قوم شعيب، وقالها قوم لوط ولكنها هنا يقولها فريق الكفر مجتمعاً ﴿أوْ لَتَعُودُنَّ في ملَّتِنا﴾ وليس معنى هذا! أن الرسل عليهم السلام كانوا على ملة أقوامهم - فمعاذ الله أن يكونوا كذلك - ولكن معنى الآية الكريمة - والله اعلم - أو لتصيرن في ملتنا.

وهنا تدرك الرسلَ العنايةُ الإلهيةُ ﴿إنَّا لننصرُ رسلنا والَّذينَ آمنوا في الحَياةِ الدنيا ويومَ يقـومُ الأشهادُ﴾ أوحى إليهم ربهم الذي أكرمهم بعنايته ورسالته، رباهم وتعهدهم وتولاهم ﴿لنهلكنَّ الظالمينَ﴾ يالفظاعة الظلم! إنه أساس الدمار والبوار والانحراف ﴿ولنسْكننكم الأرض من بعدهم﴾ وصدق الله وعده، فنجّى رسله، وأسكنهم وأورثهم الأرض، والأرضُ لله. وذلك التأييد إنما يكون للرسل ولمن كان على نهجهم فمن اجتمع له هذان الأمران :ـ

(١) أن يخاف مقام الله تبارك وتعالى، أي أن يخاف ذلك الموقف في الآخرةِ الذي سيقفه، أو يخاف مقام الله : أي يخاف مراقبة الله تبارك وتعالى، وقيامه سبحانه وتعالى عليه بكل ما كسب ﴿أَفَمَنْ هُو قائِمٌ على كُلِّ نفسٍ بما كسبَتْ﴾.

(٢) أن يخاف وعيد : أن يخاف ما توعده الله تبارك وتعالى به. ويستفتح الرسل يطلبون من الله أن يحكم بينهم وبين أقوامهم ﴿ربَّنا افتح بيننا وبين قومِنا بالحقِّ وأنْتَ خيرُ الفـاتحينَ﴾ وفتح الله بينهم ﴿وخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عنيدٍ﴾ خاب أولئك الجبابرة المتعالون على الحق، المعاندون في آيات الله، وهو ان خسر في دنياه، فإن هناك خسارة أعظم ﴿مِنْ وراءه جهنم﴾ أي بين يديه سيلاقيها، ويعرض عليها ويدخلها ﴿ويُسقى من ماءٍ صديد﴾، يتجرَّعه ولا يكاد يسيغه، وأنَّى له أن يسيغ مثل ذلك، نعوذ بالله ونستجير به سبحانه ﴿ويأتيه الموتُ من كُلِّ مكانٍ، وما هُوَ بميِّت﴾. من كل مكـان يأتيه الموت!! ما أبدعه من تصوير وما أشد وقعه على النفس!! أسباب الموت من كل ناحية وجانب ولكن لا موت، كما جاء في حديث النبي ﷺ عن شأن من شؤون القيامة «حينما سئل عنه أهل الجنة وأهل النار فقالوا هذا وجاءهم على صورة كبش فذبح وقيل: يا أهل الجنة خلوداً لا موت، ويا أهل النار خلوداً لا موت»[1]. ﴿ومِنْ ورائِهِ عذابٌ غليظٌ﴾ تلك محاورة بين رسل الله؛

(١) أخرجه البخاري في الرقاق.

أهل الحق، وبين أهل الباطل.

وهذه المحاورة بين الرسل الكرام يختار لها المكان اللائق بها بيت الأب بيت الشيخ بيت الأب العظيم سورة ابراهيم عليه السلام وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على أن الأنبياء جميعاً أمة واحدة مهما اختلفت أزمنتهم وأمكنتهم، وان اهل الباطل كذلك.

وجميل أن نقرأ الآيات مرة أخرى، وتلكم هي الآيات الكريمة:

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ

أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

أما سورة الحجر، فبعد أن ذكرت قصة آدم انتقلت بعد فاصلٍ قصير إلى الحديث عن إبراهيم عليه السلام، ولكن لا من حيثُ ماكان بينه وبين قومه، وإنما من حيث مجيء الرسل وتبشيرهم له، ثم تحدثت عن قصة لوط وأشارت إشارتين موجزتين خاطفتين إلى أصحاب الحجر الذين سميت السورة باسمهم وأصحاب الأيكة، ولكن بإيجاز كما قلت.

سورة الحجر إذن أشارت إلى هذا القصص بهذه الطريقة فلم تحدثنا عما كان بين الأنبياء وبين أقوامهم، اللهم إلا ما كان بين لوط عليه السلام وبين قومه. وإذا جاز لنا أن نقسم ما حدثت عنه السورة تقسيمًا جغرافياً فإن الذين حدثتنا عنهم سورة الحجر كانوا جميعاً في منطقة واحدة، وأمكنة متقاربة فقرى قوم لوط وثمود ومدين كلها في شمال الجزيرة، وكأن الحديث عنها كان تذكرة لأهل مكة؛ لأنهم يمرون بطريقهم على هؤلاء الأقوام، وعلى هذه الأمكنة.

أما سورة النحل، وهي سورة النعم، فلم نر فيها شيئاً من هذا القصص، اللَّهمَّ إلا بعض الآيات ثناءً على إبراهيم عليه السلام.

وتأتي سورة الإسراء، ولا نقرأ فيها إلا لمحة عن قصة آدم، وهذا يتلاءم مع موضوع السورة، ثم اشارةً متلائمة أيضاً مع موضوع السورة إلى الآية التي أعطيتها ثمود، إشارة كذلك إلى الآيات التي أعطيها موسى لفرعون. سورة الإسراء إذن: هي سورة الآيات فقط، وما ذكر فيها من اشارات لبعض القصص، إنما ذكر من خلال الآيات التي تتسق مع آية الإسراء.

ثم تأتي سورة الكهف، وقد تحدثنا عما فيها من قصص من قبل في أول هذا الموضوع، فلا يفيد هذا الحديث هنا.

أما سورة مريم، فلقد بدأت الحديث عن زكريا عليه السلام وبشارته بيحيى عليه السلام، ثم جاءت قصة مريم، وهذا على عكس ماجاء في سورة آل عمران حيث بدأ الحديث عن مريم؛ لأن السورة الكريمة سميت باسمهم، وبعد الحديث عن زكريا وابنه ومريم وابنها حدثتنا السورة عن ابراهيم وأبيه وموسى وأخيه وبعض أنباء إبراهيم، ولكن لا من حيثُ ماكان بينهم وبين أقوامهم، وإنما هي إشارات ثناء على أنبياء الله عليهم السلام، ونلحظ أن الذين حدثتنا السورة عنهم كانوا من ذرية إبراهيم، اللهم إلا ماجاء من اشارة موجزة عن ادريس إذا لم نقل إنه إلياس.

وتأتي سورة طه، ويكون الحديث فيها عن موسى عليه السلام، وعن اكثر من جانب في حياته: رسالته وإرساله إلى فرعون وخبره مع بني إسرائيل. ثم وبعد فاصل من الآيات الكريمة تحدثنا عن قصة آدم.

أما سورة الأنبياء، ولها من اسمها نصيب، فلقد كان الحديث فيها عن الأنبياء - عليهم السلام - ثناءً ومنّةً وفضلاً... ولكن كان الحديث فيها موجزاً إيجازاً تاماً، بدأ الحديث فيها عن موسى - عليه السلام - بآيتين اثنتين، وهكذا كان الحديث عن لوط ونوح ودَاود وسليمان وأيوب وغيرهم. كان كله موجزاً مركزاً والرسول الوحيد الذي فصلت عنه السورة الكريمة سورة الأنبياء كان ابراهيم - عليه السلام - ... وليس في ذلك شيء من العجب فإبراهيم - عليه السلام - هو أبو الأنبياء، وحريٌّ أن يفصل عن الأب وأن يعطى من الحديث والإشارات ما لا يُعطى الأبناء.

وتأتي سورة الحج، فلا نقرأ فيها شيئاً من القصص، ولعل اسمها يشير إلى الحكمة في ذلك، أما ما ذكر عن إبراهيم فإنما كان حديثاً ذا صلة بالحج.

وتأتي سورة المؤمنون، والمؤمنون تكفيهم الإشارة فتحدثنا السورة بإيجاز يكفي المؤمنين للعبرة عن نوح وهود، ولمحة عن موسى وهارون، وجعل ابن مريم وأمه آية. إن ذلك متلائم تماماً مع اسم السورة الكريمة وموضوعها.

أما **سورة النور**، فنظن أن موضوعها الذي جاءت تتحدث عنه جعلها خالية من هذا القصص، وسورة النور هي السورة المدنية بين سور مكية.

أما **سورة الفرقان**، فلقد جاءت علاجاً للشبهات التي أثارها المشركون حول الرسالة والرسول، وما ذكر فيها من اشارة عن السابقين لم يكن عما جرى بين الأنبياء وأقوامهم من حوار وجدال، وإنما كان بياناً لما حل بأولئك بعبارات قصيرة موجزة.

وتأتي **الطواسين الثلاث: الشعراء والنمل والقصص.**

أما **سورة الشعراء**: وهي اكثرها تعداداً لقصص الأنبياء، فلقد ابتدأت الحديث بعد ذكر القرآن والنبي وأهل مكة، ابتدأت الحديث عن موسى - عليه السلام - مع فرعون، وفصلت بعض التفصيل تفصيلاً لا نكاد نجده في غير سورة الأعراف أعني في شأن فرعون، وبعدها تنتقل السورة للحديث عن إبراهيم - عليه السلام -، ولكن هذا الحديث يكون اكثر ما يكون عن تمجيد إبراهيم لربِّه. ثم تحدثنا السورة عن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ثم تنتقل إلى القرآن الكريم، وتنزيله بالحق: ﴿وإنَّه لتنزيلُ ربِّ العالمينَ نزلَ به الروحُ الأمينُ على قَلْبِكَ لتكونَ من المنذرينَ﴾.

أما **سورة النمل**، فبعد أن تحدثنا عن القرآن والنبي تذكر شيئاً عن قصة موسى - عليه السلام - ومبدأ رسالته، ولكن بإيجاز ثم تذكر داود وسليمان وتفصل الحديث عن سليمان وما كان من ملكة سبأ. ثم تحدثنا عن ثمود وقوم لوط... ولكن بما ليس فيه تفصيل، وإنما هو أقرب إلى الإيجاز.

أما **سورة القصص**: وهي آخر الطواسين، فالحديث فيها إنما هو عن موسى - عليه السلام - منذ ولادته إلى أن أرسل إلى فرعون. حتى ماجاء في آخر السورة كان حديثاً عن قارون الذي هو من قوم موسى، لكن السورة تبدأ بالحديث عن القرآن، وتنتهي كذلك ونلحظ مايلي:-

أ- **الطواسين وطه**، كان الحديث فيها باديء ذي بدء عن موسى - عليه السلام -، بل إن منها مااقتصر على الحديث عنه أو أطال كـ (طه) والشعراء والقصص،

ونتساءل: هذه الطواسين حتى طه هذه السورة التي ابتدأت بحرف (الطاء) جميعاً بدأت الحديث عن موسى - عليه السلام -، ولكن كان للحديث عن القرآن الكريم فيها شأن كذلك، لو كنا من عُشّاق تفسير الحروف في فواتح السور لفهمنا أن هذه السور التي ابتدأت بحرف **الطاء أو السين** تشير إلى طور سيناء، وإلى ماكان من شأن النبي ﷺ ولقلنا أنها تشير إلى طور سيناء ومكة، لكن - كما قلت - لسنا من عشاق التأويلات التي ربما لا يجد لها بعضهم مسوِّغاً. المهم أن هذه السورة المبدوءة (بالطاء) أو بـ (طس) جميعاً بدأت الحديث عن موسى - عليه السلام -.

وتأتي **سورة العنكبوت**، والإشارات إلى الأنبياء فيها موجزة، وقد حدثتنا عن نوح وإبراهيم ولوط وآية واحدة جمع فيها عاد وثمود، وآية واحدة عن قارون وفرعون وهامان، واشارة موجزة لمدين. سورة العنكبوت - كما سنعرف - سورة الدعاة ولا أدل على ذلك من بدايتها وخاتمتها، أما بدايتها: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم أحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنَّا وهُمْ لا يُفتنون﴾ أما خاتمتها، فهي قول الله تعالى: ﴿والذينَ جاهدُوا فينا لنهدينَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللهَ لمع المحسنينَ﴾ إذن ذكر فيها ماتدعو إليه الحاجة، ولا ننسى أنها نزلت متأخرة، فكان اكثر مافيها تلخيصاً لما مرَّ في كتاب الله.من قصص الأنبياء - عليهم السلام - مع بعض الزيادات - كما سنرى - في قصة نوح مثلاً فرغم أنهما آيتان اثنتان، إلا أنها لا تخلو من زيادة على ما فُصِّل في السور الأخرى.

أما **سورة الروم**، فقد اكتفت أن يشار فيها إلى الروم، وغلبتهم، ولم يذكر فيها شيء من القصص: وكذلك السورة التي بعدها **سورة لقمان** اكتفت أن تحدثنا عن وصية لقمان لابنه، وكذلك **سورة السجدة** لم تحدثنا عن شيء من هذا القصص، اللهم إلا بدء خلق الإنسان من طين.

وتأتي **سورة الأحزاب** المدنية ونعم ما ذكرته لنا من نصر الله المؤمنين وقد ابتلوا وزلزلوا زلزالاً شديداً فالله نصرهم على الأحزاب، والحمد لله أولاً وآخراً.

وتأتي **سورة سبأ**، وسبأ كما نعلم كانت لها شهرتها ﴿جنّتانِ عن يمين وشمال﴾، ولكنهم أعرضوا فأرسل عليهم سيل العرم، وبُدِّلوا بجنتيهم ذواتي الثمر

الزكي الشهي، بدلوا بجنتيهم جنتين أخريين ذواتي أُكُلٍ خمط وأثل، وشيء من سدر قليل، ﴿ذلك جزيناهُم بما كَفروا وهل نجازي إلاَّ الكَفور﴾.

سورة سبأ هذه ذكرت فيها قصة واحدة قصة داود وسليمان، ومن عجيب شأن القرآن وروعة نظمه وبديع صنعته، وجميل موضوعاته، ورائق معانيه أن تجد هذا الترتيب المحكم. آية إعجاز ودليل صدق، وبرهان حق، ذكرت فيه قصة داود ثم اتبعت بقصة سبأ، ولكن هل تعلم أن قصة داود في سورة سبأ ذكرت من حيثية يهدف لها القرآن، ان الله ذكر داوود في سورة سبأ ليبين أنه أنعم الله عليه فشكر ﴿اعملوا آل داود شكـراً وقليلٌ من عباديَ الشكور﴾. أظنك بدأت تدرك الروعة وتتذوق الحلاوة. بعد قصة داود ذكر أهل سبأ الذين أنعم الله عليهم فلم يشكروه فجازاهم الله ﴿وهـل نجازي إلا الكفور﴾ وهكذا نجد هذا التلاؤم والاتساق فَسُورة سبأ تذكر لنا فريقين من الناس أنعم الله عليهما، لكن منهم من شكر النعمة، ومنهم من كفرها. ولهذا يذكر عقب هاتين القصتين قول الله تعالى: ﴿وَلَقد صَدَّق عليهم إبليسُ ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾.

أما سورة فاطر، فكان الحديث فيها عن آثار فاطر السماوات والأرض، ولم يأت فيها شيء من القصص.

أمـا سورة يس، و(يس) قلب القرآن، فلم يذكر فيها إلا المثل لأصحاب القرية ﴿إذ جاءها المرسلونَ، إذْ أرسلنَا إليهمُ اثنين فكذَّبُوهُما فعززنا بثالثٍ فقالوا: إنَّا إليكم مُرسلونَ﴾.

لكن سورة الصافات ذكر فيها الأنبياء من حيثُ الثناءُ عليهم - كما مرَّ معنا في سورة الأنبياء - والنبي الذي فصل خبره هو إبراهيم - عليه السلام - وقد عللنا ذلك حينما تحدثنا عن سورة الأنبياء.

وتـأتي سورة (ص)، فلم يكن الحـديث فيها عما جرى بين الأنبياء وبين أقوامهم، وإنما عن بعض ما ابتلي به بعض الأنبياء كـداود وسليمان وأيوب كل ذلك كان تسلية للنبي ﷺ وثنـاءً بإيجاز على إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل.

أما سورة الزمر، فلم يذكر فيها شيء من قصص الأنبياء - عليهم السلام -.

وتأتي الحواميم السبع فيكون الحديث في السورة الأولى وهي: سورة غافر (المؤمن) عن نبأ موسى، وتفيض في الحديث عن مؤمن آل فرعون.

أما سورة فصلت ففيها اشارة في معرض الحديث عن اهل مكة ووعيدهم إن أعرضوا. وأما سورة الشورى فليس فيها شيء من القصص القرآني.

وتأتي سورة الزخرف، وفيها اشارة عن ابراهيم عليه السلام تتلاءم مع موضوعها، وشيء عن خبر موسى مع فرعون، وما كان من اعتزاز فرعون وفخره بنفسه وبملكه، وهو متلائم مع موضوع السورة كذلك.

وتأتي سورة الدخان فتحدثنا شيئاً عن خبر فرعون متسقاً مع ما اصيب به أهل مكة حينما دعا النبي ﷺ عليهم بسنين كسنين يوسف.

لكن سورة الجاثية نجدها خالية من القصص، اللهم إلا إشارة موجزة عن بني إسرائيل وما خصَّهم الله به، ولكنهم اختلفوا.

وتأتي سورة الأحقاف وهي السورة الأخيرة في الحواميم، وفيها إشارة ساكني الأحقاف وهم عاد.

ثم تأتي ثلاث سور مدنية: وهي سورة سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وسورة الفتح المبين الذي اكرمه الله به، ثم سورة الحجرات - وبالطبع - لا يكون فيها شيء من هذا القصص.

ويبدأ المفصل فنجد اشارة موجزة في بعض سوره - كما في سورة (ق) والقمر، وكما جاء من ذكر موسى وقومه في سورة الصف، ومن خبر أصحاب الجنة وصاحب الحوت في سورة (ن)، ومن اشارات في سورة الحاقة.

والسورة الوحيدة في المفصل التي فصل فيها، كانت سورة نوح، حيثُ كانت كلها حديثاً عنه - عليه السلام -. كل مافي المفصل إذن كان اشارات.

كما جاء في سورة المزمل وسورة الفجر والشمس والبروج عن أصحاب الأخدود.

وهنـاك سورتـان كان فيهما بعض التفصيل عن بعض الأنبياء وهما: سورة الذاريات حيثُ فصلت في نبأ إبراهيم، وبعض اشارات إلى قوم لوط وفرعون وعاد وثمود وسورة النازعات التي أجملت الحديث عن خبر موسى - عليه السلام - مع فرعون.

وأكتفي بهذا التفصيل ومن أجـال النظر، ونظم الفكر، وأكرمه الله بثاقب البصر، ستلوح له من النجوم الزهر لوامح أُخر. اللهم إنا نسألك فتحاً تكرمنا به بفهم وعلم، وآجز اللهم سيدنا محمد ﷺ الذي أنزلتَ عليه هذا القرآن، خير ما تجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه.

المباحث الرئيسة للكتاب

المبحث الأول: قصة آدم عليه السلام.
المبحث الثاني: قصة نوح عليه السلام.
المبحث الثالث: قصة هود عليه السلام.
المبحث الرابع: قصة صالح عليه السلام.
المبحث الخامس: قصة إبراهيم عليه السلام.
المبحث السادس: قصة لوط عليه السلام.
المبحث السابع: قصة شعيب عليه السلام.
المبحث الثامن: قصة موسى عليه السلام.
المبحث التاسع: قصة يونس عليه السلام.
المبحث العاشر: قصة داود وسليمان عليهما السلام.
المبحث الحادي عشر: قصة أيوب عليه السلام.
المبحث الثاني عشر: قصة يحيى وزكريا عليهما السلام.

قصة آدم عليه السلام

أولاً: من حيث الجزئيات والموضوعات والمواقف والمشاهد

١- في سورة (ص).
٢- في سورة الأعراف.
٣- في سورة طه.
٤- في سورة الإسراء.
٥- في سورة الحجر.
٦- في سورة الكهف.
٧- في سورة البقرة.

ثانياً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها وشخصيتها.
ثالثاً: من جهة الألفاظ والتراكيب.
رابعاً: تعقيب على قصة آدم - عليه السلام -.

قصة آدم عليه السلام

أولاً : من حيثُ الجزئياتُ والموضوعات والمواقف والمشاهد.

إن هذه الحيثيات تتطلب منا دراسة للسور التي ذكرت فيها قصة آدم - عليه السلام -، وهذه السور حسب ترتيبها في النزول[1] كما يلي :-

(١) (ص). (٢) الأعراف. (٣) طه. (٤) بنو إسرائيل. (٥) الحجر. (٦) الكهف. (٧) البقرة.

١- أما سورة (ص) فبدأت الحديث عن قصة آدم بقوله تعالى :-

﴿إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي خَالِقٌ بَشَراً من طينٍ فإذا سَوَّيْتُهُ، ونَفَخْتُ فِيهِ مِن روحي فَقَعُـوا لَهُ سَاجِـدينْ﴾، وتحدثنا الآيات أن الملائكة سجدوا أجمعون الا إبليس استكبر وكان من الكافرين، وحينما سأله الله لِمَ لَمْ تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين، اجاب بأنه خير من آدم لأنه خلق من نار، وخلق آدم من طين، وقيل له اخرج مرجوماً ملعوناً إلى يوم الدين، وطلب الإنظار والإمهال إلى يوم يبعثون؛ لكنه لم يجب إلى ما طلب وانما أنذر إلى يوم الوقت المعلوم، وأقسم بعزة الله أن يغويهم أجمعين إلا المخلصين من عباد الله، وقال الله الحق -والحقَّ يقول- بأنه سيملأ جهنم منهم، ومن أتباعه أجمعين. هذا ماجاء في سورة (ص) وهذه هي الآيات الكريمة :-

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ

---

(١) اعتمدنا في ترتيب النزول على مارجَّحه كثير من العلماء وما اختاره صاحب الإتقان رحمه الله.

أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

٢ـ أما قصة آدم في سورة الأعراف؛ فلقد اختلفت بداية القصة عما جاء في سورة (ص) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدمَ فَسَجَدُوا إلَّا إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الساجِدِينَ﴾ ويسأل ﴿مامَنَعَكَ ألَّا تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ﴾ ويجيب إجابته الناشئة عن استكباره وانانيته فيقال له اهبط منها فما ينبغي له أن يتكبر فيها وبعد الإهباط يؤمر بالخروج ويحكم عليه بالصَغار ويطلب الإنظار فيجاب دون تحديد الوقت ثم يؤمر بالخروج مذموماً مدحوراً، لمن تبعه منهم جهنم وله كذلك ولكنه هنا يبالغ في الانتقام من بني آدم ويأخذ على عاتقه أن لايدع ثغرة إلا ويأتيهم فيها. لإغوائهم ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وعن أيمانهم وَعَنْ شَمائِلِهِمْ ولاَ تَجِدُ أكْثَرَهُمْ شَاكِرِينْ﴾ وتحدثنا الآيات بعد ذلك عن مشهد آخر فبعد أن أمر بالخروج مذموماً مدحوراً أمر آدم أن يسكن وزوجه الجنة وليأكلا من كل شيء إلا شجرة واحدة، ولكن الشيطان وسوس لهما ليبدي لهما ماووري عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وأكَدَّ نصحه لهما فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين.

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾
قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾
قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

والناظر في سورة الأعراف يجد أنها تشتمل على جزئيات كثيرة لم تذكر في سورة (ص)، ففي سورة (ص) ذكر الماء والطين؛ ولكنه لم يذكر في سورة الأعراف، وفي سورة (ص) ذكر القول؛ بعنوان الربوبية للنبي ﷺ ﴿إذ قالَ رَبُّكَ﴾ لما سنعرفه فيما بعد إن شاء الله، ولكن في سورة الأعراف ذكر شيء آخر: ﴿ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ وفي سورة الأعراف ذكر الأمر: ﴿إذْ أَمَرْتُكَ﴾ ولم يذكر الخلق باليدين الذي ذكر في سورة (ص)، وأمر آدم أن يسكن وزوجه الجنة ذكر في سورة الأعراف ولم يذكر في (ص) وكذلك أمرهما أن يأكلا من كل شيء إلا شجرة واحدة، وكيف وسوس لهما الشيطان حتى أكلا من الشجرة، وبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فهذه مشاهد ذكرت في سورة الأعراف ولم تذكر في سورة (ص) كما رأينا ذلك.

٣ـ أما سورة طـه فلننظر إلى الزاوية التي تحدثت عنها الآيات الكريمة بدأت الآيات هكذا:ـ

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا

جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)

ثم يبين الله لآدم بأنه تتوافر له الراحة في الجنة فلن يجوع ولن يعرى ولن يظمأ ولن تزعجه الضحوة ولكن الشيطان وسوس له موهماً إياه بأنه سيدله على شجرة الخلد وملك لا يبلى وأكل هو وزوجه من الشجرة فكان ماكان من بدو السوءات ومحاولة إخفائها من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه وتاب عليه فهدى وأمروا جميعاً بالهبوط ﴿فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فلا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكَا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ .

سورة طـه إذن لم تحدثنا عن الماء والطين؛ ولكنها حدثتنا أول ماحدثتنا عن عهد الله لآدم ونسيان آدم لهذا العهد، ولم تحدثنا عن المحاورة والتبكيت الذي كان من الله لإبليس؛ ولكنها حدثتنا هنا عن قضايا جديدة لم نجدها في السورتين السابقتين :ـ

(١) عن عداوة إبليس لآدم ولزوجه .

(٢) عن محاولته اخراجهما من الجنة وسيشقى إذا كان ذلك .

(٣) عن وسائل الراحة التي هيئت له في هذه الجنة .

(٤) عن المداخل التي استطاع ابليس ان يدخل منها لآدم، وهي هذه الاستعدادات الفطرية التي منحها والتي أصبحت فطرة في بنيه جميعاً، وهي حب البقاء، وحب التملك، وهما فطريان في الإنسان ﴿هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ كما حدثتنا عن عصيان آدم وغوايته ولكن بعد ذلك عن اجتباء ربه له وهدايته، كل هذه العناصر كانت جديدة في السورة الكريمة

٤ـ أما سورة الإسراء، فقد حدثتنا عن هذه القصة من جانب آخر، حيث بدأت هكذا :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ[2] مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ[3] عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

سورة الإسراء إذن كان حديثها عن جانبٍ يكاد يقتصر على ماسيكونُ من ابليس - لعنه الله - مع بني آدم. «لاحتنكن ذريته إلا قليلا» فليذهب فإن له ولمن تبعه من ذرية آدم جهنم، وليفعل ماشاء من جلبة وصياحٍ، وليشاركهم بما شاء من أموال وأولاد، وليعدهم فما يعدهم الشيطان إلا غروراً، ليفعل كل ذلك، لكنَّ الله سيحمي عباده منه فليس له عليهم سلطان. سورة الإسراء إذن طويت فيها كثير من المشاهد التي رأيناها في غيرها وبرزت فيها عناصر جديدة.

٥ـ أما سورة الحجر، فلقد أضافت عنصراً جديداً مهمًا، لابد لهذا الانسان أن يكون على علم به وهو أن الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان من صلصال من

---

(١) لاحتنكن ذريته: أي لأستأصلنهم بالإغواء.

(٢) استفزه: استخفه والفز: الخفيف.

(٣) وأجلب: من الجلبة وهي الصياح.

حمأ مسنـون، ذلك لأن لقضية الصلصال والحمأ المسنون في خلق الإنسان وفي حياتـه بعـد ذلك دوراً وأثراً لايمكن إغفالهما، فالصلصال لايتماسك كثيراً، بل سرعان مايتحطم ويتفتت؛ لأنه هش فليس في شدته كالفخار، والحمأ المسنون لايملك خاصية المحافظة على ذاته، فسرعان مايطرأ عليه الفساد. هاتان خاصيتان عدم التماسك وعدم الاحتفاظ بخاصية الصلاح وطروء الفساد والتغير، وهما ملازمتان للإنسان، إلا إذا تداركه الله بعفوه ورحمته؛ فإنه حين ذلك يكون قوياً بعيداً عن أن يطرأ عليه فساد ولعل هذا مايشير إليه الحديث الشريف الذي روي عن سيدنا رسول الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبـال فألقـاهـا عليهـا فاستقرت فعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت: يارب؛ هل في خلقك شيء أشد من الجبال قال: نعم الحديد؛ قالت: يارب؛ فهل في خلقك شيْء أشد من الحديد قال: نعم النار، قالت: يارب؛ فهل في خلقك شيء أشد من النار قال: نعم الماء قالت: يارب؛ فهل في خلقك شيء أشد من الماء قال: نعم الريح قالت: يارب؛ فهل في خلقك شيء أشد من الريح قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه ويخفيها من شماله»(١).

آية الحجر إذن جاءت بهذه المعلومة الجديدة المهمة: ﴿وإذْ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾.

وهناك أمر جديد آخر في سورة الحجر، وهو ان الله تبارك وتعالى لما سأل ابليس عن سبب عدم سجوده، واجاب بانه لن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون، وأمر بالخروج، وحكم عليه بالرجم واللعنة يقول: ﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾ فعنصر التزيين جديد في هذه السورة الكريمة؛ فهو سيحسِّن لهم مايريد أن يحملهم عليه ويأمرهم به، ولكنه يعترف أنه لن يقدر، ولن يغوي بهذا التزيين عباد الله المخلصين، ويبين الله له بأن جهنم موعده وموعد من يرضى بتزيينه، وأن لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم.

---

(١) أخرجه الترمذي / سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي / أبواب تفسير القرآن باب فضل صدقة السحر حديث رقم ٣٣٦٦ جـ٩ ص٨٩ قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا الا من هذا الوجه.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

٦ـ أما سورة الكهف، فقد ذكرت لنا القصة في آية واحدة، ومع كونها آية واحدة فإنها لا تخلو من جديد :ـ

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

فقد برز في هذه الآية الكريمة العناصر التالية :ـ

(١) إن ابليس من الجنِّ : وهي الآية الأولى التي يصرح فيها بذلك.
(٢) إن لإبليس ذرية.
(٣) إنَّه فسق عن أمر ربه بعد أن لم يكن كذلك.
(٤) إنَّه لا يجوز لبني آدم أن يتخذوا ابليس وذريته اولياء من دون الله مع عداوته لهم.

هذه اللقطة في الآية الكريمة كانت آخر الحديث عن قصة آدم في العهد المكي.

٧- ويأتي العهد المدني فنجد الحديث عن قصة آدم في سورة واحدة فحسب هي سورة البقرة[١] ولكنها تحدثنا عن القصة حديثاً فيه الجدة التي لم نجدها من قبل، حيث تبدأ القصة هكذا ﴿وإذْ قالَ ربُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدماءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إنِّي أَعْلَمُ مالا تَعْلَمُونَ﴾ ويبين سبحانه انه علَّم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة لينبئوه بهذه الأسماء، ولكنهم اعترفوا بأنهم لايعلمون ذلك ﴿سُبْحَانَكَ لاعِلْمَ لَنا إلَّا ماعَلَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ ويؤمر آدم أن ينبئهم

---

(١) الآيات ٣٠ - ٣٨.

بأسمائهم. إنها جاءت إذن لتحدثنا عما أكرم الله به هذا الإنسان من خلافة للأرض، ومن خاصية العلم، وهي قضايا لأول مرة ينبه لها وتذكر في هذه القصة.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ
قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟
سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾
فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾
قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

هذه قصة آدم كما جاءت في كتاب الله تعالى، ولا نجد أي قصة في سورة تشبه ماجاء في السورة الأخرى -كما رأينا- من حيثُ الجزئياتُ وماذكر من بعض المشاهد في اكثر من سورة فلأنه عنصر مهم أراد الله أن ينبه له هذا الإنسان.

ثانياً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها وشخصيتها، مع ذكر القصة التي جاءت فيها؛ فسورة (ص) التي جاءت في عنفوان خصومة قريش للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، حينما عجبوا ان جاءهم نذير منهم، وعجبوا ان جعل الألهة إلهاً واحداً، وطلب بعضهم من بعض أن امشوا واصبروا على آلهتكم، بدأت القصة فيها بهذه التسلية للنبي عليه وآله الصلاة والسلام بعد قوله:-

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾

وهكذا نجد كل سورة تتناسب مع موضوعها وشخصيتها.

وانقل هنا كلمة قيمة للعلامة شيخ الازهر السابق الشيخ محمد الخضر حسين، يقول رحمه الله: «انها وردت في ست سور: في البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه[1]، ففي سورة البقرة[2] وردت القصة في سياق تذكير الناس بنعمة الله، والعجب من انهم يكفرون به. فكانت القصة تدور على هذا التذكير من جعل آدم خليفة، وتعليمه الأسماء كلها. وفي سورة الأعراف وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلاً مايشكرون الله الذي مكَّنهم في الأرض وجعل لهم فيها معايش، ولهذا أسهبت القصة في موقف ابليس مع الانسان.

وفي سورة الحجر: وردت القصة في سياق خلق آدم من طين والجن من نار

---

(١) لم يذكر الشيخ سورة (ص).

(٢) وسورة البقرة كما نعلم هي سورة التكاليف التي كلفت بها الجماعة المؤمنة وهذه التكاليف لابد لها من علم فمن علم بها وعمل كان جديراً أن يكون خليفة في هذه الأرض، ولذلك ذكر فيها مايتناسب مع شخصية السورة وموضوعها.

فليست مادة أفضل من مادة، وهذا ماركزت عليه القصة.

أما في سورة الاسراء، فقد وردت قصة آدم في سياق فتنة الناس، ولذلك كان الإسهاب فيها في واقعة حسد إبليس وعدائه لآدم وذريته»(١).

ثالثاً: من جهة الألفاظ والتراكيب :-

١- ماجاء في سورة (ص) ﴿قَالَ ياإبْلِيسُ مامَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بيَدَيَّ أسْتَكْبَرْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ العالمِينَ﴾ (آية ٧٥) وجاء في سورة الأعراف ﴿مَا مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ﴾ (آية ١٢) وفي سورة الحجر ﴿مالَكَ ألاَّ تَكُونَ مِنَ الساجدِينَ﴾ (آية ٣٢).

أما خطاب الله لإبليس وتبكيته على عدم سجوده، فقد جاء في سورة الأعراف التي نزلت بعد سورة (ص) كلمة (لا) وقد ذكرنا المراد منها في كتابنا «دعوى الزوائد في كتاب الله». أما سورة الحجر فقد جاء التبكيت فيها لإبليس؛ لأنه لم يكن من زمرة الساجدين... وهكذا نرى تغايراً بين السور الكريمة.

ولقد رأينا في سورة (ص) كذلك ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فذكر فيها جانب العناية بآدم؛ لأنها أول سورة يذكر فيها.

وأما سورة الأعراف فقد ذكر فيها جانب الأمر الالٰهي «إذ أمرتك» وقد خلت سورة الحجر التي نزلت بعدهما من هٰذين الجانبين؛ لأنهما مرَّا من قبل، أعني قوله «بيدي» في سورة (ص) وقوله «إذ أمرتك» في سورة الأعراف.

٢- جاء في سورة (ص) ﴿قالَ رَبِّ فأنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبعثونَ قَالَ فإنَّكَ مِنَ المنظرِينَ إلى يَوْمِ الوَقْتِ المعلومِ، قَالَ فَبِعِزَتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِينَ﴾ (الآيات ٧٩-٨٢).

وجاء في سورة الأعراف ﴿قَالَ أنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قالَ إنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، قالَ فَبِمَا أغْوَيْتَنِي لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيمَ﴾ (الآيات ١٤-١٦).

وفي سورة الحجر ﴿قالَ رَبِّ فأنْظِرْني إلى يَوْمِ يبعثونَ، قالَ فإنَّكَ مِنَ المنظرين

---

(١) لواء الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة ص٥٣٧-٥٤٠.

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الآيات ٣٦-٣٩).

فلقد جاءت الفاء في سورة (ص) والحجر، وخلت منها سورة الأعراف. وذلك لأن السورتين «قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون» وخلت منهما سورة الأعراف. ﴿قال انظرني﴾ وذلك لأن الآيتين في سورة (ص) وسورة الحجر ذكر قبلهما لعنة إبليس، فجاءت الفاء كأنه قال ان حكمت علي باللعنة رب فانظرني. وجاء الجواب له في الآيتين كذلك بالفاء «فإنك من المنظرين».

أما سورة الأعراف فلم يتقدم بها شيء من هذا. لذلك نراها خلت من النداء «ربِّ» كما خلت من الفاء وقد خلا الجواب كذلك «إنك لمن المنظرين» حتى يطابق السؤال.

امـا قول إبليس في سورة (ص) فبعـزتك، فجاء متلائماً مع تكريم آدم، واعزازه بان خلقه سبحانه بيديه، واما في سورة الأعراف والحجر، فلم يذكر فيهما هذا التكريم لآدم من خلقه سبحانه وتعالى بيديه، وانما ذكر الاغواء، الا ان الذي ذكر في سورة الأعراف يرجح كون (الباء) للقسم، وذكر كلمة (الربّ) في سورة الحجر دون (الفاء) يرجح كون (الباء) سببية، وهكذا نجد التفنن في الاسلوب مع ورود كل كلمة في الموضع الذي يتلاءم معها.

٣- في قصة آدم جاء في سورة الأعراف ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (آية ١٩) وفي سورة البقرة ﴿قُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فماذا نجد من فروق بين الآيتين:ـ

(أ) آية الأعراف ليست فيها مادة (قول).
(ب) جاء العطف فيها بالفاء.
(جـ) جاء التعبير فيها «من حيث شئتما».

ولا شك أن آية الأعراف نزلت قبل آية البقرة، ثم جاءت آية البقرة فيها مادة (القول) وفيها (الواو) بدلّ الفاء وذكرت فيها كلمة «رغداً» ثم فيها هذا التعميم «حيث شئتما» إذن ماجاء في سورة البقرة المتأخرة فيه زيادة على ماجاء في سورة الأعراف.

أما أولا فجاءت مادة (القول) (وقلنا)؛ لأنه متسق مع ماقبله ﴿وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فاذا قال الله للملائكة ذلك، وكان بعد ذلك ماحدثنا عنه القرآن من سؤال الملائكة «أتجعل فيها من يفسد فيها» ثم يبين سبحانه حكمته في خلق آدم فعلمه الأسماء، وعرضهم على الملائكة ﴿وقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ وقالوا ماقالوه من عدم علمهم بشيء، من هذا جاء قوله سبحانه: ﴿وقلنا ياآدم أنبئهم بأسمائهم﴾ كل هذا ينسجم مع ماجاء في سورة البقرة «وقلنا ياآدم» واما العطف (بالواو)؛ فلأن السكني في سورة البقرة قصد بها الإقامة؛ ولا شك أن الاقامة لايترتب عليها الأكل، بل كل منهما، اي الاقامة والاكل؛ نعمة مستقلة بذاتها، لذلك جاء العطف (بالواو) التي لاتفيد ترتيباً، ولا تعقيباً، ولايجوز أن يعطف بالفاء؛ لأن المعنى حينئذ يصير «لا تأكل إلّا بعد أن تقيم» وهذا غير مقصود.

وأما ثانياً: فقد خصت آية البقرة بكلمة رغداً؛ لأن مظاهر التكريم في سورة البقرة -كما رأينا- اكثر منها في سورة الأعراف، وهي متأخرة عنها نزولا -كما قلنا من قبل-ولأجل ذلك جاء الفرق الرابع، وهو قوله سبحانه في سورة البقرة «حيث شئتما» وهو أدل على التعميم، مما جاء في سورة الأعراف (من حيث)، ومن هنا يعلم السر الذي جاءت فيه الآية في سورة الأعراف بهذا الترتيب والتركيب فأولا هي بدون مادة: القول؛ لأنه ليس هناك مايقتضيه كما رأينا في سورة البقرة.

وثانياً: السكنى فيها اتخاذ المسكن؛ وليست الاقامة؛ بدليل ماتقدم من قوله لإبليس (اخـرج منها مذءوماً مدحوراً) فإبليس يخرج منها ليتخذها آدم مسكناً؛ ولأجل ذلك عطف عليها (بالفاء)؛ إذ الاكل يترتب على اتخاذ المسكن، ونلمح السِّرَ كذلك الذي جاءت من أجله كلمة «مِنْ» ولم يذكر من أجله كلمة «رغدا» ورجاؤنا أيها القاريء أن تتلو الآيتين الكريمتين متدبراً؛ لتدرك مابينهما من فروق فيكون ذلك أوعى لك واشد تثبيتاً، وأجدر لوقوفك على اسرار هذا القرآن العظيم.

وأما ثالثاً: فقد جاء في سورة الأعراف ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ماوُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءاتِهِمَا﴾ لكن الذي جاء في سورة البقرة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كانا فيه﴾ فما جاء في سورة البقرة مغاير لما جاء في سورة الأعراف حيث

ذكر في احداهما مالم يذكر في الأخرى.

وأما رابعاً: وبعد الذي حدث من آدم وزوجه حدثتنا سورة الأعراف عن تضرعهما واعترافهما بالذنب ﴿رَبَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا وإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرينَ﴾ لكنَّ سورة البقرة ذكرت لنا جانباً آخر وهو توبة الله على آدم ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ﴾.

تعقيب على قصة آدم

تلك هي قصة آدم، وتلكم هي السور الكريمة التي جاءت فيها هذه القصة، مرتبة حسب نزولها وتتميمًا للفائدة نرى أن ننبه إلى بعض القضايا التي يمكننا أن نستنتجها ونستخلصها مما سبق:-

وأول هذه القضايا: أننا رأينا السور التي ذكرت فيها قصة آدم يذكر فيها قصص غيرها من قصص الأنبياء - عليهم السلام -، يظهر ذلك جلياً في سورة (ص) والأعراف والحجر وطه والكهف والبقرة؛ ولعلَّ السورة الوحيدة التي ذكرت فيها قصة آدم، ولم يذكر فيها قصص آخر هي سورة الإسراء، ومع ذلك فلقد وجدنا إشارة لقصة موسى في آخر السورة، ولا ينبغي أن يفوتنا هنا أنَّ سورة الإسراء قد أشير فيها إلى قضية مهمة، وهي معجزة الإسراء التي كانت للنبي الكريم - عليهِ أفضل الصلاة وأتم التسليم -.

السور التي فيها قصة آدم إذن كانت جميعها من السور التي ذكر فيها بعض قصص الأنبياء، ومعجزاتهم - عليهم السلام -، وهذا متسق -بالطبع- مع خلق آدم وإعداده للخلافة والرسالة التي أنيط بحملها، هو والصفوة المختارة من بنيه الذين جعلهم الله هداة ودعاة يدعون ويهدون بأمره... ولكن كان هناك ملحظ حريٌّ بنا أن ننبه له، ونشير إليه وهو أن هذه القصة لم تذكر مع قصص الأنبياء في سياق واحد وسرد واحد، بل وجدنا أنها يفصل بينها وبين غيرها من هذا القصص فقد تذكر أولا كما نجده في سورة الأعراف، ثم يفصل بينها وبين القصص الذي يجيء بعدها، وكما نجد ذلك في سورة الحجر.

وقد تذكر متأخرة كما وجدنا ذلك في سورة (طه) وسورة (ص)، وكان من الطبعي أن لا تذكر قصة آدم مع غيرها في سرد واحد؛ لأن الغرض والهدف من

ذكر قصص الأنبياء مغاير للغرض والهدف اللذين تذكر من اجلهما قصة آدم . ومن بديع نظم القرآن، وعجيب أسلوبه، أن نرى الفصل بينها وبين غيرها من القصص يطول ويقصر؛ نتيجة لقرب هذا الغرض أو بعده، ففي سورة الأعراف مثلاً يطول الفصل بين قصة آدم، وبين القصص الذي ذكر بعدها وأوله قصة نوح، وهذا -بالطبع-؛ لأن قصص الأنبياء بدءاً بنوح وانتهاءً بموسى في سورة الأعراف كان حديثاً عما كان بينهم وبين أقوامهم، ولكننا نرى هذا الفصل يقصر في سورة الحجر؛ ذلك لأن القصة التي ذكرت بعدها قصة إبراهيم، ولم تذكر قصة ابراهيم في هذه السورة من حيث ماكان بينه وبين قومه، وانما كان الحديث عما أكرمه الله به من إرسال الملائكة وبشارتهم له، وهذا ليس غريباً عما كان لآدم - عليه السلام - ولا أود أن أطيل هنا - ، وإنما أردت أن أنبه القاريء وأفتح له الباب ليقرأ ويستقريء؛ فيصل بنفسه إلى ماقررته له .

ثانياً: ان الحديث عن آدم - عليه السلام - هو حديث عن الخصائص والميزات التي خص الله بها هذا الانسان وميَّزه بها عن غيره، كما أنَّه كان حديثاً عن تلك الإستعدادات والغرائز التي هيأها الله لهذا الإنسان أرضية كانت أم علوية؛ فقد أخرج الترمذي مرفوعاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن[1] والخبيث والطيب»[2] لاعجب إذن أن نجد آدم بعد أن يعهد الله إليه أن ينسى، وان يخور عزمه ويفتر عما عهد الله إليه، ولا عجب إذن أن نجد ربنا تبارك وتعالى يهيء لآدم مايصلحه ليصلح لعمارة هذه الأرض، وان يُزَوَّد بهذه الاستعدادات التي لا بد منها لعمارة الأرض، وإدارتها وتلك هي الخلافة وهذه الاستعدادات: الاستعداد الجنسي أولاً؛ وكان له بعد أن تم خلقه حيث أمره أن يسكن هو وزوجه الجنة. وحب البقاء ثانياً؛ وهو ماطبع الإنسان عليه من هذا الأمل، وحب التملك ثالثاً؛ ومن نتيجته هذا التنافس بين الأفراد والشعوب والأمم، والتدين أخيراً حتى

---

(١) الحزن - الصعب.

(٢) سنن الترمذي أبواب تفسير القرآن، من سورة البقرة حديث رقم ٢٩٥٨ جـ٨ ص١٥٤ قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

يستطيع أن يضبط الاستعدادات السابقة؛ فلا يطغى بعضها على بعض، ولا يبغي أحد على الآخر، وفي حديث الرسول عليه وآله الصلاة والسلام «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»[1] ومن اجل ذلك يحرص إبليس على أن يغوي هذا الإنسان ويضله ويضعف هذا الوازع الديني في نفسه.

ثالثاً:ـ قضية التدين هي قضية فطرية في الإنسان منذ أن خلقه الله تبارك وتعالى، وعرفه خالقه الواحد القدير، وإنّما ذكرنا هذا؛ لنرد على أولئك الذين يسمون علماء الأديان وهم الذين يدرسون الدِّين كظاهرة اجتماعية تاريخية، وتنتهي بهم دراستهم الخاطئة إلى أن عقيدة التوحيد لم يصل اليها الإنسان إلا بعد شوط طويل زاول خلاله الخرافة، وتعدد الآلهة وغير ذلك؛ مما هو بعيد كل البعد عن عقيدة الإله الواحد. إن الله خلق هذا الانسان سليم الفطرة، حنيفاً بعيداً عن الشرك والباطل؛ ولكن هذا الانسان انحرف بفطرته فيما بعد.فقضية الخرافة والتعدد قضية عارضة في الإنسان، وليست أصلاً كما يقول علماء تاريخ الأديان. وقد قلنا أن إبليس أخذ على عاتقه أن لا يدع ثغرة إلاّ وهو يحاول من خلالها إغواء هذا الإنسان وفي الحديث الصحيح وفي خطبة رسول الله ﷺ الخطبة الرائعة الموجزة الجامعة التي أخرجها الإمام مسلم «ألا إنَّ ربي أمرني أن أُعَلِّمكم ماجهلتم مما علَّمني يومي هذا كُلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عبداً حلال وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ماأحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أُنزل به سلطاناً وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنَّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان وإنَّ الله أمرني أن أحرق قريشاً فقلت ربِّ إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزةً قال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نُغْزِك وانفق فسننفق عليك وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى مسلم، وعفيف متعفف ذو عيال؛ قال: واهل النار خمسة:

---

(١) أخرجه الإمام مسلم وقال السيوطي في الجامع الصغير حديث صحيح / فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي جـ٢ ص٢١٧. حديث رقم ١٦٩٨

الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً لايبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الـذي لا يخفى له طمـع وان دق الاخانَهُ، ورجل لا يصبح ولا يمسي الا وهو يخادعك عن اهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش»[1].

رابعاً:ـ ولقد كرم الله بني آدم بكرامة أبيهم، وخلق هذا الانسان في أحسن تقويم، وليس ذلك خاصاً بجانبي الجسم والروح، وإنما هناك جانب ثالث؛ وهو الجانب الفكري والعقلي الذي هيأه الله لآدم حين علمه الأسماء كلها ففضل على الملائكةُ بهذا الجانب فقال لآدم: ﴿ياآدمُ أنبئْهُمْ بأَسْمَائِهِمْ﴾.

خامساً:ـ الجنة التي أسكنها آدم - عليه السلام -، كانت مهيأة ليجد فيها راحتـه؛ ذلـك لأن عنصر الـطين الذي خلق منه لا يقوى على مقاومة المؤثرات والعـواصف والصـدمـات سيما وانه صلصال سرعان مايتفتت ويتحطم؛ لذلك ضمن الله له مايستطيع أن يقاوم به هذه المؤثرات من شدة البرودة، وشدة الحرارة، ﴿إنَّ لَكَ أن لا تجوعَ فيهـا ولا تَعْـرىَ وانّكَ لا تظمأ فيها ولا تَضْحَى﴾ فالجوعُ والعري، ثم الظمأ وماتسببه الضحوة من شدة حرارة، كل ذلك تكفل الله به لآدم - عليه السلام - ولزوجه في الجنة.

والجنة التي اسكنها آدم يذهب الكثيرون إلى أنها الجنة التي وعدها المتقون، ولكن الذي نرجحه أنها جنة خاصة كانت له، وأنها كانت في الأرض، وان الهبوط الذي أمر آدم به منها انما هو هبوط معنوي لا مادي.

سادساً:ـ ان الله تبارك وتعالى خلق آدم واسكنه الأرض، ولكن بعد أن هيأ له كل ما يصلح له حياته على هذه الأرض ﴿ذلكَ عالُم الغيبِ والشهادةِ العزيزُ الرحيم الّذي أحْسَنَ كُلَّ شيَءٍ خَلَقَهُ وبَدَأ خَلْقَ الإنسان مِنْ طينَ﴾ وكل النظريات التي يتخرص بها أصحابها؛ وبخاصة عشاق التطور؛ ان هي إلا ظن لا يغني من الحق شيئاً، ويؤلمنا أن يذهب بعض المسلمين ممن يحسنون الظن بهذه النظريات الى تأويل نصوص القرآن القطعية الثابتة، لتتفق مع النظريات الهشة وسنناقشهم في خاتمة هذا الكتاب ان شاء الله تعالى.

---

(١) صحيح مسلم جـ١٧ص١٩٦.

فآدم - كما حدثنا القرآن - أبو البشر جميعاً، ورحم الله الإمامَ الشيخَ محمد عبده وعفا عنه: حيث ذهب إلى غير هذا، والى أن آباء البشر متعددون، كل ذلك خوفاً من أن يثبت العلم غير ماقرره القرآن. ولقد كان يحسن الظن بالنظريات وكان ايمانه بالقرآن وحرصه على أن تكون حقائقه ثابتة هو الذي حمله على مثل هذا؛ وكنا نرجو للشيخ -ونحن على يقين من قوة دينه- أن لا يقع في مثل هذه الترهات والأوهام، كما آلمنا كثيراً تأويله لقصة آدم في سورة البقرة تأويلا يخرج الآيات عن ظواهرها، وسيكون لنا عودة لهذا الموضوع ان شاء الله كذلك.

سابعاً: ـ لم يحدثنا القرآن الكريم عن زوج آدم أُمنا الحانية الحنون، وهي التي عرفت بـ «حوّاء» لم يحدثنا القرآن الكريم عن اسمها وعن كيفية خلقها، كل الذي أشار إليه القرآن الكريم في هذا المضمار، وفي سياق غير سياق قصة آدم اشارات موجزة في مثل قول الله ﴿ياأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كثيراً ونِسَاءاً﴾ واكثر المفسرين يذهبون إلى أن الله خلقها من ضلع آدم وهذا ماأشارت إليه التوراة صراحة وربما يستأنسون لذلك بحديث عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام «استوصوا بالنساء خيراً فانهن خلقن من ضلع، وان اعوج مافي الضلع أعلاه»(١)

وذهب بعضهم إلى أن معنى قول الله تعالى ﴿وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَهَا﴾ اي خلقها من جنسه حتى لا يكون بينهما تنافر.

ونحن لا نرى مايلزمنا بأخذ أي الرأيين، وان كنت أَمْيَلُ لهذا القول الثاني، ولا مانع من ان يكون الحديث الشريف تمثيلاً لنفسية المرأة وشخصيتها؛ ولكن القضية المهمة التي ننبه إليها هنا أن القرآن الكريم، لم يحمِّل المرأة مسؤولية الإغواء، كما وجدنا ذلك في بعض الكتب كالتوراة، حيث قالوا: إنها هي التي زينت لآدم أن يأكل من الشجرة.

إن القرآن الكريم لم يحمل المرأة هذه المسؤولية، ولم يخصها بالذكر، وهذا

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة باب رقم (٢) حديث رقم ٣١٥٣، وفي كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء باب (٨٠) حديث ٤٨٩٠

جانب من الجوانب التي يحق للمرأة أن تفخر به؛ إذ لم تكن هي السبب في الارتماء بمصايد الشيطان الذي أدّى إلى الإخراج من الجنة. وإنما آدم هو المسؤول أولاً وآخراً ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (١٢١-طه).

والخلاصة أن قصة آدم جاءت تقرر الركيزة الأولى في حياة الإنسانية، وهي العقيدة الصحيحة؛ عقيدة التوحيد الذي لا تشوبه شائبة شرك، وقضية التدين التي يحاول بعض الناس ان ينازع في فطريتها وكونها من الأصول الأولى التي زوِّد بها هذا الإنسان.

وعجيب أمر القرآن الكريم؛ فإننا نجد ان قصة كل نبي ذكرت فيه، وبخاصة أولي العزم كانت تشير إلى ركيزة جديدة، بني عليها هذا البناء الشامخ الذي نعمت فيه الإنسانية فيما بعد، لولا انها انحرفت عن الجادة.

بقي هنا امر كان ينبغي أن نشير إليه من قبل؛ فلقد علمنا الله أنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، وقد قلت من قبل ان الصلصالية تشير إلى عدم التماسك، وسرعة التفتت، أمَّا الحمأ المسنون؛ فانما يشير إلى سرعة التغير، وفساد العنصر، وهكذا نجد الإنسان هشّاً ضعيفاً وما اكثر أن تجد منه مايزكم الأنوف، وتنكره الطباع، ولكن الله تبارك وتعالى نفخ فيه من روحه فاستحق لذلك هذا التكريم من إسجاد الملائكة له، ولكن ماهذه الروح التي نفخها الله فيه؟! لعل المتبادر أن هذه الروح ذلك الأثر الذي تكون به الحياة، وهذا لا يختص به آدم، بل هو عامٌّ في الكائنات الحية جميعها، لذا يظهر أن الروح التي اكرم بها آدم كانت شيئاً فوق ذلك الذي تشترك به الأحياء صغيرها وكبيرها، والله تبارك وتعالى يقول في كتابه المحكم: ﴿والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ﴾[1] (النور آية ٤٥) ويقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء آية ٣٠) فالحياة أمر لا يخص آدم وحده. الروح التي كُرِّم بها آدم إذن والتي أضافها الله لنفسه سبحانه وتعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (الحجر آية ٢٩) هو ذلكم السِّرُّ الذي يؤيِّد الله به عباده؛ فيستحقون التكريم؛ إنها تلك الجذوة التي تنتشر في أرجاء نفسه، فتشع منها جوانب الخير.

من أجل ذلك امتن الله على هذا الانسان بالتكريم وعَنَّفه على انحرافه عن

الجادَّة؛ ذلكم العنصر العلويّ الذي خُصَّ به آدم - عليه السلام -، فاستحق الخلافة في الأرض. فأين هذا مما يهذي به أصحاب مذهب الوجودية، أو الذين يدّعون تمرُّغ الإنسان بأوحال الجنس، ان الانسانية لن تجد هديها، ولن تكتشف عناصر الخير، ولن تنتشل من وهدتها الا بهذا القرآن، وصدق الله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾. (الإسراء آية ٧٠)

المبحث الثاني

قصة نوح عليه السلام

أولاً : ما ذكر فيها من اشارات قرآنية .

ثانياً : من حيث الموضوعاتُ والجزئيات والمشاهد :ـ

١- في سورة القمر .

٢- في سورة الأعراف .

٣- في سورة الشعراء .

٤- في سورة يونس .

٥- في سورة هود .

٦- في سورة الصافات .

٧- في سورة نوح .

٨- في سورة المؤمنون .

٩- في سورة العنكبوت .

ثالثاً : اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها .

رابعاً : تعقيب على قصة نوح عليه السلام .

قصة نوح عليه السلام:

أولاً: من ما ذكر فيها من إشارات قرآنية:

ونوح هو الأبُ الثاني للبشر، وهو أول الأنبياء الذين تحمّلوا الأذى من أقوامهم؛ فكان مما جرى بينه وبين قومه دروس نافعة هادية للدعاة إلى الله، وهذا لا ينافي ماشتُهر من أن ادريس كان قبله -عليهما وعلى انبياء الله جميعاً صلوات الله وسلامه-(١). ولقد ذكرت قصة نوح عليه السلام في مواضع من سور متعددة؛ فكانت بحق تمثل ذلك الجهاد القاسي، وتحكي لنا ذلك الصراع الهائل على مدى الزمن كله بين المباديء الصائبة التي يدعو إليها أنصار الحق، والأنانية الخائبة التي تسيطر على أنصار الباطل.

ذكرت قصة نوح -عليه السلام- في بضع عشرة سورة جاء بَعْضُها في اثناء الحديث عن الأقوام المكذبين، أو عن الأنبياء المؤيدين بنصر الله مجملاً دون تفصيل، بينما جاء بعضها الآخر قَصَصاً مستقلاً فصلت فيه بعض الأحداث والمشاهد.

فمن القسم الأول ماجاء في سورة النجم و (ص) والفرقان والذاريات والأنبياء والحاقة، ففي سورة النجم ﴿وأنَّه أهْلَكَ عَاداً الأُولى وَثَمُودَ فَما أبْقَى وَقَومَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنَّهُمْ كانُوا هُمْ أظْلَمُ وأطْغَى﴾ (الآيات ٥٠-٥٢).

---

(١) اختلف الناس في ذلك فذهب بعضهم الى ان نوحاً هو أول الرسل على الإطلاق وهؤلاء لم يعدوا آدم نبياً وقالوا إن إدريس هو الياس وكان بعد نوح، وعلى هذا القول يكون نوح أول رسل الله تعالى، وذهب الآخرون من القائلين بنبوة آدم وبأسبقية ادريس إلى أن نوحاً عليه السلام كان أول الرسل الذين لقوا من أقوامهم العنت والمشقة، ومع ترجيحنا لنبوة آدم الا أن نوحاً عليه السلام كان أول الرسل الذين بعثوا لأهل الأرض وهذا لا يدل على عموم رسالته، إنما بعث لقومه خاصة وربما كان لايوجد غير قومه من الناس في ذلك الوقت لقرب العهد بينه وبين آدم عليهما السلام.

أمـا سورة (ص): فقـد جاء فيها قول الله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُم قَوْمُ نوحٍ وعادٌ وفِرعَوْنُ ذُو الأَوْتَاد﴾ (الآية ١٢).

ثم جاءت سورة الفـرقان لنقرأ فيها قول ربنا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُم وَجَعْلْنَاهُمْ لِلْنَاسِ آيةً وأَعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيمًا﴾ (آية ٣٧).

ثم جاءت سورة الذاريات فيها قول الله ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَاً فاسِقين﴾ (آية ٤٦).

واما سورة الأنبياء -عليهم السلام- ففيها هاتان الآيتان ﴿ونوحاً إِذْ نادى من قَبْلُ فاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وأَهْلَهُ من الكَرْب العَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القَوْمِ الَّذين كَذَّبُوا بِآياتِنَا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينْ﴾ (الآيات ٧٦، ٧٧).

لكن سورة الحاقة جاء فيها هذا الامتنان الإلهي ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الَماءُ حَمَلْنَاكُمْ في الجارِيَةِ لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وتَعِيَهَا أُذُنٌ واعِيةٌ﴾ (الآيات ١١، ١٢).

وهذه الإشارات -كما قلت- جاء أكثرها في معرض الأقوام المكذبين، وجاءت واحدة منها في سياق الحديث عن الأنبياء؛ وهي آية الأنبياء، ومع ذلك فإنا نجد كل آية من هذه الآيات لم تكـرر نفسهـا؛ وإنما كان في كل واحدة منها إشارة، ومعلومة جديدة؛ فآية النجم مثلاً، بينت ان قوم نوح كانوا أكثر من غيرهم ظلمًا وطغياناً، وأما آية (ص) فقد جاءت إثر خصومة المشركين للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، تسلية له وتطميناً لقلبه الشريف ﴿جُنْدٌ ماهُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قومُ نُوحٍ وعادٌ وفِرْعَوْنُ ذو الأَوْتاد﴾ (الآيات ١١، ١٢).

وأما آية الفرقان فقد جاءت بشيء جديد لم يذكر في السورتين المتقدمتين وهو أن قوم نوح حينما كذبوا نبيهم؛ فكأنما كذبوا الرسل جميعاً. وتلك إشارة إلى أن الرسل عليهم السلام أمة واحدة، كما بينت السورة، ان ذلك كان سبباً في اغراقهم وجعلهم للناس آية.

وجاءت سورة الذاريات لتصفهم بوصف جديد وهو الفسْقُ ﴿إنَّهم كانُوا قَوْماً فاسِقِين﴾.

أما سورة الأنبياء؛ فقد تحدثت عن نوح - عليه السلام - بأنه حين نادى ربه

استجاب له، ونصره على القوم الكاذبين، ووصفتهم بأنهم قوم سوء فأغرقوا أجمعين، وجاءت سورة الحاقة فيها الامتنان على الناس بأنهم حملوا في الجارية، فكان في ذلك تذكرة تحتاج إلى أذن واعية لتعيها وتفيد منها.

ثانياً: من حيث الموضوعات والجزئيات والمشاهد:

أما السور التي تحدثت عن قصة نوح عليه السلام حديثاً مستقلاً مجملا تارة ومفصلا أخرى فهي: سورة القمر والأعراف والشعراء ويونس وهود والصافات ونوح والمؤمنون والعنكبوت، وسنقف مع كل سورة -إن شاء الله- لنرى أي روعة، وأي سمو وأي منهجية، ! تفرد بها هذا الكتاب الكريم.

١- سورة القمر: جاء في هذه السورة الكريمة:-

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ[1] ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[2] ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

وهذه الآيات الكريمة جاءت إثر الحديث عن تكذيب أهل مكة الذين إذا رأوا أي آية يقولون سحر مستمر، والذين كذبوا ولم يحملهم على هذا التكذيب

---

(١) وازدجر: أي انتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم.

(٢) دسر: جمع دسار وهو المسمار فعال من دسره اذا دفعه؛ لأنه يدسر به منفذه.

شكهم في الآيات أو عدم اقتناعهم بها، وإنما الذي حملهم شيء واحد هو: اتباع الأهواء، مع أنه جاءهم من الأنباء مايكفي لزجرهم عن غيهم؛ نعم إنها حِكَمٌ بالغة، ولكن ماتغني النذر عن الذين حكموا الهوى وأبوا الانصياع للحق.

بعد ذلك يحدثنا القرآن الكريم عن قوم نوح، واذا كان أهل مكة وصفوا النبي عليه وآله الصلاة والسلام بالجنون ووصفوا الآيات الواضحات بالسحر فلم يكن النبي بدعاً من الرسل فهاهم قوم نوح يصفون نبيهم كذلك.

ثم تحدثنا السورة عما جرى بين نوح وبين قومه؛ لكنها اجملت لنا ذلك كله بعبارة موجزة ﴿فَدعَا ربَّه أنِّي مغلوبٌ فانتصر﴾؛ ونرى في الآيات بعض التفصيل فيما كان بعد هذا الدعاء، فأبواب السماء كلها فتحت؛ ينهمر منها الماء، والأرض كلها فجرت عيونا؛ فالتقى ماء السماء وماء الأرض ولكن نوحاً حمل على «ذات الواح ودسر». وأخذت السفينة المصنوعة من الألواح والمسامير تجري برعاية الله تبارك وتعالى، ولقد تركت بعد آية للمتذكرين، فما أعظم العذاب! وما أشد النذر! هذا مابينته سورة القمر، وهي السورة الأولى التي تحكي لنا شيئاً عن خبر نوح - عليه السلام - مع قومه.

٢- أما **سورة الأعراف** فلقد كان حديثها بأسلوب آخر؛ إذ حدثتنا عن بعض ما قاله نوح - عليه السلام - لقومه، وبعض ماقالوه كذلك، اذ بدأت القصة هكذا «لَقَدْ أرسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمه فقال ياقوم آعبدوا الله مالَكُمْ من إله غيره إنِّي أخافُ عَلَيْكُم عَذابَ يوم ٍ عَظِيمٍ﴾ (آية ٥٩) ولكن الملأ ذوي الوجاهة من قومه المعجبين بأنفسهم قالوا له إنك في ضلال مبين فردَّ عليهم -بكل رقة ومنطق وتسامح- ﴿ياقَوم لَيْسَ بي ضَلاَلَةٌ ولكنّي رَسُولٌ مِنْ ربِّ العَالِمِيْنْ أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالا تَعْلَمُونْ﴾ ولماذا تعجبون أن يأتيكم رجل منكم يحب الخير لكم لينذركم لتتقوا الله فتنالوا رحمته. ولكنهم كذبوا فانجاه الله ومن معه في الفلك، وأغرق المكذبين؛ لأنهم كانوا قوماً عمين، عميت أبصارهم وغلفت قلوبهم.

الآيات هنا لم تفصل لنا ماوجدناه في السورة التي قبلها ولكن كان حديثها عن شيء آخر -كما رأينا- وهو ماقاله لقومه وقالوه له

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

٣ـ ثم جاءت سورة الشعراء، ذات موضوع مستقل، وإذا كان الشعر يحرك كوامن العواطف، ويبعث الشجون في النفوس الرواجف، واذا كان الشعر خفقة قلب، وهمسة خاطر؛ فان الذي يتأمل هذه السورة الكريمة يجد لها من الخصائص التي تذكي المشاعر، وترهف الإحساس ما لا يجده لعيون الشعر، ولا عجب في ذلك .

بدأت هذه السورة الكريمة بقول الله تعالى ﴿بسم الله الرَّحْمٰن الرحيم طسٓمٓ تِلْكَ آياتُ الكتَاب المبين لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ألَّا يكُونُوا مؤمنينَ انْ نشأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أعْنَاقُهُمْ لَهَا خاضِعِينَ﴾ (الآيات من ١-٤).

وفي هذه السورة نقرأ قول الله تعالى يحرك النفوس ﴿إنَّ في ذَلك لآيَةً وَمَا كَانَ أكْثَرُهُمْ مؤمنينَ وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ﴾ نقرؤها ثماني مرات تذكر عقب الحديث عن كل قوم، ففي كل قوم آية كان ينبغي أن يتذكرها المتذكرون.

اما ماجاء عن نوح وقومه في هذه السورة[1]، فقد بدأ بقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قومُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ إذْ قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ نُوحٌ الا تَتَّقُونَ إني لَكُمْ رَسُولٌ أمْينٌ فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ وما أسْألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْريَ إلَّا على رَبِّ العَالَمِينَ فاتَّقوا اللهَ وأطِيعُونِ﴾ ولكنهم تعجبهم أنفسهم ويغرهم كبرياؤهم فكيف يؤمنون له ويصدقونه وقد اتبعه الأرذلون في زعمهم، ويجيبهم -عليه السلام- جواباً فيه كل التلطف ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إنْ حِسَابُهُم إلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَا أنا بِطَارِدِ المؤمِنِينَ إنْ أنَا إلَّا نَذِيرٌ مبينٌ﴾ ولكنهم يضيقون به ذرعا فيتوعدونه ان لم ينته بالرجم، وهنا يضرع إلى ربه بأنَّ قومه كذبوه؛ فليفتح بينه وبينهم فتحاً، ولينجه هو ومن معه من المؤمنين الذين احتقرهم هؤلاء المكذبون، ويستجيب الله فينجيه ومن معه في الفلك المشحون[2] ﴿ثُمَّ أغْرَقْنَا بَعْدُ البَاقِينَ إنَّ في ذَلْك لآيَةً وَمَا كَانَ أكْثَرُهُمْ مُؤمِنِينَ وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرحِيمُ﴾.

كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ

---

(١) الآيات (١٠٥-١٢٢).

(٢) المشحون: أي المملوء.

﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

فنحن نرى أن هذه السورة الكريمة أضافت إلى ماسبق جديداً سواء كان هذا مما قاله نوح - عليه السلام - لقومه أم مما قالوه له. وليتأمل القاريء الكريم في هذه السورة، وفيما جاء قبلها ليجد ذلك بيناً بأجلى صورة، وأسمى بيان.

٤- ثم تأتي سورة يونس[1]، ويكفي أن نقف عند الآية الأولى التي ذكر فيها خبر نوح لندرك ماتفردت به هذه السورة عن غيرها ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نوحٍ إذْ قَالَ لِقَـوْمِـهِ ياقَوْمِ إنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وتَذْكيري بآياتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فأجْمِعُوا أمْرَكُمْ وشُرَكَاءَكُم ثُمَّ لا يَكُنْ أمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثم آقْضُوا إليَّ ولا تنظرونِ، فإنْ تَوَلَّيْتُم فما سألْتُكُمْ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللهِ وأُمِرْتُ أنْ أكُونَ من المسلمينَ﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

(١) الآيات (٧١-٧٣).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

وهكذا كذبوه فاغرقوا ونجاه الله ومن معه . فانظر كيف كان عاقبة المجرمين .
هذا ماجاء في سورة يونس ، ونستشف منه الأبعاد النفسية ، كما نستشعر منه الثقة التي كانت من نوح - عليه السلام - بخالقه ومرسله كما ندرك منه ذلك التحدِّي الذي جابه به نوحٍ قومه ، ولا يستطيع أحد أن يدَّعِي أن ماجاء في هذه السورة إنما هو مكرر من حيث الاسلوب أو من حيث الأحداثُ .

٥ـ أما سورة هود[١] ؛ فلعلها السورة الوحيدة مع سورة نوح -بالطبع- التي ذكرت فيها قصة نوح ، مفصلة مطولة ؛ فلقد فصلت لنا السورة الكريمة الشبهات التي جابهه بها قومه ، كما فصلت لنا الرد على هذه الشبهات واحدة واحدة ، ثم حكت لنا هذا الحوار الذي انتهى بوحيٍ الله لنوح من انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، ثم حكت لنا السورة شيئاً آخر يتعلق بصناعة الفلك ، وماكان من سخرية قومه منه ، ثم اعطتنا وصفاً دقيقاً مؤثراً لحركة السفينة ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ثم بيَّنَت لنا مَنْ سبق عليه القول من أهله بأنهم لن يؤمنوا وما آمن معه إلا قليل ، وأخيراً حدثتنا القصة عن أمرين ذَويْ خطرٍ :

أولهما :ـ ماحدث بين نوح وابنه ، وثانيهما : ماكان من سؤال نوح لربه تبارك وتعالى وماجابه به ربه .

والحق ان في قصة نوح في هذه السورة الكريمة دروساً هادية هادفة ؛ لا بد أن يقف عندها المصلحون ، ورجال الدعوات ، وعلماء الاجتماع ، وسيدرك أولئك جميعاً أن هناك قضايا أساسية يشترك فيها الناس جميعاً مهما تباعد الزمن ، وتطاولت

---

(١) الآيات (٢٥-٤٨) .

الدهور، واختلفت العصور، فالشُبَهُ التي ألقاها قوم نوح؛ هي نفِسها التي نجدها اليوم:-

أولا: ﴿مانراك إلا بشراً مثلنا﴾ وثانياً: ﴿ماتبعك الا الّذينَ هُمْ أراذلُنا باديَ الرأيِ ، وما نَرى لكُم علَيْنا من فضلٍ بلْ نظنُّكُم كاذبينَ﴾ وكيف أن نوحاً - عليه السلام - ردَّ على هذه واحدة واحدة ﴿أرأيتُم إن كُنْتُ على بيّنةٍ من ربي وآتاني رحمةً منْ عِندهِ فعُمّيت عليكم أنُلْزمُكُمُوها وأنْتُمْ لها كارهونَ﴾ ثم هو لا يسألهم مالا ولا أجراً، ان اجره إلا على الله، فماذا يضيرهم بعد ذلك ان كان بشراً!.

ثم يرد الشبهة الثانية، وهي انتقاصهم من المؤمنين فيقول: ﴿وما أنا بطاردِ الذين آمنُوا إنَّهُم مُلاقوا ربِّهم ولكنِّي أَراكُمْ قوماً تجهلون وياقومِ مَنْ يَنْصُرُني من اللهِ ان طَرَدتُّهُمْ أفَلا تَذَكَّرونَ﴾.

اما شبهة الاتهام بالكذب التي وجهوها زوراً له فيردها بقوله ﴿ولا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ أني ملكٌ ولا أقولُ للذينَ تَزْدري أعينُكُمْ لَنْ يؤتيَهُمُ الله خيراً اللهُ أعلمُ بما في أنفسهِم إني إذاً لَمِنَ الظالمينَ﴾ فأين الكذب بعد ذلك.

وحينما يرون أن الحجة تلزمهم، وقد ردت شبهاتهم واحدة واحدة، لم يجدوا مركباً الا متن العناد والغواية، وهاهم يقولون بعد ذلك كله ﴿يانوحُ قد جادلتنَا فأكثرتَ جدالَنا فأْتِنَا بما تعدنَا إن كنتَ منَ الصادقينَ قال إنَّما يأتيكُم به اللهِ انْ شاء وما أنتُم بمعجزينَ﴾ وهاهو يضيق بهم صدره، ويتضاءل أمامهم نهيه وامره؛ فيقول ﴿ولا ينفعُكُمْ نُصْحي انْ اردتُ أن انصحَ لكُمْ ان كانَ اللهُ يريدُ أن يُغويَكُمْ هو رَبُّكُم واليه تُرْجَعُونَ﴾ وهنا يرد القرآن الكريم مقالة اجتمع عليها اعداء الحق ونفاة الأديان منذ نوح حتى اليوم وإلى مابعد ذلك، وهي اتهامهم الأنبياء والدعاة بالافتراء على الله، ويرد الله عليهم ﴿قُلْ ان افتريتُه فعلَّي إجرامي، وأنا بريءٌ مّما تُجرمونَ﴾ ويوحي الله إلى نوح -عليه السلام- ﴿أنه لنْ يؤمِن من قومك الا من قد آمنَ فلا تَبْتَئِسْ بما كانوا يفعلونَ﴾ وتكون المعجزة، ويأمره الله ويوحي إليه ان يصنع الفلك برعايته -سبحانه- أما أولئك الذين ظلموا أنفسهم باعراضهم عن الحق، واحتقارهم لغيرهم من المؤمنين؛ فلا ينبغي لنوح ان يخاطب الله في شأنهم؛ فانهم

مغرقون، ويبدأ نوح صناعة الفلكَ؛ ولكنهم يمرون به فيسخرون منه فالفلك إنما تجري في الماء ولا ماء فَلِمَ هذا الفلك إذن؟! إن ذلك لا يعني الا العبث والجنون، ولكن يقول لهم: ﴿إنْ تسخروا منّا فإنا نسخرُ منكُم كما تسخرونَ فَسَوفَ تعلمونَ من يأتيهِ عذابٌ يخزيه ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيمٌ﴾. وتحين الساعة، ويجيء الأمر، ويفور التنور، ويؤمر نوح ان يحمل فيه من كل هذه المخلوقات زوجين اثنين ومن آمن، وليسوا إلا قليلاً! قيل انهم لم يزيدوا على بضعة عشر يحملهم ويحمل اهله -الا من سبق عليه القول-، وتسير السفينة «بسم الله مجريها ومرساها»، وتجري بهم في موج كالجبال، وينادي نوح ابنه ليركب معه حتى لا يكون مع الكافرين، ولكنه يأبى؛ لأنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، ويقول نوح: لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم، ويحول بينه وبين ابنه الموج فيكون من المغرقين، ويتم أمر الله، ويبلغ الأمر غايته، وهنا يصدر الأمر للكون. وقيل: ياأرضُ ابلعي ماءكِ، وياسماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي[1]، وقيل بعداً للقوم الظالمين.

وينادي نوح ربَّه فقد أمره ان يحمل اهله وابنه من أهله، ووعد الله حق وهو احكم الحاكمين، ويعلِّم الله نوحاً درساً هو له ولذريته مادامت الحياة، ﴿انَّه ليس من اهلك، إنَّه عملٌ غير صالح، فلا تسألن ماليس لك به علم اني أعظك ان تكون من الجاهلين﴾ انَّ الاهلية أهلية العقيدةَ أولاً، وقبل كل شيء، أمَّا الوشائج وصلات القربى فكلها تتضاءل وتتلاشى ان لم تربطها العقيدة بروابطها المحكمة، وهذا من أول ماينبغي ان يعلمه الناس، فضلاً عن الأنبياء. ويرجع نوح إلى نفسه معتذراً إلى ربه ﴿إني اعوذ بك ان أسألك ماليس لي به علم﴾ ويطلب مغفرته ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين ويكرم الله نوحاً فيستجيب له ﴿يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾.... إلى آخر مافي القصة من ثروات هائلة لكثير من كليات الإصلاح والقضايا الاجتماعية، وهذا -بالطبع- عدا مافيها من فنون البيان، وبلاغة التراكيب، وروعة الأساليب، وماعلى القاريء الكريم الا أن يفتح المصحف وبالتحديد سورة هود؛ ليقرأ بتدبر هذه الآيات الكريمة، وسيجد أن كل ماجاء فيها من مواقف واحداث كان ذا صبغة

---

(١) غيض الماء: من غاضه إذا نقصه، استوت: استقرت على الجودي وهو جبل بالموصل.

جديدة، اذا قيس بما جاء من هذه القصة في السور التي سبقت سورة هود، والتي تحدثنا عنها من قبل.

وتختتم القصة بهذه الآية الكريمة خطاباً للنبي عليه وآله الصلاة والسلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نوحيهَا إليكَ ماكُنْتَ تعلمُهَا أَنْتَ ولا قومُكَ مِنْ قَبلِ هذا فاصْبِرْ إنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ

إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ

أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

٦ـ اما **سورة الصافات**، فلقد عرضت للقصة من جانب آخر، ومن زاوية أخرى، فيها الجدة من حيثُ الموضوعُ والاسلوبُ فلم تحدثنا عن إرسال نوح لقومه وماقاله لهم، وماقالوه له -كما رأينا في سورة هود وماقبلها- وإنما كان الحديث يقتصر على إكرام الله لنوح عليه السلام، وما منَّ به عليه من منن كثيرة، وما أنعم به وتفضل عليه من نعم وإفضال، والناظر في سورة الصافات يجد ذلك واضحاً بيناً أيّما بيان. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نادَانَا نُوحُ فَلَنِعْمَ المجيبونَ وَنَجَّيْناهُ وأهلَهُ من الكَرْب العظيم وَجعَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ هُمُ الباقِينَ وَتَركْنا عليْهِ في الآخرينَ سَلامٌ على نُوحٍ في العَالَمين، إنَّا كَذَلك نَجْزِي المُحْسِنينَ، إنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المؤمنينَ ثُمَّ أغْرقْنَا الآخرينَ﴾(١).

هذا ماجاء في سورة الصافات من خبر نوح - عليه الصلاة والسلام - فليس هنـاك ذكر للمحاورات بينه وبين قومه، وليست هناك حجج يدلي بها وشبهات يردُّهـا، كل مافيهـا هذا الاكرام الذي تحدثت عنه من قبل ﴿نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾ ثم يذكر سبحانه كيف نجاه واهله من الكرب العظيم، وجعل هذا العالم كله من ذريته وترك له ثناءً حسناً سيبقى إلى يوم الدين. . . وهكذا كان مافي

---

(١) الآيات (٧٥-٨٢).

السورة مغايراً لما جاء في السور قبلها.

٧ـ ثم جاءت سورة نوح، وما اشبهها بسورة يوسف من حيثُ اختصاصُها بالحديث عن نوح وحده - عليه السلام -، كما اختصت سورة يوسف بالحديث عن يوسف - عليه السلام -.

بدأت السورة بالحديث عن إرسال نوح لقومه، ولكنها هذه المرة بدأت بأداة التوكيد (إنَّ) وليس بأسلوب القسم الذي رأيناه من قبل- الذي جاء فيه (ولقد أرسلنا)؛ لأن القصص السابقة جميعاً جاءت في أثناء السور، أما هنا فقد جاءت بداية السورة وفاتحتها:ـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

ونلحظ في هذه المقدمة:ـ

أولاً:ـ أمر الله تعالى نوحاً بإنذار قومه، وقد كان في الآيات السابقة حديث نوح نفسه - عليه السلام - (إني لكم نذير مبين).

ثانيا:ـ ولأول مرة يأمرهم نوح بهذه الأوامر الثلاثة: العبادة، وتقوى الله، والطاعة لنوح. وهو سر بديع رائع اختصت به هذه السورة؛ إذ يظن الكثيرون أن العبادة والتقوى شيء واحد، ولكن شتان بينهما، فما أبعد الفرق بين العبادة والتقوى! فكم من عابد لا تصل به عبادته ولا ترتفع به إلى مرتبة التقوى!.

ونلحظ ثالثا:ـ وعد نوح لقومه بالمغفرة والتأخير إلى أجل مسمًّى.

وإذا كان هذا مانلحظه في مقدمة السورة؛ فإن مابنيت عليه السورة الكريمة

كان كذلك جديداً من حيثُ الموضوعات والجزئياتُ والأسلوبُ، تحدثنا سورة نوح - عليه السلام - ﴿قال ربِّ إني دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائي إلاّ فِراراً وَإني كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعَلُوا أصابعَهُمْ في آذانهِمْ واسْتَغْشُوا ثِيَابَهُمْ وأصرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ثُمَّ إني دَعَوْتُهُمْ جِهاراً ثُمَّ إني أعْلَنْتُ لَهُمْ وأسْرَرْتُ لَهُمْ إسْرَاراً﴾ ويستمر الحديث عما قاله لقومه ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ انَّهُ كَانَ غفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَمْدُدْكُمْ بِأمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أنْهَاراً﴾ ثم يبكتهم ويعنفهم ويؤنبهم؛ لأنهم لا يعظمون الله تبارك وتعالى ولا يرجون له وقاراً وكان من حق الله أن يعظم ومن حقهم أن يعظموه؛ لأنه خلقهم أطواراً، ثم يذكرهم - بعد أن بين لهم آيات الله في أنفسهم وكيف انتقلوا من طور إلى طور- آيات الله في هذا الكون ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ القَمَرَ فيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ ثم يلفت أنظارهم إلى أن الله الذي أنبتهم من الأرض سيعيدهم فيها ويخرجهم «وهو الذي ذلل لهم هذه الأرض وجعلها بساطاً» ذات سبل واسعة متعددة.

وبعد هذا يخاطب نوح ربه معلناً عصيان قومه له، واتباعهم الذي لا يزيده ماله وولده إلا خساراً، ويتحدث عن مكرهم، وعن أقوالهم في شأن أصنامهم، ونتيجة ذلك كله: إنّ هذه الخطيئات جميعاً كانت السبب في إغراقهم ودخولهم النار، وتختم السورة بدعاء نوح ربه على قومه ويطلب المغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً.

هذه السورة كانت نمطاً جديداً -كما رأينا-؛ وفيها من دقائق الكون، ومن حقائق العلم الكثير الكثير مثل: «سبع سماوات طباقاً»، والتعبير عن القمر بأنه نور وعن الشمس بأنها سراج[1] وقوله ﴿أنبتكم من الأرض نباتا﴾[2] ولم يقل إنباتاً مع أنه هو المصدر. كما قرأنا فيها لأول مرة معلومات عن عبادتهم، وأسماء أصنامهم، ولا يرتاب أحد من أن سورة نوح كانت طرازاً جديداً لم يسبق له مثيل من قبل.

---

(١) لأن القمر يستمد نوره من الشمس.

(٢) لأن الإنسان ليس الا من عناصر الأرض وهذا ماتعطيه كلمة (نبات).

٨ـ بقي من السور التي تتحدث عن نوح - عليه السلام - سورتان اثنتان؛ سورة المؤمنون[٣]، وقد بدأت هكذا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ: فَقَالَ: يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ أفَلَا تَتَّقُونْ﴾ ويجيبه الملأ الذين كفروا من قومه قائلاً بعضهم لبعض ﴿ماهَذَا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يريدُ أنْ يتفضلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأنْزَلَ مَلَائكَةً ماسَمِعْنَا بهَذا في آبائِنَا الأولِينَ إنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حينٍ﴾ ويناجي نوح ربه معلناً تكذيب قومه له، ويوحي الله إليه بصناعة الفلك برعايته سبحانه، فإذا جاء الوقت المعين فليسلك فيه من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول، فإذا استوى على الفلك هو ومن معه فليدع بهذا الدعاء ﴿الحَمْـدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ القَوْمِ الظَالِمِينَ﴾ وليقل كذلك ﴿رَبِّ أنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وأنْتَ خَيْرُ الْمنْزِلِينَ﴾ ولأول وهلة ربما يظن بعض الناس أن هذا تكراراً لما جاء في سورة هود في بعض مقـاطعهـا وأحداثها، ولكنك حينما تنعم النظر أيها القاريء الكريم؛ فإنك ستجد ما ينافي ذلك دون شك.

كان الخطاب في سورة هود من الملأ الذين كفروا في قومه لنوح - عليه السلام - ﴿مانَرَاكَ إلاَّ بَشَرَاً مِثْلَنَا﴾، أما هذه السورة الكريمة فتبين لنا أن الخطاب كان من بعضهم لبعض، كان من أولـئـك السادة المتنفذين لغيرهم ﴿ماهَذا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾. وتلك قضية اجتـماعية مهمـة نجدها في مختلف العصور والأزمنة كما نجدها في مختلف الأمصار والأمكنة؛ فكم من عاتٍ مستكبرٍ كان سبباً في اهلاك غيره من أولئك المستضعفين، ولهذا نجد القرآن الكريم قد أعطى هذه القضية عناية خاصة، وذلك حتى لا يكون كثير من الأفراد من الامَّعات، ويكفي أن نقرأ مثلا قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿إذْ تَبَرَّأ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذينَ اتَّبَعُوا﴾ (آية ١٦٦)، وفي سورة سبأ ﴿يَقُولُ الَّذين اسْتُضْعِفُوا لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أنْتُمْ لَكُنَّا مُؤمنِينْ﴾ (آية ٣١)، وفي سورة ابراهيم ﴿وبَرَزُوا للهِ جَميعاً فقالَ الضُعَفَاءُ لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أنْتُمْ مُغْنونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ من شيءٍ قالُوا لَوْ هدانَا اللهُ لَهَدَينَاكُمْ سواءٌ عَلَينَا أجزعْنا أم صَبَرْنَا مالَنا مِنْ مَحِيص﴾ (الآية ٢١)، إلى غير ذلك من المحاورات بين المستكبرين والمستضعفين.

---

(٣) الآيات (٢٣-٣٠).

وتأتي قصة نوح في سورة المؤمنون لتبين لنا تلك القضية المهمة: كما قرأنا في القصـة كذلك الأثر السيء لتقليد الآباء في الباطل وكون الرسل لا يكونون الا ملائكة كما تفردت السورة بهذا الدعاء الذي جاء في آخرها.

مشاهد القصة في سورة المؤمنون إذن ليست مشاهد مكرورة أبداً؛ بل الأمر على العكس من ذلك تماماً

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

٩ـ أما سورة العنكبوت، فلقد جاءت في هذه اللقطة القصيرة

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

وإذا كانت هذه آخر سورة تُحُدِّثَ فيها عن نوح - عليه السلام -؛ فلقد جاءت القصة فيها تلخيصٌ لما مر؛ ولكنه تلخيصٌ اشتمل على كثير من الفوائد كذلك، ويكفي بيان المدة التي مكثها نوح - عليه السلام - في قومه ولم يسبق لها بيان من قبل: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إلاَّ خَمْسِينَ عاماً﴾ ماأجمل هذه اللفتة البيانية، وهي التعبير بالسنة عن المدة التي قضاها نوح في قومه؛ لأن السنة تشير إلى الشدة والصعوبة، والتعبير بالعام عن المدة التي لم يكن مع قومه فيها والعام فيه معنى اليسر، كما أن السنة تطلق على التقويم الشمسي، والعام على القمري وهو أقل بأحد عشر يوماً، ففي السنة إشارة إلى الطول والشدة.

ولا بد أن نشير هنا إلى ملحظين مهمين:-

أما أولا: فهو هذا الاتساق بين القصص القرآني، حيث تبدأ السورة بإشارات موجزة وتنتهي كذلك؛ فقصة آدم - عليه السلام - في العهد المكي رأينا أن آخر سورة تحدثت عنها سورة الكهف بلقطة قصيرة موجزة مجملة؛ لكنها لم تخل من فائدة، وكذلك قصة نوح - عليه السلام - كانت آخر سورة تحدثت عنها سورة العنكبوت كما رأينا، ويشهد الله ان في ذلك غاية الإبداع، ونهاية الروعة، وروح الإيجاز وسر الإعجاز.

وأما ثانياً: فنجد أن قصة نوح لم تذكر الا في السور المكية على العكس من قصة آدم، فقد ذكرت في سورة مدنية، وهي سورة البقرة وذلك لأن الحديث عن آدم إنما هو حديث عن خصائص الإنسان، فإن آدم هو الأصل وهذا لا يختص بمكان دون مكان هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فلأن قصة نوح كانت شبيهة بما كان في العهد المكي، حيث الشبهات والافتراءاتُ.

وبعد، فهذه قصة نوح عليه السلام كانت في سور القرآن المتعددة ذات صور متعددة، كل واحدة تأخذ بحُجَز الأخرى؛ لتكملها، وهي والله كاملة. . .

ثالثاً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها:-

وهكذا اختصت كل سورة بجانب من جوانب هذه القصة، وما بقي علينا الآن إلا أن نبذل المحاولة مستعينين بالله لنبحث عن السرِّ علَّنا ندرك السبب الذي اختصت كل سورة بما ذكر فيها، فأقول وبالله التوفيق وهو الفتاح العليم.

أماسورة القمر ذات الآيات القصار، والنبرة القوية، فإنها جاءت تحدث عن المكذبين الذين لا يؤمنون بالآيات -رغم سطوعها وظهورها- ويكفي هذه البداية: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القمرُ وإنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويَقُولوا سِحْرٌ مستمرٌ﴾. . . الآيات إذن جاءت رداً حاسمًا على أولئك المعرضين، وتطميناً قوياً، وتثبيتاً مكيناً للنبي عليه وآله الصلاة والسلام وللمؤمنين كذلك. وما جاء في قصة نوح جاء متناسباً مع موضوع السورة وشخصيتها، بل مع بدايتها كذلك «اقتراب الساعة»، والدليل على مانقوله: هذه الفاءات المتعاقبة التي نجدها في القصة ﴿فَكَذَّبوا عَبْدَنَا فَدَعَا رَبَّهُ﴾ ﴿فانتصر﴾ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّماءِ﴾ ﴿فالْتَقَى الَماءُ﴾، ونلحظ أن النتيجة هنا جاءت سريعة؛ لم يكن بينها وبين مقدماتها مراحل طويلة، وهذا مايقتضيه موضوع السورة - كما قلت -، بل السورة مبنية كلها على هذه الحقيقة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ونذرِ﴾ وهكذا نجد الإتساق والتناسب التامين في السورة كلها من حيث موضوعها والقصص الذي ذكر فيها، والله أعلم.

أما سورة الأعراف، وهي السورة التي حدثتنا عن العقيدة من حيث تاريخها السحيق البعيد فقد بدئت بهذه الآية ﴿المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤمنين﴾ فأصحاب العقيدة لا ينبغي أن يجدوا حرجاً مما خصهم الله به رغم ما يجدونه من العقبات والمعوقات ثم امتنت السورة على الناس بأن الله مكنهم في الأرض، وجعل لهم فيها معايش فلا بد من أن يشكروه على نعمه، وذكرت قصة آدم ووجهت بعدها نداءات متعددة لبني آدم، ثم جاءت قصة نوح فوجدناها تتناسب مع موضوع السورة وما يتضمنه من نعم على بني الإنسان ليشكروه، ولا أدل على ذلك من هذا الخطاب الذي يخاطب به نوح قومه

من أنه بلغهم رسالات ربه، ونصح لهم، ومن أنه رجل منهم جاء لينذرهم حتى تنالهم رحمة الله تبارك وتعالى، وهكذا نجد السورة في بنيتها كلها تقوم على هذا الأساس، وهو التذكير بآلاء الله ونعمه.

أما سورة الشعراء، فلقد جاءت القصة تتناسب مع موضوعها وشخصيتها -كما تحدثنا من قبل- فهي التي جمعت أعظم ماللشعر من خصائص تهيج الوجدانات، وتهيج المشاعر مع سموها، وعلو شأنها على الشعر، -ولله المثل الأعلى-، والتالي لقصة نوح ولغيرها في هذه السورة الكريمة يجد ذلك الأسلوب الأخّاذ، ونكتفي بما ذكرناه من الآيات الكريمة من قبل، راجين أن يكون مصداق ماأشرنا إليه هنا.

أما سورة يونس فإنَّ موضوعها تعنت الكافرين، وعجبهم من أن يرسل الله رجالاً منهم يوحي إليهم. والمتأمل في آيات السورة يجدها كلها بنيت على هذا الموضوع، ولقد جاءت قصة نوح تتناسب مع ذلك الموضوع تناسباً تاماً ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ياقَوْمِ إنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيري بآياتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ. . .﴾ الخ الآيات.

ولكن سورة هود، وهي التي يقول فيها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم «شيبتني هود»[1] نجدها اشتملت على مالم تشتمل عليه سورة مثلها، وما أكثر المواقف التي اشتدت على نوح - عليه السلام -!! الشبهات أولا، ثم تيئيس الله له من عدم إيمانهم به، ثم سخريتهم منه، ثم ماكان من شأنه مع ابنه، ثم عتاب الله تبارك وتعالى له حينما خاطب ربه في هذا الشأن ﴿يانُوحُ إنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنِّي أَعِظُكَ أنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ كل ذلك يتناسب مع مابنيت عليه السورة من أهوال وشدائد.

---

(١) أخرجه الترمذي / سنن الترمذي أبواب تفسير القرآن / من سورة الواقعة حديث رقم ٣٢٩٣ جـ٩ ص٣٦ الحديث «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»، قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس الا من هذا الوجه.

أما سورة الصافات، -وهي الملائكة- فهي تتحدث عن طاعة أولئك العباد المكرمين لله من ملائكة ورسل ومؤمنين، وماخص الله به أولئك العباد من نعم، فنجاهم من الأهوال. وقصة نوح في السورة -كما رأينا من قبل- لا تخرج عن هذا الموضوع ﴿وَلَقَدْ نادَانَا نوحٌ فَلَنِعْمَ الْمجِيبون﴾ إنها سورة المنن والألطاف. والمنعم في السورة يجدها كلها على هذه البنية، وربما سيمر بنا طرف من ذلك إن شاء الله تعالى.

ونظن أن الأمر في سورة نوح بينٌ؛ فليس في السورة كلها إلا الحديث عن نوح، بل نلحظ أمراً آخر في السورة الكريمة، وهي أنها كلها كما كانت حديثاً عنه فهي حديثٌ له كذلك، فكل مافي السورة ليس إلا قولاً له عليه السلام، حتى الآيات التي نسب فيها القول لقومه ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ جاءت محكية على لسان نوح - عليه السلام -، فلم تأت مجردة عن قوله وهذه هي الآيات نتأملها ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي واتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُه إلَّا خَسَاراً، وَمَكَرُوا مَكْرَاً كُبَّـاراً وَقَالُوا: لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولاتَذَرُنَّ وُدَّاً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ ويعوق ونسْرَاً﴾ السورة كلها إذن محكية على لسانه عليه الصلاة والسلام ابتـداءً من أولها ﴿قَالَ ياقَوْمِ إنِّي لَكُمْ نَذيرٌ مُبين﴾ ثم ﴿قالَ رَبِّ إنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ ﴿قالَ نُوحٌ ربِّ إنَّهُمْ عَصُوني﴾ ﴿وَقَالَ نوحُ رَبِّ لَا تَذَرْ﴾، فهي من أولها إلى آخرها -كما رأينا- مقولة له صلى الله عليه وعلى نبينا وعلى أنبياء الله جميعاً وسلم تسليماً كثيراً.

أما سورة المؤمنون، فلقد جاءت تتحدث عن الصفات التي تميز المؤمنين عن غيرهم، وقصة نوح في هذه السورة -كما قلنا من قبل- جاءت تتحدث عما يحول بين الإنسان، وبين الإيمان، وهو هذا الاستضعاف والاتباع والرضا بالذل والمهانة.

•

بقيت **سورة العنكبوت**، وهي سورة الدعاة؛ لأنها جاءت تبين ركائز الدعوة ومعوقاتها، كل ذلك باشارات موجزة كافية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الم أَحَسِبَ النَاسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُون﴾ كل مافي السورة مواقف قصيرةً موجزة معبرة تبين مايكتنف الدعوة والدعاة من شدة، وقصة نوح جاءت تتناسب مع موضوع السورة من هذه الحيثيات جميعها، وما على القاريء الا أن يرجع إلى

ماذكرناه في هذه الآيات من قبل. فأنعم النظر أيها القاريء فلعل الله يفتح عليك ويلهمك خيراً مما ذكرته لك وفضل الله كبير وعظيم.

رابعاً: تعقيب على قصة نوح عليه السلام

هذه قصة نوح، ومن خلال روضات الجنَّات في محكم الآيات التي شرفنا بها، ندرك أن نوحاً - عليه السلام - كان يعاني من قضيتين اثنتين يجهد نفسه من أجل أن يرشد قومه ليصلحوا خطأهم فيهما:

القضية الأولى: قضية التوحيد: عبادة الله الواحد، وقد قلنا من قبل ان الله هدى الإنسانية منذ خلق آدم للحق المبين، ولكن اجتالتهم الشياطين ليشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً، وهذا ماترشد إليه الآية الكريمة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ وأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاس فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيه وَمَا اخْتَلَفَ فِيه إلاَّ الَّذينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ماجاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لما اخْتَلَفُوا فيهِ مِنَ الحَقِّ بإذْنِهِ واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِراطٍ مستقيمٍ﴾ (البقرة آية ٢١٣).

كان النـاس أمـة واحدة في عقيدة التوحيد؛ ولكنهم اختلفوا -كما قلنا من قبل-؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. واذا كان نوح - عليه السلام - قد عانى كثيراً من هذا الأمر؛ فإن هناك قضية أخرى نجدها ظاهرة المعالم، بينة الأثر فيما يجد من قومه - عليه السلام -، تلكم هي قضية التفاضل بين الناس، وهو ماعـرف بعـد بالنـظام الطبقي، ولا عجب أن نجد القرآن يعالج هذه القضية ويسجلها عند الحديث عن أول رسول أرسل إلى قومه، وسندرك الغرض من ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

يظهر ذلك جلياً في تلك الشبهات التي وجهها قومه وقد ذاقوا طعم أنفسهم -اللهم لا تذقنا طعم أنفسنا- فسوَّلت لهم بأنَّ هناك فوارق بين الناس؛ فمنهم الوضيع، ومنهم الحقير، ومنهم الأشرف، ومنهم الأرذل، وقد وزعت هذه الشبهة -كما رأينا من قبل- على مساحة واسعة من آيات القرآن مما كان بينه وبين قومه - عليه السلام - ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَّذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ ومرة أخرى ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون﴾ وثالثة ﴿إنْ هُوَ إلاَّ

بَشَرٌ يُرِيدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ ونوح - عليه السلام - يحاول جاهداً، ويصبر مجاهداً أن يبدد هذه النعرة من نفوسهم، ولكن كمن ينفخ في رماد، ويصرخ في واد.

وهناك قضية أخرى ليست بعيدة عن هذه، وإنما تتصل بها اتصالاً مباشراً وثيقاً؛ فنظرة الاستعلاء تقوم أول ماتقوم على دعامة من العنصرية العرقية، ووشيجة القربى وصلة الدم؛ لذلك نجد نوحاً - عليه السلام - يُهيأ له المثل العملي من أجل أن تُجْتَثَّ جذور هذه العنصرية، وهذا مانعنيه عن تلك القضية الأخرى ذات الصلة المباشرة بقضيتنا الأولى: نوح - عليه السلام - ينادي ابنه ليكون معه في السفينة، ولكن الله تبارك وتعالى يبين له أنه ليس من أهله -كما اشرنا لذلك من قبل- وأن ذلك إنما هو أثر قريب الشبه بهذه العرقية التي كانت سبباً في تعالي قومه وفخرهم ﴿اني أعِظُكَ أنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِين﴾ كما جهل قومك ونوح - عليه السلام - يعيب قومه بقوله ﴿ولكني أراكم قوما تجهلون﴾ وحري بك أن تترفع عن ذلك الذي ألفوه وعرفوه.

ونلحظ في قصة نوح أنه لم يرد ذكر لامرأته، كما ورد ذكر آمرأة لوط، مع أن القرآن ذكر المرأتين معاً في سورة التحريم، ونظن هذا -والله أعلم-، لأن امرأة نوح لم يكن لها ذلك الدور الذي كانت تقوم به آمرأة لوط، فقوم لوط كانت جرائمهم كثيرة متعددة من قطع السبيل، وفعل المنكرات الكثيرة، لكن قوم نوح كانت عقدتهم الشرك والتعالي، وفي هذا الجو لن يكون للمرأة دورها في مثل هذا الجو الطبقي، ولهذا كان القرآن يطوي ذكر المرأة في قصة نوح، ويكتفي بالقول ﴿فاحْمِلْ فيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجِينِ اثْنَيْنِ وأهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ا لقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾.

كانت اللبنة الأولى التي ركزت عليها قصة آدم قضية العقيدة، ولا بد من اللبنة الثانية، وهي التي جاءت تركز عليها قصة نوح - عليه السلام -، وهي أن هذه العقيدة ينبغي أن تكون الأساس الذي يتفاضل به الناس وهي بعد الأمر الذي يجب أن يقرب أو يباعد فيما بينهم، وماسوى ذلك من روابط وصلات ووشائج فليس حرياً أن يكون له وزن أو أن يكون له إعتباره إذا كان يتعارض مع هذا الأساس، وإذا لم تحكم العقيدة جوانبه وتسلط عليه أنوارها، وتلك قضية

جديرٌ أن يحسبَ لها حسابها؛ لذلك نجد نوحاً - عليه السلام - يستغفر ربَّه من هذه الرواسب التي وجدها في نفسه من غير قصد، والتي جلبتها ودفعت إليها العواطف، عواطف الأبوة الرحيمة.

قصة نوح إذن تضع اللبنة الثانية في بناء الإنسانية المحكم الذي أراد الله للأنبياء -عليهم السلام- أن يكونوا بناته ومشيِّديه.

أمَّا شخصية نوح - عليه السلام - كما نستشفها من خلال الآيات الكريمة؛ فهي شخصية النبي الصابر الحريص على جلب الخير لقومه مهما كلفه ذلك، ومهما لقي في سبيله، فهاهو يدعو قومه، لا في النهار وحده، بل في الليل كذلك، وقد جعل الله له الليل سكناً. ومن جهة أخرى فهو يستعمل وسيلة الإعلان تارة، والإسرار تارة أخرى وذلك درس حريٌّ بالتأمل.

ومن جهة ثالثة فهو لا يقتصر على التخويف فحسب، وإنما على الإطماع والتبشير ﴿يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بأموالٍ وبَنِينَ ويَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ ويَجْعَلْ لَكُمْ أنْهَاراً﴾ وهو بعد ذلك كله يناقش كل مايأتون به من شبهات وإيشارات؛ ليزيلها من نفوسهم، ولكنه مع ذلك يدافع بقوة عن مبدئه، وعن المؤمنين معه، ورغم المدة التي قضاها بينهم؛ إلا أنهم لم يرعووا، وكان من الممكن أن يستمر في دعوته لولا أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن وما آمن معه إلا قليل، وهنا -وقد أدرك أن لا خير يرجى منهم- يتوجه إلى ربه بهذا الدعاء ﴿رَبِّ لاتَذَرْ عَلى الأرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيَّاراً، إنَّكَ إنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ ولا يَلِدُوا إلَّا فاجِراً كَفَّاراً رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمُؤمِنَاتِ ولا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلا تَبَاراً﴾ حتى دعاؤه على الكافرين لم يكن تشفياً، وإنما من أجل العقيدة ﴿انَّكَ إنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾، وهو درس لو تعلمون عظيم.

وأخيراً يجمل أن نشير إلى ان المدة التي قضاها نوح في قومه، وهي ألف سنة الا خمسين عاماً؛ ربما يجول في بعض النفوس أنها مدة طويلة لم يعهدوا بمثلها لأحد ممن يعاصرون أو يعرفون، ونجيب:

أولا :- بان ذلك اخبر عنه القرآن الكريم، وأخباره صدق لا مرية فيها،

ونجيب: ثانيا لمن يعشقون تعليل الأشياء بان نوحاً كان قريب العهد بادم، وفي ذلك العهد كانت الحياة بعيدة عما طرأ عليها من تعقيد فيما بعد فلم تكن تلك المؤثرات التي تنال من الأبدان والأجسام والقوى الانسانية. ولقد قرأت حديثاً عن بعض المناطق النائية في الاتحاد السوفييتي أن هناك أُناساً متوسط أعمارهم مئة وعشرون أو مئة وثلاثون أو أربعون سنة بعيدون عن تغقيد المدنية الحديثة حتى ان الكثير منهم يظن أنهم لا زالوا في عهد الدولة القيصرية. لا يظنن أحد أني اذكر هذا ليكون دليلا على صدق القرآن - فمعاذ الله واستغفر الله أن اكون من الجاهلين -، لكن الذي أردت قوله: أن الانسان في العهد الأولِ كان له من حيثُ الجسمُ ماليس لمن جاؤوا بعد، وكلمة الفصل إنه خبر القرآن الصادق الذي تطمئن إليه النفوس كاطمئنانها الى أن واحداً وواحداً يساوي اثنين، بل اكثر من هذا. وخطأ الكثيرين وانحرافهم إنما جاء من مثل هذه القضايا التي أرادوا أن يقيسوا بها الغائب على الشاهد وتلك لوثة المادية التي أعجب بها أولئك المرتابون وصدق الله ﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُنيا﴾ (الروم الآيتان ٦، ٧) وهذا الجانبُ ليس هو كل شيء، وما اكثر الجوانب التي يجهلها كثير من الناس، بل اكثرهم ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾.

المبحث الثالث

قصة هود عليه السلام

أولاً : ماذكر فيها من اشارات .

١- سورة الفجر .
٢- سورة القمر .
٣- سورة الأعراف .
٤- سورة الشعراء .
٥- سورة هود .
٦- سورة فصلت .
٧- سورة الأحقاف .
٨- سورة الذاريات .
٩- سورة المؤمنون .
١٠- سورة الحاقة .

ثانياً : لم تفصل قصة هود كقصة نوح .

ثالثاً : تعقيب على قصة هود عليه السلام .

قصة هود عليه السلام:

أولاً: ما ذكر فيها من آيات:

نحب أن نقرر باديء ذي بدء أن عاداً وثمودَ من القبائل العربية التي كان أمرها معلوماً حين نزول القرآن الكريم، فالمؤرخون يقسمون العرب أقساماً ثلاثة:

١ـ العرب العاربة: وهم القحطانيون من أهل اليمن.
٢ـ العرب المستعربة: وهم العدنانيون من أهل الحجاز، وهم نسل اسماعيل بن ابراهيم - عليهما السلام - ومنهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
٣ـ العرب البائدة: كعاد وثمود وطسم وجديس.

لذلك لا نعجب إذا وجدنا القرآن الكريم يشير في كثير من آياته إلى عاد وثمود، وقد تكون هذه الاشارات مبكرة في بعض السور الأولى، كما سنرى ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد وردت الاشارة إلى عاد كما نرى ذلك في سورة النجم و (ق) والفرقان والعنكبوت، ففي سورة النجم ﴿وانَّه أهْلَكَ عاداً الأوْلى وَثَمُوداَ فَمَا أبْقَى﴾ (آية ٥٠) وسورة (ق) ﴿وَعَادُ وفِرْعَوْنُ وإخْوَانُ لُوط﴾ (آية ١٣)، وفي سورة الفرقان ﴿وَعَاداً وثَمُودَ وأصْحابَ الرَّس وقُروناً بَيْنَ ذلك كَثيراً﴾ (آية ٣٨)، وفي سورة العنكبوت ﴿وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عن السَبيل وكانُوا مُسْتَبْصِرينْ﴾ (آية ٣٨).

وهذه الاشارات نجد في كل منها فائدة غير التي ذكرت في الأخرى، ولا نخال الأمر يحتاج إلى بيان، والذي يعنينا الآن ان ننظر نظرة في السور التي تحدثت عن قصة هود عليه السلام إجمالاً أو تفصيلاً، وسنجدها كلها مكية، كما قررناه من قبل في قصة نوح.

وأول سورة أشارت إلى هذه القصة سورة الفجر حيث جاء فيها قول الله:
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ[1] التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها في البِلادِ﴾ (الآيات ٦-٨) وسورة الفجر - كما نعلم - جاءت تطمئن المؤمنين بان الليل المدلهم الذي يحيونه، وظلمته التي يعانون منها، وقسوتها التي تشتد عليهم، كل ذلك إلى زوال، فلا بدَّ للظلمة من أن تتلاشى، ولا بد لليل أن ينجلي بالفجر الذي يشق ظلمته.

والآيات التي ذكرت في السورة الكريمة تتناسب مع موضوعها من حيثُ تطمينُ المؤمنين، ومن حيثُ وعيدُ الكافرين الذين كانوا يظنون أن الأمر مستقر لهم. ولم يرد في الآيات ذكر لهود عليه السلام، وإنما هي إشارة لعاد إرم ذات العماد والقوة التي لم يخلق مثلها في البلاد، والقوم - كما قلت من قبل - كانوا يعرفون الكثير عن عاد وثمود؛ لأنهم عرب؛ ولأن مساكنهم كانت معلومة لهم، فكانت هذه الاشارة في سورة الفجر مؤدية للغرض موصلة للغاية المنشودة منها.

٢ـ ثم جاءت سورة القمر تتحدث عن عاد في هذه الآيات الكريمة:
﴿كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُر إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ[2] تَنْزِعُ النَّاسَ كأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِر[3] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُر﴾[4] وقد ذكر في هذه الآيات ماأهلك الله به عاداً من الريح الصرصر في نَحس مستمر،

---

(١) نود ان نحذر من الاسرائيليات في تفسير هذه الآيات فعاد إرم وإرم هو الأب الذي ينتسبون إليه وصفها الله بأنها ذات العماد وبانه لم يخلق مثلها في البلاد، وهذا وصف للقبيلة نفسها، وليس لمدينة كما توهم المتوهمون واطالوا الكلام في وصفها وبأنها لبنة ذهب ولبنة فضة ولبنة نحاس الى غير ذلك مما لا يصح.

(٢) نحس: أي مشؤوم، ومستمر: أي قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم، وهو الشديد المرارة والبشاعة.

(٣) اعجاز نخل منقعر: يعني أنهم كانوا يتساقطون على الأرض امواتاً وهم جثث طوال عظام كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع، ومنقعر: منقلع عن مغارسه وقيل شبهوا بأعجاز النخل؛ لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقي أجساداً بلا رؤوس.

(٤) الريع: المكان المرتفع والمعنى أنهم كانوا ممن كانوا يتخذون امكنة مرتفعة للفخر عبثاً. والمصانع مآخذ الماء وقيل القصور المشيدة والحصون.

وكيف كان شأن هذه الريح ، وهي تنزع الناس وكيف تصيرهم .

وهذه السورة لم يذكر فيها هود - عليه السلام - كذلك ، لكن الذي ذكر فيها لم يذكر كذلك في السورة السابقة ، فاختصت كل واحدة من السورتين بذكر شأن من شؤون عاد حيث ذكر في السورة الأولى مايختص بهم مما منحوه فكان نعمة ، وذكر في هذه كيفية إهلاكهم فكل قصة تتناسب مع موضوع السورة التي ذكرت فيها ولا نود هنا أن نعيد ما ذكرناه عن موضوع سورة القمر حيث تقدم لنا في قصة نوح - عليه السلام - .

٣ـ ولعل أول سورة ذكر فيها هــود - عليه السلام - هي سورة الأعراف

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ

﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

وأمام هذه الكلمات القوية الرحيمة، وأمام هذا السمت الهادي إلى الخير نجد القوم يصرون على الإعراض، ويمعنون في التكذيب: ﴿أجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ماكَانَ يَعْبُدُ آباؤنَا فأتِنَا بِما تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فيما تقول مرسلا من قبل الله، ويجيبهم - عليه السلام - بأنه قد وقع عليهم من ربهم رجس وغضب إذ يجادلون في أسماء سموها هم وآباؤهم مانزل الله بها من سلطان فلينتظروا العذاب، وتكون النتيجة أن ينجي الله هوداً ومن معه، ويقطع دابر القوم المكذبين، وغنيٌ عن القول من أن القصة تتلاءم مع موضوع السورة حيث ينبغي أن يذكر القوم «آلاء اللهِ لَعلهم يفلحون»، وغنيٌ عن القول كذلك أن ماذكر هنا ليس فيه ماذكر في السورتين السابقتين سورة الفجر وسورة القمر.

٤- ثم جاءت سورة الشعراء، وقد تحدثنا عن موضوعها من قبل فجاءت الآيات بهذه القوة التي تخترق أعماق القلوب القاسية وتتملك المشاعر والأحاسيس، وتنفذ إلى داخل الوجدان وتتحكم في العواطف، أي والله، إن الأمر كذلك، ولنتدبر الآيات بإنعام:

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ

رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

ولكن ماذا كان أمام هذه الكلمات التي تنشق لها الأرض وتخر الجبال هدًّا وتتفطر القلوب، ومن القلوب مايكون أشدُّ قسوة من الحجارة؛ لنستمع ماالذي اجابوا به هوداً - عليه السلام -:

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

أرأيت إلى ماجاء في سورة الشعراء عن هود - عليه السلام - مع قومه، ألست معي إلى أنه نمط جديد، ونهج جديد؟! ثم ألست ترى أن هذا النمط، وهذا النهج يتسق مع موضوع السورة وشخصيتها؟ اللهم: بلى، ولا إخالك تقول غير هذا!.

٥- ثم جاءت سورة هود - عليه السلام -، وقد تحدثنا عن موضوع السورة من قبل، وسنجد أن الآيات التي تحدثت عن قصة هود تتلاءم مع شخصية هود ومع موضوع السورة نفسها: ﴿وإلى عَادٍ أخَاهُمْ هُوداً قَالَ ياقَوْم اعْبُدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إلَـهٍ غَيْرَهُ إنْ أنْتُمْ إلاَّ مُفْتَرُون ياقَوْم لا أسْألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إنْ أجْريَ إلاَّ عَلَى الذي فَطَرَني أفَلاَ تَعْقِلُون ويَاقَوْم اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ يُرْسِل السَمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً ويَزِدْكُمْ قُوة إلى قُوَّتِكُمْ ولاَ تَتَوَلَّوْا مجرمِينَ﴾[٣]
هذا قولُ هود عليه السلام في سورة هود، ولا يستطيع أحد أن يدَّعي أن هذا القول نفسه هو ماجاء في سورة الشعراء، أو سورة الأعراف، اللهم إلا الدعوة إلى التوحيد: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذا - بالطبع - الأساس الذي لا بد منه أما غير ذلك فلا، ويكفي أن نقف عند هذه السورة حيث بين لهم انه لا يسألهم أجراً، وانما أجره على الذي فطره، ثم يبكتهم ﴿أفَلا تَعْقِلُونَ﴾، ثم يأمرهم بالاستغفار والتوبة حتى تتوفر لهم عناصر الحياة الكريمة من إرسال السماء مدراراً كي تنمو مواشيهم وزروعهم، ومن زيادة القوة إلى قوتهم ولكن بم يجيبون:

﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

هذا ماقالوه هنا وهو يختلف عما جاء في سورة الأعراف وسورة الشعراء، بل هو أقسى وأشد وأنكى، ففي سورة الأعراف مازادوا على قولهم: ﴿أجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ﴾ وفي سورة الشعراء مازادوا على قولهم: ﴿سَواءٌ عَلَيْنا أوَعَظْتَ أمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الواعظينَ﴾.

أما هنا فقد أكَّدوا ذلك وزادوا عليه، فأولاً: ﴿ماجِئْتَنا بِبيِّنَةٍ﴾ وثانياً: ﴿مَانَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ وثالثاً: ﴿مَانَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ - بهذا الأسلوب القاطع -، ولم يكفهم هذا الذي قالوه، ولئن قالوا في سورة الأعراف: ﴿إنَّا لَنَراكَ في سَفَاهَةٍ وإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبينَ﴾ ولئن فهم هذا من الجمل الثلاث التي جاءت

هنا في قولهم ﴿مَاجِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ لكن الذي زادوه هو انهم اتهموه بان آلهتهم قد مسته بسوء: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[1] وأمام هذا الاصرار على الكفر والعناد والتكذيب يقول هود - عليه السلام -: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ وهو يقول هذا واثقاً من نصر ربه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ على اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَامِنْ دابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَاأُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ولا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

ويأتي أمر الله فينجي هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه وينجيهم من عذاب غليظ، ويعقب القرآن على ذلك تعقيباً يدركه أولوا الألباب ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ ألا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ ألا بُعْدَاً لِعادَ قَوْمِ هودٍ﴾ ذلك ماجاء من نبأ عاد في سورة هود - عليه السلام -: جديداً في مضمونه وسياقه وأسلوبه، ملتئماً مع بنية السورة الكريمة، وأهدافها وأغراضها.

٦ـ أما **سورة فصلت**[2] وهي التي قرأ النبي عليه وآله الصلاة والسلام آياتها الأولى على عتبة بن ربيعة، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (آية ١٣) فوضع يده على فيه وقال كفى كفى ياابن أخي، فقد ارتجف قلبه وخشي أن تنزل به الصاعقةُ.

موضوع السورة يتحدث عن القوة، قوة الله وقدرته رادًّا على كفَّار مكة[3] مايجدونه في أنفسهم حينما قالوا ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عامِلُونَ﴾ وقصة عاد جاءت تتلاءم

---

(١) أي خبلك ومسك بجنون لسبِّك إياها وصدك عنها وعداوتك لها مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء.

(٢) الآيات (١٣ ، ١٤).

(٣) لا أدل على ذلك من قوله سبحانه «قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. . .» الخ.

مع هذا الموضوع الذي تتحدث عنه آيات السورة الكريمة، فبعد أن تحدث القرآن عن عاد وثمود وماأصابهم من صاعقة حينما أمرتهم رسلهم ألا يعبدوا إلا الله ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً فإنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُون﴾ يحدثنا القرآن عن عاد واستكبارهم في الأرض، واغترارهم بقوتهم ولنستمع:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فاسْتَكْبَرُوا في الأَرْضِ بغَيْرِ الحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، أَوَلَمْ يروْا أنَّ اللهَ الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوا بآياتِنَا يَجْحَدُون فأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ريحاً صَرْصَراً في أيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُم عَذَابَ الخِزْيِ في الحَيَاةِ الدُّنْيا، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُون﴾ هذا هو حديث هذه السورة عن عاد الذين غرتهم قوتهم، والقوة قد تغر كثيراً من الناس فتعميهم وتصمهم عن الحق، ونحن نرى كيف تتغطرسُ الدول القوية في أيامنا فتكون هذه القوة من أهم أسباب الطغيان، وكذلك كانت عادٌ من قبل، وهذه الاشارات في السورة الكريمة لم نجدها من قبل فيما مر معنا من السور السابقة.

٧ـ ثم جاءت **سورة الأحقاف** وهي من الحواميم[١] كذلك، وسورة الأحقاف تتحدث عن قضية الحق الذي هو أصل في هذا الكون فبه أنزل الله الكتاب ﴿وَبالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبالْحَقِّ نَزَلَ﴾ وبه خلق الله السماوات والأرض ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حمَ تَنْزِيلُ الكِتَاب مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ مَاخَلَقْنَا السَمَاوَاتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بِالْحَقِّ وأجَلٍ مُسَمًّى والَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُون﴾ (الآيات ١-٣) وسنة الله التي جرت واستقرت في هذه الحياة أن يقصم كل أولئك الخارجين عن الحق أيًا كانت قوتهم وهويتهم، وهذا ماجاء متسقاً متناسقاً منسجمًا مع قصة هود في السورة الكريمة، اضف إلى ذلك ماجاءت به السورة من أمور جديدة لم نجدها من قبل وإليك البيان: جاء في سورة الأحقاف هذه الآيات الكريمة:

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

---

(١) الحواميم: السور التي بدأت بقول الله: «حم» وهي سبعة.

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا[1] عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا[2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

فقد وجدنا أموراً كثيرة اختصت بها هذه القصة في السور الكريمة ﴿واذكرْ أخاَ عاد إذْ أنذرَ قومَه بالأحقافِ﴾ وهي اللفتة الأولى التي تحدثنا عن مساكن عاد، كما تحدثنا عن هذا السحاب المستقبل أوديتهم ففرحوا به ظانين أنه يحمل لهم المطر الذي يفرحون به، ولكن أنَّى لهم ذلك وإذ بها ريح ليس فيها مطر خير، وإنما هي فيها عذاب؛ فهي تدمر كل شيء ولكن بأمر ربها فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم لتكون عبرة لمن بعدهم وذلك الجزاء الذي يستحقه كل مجرم ثم تبين الآيات أنه رغم تمكينهم في الأرض اكثر مما مكَّن به أهل مكة ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً؛ لانهم أعرضوا عن الحق، وجحدوا بآيات الله، واستهزأوا وهذا يتلاءم مع موضوع السورة الذي أشرت إليه من قبل.

---

(١) الإفك: يقال أفكه عن رأيه.

(٢) العارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء.

٨ـ أما **سورة الذاريات** ولها من اسمها نصيب فقد جاءت تشير إلى تبديد الباطل مهما بدا منتفخاً، وظهر منتفشاً، وطغى زبده وطال أمده. وفي موضوع السورة ومقاطعها مايشير إلى ذلك: ﴿إنَّما تُوْعَدُونَ لَصَادِق وإنَّ الدِينَ لَوَاقِع وَالْسَمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ إنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِف يُؤفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ قُتِلَ الخَرَّاصُونَ الَّذينَ هُمْ في غَمْرَةٍ سَاهُون﴾ (الآيات ٥، ١١).

ومـاجاء من خبر عاد يتناسب مع هذا الموضوع، موضوع الذاريات حيث تبـديد الباطل. فماذا جاء في السورة الكريمة عن أولئك القوم؟! هاتان الآيتان ﴿وفي عَادٍ إذْ أرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريحَ العَقِيم(١)، ماتَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتَ عَلَيْهِ إلاَّ جَعَلَتْهُ كالْـرَمِيْم﴾ (الآيات ٤١، ٤٢) وهـذا الوصف للريح وماتفعله بكل ماتأتي عليه فتجعله كالرميم انها اختصت به هذه السورة الكريمة دون غيرها.

٩ـ أما **سورة المؤمنون** فلم يذكر فيها هود – عليه السلام –، كما لم يُذكر فيها اسم عاد، وانما ذكرت عقب قصة نوح عليه السلام، ونحن نعلم أن القرآن يذكر عقب قصـة نوح قصـة هود عليهـما وعلى نبينا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه، والآيات تحدثت عن أولئك القوم بصيغة التنكير:

ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ

(١) العقيم: التي لا خير فيها من انشاء مطر أو إلقاح شجر وهي ريح الهلاك.

﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً[1] فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

فالآيات تدور كلها حول قضية البعث وهو مايعتقده المؤمنون دون غيرهم وهذا ماجعل القصة تتلاءم مع موضوع السورة الذي أشرنا إليه من قبل، وفيها كذلك بعض الحيثيات التي منعتهم من الإيمان وهي :

أولا : الترف الذي يعيشون فيه، والترف : سوء كله ﴿واتَّبَعَ الذينَ ظَلَمُوا ماأُتْرِفُوا فيهِ وكَانُوا مُجْرِمينَ﴾ (هود : ١١٦) كيف لا وهو الذي يصل بأصحابه إلى البطر ﴿وإذا أرَدْنَا أنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ففَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيها القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء : آية ١٦) ﴿وكَمْ أهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ (القصص آية : ٥٨).

وثانيا :ـ ان الرسول الذي دعاهم يأكل ويشرب مما يأكلون منه ويشربون ؛ فلا ينبغي أن يطاع.

وثالثا :ـ رأوا أن الدنيا هي الغاية، إلى غير ذلك من الاشارات التي انفردت بها السورة الكريمة.

---

(١) الغثاء : حميل السيل مما بلى واسودَّ من العيدان والورق.

١٠ـ واخيراً جاءت سورة الحاقة فيها هذه اللقطة القصيرة عن أولئك القوم، وهذا يتسق مع نظم القرآن حيث يأتي في آخر سورة تذكر فيها القصة ذكر مجمل موجز؛ هو اجمال لكل ماسبق، ولكن لا يخلو من فائدة كذلك.واللقطة الموجزة في سورة الحاقة، جاءت كذلك متلائمة مع موضوعها منسجمة مع شخصيتها فهي سورة الأهوال والمشاهد المؤثرة في الموضوع والفخامة في الأسلوب والجزالة في اللفظ[١] وهذه الآيات خير دليل على ماذهبنا إليه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[٢] عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا[٣] فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

فلقد انفردت السورة الكريمة ببيان المدة التي سخرت فيها ريح على عاد وماأروع النسق القرآني فإن آخر سورة تحدثت عن نوح - عليه السلام - وهي سورة العنكبوت بينت المدة التي قضاها مع قومه فانظر كيف اتفقت السورتان وانعم ثم انعم وبهذا الايجاز المجمل في السورة الكريمة انتهى الحديث عن عاد قوم هود - عليه السلام -

ثانياً: لم تفصل قصة هود كقصة نوح :ـ

نلحظ أننا لم نجد التفصيل الذي وجدناه في قصة نوح، وهذا لاشك يرجع

---

(١) الجزالة: القوة، يقال حطب جزل وهو مالا تتأكله النار بسهولة.

(٢) الصرصر: الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق لشدة بردها.

(٣) حسوماً: نحسات حسمات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة.

إلى أسباب؛ نحسب - والله أعلم - ان منها :-

١- طول المدة التي قضاها نوح - عليه السلام - مع قومه.

٢- ماكان لقوم نوح من معرفة في بعض قضايا الكون يدلنا على ذلك مثل قول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِبَاقاً﴾ (نوح: ١٥).

٣- التفاوت الذي كان بينهم، يدلنا على مثل قول الله ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأرذلونَ﴾ (الشعراء: ١١١).

والخلاصة أننا بعد هذا التطواف الذي شرفنا به السور الكريمة ونحن نتحدث عن قصة هود - عليه السلام -، لم نجد أي أثر لما يمكن أن يسمى تكراراً، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والله ولي التوفيق.

ثالثاً: تعقيب على قصة هود عليه السلام

هذه قصة هود مع قومه، والذي نلحظه من خلال مامر بنا من آيات كريمة أن هوداً - عليه السلام - اضافة إلى دعوة قومه للتوحيد والايمان بالله وعبادته كان هناك أمر آخر جدير بأن ينبه قومه له؛ ذلك ماكان يجده أولئك من أنفسهم من هذه الغطرسة والشدة والقوة والبطش نجد ذلك مبثوثاً في اكثر السور التي عرضت للحديث عن عاد، والقوة حين تكون بعيدة عن الحق وحين تنبعث من النفوس المعرضة المستعلية تصير سبباً من أسباب الطغيان بل من أخطر أسبابه؛ إنها تحمل أصحابها فتنسيهم أول بدهية من البدهيات، وهي أنهم خلقوا ليموتوا فبقدر ماتجدهم يبنون في الدنيا مشيِّدين متفاخرين، إنهم يهدمون من جانب آخر بنيانهم الانساني فيصبح البطش طبيعتهم، والتجبر ديدنهم فلا تزداد قلوبهم إلا قسوة. . . ومن هنا فهم أبعد مايكونون عن أن يتأثروا بنصح ناصح، أو برقة واعظ، لقد أعمتهم القوة عن كل شيء، ولقد كان هود - عليه السلام - يبذل كل مافي وسعه ليستأصل من قلوبهم تلك القسوة، ويزيل بينهم وبين الحق هذه الجفوة: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيةٍ تَعْبَثُونَ وَتَتخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُون وإذا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِين فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُون﴾ (الآيات ١٢٨، ١٣١).

ولكن القوم مع ذلك يعلنون - وقد استكبروا في الارض بغير الحق - أن لا

أحد أشد منهم قوة. أما هود فما جاء ببينة - كما ادَّعوا - ولن يؤمنوا له وسواء عليه وعظ أم لم يكن من الواعظين، ولكنه - عليه السلام - وقد أنذر وبشر يسلك مع قومه سبيلاً رشداً وهو أمر مهم - لابد من التنصيص عليه والإشارة إليه - وهو يعلم الله - درس لابد أن يعيه كل من يدعو إلى الله فما أكثر من يخطيء فيه. ذلكم الأمر هو ان هوداً - عليه السلام - أراد أن لا يحارب مشاعر قومه وينال من عواطفهم باديء ذي بدء، بل جاراهم وتلطف معهم، قد نجد قوماً ما طغت عليهم عاطفة حب المال فإذا جئنا لنسفه هذه العواطف في نفوسهم، وننال منها؛ فان ذلك سيحدث ردة فعل لا تنتج إلا عكس مانريده ونقيض مانبتغيه، ولكن الطريقة المثلى إذا أردنا أن نستأصل هذه العاطفة ونبعدها أن نقوي فيهم عاطفة أخرى من العواطف الخيرة كالانفاق في سبيل الله وبذل الخير فان أراد الله بهم خيراً فان مايحدث هو أن تتصارع العاطفتان فتقوى إحداهما على الأخرى، وهذا النهج الذي كان من هود - عليه السلام -؛ فلقد أراد أن يشذب هذا الذي في نفوسهم، ويهذب تلك العواطف فهاهو يقول لهم: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إليه يُرْسِلِ السَماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَةً إلى قُوَّتِكُمْ ولا تَتَوَّلوا مُجْرِمِين﴾ فهو كما نرى لم يحارب مبدأ القوة فيهم ولكن القوم استعصوا على كل مصلح لذلك نجده يعلن عليه السلام بانه توكل على الله ربه وربهم الذي لا يخرج أي شيء عن قبضته فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها وهكذا نجد أن هوداً - عليه السلام - قد أكرمه الله فوضع لبنة في بناء الإنسانية المحكم إضافة للبنتين السابقتين وهما ماتحدثنا عنهما من قبل عقيدة التوحيد وعدم التعصب لوشائج القربى وصلات الدم، اللبنة التي أضافها هود - عليه السلام - كانت لبنة مهمة وقد تقدمت الانسانية زمناً (بعد نوح) هذه اللبنة الثالثة هي عدم الركون إلى القوة المادية والتعويل عليها وحدها والاغترار بها حتى لا تدفع صاحبها إلى الاستبداد والتجبر.

المبحث الرابع

قصة صالح عليه السلام

ما ذكر فيها من آيات :

١- سورة الشمس .
٢- سورة القمر .
٣- سورة الأعراف .
٤- سورة الشعراء .
٥- سورة النمل .
٦- سورة هود .
٧- سورة الحجر .
٨- سورة العنكبوت .

اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصص نوح وهود وصالح عليهم السلام .

أولاً : اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصة نوح .
ثانياً : اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصة هود .
ثالثاً : اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصة صالح .

تعقيب على قصة صالح عليه السلام .

قصة صالح عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه :

ما ذكر فيها من آيات :

أشـارت الآيات مبكرة إلى ثمود؛ قوم صالح - عليه السلام -، وذلك لما ذكرناه في قصة هود من قبل، لذلك نجد أكثر السور التي حدثتنا عن عاد تحدثنا عن ثمود، كذلك؛ وإنما قلنا: أكثر السور؛ لأن هناك سوراً ذكر فيها أحد الفريقين فحسب. ومن هنا نجد أن أول سورة ذكرت فيها ثمود هي سورة الفجر التي ذكرت فيها عاد - كما قلنا من قبل - وهذه الإشارة جاءت متسقة مع موضوع السورة الذي تحدثنا عنه هناك، وهو ذلك الفجر الذي وعد المسلمون به لإنهاء الليل الدامس.

ومن هنا كانت الاشارة إلى ثمود كالاشارة إلى عاد تتحدث عن جوانب القوة ومواطن الشدة وشدة البأس ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (الآيات ٦-٩) وهذه لاشك صفة من صفات القوة وهي أن يقطعوا الصخر في واديهم، ويتحكموا فيه؛ ليجعلوه كما يريدون.

ثم وجـدنـا اشـارات في بعض الآيات كما جاء في سورة النجم و (ص) والفرقان، وقد تحدثنا عن هذه الإشارات من قبل عند حديثنا عن عاد فآية النجم: ﴿وأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ (آية ٥٠) وآية (ص): ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَومُ نُوحٍ وعادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو الأوتَاد وثَمُودُ وَقَومُ لُوطٍ وأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أولَئِكَ الأَحْزَابُ إنْ كُلٌّ إلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَاب﴾ (الآيات ١٢-١٤) وآية الفرقان: ﴿وَعَاداً وثَمُودَ وأَصْحَابَ الرَّس وقُرُوناً بَيْنَ ذَلكَ كَثِيراً﴾ (آية ٣٨). ولقد مرَّ معنا ماجاء في سورة السجـدة[١] والذاريات والحاقة من اشارات كذلك إلى عاد، وقد اشارت جميعها كذلك الى ثمود.

---

(١) السجدة: أي سورة فصلت.

أما سورة **فصلت** فبعد أن حدثتنا عن عاد واستكبارهم في الأرض وتغطرسهم وتساؤلهم من أشدُّ منَّا قوة؟! وماحل بهم بعد ذلك حدثتنا عن ثمود: ﴿وأمَّا ثَمُودُ فهَدَيْنَاهُمْ فاسْتَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى فأخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العَذَابِ الهُون[1] بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون ونَجَّيْنا الذين آمنوا وكَانُوا يَتَّقُون﴾ (الآيات ١٧، ١٨).

واما سورة **الذاريات** - وقد عرفنا ماجاء في آياتها الزهر عن عاد من قبل -، فقد حدثتنا عن ثمود بهذه الآيات: ﴿وَفي ثَمُودَ إذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِين فَعَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبِّهِمْ فأخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُون فما اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيامٍ وَمَاكَانُوا مُنْتَصِرِين﴾ (الآيات ٤٣-٤٥).

واما سورة **الحاقة** فلقد جاء فيها: ﴿كَذَّبَتْ ثَمودُ وَعَادٌ بالقَارِعَةِ فأمَّا ثَمُودُ فأُهْلِكُوا بالطَّاغِيَةِ﴾ (الآيات ٤، ٥).

وهـذه الاشارات على تعددها نجد كل واحدة انفردت فيها بما لم يجىء في غيرها. فآية فصلت - كما رأينا - بينت لنا أن الله منَّ على ثمود بالهداية ولكنهم أبوا واستحبوا العمى عليها فأخذتهم صاعقة العذاب الهون هكذا. صاعقة العذاب الهون!.

وأما آية الذاريات، فقد بينت لنا ان الله تبارك وتعالى متعهم وأمهلهم إلى حين ولكنهم عتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون إلى مايحل بهم، فلم يستطيعوا أي حركة وهكذا حلَّت بهم الهزيمة.

والناظر في هذه الإشارات يجد ان كل واحدة فيها عبَّرت عن هذا العذاب تعبيراً جديداً؛ فهي صاعقة العذاب الهون في سورة فصلت، أو الصاعقة وحدها في سورة الـذاريات، والـطاغية في سورة الحاقة؛ والطاغية مبالغة في العذاب، وبعضهم يفسر الـطاغية بالرجل الذي عقر الناقة، فإن قبل هذا لتفسير كانت اشارة مغايرة لكل مامر.

ولعل السورة الوحيدة التي انفردت فيها الاشارة إلى ثمود دون عاد هي سورة

---

(١) صاعقة العذاب: داهية العذاب وقارعة العذاب (والهون): الهوان، وصف به العذاب مبالغة.

الاسراء؛ ذلك لأن سورة الإسراء جاءت تتحدث حسب موضوعها وهو أن الآيات التي يؤيد الله بها الأنبياء - عليهم السلام - لا تجدي الذين جاءت من أجلهم؛ لأنهم يكذبون بها فيحل عليهم العذاب، وهاهم أهل مكة مازادتهم آية الإسراء إلا إعراضاً، ولا عجب فمن قبلهم ثمود كذلك قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أن نُرْسِلَ بالآياتِ إلَّا أنْ كَذَّبَ بهَا الأَوَّلُونَ وآتَيْنا ثَمُودَ النَاقَةَ مُبْصِرَةً[1] فَظَلَمُوا بهَا وَمَا نُرْسِلُ بالآياتِ إلَّا تَخْوِيفاً﴾ (آية ٥٩) كانت الاشارة إلى ثمود هنا إذن متسقة مع سياق السورة، لذا نجد ان ثمود انفردت عن عاد، والله أعلم.

أما السور التي حدثتنا بشيء من التفصيل عن قصة صالح - عليه السلام - فهي :ـ **الشمس والقمر والأعراف والشعراء والنمل وهود والحجر** وكثير من السور التي قرعت قلوبنا آياتها حينما كان الحديث عن هود - عليه السلام -، ولكننا نجد هنا أن أكثر من سورة انفردت بالحديث عن ثمود، ولعل ذلك يتصل بموضوع السورة نفسها من جهة، وبما خصت به ثمود من جهة أخرى، ولقد كان الحديث مبكراً - كما قلت من قبل - عن ثمود، أو عن عاد وثمود، فوجدنا كلا من الفجر والقمر تشير إليهما وقد تقدم لنا بعض إشارات الفجر.

١ـ أما **الشمس**: فلقد خُصَّت بالحديث عن ثمود دون عاد، ولعل ذلك يتناسب تماماً مع موضوع السورة الكريمة؛ فهي تتحدث عن وضوح الحق كالشمس وضحاها أي حينما تكون شباباً في رابعة النهار، والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها وفي أثناء ذلك كله يأتي الليل ثم يأتي الحديث عن النفس وتسويتها خلقاً وإبداعاً وعن فلاح مَنْ يزكيها:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ[2] رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

---

(١) مبصرة: بينة واضحة.

(٢) فدمدم عليهم: فأطلق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة: إذا ألبسها =

هذه أول سورة أشارت إلى ثمود وحدها وبشيء من التفصيل، فقد كذبوا لا لعدم كفاية الآيات ولأنها ليست مقنعة وانما كذَّبت ثمود بسبب طغيانها ولقد بلغ هذا الطغيان مبلغه حينما انبعث أشقاهم واسمه قدار بن سالف - كما تقول الروايات - من أجل أن يعقر الناقة التي هي آية مبصرة كالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، وحذرهم رسول الله صالح - عليه السلام - وان كانت الآيات هنا لم تحدثنا عن اسمه؛ حذرهم بأن تلك ناقة الله لا ينبغي لهم أن يعرضوا لها بسوء ولا أن يمنعوا سقياها، ولكنهم كذَّبوه واتبعوا قدارا، ولم ينكروا عليه، وسكتوا عن فعلته الشنيعة، وربما اشترك البعض معه في عقر هذه الناقة، فكانت النتيجة هذه الدمدمة من ربهم الذي شملهم برعايته ولكن أبوا إلا أن يحاربوه، وكانت الدمدمة بسبب ذنبهم الشنيع فسواها ولا يخاف عقباها.

٢ـ ثم جاءت سورة **القمر** وبعد أن حدثتنا عن عاد حدثتنا عن ثمود بهذه الآيات:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

= الشجم (بذنبهم) بسبب ذنبهم وفيه انذار عظيم بعاقبة الذنب فعلى كل مذنب أن يعتبر ويحذر (فسواها) الضمير للدمدمة فسوَّاها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم، (الكشاف جـ٤، ص٧٦١).

ونحن نجد تفصيلاً في هذه الآيات عما سبق، لكن الذي نلحظه هنا أن صالحاً - عليه السلام - لم يُذكر باسمه، بل لانجد له أي حديث هنا، والمتأمل في الآيات الكريمة يجد أن الحديث كله عن الله تبارك وتعالى، وهو متسق تماماً مع الحديث عن قوم هود إذ لم نجد له في السورة أي كلمة، وهذا بالطبع متناسب مع موضوع السورة التي جاءت تبين أن المعرضين يكذبون بآيات الله الواضحات أياً كان الرسل الذين جاءوا بها ولهذا نجد الحديث فيها كلها عن الله تبارك وتعالى دون أن يأتي على لسان الرسل - عليهم السلام - شيء من ذلك.

بينت لنا السورة الكريمة ان ثمود كذَّبوا بالنذر وأنَّهم يربأون بأنفسهم من أن يهديهم بشر منهم انهم إذاً في ضلال وهلاك ولماذا خص من بينهم بالرسالة بل هو كذاب أشر[1]، وهنا يتولى الله الدفاع بنفسه ﴿سيعلمونَ غداً مَن الكذَّابُ الأشِرُ﴾ ثم يبين أنه سيرسل الناقة فتنة لهم ليختبرهم فارتقبهم ياصالح واصطبر ولا تعجل ونبئهم أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة فلا ينبغي أن يطغى بعض على بعض - كل شرب محتضر - وتحدثنا الآيات أنهم نادوا صاحبهم فكان منه ماكان حينما تعاطى الفعلة الشنيعة وعقر الناقة، فلينظروا فما أهون العذاب وما اشد النذر؛ ويخبر الله بأنه أرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر[2]

كل مافي السورة هنا جديد والناظر المتأمل يجد ذلك بيناً لا يحتاج إلى تفصيل.

٣- ثم جاءت **سورة الأعراف**، وهي أول سورة يذكر فيها اسم صالح - عليه السلام - ونجد حينما ننظر في الآيات عناصر جديدة على غاية من الأهمية انفردت بها السورة الكريمة :-

فأولاً : ذكر اسم صالح - عليه السلام -.

وثانياً : الدعوة إلى التوحيد بصراحة ووضوح.

وثالثاً : تذكيره لهم بما جاءهم من ربِّهم من البينات فهذه الناقة جيء بها

---

(١) اشر: بطر متكبر.

(٢) المحتظر: الذي يعمل الحظيرة للدواب وبعد أمد تصير الحظيرة هشيًا متحطمًا تطؤه الدواب بحوافرها.

معجزة لهم، وهي ناقة الله فليمكنوها من أن تأكل من أرض الله ولا ينبغي أن يمسوها بسوء حتى لا يمسهم العذاب كذلك.

ورابعاً: يذكرهم بما منَّ الله به عليهم، وقد جعلهم خلفاء من بعد عاد، وبوأهم في هذه الأرض يتخذون من سهولها قصوراً، وينحتون في الجبال بيوتاً، فما أجدرهم أن يذكروا آلاء الله فيشكروه! وما أحراهم أن يبتعدوا عن كل ما لا يليق؛ فلا يعثوا في الأرض مفسدين!.

كما تحدثنا السورة الكريمة عن أن قومه كانوا فريقين اثنين: المستكبرين، وهم الذين تأخذهم العزة بالإثم، وهم الذين تتوجه لهم العيون والنفوس، ثم المستضعفين، وهم الذين لم يعطوا من الوجاهة والزعامة وأسباب الظهور والإنتفاش ما أعطيه غيرهم، وهؤلاء نجد بعضهم يأبى إلا أن يسير في ركاب المستكبرين، وأن يعطوا الذلة من أنفسهم، ولكن بعضهم الآخر رأى أن يتخلص من هذا الذل والاستضعاف، وذلك حينما لا يفرطون في جنب الله، ويأوون إليه، ويستجيبون له.

تحدثنا السورة الكريمة عن هذه المحاورة بين الفريق الأول وهم المستكبرون والفئة الثانية من الفريق الثاني وهم المؤمنون من المستضعفين، ثم تحدثنا السورة عن عقرهم للناقة دون أن تخص واحداً - كما مر معنا من قبل في السور السابقة -؛ لأنهم أجمعوا عليه ورضوا به، وكشحت نفوسهم؛ فليأتهم صالح بالعذاب إن كان مرسلاً، وتأخذهم الرجفة وينتهي كل شيء.

هذا ما اشارت إليه سورة الأعراف، وهي تحدثنا عن صالح عليه السلام، وهو حديث متسق منسجم مع موضوع السورة التي جاءت تحدثنا عن العقيدة في بُعد التاريخ وعمقه وجهاته المتعددة، ولنتدبر الآيات الكريمة قال تعالى:-

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ

فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ(١) وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ(٢) فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

وهكذا أضافت سورة الأعراف إلى موضوع القصة جديداً يكمل موضوعها من جهة، ويبرز قضايا عقدية واجتماعية، لابد أن يعيها المسلمون بعامة، ومن

---

(١) عتوا عن أمر ربهم: تولوا عنه، واستكبروا عن امتثاله عاتين.

(٢) الرجفة: الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها (جاثمين) هامدين، لا يتحركون موتى.

يعملون في مجال الدعوة بخاصة[1] من جهة ثانية.

٤- **ثم جاءت سورة الشعراء**: سورة المشاعر والأحاسيس تأسر اللبَّ وتتملك شغاف القلب، ولكن لذوي الألباب، ولمن كان له قلب، ولنستمع إلى مايقوله صالح - عليه السلام - لقومه بذلك الأسلوب المؤثر ويزيد في تأثيره قصر هذه الآيات؛ فكل آية حريٌّ بها أن تكون درساً ترهف حساً أو تصدِّع نفساً:-

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

---

(١) من ذلك هذه المحاورة بين المستكبرين والمستضعفين ومحاربة الحق رغم وضوحه.

ونلمح في هذه الآيات الكريمة هذا الإقبال من صالح على قومه، فهو أخوهم، وهو لهم رسول أمين، كل مايريده منهم: تقوى الله، وطاعته، فلا يريد أجراً ولا يبغي جزاءً؛ لأن أجره من ربه وربهم ربِّ العالمين، ثم يصل إلى أعماق نفوسهم، وهو يخاطبهم فيذكرهم بنعمة الله عليهم ولعل أهمها وأعظمها نعمة الأمن ثم هذه الطبيعة الخلَّابة وهذه البيئة الطبيعية الجذَّابة، حيث توفرت لهم أسباب الحياة جميعها من جنات وعيون، يجد كل واحدٍ فيها بهجته، ويقيم الله بها عليه حجته، ثم هذه الزروع والنخل التي يجدون فيها أقواتهم ويشغلون فيها أوقاتهم، ثم هذه الأمكنة الحصينة التي خصُّوا بها تجعلهم ذوي بأس وتمنعهم من عدوهم، فما أحراهم إذن أن يتقوا الله على هذه النعم ويطيعوه، ويطيعوا صالحاً حتى يحفظ الله عليهم هذه النعم، ولا ينبغي أن يلتفتوا إلى الذين تأخذهم العزة بالإثم، والذين يغرهم ماهم فيه من نعم هؤلاء المسرفون الطاغون دأبهم الإفساد في الأرض شأنهم في كل زمان، ولكن مع هذا التحبب والتقرب، ومع وضوح الآيات، ومع التذكير بالنعم بأبلغ نظم وأعذب نغم مع هذا كله، رأوا بشريته مانعة من أن يكون نبياً ورسولاً؛ فليأتهم بآية حتى يصدقوه وتأتي الآية ارخاءً للعنان، وهي معجزة حريٌّ أن تكون كافية لمن له مسحة من عقل؛ لأنها أمر غير مألوف، وحدث غير معروف؛ ناقة وما أكثر النياق عندهم! ولكن لها شرب ولهم شرب يوم ٍ معلومٍ دون أن يؤثر ذلك على حاجتهم للماء؛ فلا ينبغي أن يقربوها بشر ولا يمسوها بسوء، ولكن كان الأمر على العكس من ذلك فأخذهم العذاب.

هذا ماجاء في سورة الشعراء، وهو بحق يحدثنا عن جانب جديد، ومن زاوية جديدة كذلك، ونلحظ أن سورة الشعراء هي أكثر السور التي رأينا فيها حديثاً لصالح - عليه السلام -، وهي كذلك بالنسبة للأنبياء جميعاً الذين ذكروا في هذه السورة عليهم صلوات الله وسلامه وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً. وإذا كان الشعراء يُطربون الناس بشعرهم، «وفي كل واد يهيمون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات»؛ فإنَّ الأنبياء - عليهم السلام - جاءوا بما يجلُّ عن الشعر وإن كان له أعلى ماللشعر من خصائص وتأثير مع تميزه بالصدق والحق، ولئن كان أعذب الشعر أكذبه - كما يقولون -؛ فإن في كلام الأنبياء ماهو اكثر عذوبة فيما هو صدق كله.

٥ـ وجاءت بعد ذلك سورة النمل نلحظ فيها أمرين اثنين :ـ

الأول : أولا :ـ ان قصة صالح - عليه السلام - أفردت عن قصة هود حيث ذكرت في سورة النمل وحدها، وقد ذكرت عقب قصة سليمان - عليه السلام - مع ملكة سبأ، ويلوح لي أن قرب المكان ووحدة الجنسية ووحدة الموضوع، جاء كل ذلك بقصة صالح بعد ذكر ملكة سبأ، أما قرب المكان فبين سليمان - عليه السلام - وبين قوم صالح . فهما في مكانين متقاربين وهما الحجر وفلسطين وكلاهما من بلاد الشام وأما وحدة الجنسية فبين ملكة سبأ وبين ثمود، وأما وحدة الموضوع؛ فلأن السورة كلها مبنية على حكمة الله وعلمه؛ فكثير مما يبدو غريباً على الناس بعيداً من أن تتصوره عقولهم؛ ويحيطوا به علمًا اقتضته حكمة الله تبارك وتعالى، وأحاط به علمه فهو هينٌ عليه سبحانه - ولله المثل الأعلى -، كما رأينا في قصة موسى وقصة داود وسليمان وخبر النمل والهدهد وعرش ملكة سبأ .

تحدثت السورة إذن عما يخص بني إسرائيل، وما كان بين موسى - عليه السلام - وفرعون أولاً، وماكان بين بني إسرائيل وبين بعض العرب كما جرى مع سليمان وملكة سبأ ثانياً ثم سنتحدث عما يخص العرب وحدهم ثالثاً وهي قصة صالح - عليه السلام -، وسنرى فيها من عجائب الحكمة الإلهية مايجعلنا ندرك السر الذي من أجله أفردت قصة صالح وسبب ذكرها مع القصص التي ذكرت معه في السورة من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة سنلحظ القضايا الجديدة التي عرضت لها القصة في هذه السورة الكريمة :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ

رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

فالآيات الكريمة تشير إلى الفريقين المختصمين، وسواء كان هذان الفريقان صالحاً وقومه - كما يرى بعض المفسرين - أم قومه فحسب، -كما يرى بعضهم الآخر - وهو مانرجحه؛ فاننا نرى أن صالحاً - عليه السلام - ينكر عليهم استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، ويحثهم ويَحُضُّهم على استغفار الله؛ لينالوا رحمته، ويجيبونه بأنهم يتشاءمون منه، وممن آمن معه، ويردُّ عليهم بأن مايصيبهم من خير أو شر لم يكن بسببه هو ومن آمن معه، وإنما طائرهم عند الله، ثم يخبرنا القرآن الكريم أنه كان في مدينة صالح؛ وهي الحجر تسعة رجال طبعوا على الفَساد، وقد تقاسموا فيما بينهم أن يبيتوه وأهله أي حلفوا أن يغيروا عليه وعلى أهله ليلا فيستأصلوهم ويبيدونهم جميعاً، ثم ليقولن لوليه الذي يطالب بدمه ليس لنا دَخْلٌ في هلاكه ولا هلاك أهله وانهم برآء من دمه ودم أهله، ويؤكدون ذلك بأنهم صادقون فيما يقولون، ولكن مكر الله كان أسرع من مكرهم حيث دمرهم وقومهم قبل أن يُلحقوا بصالح أذىً وهذه بيوتُهم خاوية خالية منهم، وكل ذلك إنما هو نتيجة ظلمهم، وفي ذلك آية لقوم يعلمون. أما من آمن بصالح فلقد نجاه الله تبارك وتعالى.

هذه هي قصة صالح - عليه السلام - في سورة النمل لا نجد فيها ذكراً للناقة؛ ولكنها تقص علينا شيئاً جديداً - كما قلنا من قبل - فتحدثنا عن تشاؤمهم بصالح ومن معه، وعن عزم الرهط منهم ان يهلكوه ليلا ثم يتبرءوا من دمه، ولكنهم جوبهوا بالعقاب قبل أن ينفذوا مابيتوه.

٦- ثم جاءت سورة هود تحدثنا عن القضايا الجديدة التالية: فبعد أمر صالح لهم بتوحيد الله، يبين لهم نعمه سبحانه عليهم بأنه أنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها فليستغفروه ثم يتوبوا إليه فربه قريب مجيب، وهذا فيه وعد ووعيد؛ لأنهم إنْ فعلوا ذلك فذلك من قبيل الوعد، وان أعرضوا فهو من قبيل الوعيد، فهو قريب من صالح مجيب لدعوته، ولكنهم ردُّوا على صالح بقولهم: قد كنت فينا مرجوًّاً قبل هذا، كنا نظنك ذا حصافة في العقل وأصالة في الرأي لقد خاب ظننا فيك، كيف تنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا إننا لفي شك مريب مما تدعونا إليه، ويجيبهم - عليه السلام - متلطفاً ياقوم أخبروني إن كنت على بينة من ربي ومنَّ علي برحمة من عنده وأمرني أن أبلغ رسالته، كيف أخالف أمره، من ينصرني من الله إن عصيته؛ إنني إن خالفت ربي وأرضيتكم فما يزيدني ذلك إلا خساراً ووباراً، ولكنكم إن كنتم في شك فهذه آية على صدق رسالتي، ناقة الله، ذلكم ماقاله القوم لنبيهم وماقاله لهم، وماأجدرنا أن نقف عنده لنفيد مما فيه من عبر ولننعم بما فيه من ثمر، إنهم يحترمون صالحاً مادام بعيداً عن أن يمسَّ واقعهم السيِّء ولا ينال من عقيدتهم، ولقد رأينا هذا الأمر عند قريش وقد كانوا يصفون النبي عليه وآله الصلاة والسلام بكل أوصاف الخير وهكذا أهل الباطل دائماً يزيِّنون لكثير من الناس أوصافهم وأعمالهم حتى يثنوهم عن الحق ويردوهم عن مبادئهم، وربما تأثر اصحاب النفوس الضعيفة بهذا الثناء كأن يقال: هذا هو الفكر المستنير، هذا مايتفق مع روح العصر، هذا الذي ليس فيه تشنُّج، وشخصية صالح؛ الشخصية الفذة القوية الحكيمة، نلمس هذا مماردً به على قومه وما أكثر الدروس في قصص القرآن، وما أحوجنا إلى الإفادة منها.

ويبين - عليه السلام - لقومه أمر الناقة، ومايبنغي أن يكون موقفهم منها حتى لا يأخذهم العذاب القريب ولكنهم مع ذلك يعقرونها فيقول لهم: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام فذلك وعد صادق غير مكذوب وتنتهي الأيام الثلاثة ويجيء أمر

الله تبارك وتعالى فينجي صالحاً والذين آمنوا معه أما الظالمون فتأخذهم الصيحة فيصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها. كل هذا بسبب ظلمهم وكفرهم. ﴿الا ان ثمود كفروا بربهم ألا بعدا لثمود﴾. وهذه هي الآيات الكريمة:

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

٧- ثم جاءت **سورة الحجر** لتحدثنا عن قصة صالح، ولم تخرج عن السنن الذي ألفناه من قبل، وعن النهج الذي عرفناه، وهي أن آخر سورة تحدثنا عن قصة أي نبي من الأنبياء يأتي الحديث فيها مجملاً كأنما هو تلخيص لكل ماسبق، ولكنه - كما رأينا من قبل - فيه كثير من الفوائد التي لم نجدها فيما فصل من قبل، وكذلك الآيات التي حدثتنا عن ثمود في سورة الحجر وهذه الآيات هي :

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

والجديد في هذه الآيات - رغم ايجازها وإجمالها - أنها بينت لنا مكان ثمود لأول مرة، وهو أن مدينتهم كانت الحجر، وأنهم ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين، وهذا يختلف عن الأمن الذي ذكر في سورة الشعراء ﴿أَتُتْرَكُونَ في ما هَهُنا آمنين﴾ ويختلف عن النحت كذلك، اذ ذكر قوله ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَال بُيوتاً فارهين﴾[1].

٨- ثم جاءت **سورة العنكبوت** تشير إلى عاد وثمود معاً بآية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَبيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِين﴾ (آية ٣٨) والله يذكر الناس هنا بعامة والعرب بخاصة بأنَّه قد أهلك عادا وثمودَ، وقد تبين لكم أيها العرب ويأهل مكة هذا الاهلاك؛ لانكم تمرون بمساكنهم دائمًا؛ لأنها الحجر من شمال بلادهم، والاحقاف من جنوبها، ولكن الشيطان زين لهم أعمالهم فصدهم عن سبيل الخير مع أنهم كانوا مستبصرين، منحوا من العقول مايكفيهم ليميزوا الخير من الشر، وكذلك كانوا مستبصرين يدركون أن العذاب نازل بهم ولكنهم لُجوا وأعرضوا.

---

(١) وإذا رأينا السورتين الاخريين اللتين تحدثنا عن نوح وهما سورة العنكبوت وسورة الحاقة قد بينت كل منهما الزمان الذي أهلكت به عاد فإن هذه السورة قد بينت لنا المكان.

هذه قصة صالحٍ - عليه السلام - من حيثُ الموضوعاتُ التي اشتملت عليها كل سورة، ومن حيثُ اختصاصُ كل سورة بما يلائمها. وهذه القصص الثلاث - أعني قصة نوحٍ وهود وصالح - عليهم السلام - هي اكثر القصص ذكراً بعد قصة موسى - عليه السلام -، وقد وَعدْنَا - من قبل - أن نتكلم عن هذه القصص من جهات ثلاث :-

أولاً: من حيثُ الموضوعاتُ والجزئياتُ والمشاهدُ والمواقفُ التي ذكرت موزعة على السور.

ثانياً: من حيثُ اختصاصُ كل سورة بما يلائم موضوعها.

ثالثاً: من حيثُ الألفاظُ والتراكيب التي ذكرت في القصة الواحدة في اكثر من سورة.

وكان حديثنا فيما مضى عن الناحية الأولى والثانية، وبقيت الثالثة، وهي التي تخص الألفاظ والتراكيب، وهو ماسنتحدث عنه ان شاء الله تعالى.

(١) فمن اختلاف الألفاظ في قصة نوحٍ - عليه السلام - أنه جاء في سورة المؤمنون وسورة هود: ﴿ولَقَدْ أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ وجاء في سورة الأعراف: ﴿لقد أرْسَلْنَا نوحاً إلى قومِه﴾ وجاء في سورة نوح: ﴿إنَّا ارسلنا نوحاً إلى قومه﴾ أما سورة نوح فالامر فيها ظاهر؛ لأنها فاتحة السورة وبدايتها فجاءت بالحرف الدال على التوكيد وهناك ابتدأت كذلك بهذا الحرف كسورة الفتح: ﴿إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ وسورة الكوثر: ﴿إنَّا أعطيناك الكوثر﴾ وسورة القدر: ﴿إنَّا أنزلناه في ليلة القدر﴾ ولحرف التوكيد محسناته في كل سورة من هذه السور[1].

أما **سورة المؤمنون**، فلقد جاء فيها قبل الحديث عن نوح - عليه السلام - هذه الآية: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[2] ثم قوله: ﴿ولقد خلقنا

---

(١) فهي في سورة نوح جاءت تسلية للنبي الكريم ﷺ وبشارة للمؤمنين وإنذاراً للكافرين ومن محسنات هذا الأسلوب في السورة الكريمة أنها لم يذكر فيها قصص آخر بل كانت خاصة بقصة نوح عليه السلام.

(٢) (المؤمنون - ١٢).

فوقكم سبع طرائق﴾[1] ثم قال بعد ذلك: ﴿ولقد أرْسلنا نوحاً إلى قومه﴾[2] فكأن قصة نوح عليه السلام جاءت معطوفة على قصة خلق الإنسان ولما كان العطف يقتضي التغاير والاشتراك وهما متوافران هنا حَسُنَ العطف.

وأما سورة هود فلأن سياق الآيات التي قبلها يتحدث عن رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدليل قوله في أول السورة: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ﴾[3] وقوله بعد ذلك: ﴿فلعلَّك تاركٌ بعض مايوحى إليك﴾[4] وقوله بعد ذلك: ﴿أم يقولون افتراه قل فأْتُوا بعشر سور من مثله مفتريات﴾[5] ثم قوله سبحانه: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً﴾[6] لاعجب إذن أن تأتي قصة نوح - عليه السلام - معطوفة على ذلك كله ﴿ولَقَدْ أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾.

وأما سورة الأعراف فإنها تختلف عن السورتين السابقتين إذ لم يذكر فيها كلام يمكن أن تعطف عليه قصة نوح، كل الذي ذكر يختص بخلق الله سبحانه وتعالى وإبداعه وقدرته، صحيح أنه ذكر في أول السورة قصة آدم، ولكنها لم تعطف عليها قصة نوح لتغاير الموضوعين تغايراً تاماً ولما بينهما من بعد كذلك؛ لذا جاءت القصة بدون الواو، كأنما هي كلام جديد لم يتقدم عليه يمكن أن يشرك معه في الحكم؛ فجاء التعبير القرآني هكذا: ﴿لقد أرسلنا﴾.

(٢) ومن تغاير الالفاظ في قصة نوح - عليه السلام - ماجاء في سورة المؤمنون وسورة هود ﴿فقالَ الملأُ الَّذين كَفَروا من قَومه﴾ وما جاء في سورة الأعراف ﴿قالَ الملأُ من قَومه﴾ وسبب ذلك أن سورتي المؤمنون وهود جاء قول الكافرين فيهما مرتباً على دعوته لهم بالتوحيد، ففي سورة هود ﴿ولقدْ أرسلنا نوحاً إلى قومه انِي لكم نذيرٌ

---

(١) (المؤمنون - ١٧).
(٢) (المؤمنون - ٢٣).
(٣) (هود - ١).
(٤) (هود - ١٢).
(٥) (هود - ٣).
(٦) (هود - ١٧).

مبينٌ ألَّا تعبدُوا إلَّا اللهَ انيّ أخافُ عليكُم عَذاب يوم أليم فقال الملأ﴾ أما سورة المؤمنون، فلقد جاءت هكذا ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أما سورة الأعراف فقد جاءت كما يلي ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قال الملأ من قومه إنَّا لنراك في ضلال مبين﴾ فالذي جاء في سورة الأعراف جاء على طريق الاستئناف وهذا كثير في كتاب الله تعالى كأنه قيل: فماذا قالوا له حينما دعاهم إلى توحيد الله؟؟ فقيل: ﴿قال الملأ من قومه إنَّا لنراك في ضلال مبين﴾. اما ماجاء في سورة هود والمؤمنون، فقد جاء على سبيل التعقيب، أي بعد أن دعاهم إلى توحيد الله لم يتريثوا، فكان جوابهم كذا وكذا. وقد يتساءل المتساءلون هنا لِمَ جاء قولهم في سورة الأعراف على سبيل الاستئناف، وفي غيرها على سبيل التعقيب؟! ويجاب عن ذلك: بأن ماقالوه في سورة هود والمؤمنون ليس أمراً يستنكره النبي أما ماقالوه في سورة الأعراف فهو أمر مستنكر فالذي قالوه في سورة هود: ﴿مانراك إلا بشراً مثلنا﴾ وكذلك الذي في سورة المؤمنون ﴿ماهذا إلا بشرٌ مثلكم﴾ ولهذا ناسب أن يعقب به على كلام نوح - عليه السلام - بالفاء العاطفة لأنه في الحقيقة كذلك أما ماقالوه في سورة الأعراف فكان ناشئاً عن حمق وسماجة وهو قولهم: ﴿انا لنراك في ضلال مبين﴾ فلم يَلِقْ ان يعقب به على كلامه عليه السلام، وانما ناسب أن يكون كلاماً مستأنفاً، ونستأنس لهذا بما جاء مما كان بين موسى عليه السلام وفرعون - عليه اللعنة - فقال فرعون: ﴿ومارب العالمين قال رب السماوات والأرض ومابينهما ان كنتم موقنين، قال لمن حوله ألا تستمعون قال: ربكم ورب آبائكُم الأولين. . .﴾ الخ الآيات.

٣- وفي قصة نوح كذلك ﴿فقال ياقوم اعبدوا الله﴾ كما سنرى في سورة الأعراف وسورة المؤمنون أما في سورة نوح ﴿قال ياقوم إنِّي لكم نذير مبين﴾ ففي السورتين السابقتين عطف القول على الإرسال بالفاء التعقيبية أما في سورة نوح فقد جاء بدون الفاء لأنه جاء في الآية الكريمة ﴿أن أنْذر قومَك من قبل أنْ يأتيهم عذابٌ أليمٌ﴾ فكان الاستئناف أولى؛ كأنه قيل: فماذا فعل نوح؟؟ فقيل: ﴿قالَ ياقوم إنِّي لكم نذيرٌ مبينٌ﴾.

ثانياً: ماجاء في قصة هود

جاء في سورة الأعراف: ﴿قال الملأ من قومِهِ إنَّا لنراكَ في سفاهة وإنَّا لنظنك من الكاذبين﴾ وجاء في سورة المؤمنون: ﴿فقال الملأ من قومه الَّذين كفروا وكذَّبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ماهذا إلَّا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشربُ ممَّا تشربون﴾ (آية ٣٣).

والجواب عن هذا هو الجواب عما قبله، وهو أن سورة الأعراف جاءت على سبيل الاستئناف؛ لأن الكلام الذي قالوه ناتج عن سفه وغيظ وانتفاء ذوق وعدم لياقة، بينما الذي قالوه في سورة المؤمنون لاينكره نبيهم - عليه السلام -.

ثالثاً: ماجاء في قصة صالح - عليه السلام -:-

١- فمن ذلك قوله ﴿ابلِّغكم رسالة ربي﴾ بالإفراد دون الجمع؛ وذلك لأن دعوته كانت إلى التوحيد فقط، وكان للأنبياء السابقين أمور أخرى يدعون إليها.

٢- ومن ذلك أنه عبر عن عذاب قومهم تارة بالصيحة وتارة بالرجفة ولا تنافي بينهما فقد تكون الرجفة أولا ثم الصيحة بعد ذلك.

واخيراً في سورة الأعراف عند الحديث عن نوح ﴿فقال ياقوم﴾ وعند الحديث عن هود وصالح ﴿قال﴾ وذلك لأن نوحاً كان أول الأنبياء فجاء القول معطوفاً على رسالته بالفاء أما فيما بعد جاء القول مستأنفاً لأنهم قد عرفوا خبر نوح مع قومه وهناك عبارات آثرنا أن لا نعرض لها؛ لأنها أقوالٌ في أوقات متعددة كقول نوح - عليه السلام -: ﴿إني أخافُ عليكم عذاب يوم عظيم﴾ ومرة ﴿عذاب يومٍ أليم﴾ وكقول هود - عليه السلام - لقومه تارة ﴿إنْ أنتُم إلَّا مُفْتَرون﴾ وأخرى ﴿أفلا تَتَّقُون﴾ وثالثة ﴿أفلا تَعْقِلُون﴾ وكقول صالح عليه السلام: ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ وأخرى ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ وثالثة ﴿فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ كل هذا يمكن أن يتعدد بتعدد المواقف؛ لذا رأينا أن لا نعرض له، وقد يتكلف له المتكلفون مع انا لا نرى ضرورة لذلك ويبقى للكتاب الخالد أسراره، وتبقى عجائبه التي لا تنقضي، وتبقى جدة ألفاظه ومعانيه يُيَسِّر الله فهمها لمن شاء من عباده ويفتح بها على من أراد من خلقه، نسأله سبحانه أن لايحرمنا حلاوة هذا الفتح، وان لايحول بيننا وبين هذا التيسير وهو بالإجابة جدير.

تعقيب على قصة صالح عليه السلام

ويح ثمود! لقد قربت من الهداية والجنة حتى لم يبق بينهما إلا باع أو ذراع ولكن سبق عليها القول؛ لأنها استحبت العمى على الهدى.

من خلال الآيات الكريمة التي شرفنا بها، - ونحن نستعرض قصة صالح استعراضاً موضوعياً، اقول من خلال تلك الآيات - نستنتج بعض الجوانب التي هدتنا إليها الآيات الكريمة: فصالح - عليه السلام - كان عند ثمود ذا العقل الراجح، والخلق الكريم ينال احترامهم، وينعم باجلالهم وتقديرهم له، وكان من الممكن أن يستمر ذلك التقدير ويزداد ذلك الإجلال؛ ولكنها النفوس التي خلقها الله تبارك وتعالى فأودع فيها الاستعداد لاحد الأمرين: التزكية أو التدسية وصالح - عليه السلام - أكرمه الله بالرسالة؛ ليرشد أولئك المنحرفين عن الفطرة، والذين وجدوا من جمال البيئة الطبيعية ومن سعة العيش ورغد الحياة ونعمة الأمن وزهر الروض وخرير الماء وجدوا في ذلك كله وغيره من علو الأماكن وسعة المساكن مما به يتحصنون مايحملهم على الترف فبطروا في معيشتهم، وكرهوا، بل مقتوا كل من ينغص عليهم لذّاتهم لذا فليس عجباً أن تتغير نظرتهم لصالح - عليه السلام - وأن يقفوا منه موقفاً آخر، وهم يعلنون هذا بصراحة ﴿ياصالح قَدْ كُنْتَ فينا مرجوّاً قبل هذا﴾ وهكذا بين عشية وضحاها، وبين لحظة وأختها تتغير المواقف، وما اكثر أولئك الذين كان بوسعهم ان يحافظوا على مودة الآخرين لولا حقٌ يصدعون به؛ فيوغر عليهم الصدور، ويملأ القلوب حقداً والنفوس اشمئزازاً ولكن اصحاب الدعوات لا يكترثون بذلك:ـ

فَليتكَ تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتكَ ترضى والأنامُ غِضابُ
وليت الَّذي بيني وبينكَ عامرٌ ... وبيني وبينَ العالمينَ خرابُ
اذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هينٌ ... وكلُّ الَّذي فوق الترابِ ترابُ

أبى صالح إلا أن يصدع بالحق، وهو اذ يذكر قومه بهذه النعم التي من شأنها أن تكون باعثاً للشكر ﴿أتُتركون في ما ههنا آمنين في جنَّاتٍ وعيونٍ وزروعٍ ونخلٍ طَلْعُها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين فاتَّقوا الله وأطيعون﴾ يذكرهم كيف

جعلهم الله خلفاء في الأرض فسخر لهم سهلها وجبلها يتخذون من السهل قصوراً، وينحتون الجبال بيوتاً. . . ولكن كل ذلك لم يجد شيئاً مادام البطر قد تملك النفوس، ومادام اللهو قد بلغ منها مبلغاً. والابتلاء بالسراء قد يكون أشد عاقبة وأنكى من الضراء، وهذا ماوجدناه من ثمود الذين استحبوا العمى على الهدى، والذين بطرت معيشتهم. والامر الذي يدعو الى العجب والاستغراب ان صالحاً الذي كان مرجواً في قومه وإذ به يصبح بين عشية وضحاها الكذاب الأشر. . . ماأضيع النعم وماأفسد الجِدَه!! :-

إن الشبابَ والفراغَ والجده مفسدةٌ للمرءِ أي مفسده

ولكننا نجد صالحاً - عليه السلام - يتلطف مع قومه، فما ذنبه وقد كان مهيب الجانب فيهم! ماذنبه أنْ اختاره الله للرسالة ومن ينصره من الله إن عصاه! إنهم لا يزيدونه إلا خسراناً؛ إن استجاب لهم. ويطلب القوم آية، وتأتيهم الناقة آية مبصرة، ولكن ماتغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون. وهذا عنصر جديد في الحديث عن القوم، وهو تكذيب الآيات الواضحات، وهناك عنصر جديد آخر في قصة صالح - عليه السلام -، وهو أن قومه ينحون باللائمة عليه، وعلى مَنْ آمن معه من بعض المستضعفين؛ فهم المستغرقون في اللهو واللذائذ؛ فما يمكن أن يلحق بهم من سوء وشر إنَّما هو بسبب صالح ومن معه، وقد رأينا وسمعنا من يعلل الهزائم التي أصابت أمتنا بوجود المتدينين؛ وتلك فرية ساقطة - بالطبع - ولكن أصحاب الباطل حينما لا يجدون منطقاً يهرعون لاختراع أيّ باطل - حتى لو كان هشاً - لايقوى على الوقوف وحده، وهناك عنصر ثالث في قصة صالح - عليه السلام - يظهر في طغمة من أهل الشر كانوا الحائل بين قومهم، وبين الهداية هذه. الطغمة تأخذ على عاتقها ان تُخَلِّص الناس من صالح وأهله؛ وذلك بالتصفية الجسدية ﴿لنبيتنّه وأهلَه ثم لنقولنَّ لوليّه ماشهدنا مَهْلِكَ أهله، وإنَّا لصادقون﴾ وعنصر رابع: وهو أن هذه الطغمة لايجدون من يعكر عليهم؛ فيتقدم بعضهم لعقر الناقة؛ الآية المبصرة.

أما صالح المرجو فيهم من قبل، والذي وصفوه بِشَرِّ الصفات فيما بعد. - وإذا لم يرفع من قدره ماقالوه أولا فلن يغض منه ماقالوه فيما بعد - . . . اقول أما صالح - عليه السلام - فشخصيته من خلال الآيات هي هي؛ المترفق بهم الحاني

عليهم حتى في آخر لحظة من لحظات الغيِّ، وهم يقدمون على عقر الناقة نجده لايزيد على أن يقول لهم ﴿نـاقةَ اللهِ وسُقياها﴾ وهو خلق رفيع نقبسه من هذا الرسول الكريم، ولكنهم يمعنون في غيهم ويقدمون على جريمتهم؛ فلا يزيد على أن يقول لهم ﴿تمتّعوا في دارِكُم ثلاثةَ أيّام، ذلكَ وعدٌ غيرُ مكذوب﴾ . . . وهكذا نجد أن صالحاً - عليه السلام - قد أحكم لبنة صالحة في هذا البناء المحكم، اضافة إلى اللبنات السابقة؛ هذه اللبنة كانت تحذير الإنسانية من مغبة البطر، ونتيجة الترف، وعدم شكران النعمة، وهذه - بالطبع - تختلف عن الشعور بالقوة التي كانت تتصف بها عاد من قبل.

المبحث الخامس

قصة ابراهيم عليه السلام

أولاً: ما ذكر فيها من آيات مكية

١- سورة مريم.
٢- سورة الشعراء.
٣- سورة هود.
٤- سورة الحجر.
٥- سورة الأنعام.
٦- سورة الصافات.
٧- سورة الزخرف.
٨- سورة الذاريات.
٩- سورة النحل.
١٠- سورة ابراهيم.
١١- سورة الأنبياء.
١٢- سورة العنكبوت.

ثانياً: حديث السور المدنية عن ابراهيم عليه السلام.

١- بناء ابراهيم للبيت العتيق وما يتصل بذلك من دعواته لهذه الأمة.

أ- سورة الحج.
ب- سورة البقرة.
جـ- سورة آل عمران.

٢- تبرئته - عليه السلام - من أن يكون يهودياً، في سورة البقرة.

٣- براءته - عليه السلام - من المشركين.

أ- سورة الممتحنة.
ب- سورة براءة.

ثالثاً: تعقيب على قصة إبراهيم عليه السلام.

قصة نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

أولاً: ما ذكر فيها من آيات:

ليس بدعاً أن يكون لأبي الأنبياء وشيخ الحنفاء، أبينا إبراهيم - عليه السلام -، أن يكون له في هذا القرآن الحظُ الأوفى، والنصيبُ الأوفر؛ ونبي هذه الأمة - صلى الله عليه وآله وسلم - دعوة من دعواته؛ كما جاء في السنة الصحيحة، بل هذه الأمة مدينة له بهذه التسمية الطيبة الكريمة «مِلَّةَ أبيكُمْ إبْراهيمَ هُوَ سَمَّاكُم الْمسلمـينَ مِنْ قَبْـلُ وفي هَذا» الحج ٧٨[١] ويقول النبي ﷺ «إني عبدالله في أم الكتاب وخاتم النبيين، وان آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك؛ دعوة أبي ابراهيم وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم»[٢].

ومن هنا لم يكن ذكر ابراهيم في كتاب الله تعالى كذكر الأنبياء السابقين؛ فكان النبي يذكر من جانب واحد، وهو مايكون بينه وبين قومه، ولكن شيخ الحنفاء ذكر في كتاب الله من جوانب متعددة؛ ولا عجب فمـآثره كثيرة، ومناقبه أجلُّ من أن تعدّ، ولا عجب أن تَرِدَ الإشارات مبكرة حديثاً عن أبي الأنبياء؛ فهذه إشارات نجدها في سورة الأعلى وفي سورة النجم، وفي سورة (ص) ففي سورة الأعلى ﴿إنَّ هذا لَفِي الصُحُفِ الأولَى، صُحُفِ إبْرَاهِيمَ ومُوسَى﴾ (الآيات ١٨، ١٩) ولكن سورة النجم تزيد على ذلك ﴿أمْ لَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ موسَى وإبْرَاهِيمَ الذي وَفَّى[٣]

---

(١) الناظر في السنة المطهرة يجد اجلال النبي عليه الصلاة والسلام لأبينا ابراهيم في غاية من الوضوح والظهور كقوله: «نحن أولى بالشك من إبراهيم».

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٢٧، ١٢٨، ٥/ ٢٦٢.

(٣) «وفَّى» مبالغة في الوفاء، أو بمعنى وفر وأتم، واطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفيه من ذلك تبليغه الرسالة واستقلاله بأعباء النبوة، والصبر على ذبح ولده على نار نمروذ، وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه، وانه كان يخرج كل يوم يتمشَّى فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه، وإلا نوى الصوم. . . » الكشاف جـ٤، ص٤٢٧.

أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وأنْ لَيْسَ للإنْسَانِ إلَّا ماسَعَى وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى﴾ (الآيات ٣٦-٤١) وفي هذه السورة نقرأ أول صفة من الصفات الخيرة لأبي الأنبياء ﴿ابراهيم الذي وفى﴾.ثم تأتي سورة (ص) وهي التي تحدثت لنا عن بعض الأنبياء عليهم السلام فنجد فيها اشارات لابراهيم وبنيه ﴿واذْكُرْ عِبَادَنا إبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ أولِي الأَيْدِي والأبصارِ انا خَلَصْنَاهُمْ بخالِصَةٍ ذِكْرَى الدار وانَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيَارِ واذْكُرْ اسماعِيلَ والْيَسَعَ وذا الكِفْلِ وكُلٌّ من الأخْيَارِ﴾[1] (الآيات ٤٥-٤٨) ففي هذه الآيات نقرأ من الصفات لإبراهيم أوسع مما رأيناه في سورة النجم، فهم أولوا الأيدي والأبصار، وهم المخلصون المصطفون الأخيار.

١ـ ونظن أن اول سورة حدثتنا عن ابراهيم عليه السلام بعد هذه الاشارات الوافية، هي سورة مريم - عليها السلام - وهي سورة نزلت مبكرة بعض الشيء، وفي هذه السورة التي لها من اسمها نصيب كبير. في هذه السورة الكريمة، يحدثنا ربنا عن زكريا ويحيى ومريم وعيسى ثم ينتقل الحديث عن ابراهيم وبعض الأنبياء من بنيه، ومما يأخذ باللبِّ ويأسُر القلب؛ ولكن هذا القلب يأبى إلا أن يتفلت ليرقص إعجاباً ثم يلين خشوعاً. ذلك ان الحديث في سورة مريم عن ابراهيم عليه السلام كان يدور حول ذلك الحوار المؤثر بينه وبين أبيه ولعل الناظر في السورة الكريمة حينما ينعم النظر، ويجيل الفكر، ويدقق في الموضوع يدرك هذا السر الذي يأبى إلا أن ينتثر شذاه، وينتشر أريجه، ان سورة مريم التي جاءت بدايتها تحدثنا عن زكريا الوالد ويحيى الولد، وعن مريم الأم وعيسى الإبن، وهي التي ستحدثنا في آخرها بما يهز القلوب والمشاعر، كيف لا وهي ماتكاد السماوات تتفطر له، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدًّا أن دعوا للرحمن ولداً وقبل هذا حدثتنا السورة الكريمة عن الذي ﴿كَفَرَ بآياتِ اللهِ وقَالَ لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً﴾ لاعجب إذن أن نجد

(١) (أولوا الأيدي والأبصار) أي جمعوا بين العمل الجاد، والفكر المستنير، وهما قوام الحياة الكريمة. (أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) أي جعلناهم مخلصين بسبب عملهم للآخرة، فقد أثنى عليهم؛ لأنهم جمعوا بين الدنيا والآخرة وان كانت الثانية هي الغاية ويمكن أن تكون ذكرى الدار ماجعل لهم من الثناء في الدنيا (وهم من المصطفين الأخيار) الذين اصطفاهم الله وهم من أهل الخير وأي خير أعظم مما تقدم.

ماحدثت به السورة الكريمة عن إبراهيم - عليه السلام - كان جلّه بل كلّه يتصل بهذا الجانب، وهو حديث إبراهيم مع أبيه، ولنقرأ الآيات الكريمة لنرى بعد حديثنا - عن هذا السر الرائع - لنرى أي تأثير، وأي فعل يمكن أن تفعله الآيات:

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾

ونظن أن هذه الآيات بينة المعاني، ولكن جدير بنا أن ننظر إلى هذا التدرج الذي تدرج به إبراهيم مع أبيه في هذه النداءات التي تمتليء عطفاً وحناناً: فأولها: ﴿لم تعبد من دون الله﴾ وثانيها: ﴿اني قد جاءني من العلم﴾ وثالثها: نهيه عن عبادة الشيطان ورابعها: الخوف أن يَمسَّ أباه عذاب من الرحمن. ثم يجري ذلك

الحوار بينه وبين أبيه، هذا الحوار التي تظهر فيه قسوة الأب كأنما نزعت الرحمة من قلبه ﴿لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا﴾ وعلى العكس من هذا تظهر فيه رحمة الابن وحبِّه ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً﴾ ولم يجد ابراهيم بداً من أن يعتزلهم ويعتزل معبوداتهم ويدعو ربه فلن يكون شقيا بدعاء ربه ويكرمه الله فيهب له الأنبياء من ذريته.

٢ـ ثم تأتي **سورة الشعراء**: ولئن كان اختيار الجانب الذي تحدثت عنه سورة مريم يأسر القلب ويدعو إلى الإجلال - كما قلنا من قبل - فان الجانب الذي تحدثت عنه سورة الشعراء لايقل عن ذلك أبداً، وقد تحدثنا من قبل عن موضوع سورة الشعراء، والحديث عن إبراهيم يحكي لنا بكل أمانة ودقة ورقة وموضوعية موضوع السورة؛ لأنه حديث الأحاسيس، حديث الأعماق - كما يقولون -، الحديث الذي له ذلك التأثير على النفس وله تلك الحلاوة إقرأه بتدبر أو استمع إليه إن شئت بتدبر، وستجد أكثر مما وصفت لك لأن الكلمات لاتفي بالغرض ولا توفي الموضوع حقه وإذا كان الحديث في سورة مريم وجدنا فيه رقة الولد وبره بأبيه وحرصه كل الحرص على أن لا يصيب أباه سوء؛ فإننا نجد في سورة الشعراء هذا الطود الشامخ الذي يتحدى كل المؤثرات، هذه العقيدة الراسخة التي تتفاعل مع العقل والقلب وكذلك العقيدة الصادقة القوية، سنجد ذلك كله في سورة الشعراء كيف ان ابراهيم - عليه السلام - أُعطي الحجة القوية الدامغة يرد بها أباطيل قومه، ثم هذه الصلة الوثيقة بربه التي ستبقى وستظل الأساس الذي يرجع إليه المؤمنون والقبس الذي به يستنيرون ولنعد أنفسنا لاستماع الآيات وقراءتها:

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ
نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ

وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾

يالروعة النفوس المبتهجة بآيات الله، ويالبهجة النفوس التي اختارت نزهتها في رياض القرآن، سندع الآن ماقاله القوم من مكابرات ولجج؛ فلنا لمثله عودة - إن شاء الله - ولكننا نقف مع ماقاله أب الأنبياء وشيخ الحنفاء، أبونا ونحن نتشرف بهذا النسب، هذا الذي يدل على حصانة عقل، وقوة عقيدة، وإرهاف إحساس، ورقة مشاعر، أي والله تأمله معي!! ﴿أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾.

ماذا يجدي: ان العقيدة ليست مما ينبغي فيها تقليد الآباء ثم يقول - عليه السلام - كلمته التي تدل على بعد نظر ﴿فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ وإنما قلنا: تدل على بعد نظر؛ لأنه قال «عدو لي» ولم يقل «عدو لكم»، كانما يريد منهم أن يفكروا في انفسهم، وفي تعريض ليس مثله التصريح، وذلك كما يسألك أحد عن شيء؛ فتعلمه أنك قد اخترته لنفسك، فهو تعريض منك ان يختار مثله هو؛ لأنك مادمت أنت قد ارتضيته فمن باب أولى أن تنصح غيرك ليرتضيه.

ثم يعظم أبو الأنبياء ربه وهو يذكر نعمه فيذكر نعمتين أولين: أولاهما نعمة الخلق، وقد جاءت خالية من الضمير. والثانية: نعمة الهداية، وقد جاءت مقترنة بالضمير (هو) ﴿فهو يهدين﴾ ثم ذكر نعمتين اخريين وهما: الطعام والشراب ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ ونلحظ أنه قد جيء بالضمير هنا كذلك أعني (هو) وكانت النعمة الثالثة نعمة الشفاء من المرض، وقد اقترنت كذلك بالضمير ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾.

ثم ذكر امرين من أثر القدرة الإلهية غير مقترنين بالضمير ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ ثم ذكر الغاية التي يبتغيها ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ ثم توجّـه إلى الله يدعوه لما يصلح دنياه وآخرته وان يجنبه الفضيحة والخزي يوم يبعثون ﴿يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم﴾ ومع رقة هذه الكلمات وتأثيرها في النفس نجد القوة والرصانة. فهذا الضمير مثلا (هو) اذا بحثنا عنـه نجـده قد اقـترن مع الأمـور الآتية: الهداية، الطعام والشراب «يطعمني ويسقين»، الشفاء من المرض. وانما اقترن بهذه الأمور الأربعة، كأنما هو رد عليهم وعلى أمثالهم ممن يرجون الخير من غير الله، إنه رد عليهم حينما ينسبون لأصنامهم الهداية، وهو رد عليهم حينما يطلبون منها الرزق من طعام وشراب وحينما يطلبون منها أن تشفيهم من أمراضهم كذلك.

أما الأمور التي لم تقترن بالضمير وهي: الخلق، والإماتة، والأحياء؛ فإنه لا حاجة بها لهذا الضمير؛ لأن أحداً لايزعم أن الصنم الذي صنعه بيده هو الذي خلقـه، وهـو الـذي سيحييه ويميته ويغفر له. ثم لا ننسى هذا الأدب الرائق والذوق الراقي الرفيع وهو نسبته المرض لنفسه لا لله تعالى «وإذا مرضت» ولم يقل الذي يمرضني كما قال يطعمني، ولكنه نسب إليه سبحانه الشفاء «فهو يشفين».

ثم هذه الدعوات الجامعة التي دعا بها إبراهيم - عليه السلام - ربه أن يهب له الحكم اولاً، وان يلحقه بالصالحين، إلى آخر هذه الدعوات وهي واللهِ جمعت بين خير الـدنيا وخير الآخرة، والسلامة من شر الدنيا وشر الآخرة، وتلك هي السعادة التي اكرم الله بها خليله عليه وعلى نبينا صلاة الله وسلامه.

ولقد اعجبني ماقاله الزمخشري - رحمه الله - فأحببت أن أسجله ليفيد منه

القاريء وماأظنه إلا كذلك قال رحمه الله: «وماأحسن مارتب إبراهيم - عليه السلام - كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون، سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بانها لاتضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم اباءهم الاقدمين فكسره وأخرجه من ان يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صوَّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا، فعظم شأنه وعدَّد نعمته من لدن خلقه وانشائه إلى حين وفاته، مع مايرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ماكانوا فيه من الضلال، وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا»(١).

٣ـ ثم تأتي **سورة هود** تحدثنا عن ابراهيم - عليه السلام - وكما قلت من قبلُ الحديث عن ابراهيم يختلف عن الحديث عن غيره - إذْ الحديث عنه - عليه السلام - من جوانب كثيرة، لذلك وجدناه في مكي القرآن ومدنيه. تأتي سورة هود؛ ولكنها لن تحدثنا عما كان بينه وبين قومه، وانما جاءت تحدثنا عن طيب الخلال، وشريف الخصال التي يتمتع بها ابراهيم - عليه السلام -، وكذلك عما أكرمه الله به.

ويظهر أن الحديث عن إبراهيم في سورة هود كان مقدمة للحديث عن قوم لوط - عليه السلام -، هذا ماتشير إليه الآيات، وهذا مايتفق مع موضوع السورة الذي تحدثنا عنه من قبل؛ فالرسل الذين جاءوا ابراهيم بالبشرى كانوا في طريقهم إلى لوط - عليه السلام -، ولكنهم مرُّوا به إكراماً له، وهذا أمر متعارف عليه بين النَّاس - حتى في زماننا هذا - أن ينزلوا أولاً عند الكبير صاحب النفوذ، تحدثنا آيات سورة هود ان الرسل جاءوا ابراهيم بالبشرى ﴿قَالُوا سَلَامَاً قالَ سَلَامٌ﴾ والقرآن يدلنا على كرم ابراهيم، وجميل صفاته؛ فان سلام الملائكة جاء منصوباً وسلام إبراهيم جاء مرفوعاً، كما تلحظ - أيها القاريء - سلام الملائكة جاء منصوباً فلا بد له من فعل ناصب، وهنا تكون الجملة فعلية - كما يقول علماء اللغة - «أي نسلم سلاما»، ولكنْ سلامُ ابراهيم جاء مرفوعاً؛ لأنه مبتدأ، أي: سلام

---

(١) الكشاف جـ ٣، ص٣٢١.

عليكم، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ لأن جملتـه اسمية وليست فعلية، والفـرق بين الجملتين: ان الفعلية تدل على الحدوث، بينما الاسمية تدل على الثبوت والدوام، فسلامُ الملائكة لإبراهيم سلام حادث متجدد، ولكن رد ابراهيم عليهم كان يتسم بالثبوت والدوام والاستمرار فكانت تحيته أبلغ من تحيتهم، وهذا هو الأدب الذي علمنا اياه القرآن ﴿وإذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ (النساء - ٨٦) وبعد هذه التحية الطيبة بادر مسرعاً لإكرامهم؛ فجاءهم بسيد الطعام «عجلٍ حَنيذٍ»[١] ولكنه لما رآهم لا يتناولون الطعام أنكر ذلك منهم، ودارت في نفسه الهواجس، وهذا امر متعارف عليه فالذي لا يتناول طعاماً قُدِّم له يشك صاحب البيت في أمره، ونحن نعرف أن هناك عادات مستمرة حتى اليوم، فقد لاتشرب القهوة إذا كان هناك داعٍ لعدم الشرب حتى يُعطى الضيف مايريد... وقد قلنا من قبل إنَّ مجيء الرسل كان مقدمةً للذهاب إلى لوط - عليه السلام -، يدلنا على ذلك ماكان من الملائكة حينما رأوا ابراهيم أنكر ذلك منهم ﴿قَالُوا لَاتَخَفْ إنَّا أُرْسِلْنا إلى قَوْمِ لُوطٍ﴾ وامرأته تسمع مايقال فيبشرونها بإسحاقَ ولداً، وبيعقوب نافلةً أي حفيداً لها وتعلن ماتتعجب منه وتجهر به؛ إذ كيف تلد وهي عجوز وهذا بعلها تقدم به الزمن، إن هذا لأمر عجيب لم تجر به العادة!! ولكن اولئك الرسل من الملائكة يخبرونها ان لا عجب في ذلك؛ فهو أمر الله، والله تبارك وتعالى قَدْ مَنَّ عليه برحمته، ومنَّ عليهم ببركاته، فهم أهل بيت النبوة، والله حميد مجيد، فلما عرف إبراهيم ذلك ذهب عنه الروع الذي كان يستولي على قلبه، وبعد هذه البشرى الطيبة أخذ يجادلهم في شأن قوم لوط لعلهم يرجعـون عن غيهم ولعل الملائكة يرجعون عما سيقومون به من عذاب أولئك، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على صفات خيرة لإبراهيم - عليه السلام -، فهو حليم أولاً، والحلم من الصفات التي يحبها الله، وهو أواه منيب[٢] كذلك، ولكن الملائكة يخبرونه أن لاحيلة في الأمر؛ فليعرض عما

---

(١) (حنيذ): مشوي على الرضف وقد حفرت له حفرة، وهو من الطعام الشهي، ويعرف في بلادنا «بالزرب» فيأكله الآكلون دون عناء لأن النار التي حفر لها قد هيأته لذلك.

(٢) (أواه): كثير التأوه من خشية الله، (منيب): راجع إلى الله بما يحبه سبحانه من الإنابة وهذه الصفات تدل على الرحمة فهو حليم لا يسرع بالانتقام ممن أساء له، أواه منيب وهذه الصفات له عليه السلام ترضي الخالق والمخلوق.

يجادل فيه ؛ لأن ذلك أمر الله تبارك وتعالى وقضاؤه، ولا راد لقضائه، ولا بد من أن يأتيهم عذاب غير مردود، وهنا ربما يرد هذا التساؤل ان الآيات في السور السابقة حدثتنا عن شأن ابراهيم مع أبيه وقومه، وكان ذلك في بلده الذي نشأ فيه قبل أن يهاجر إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، فلسطين، فكيف جاءت الآيات في سورة هود تتحدث عن إبراهيم في البلد الذي هاجر إليه دون أن يسبق له ذكر من قبل؟! ونجيب على هذا التساؤل بأن الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن ينتقل القرآن الكريم هذه النقلة التي لم يسبق لها ذكر، ولكن الذي يقف مع الآيات السابقة يجد أن القرآن الكريم أشار إلى هذه الهجرة إشارة مجملة وذلك ماحدثتنا عنه آيات سورة مريم حينما قال: ﴿وأَعْتَزِلُكُمْ ومَاتَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ وأدعُوا رَبِّي عَسَى ألَّا أكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وما يعبدونَ من دون الله وهبنا لَهُ إسْحَاقَ ويَعْقُوبَ وكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وهذه طريقة القرآن الرائعة حيث ذكر ذلك مجملاً أولا ثم يجيء التفصيل بعد ذلك، وهذه الآيات من سورة هود نقرؤها متدبرين وسنرى أن ماجاءت به جديد من حيثُ الموضوعُ والاحداثُ والجزئيات:

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُۥ

﴿قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (٧٦)

إن هذه الآيات الكريمة حين نتدبرها تدل على جوانب خيرة متعددة في شخصية إبراهيم - عليه السلام -، فهذا الإحسان إلى الضيف لامن حيثُ القِرى وحده وكرم الضيافة، وإنما من حيثُ البشاشةُ كذلك، وقد تغني البشاشة عن القِرى، ومن أقوالهم: «البشاشة خير من القِرى» ومن الكلمات الشعبية التي جرت هذا المجرى: «لاقيني ولا تغديني» ولكن ابراهيم - عليه السلام - جمع بينهما، ثم ان ابراهيم بشر، لذا يسوءه مايسوء الناس حينما يرى أنهم لا يقربون زاده، ولا يتناولون منه شيئاً وربما يكون ابراهيم - عليه السلام - قد أدرك بحسه المرهف، وبصيرته انهم ملائكة فنكرهم وأوجس منهم خيفة اي أضمر في قلبه خوفاً دون أن يشعرهم؛ لأنه ظن أنهم أتوه لامر سيحل به. والقائلون هنا يستدلون بقول الله ﴿لاتَخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ فكأنهم أدركوا معرفته لهم فأخبروه أنهم ماجاؤوه، وأنهم جاؤوا قوم لوط، وهذا يدل على بصيرة منه - عليه السلام -. والأول - ونعني ظنه بهم بشراً لا ملائكةً - يدل على رجاحة عقل؛ لأنه أوجس منهم خيفة اضمرها في نفسه دون أن يظهرها لهم ويشعرهم بها، ونجد السياق هنا يسدل فيه الستار على ماكان بينهم وبينه ليحدثنا عما كان بينهم وبين امرأته بهذه القوة من الأسلوب، ولو لم يقل الا هذه الميزة الطيبة، وهو أن الله تبارك وتعالى اكرمهم برحمته وبركاته فجعلها عليهم ينعمون بها لكفاهم ذلك.

ثم هذه الصفات التي جمعها الله لخليله - عليه السلام -، وهو ماأكرمه الله به، فارتكز في نفسه من حبٍّ للخير وعفو عن المسيء، وخشية لله؛ فإذا اضيفت هذه إلى ماسبق من الصفات نجد ان ابراهيم - عليه السلام - جمع من الصفات مالم يجمعه أحد، فلا غرو أن يكون أبا للانبياء، ولا عجب أن نجد هذا الحب والاجلال والتقدير من سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأبيه إبراهيم يدرك ذلك كل مَنْ اجال نظره في السنة المطهرة . . . . إنه إبـراهيـم وكفى - صلى الله عليه وسلم -.

٤- ثم جاءت سورة الحجر بعد سورة هود، والحديث فيها عن إبراهيم - عليه السلام - يتلاءم مع موضوعها الذي تحدثنا عنه من قبل، وسورة الحجر هي السورة التي تبين لنا خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، فهو كثير التقلب سريع التغير لا يستطيع أن يقف في مهب الرياح، لولا عناية الله تبارك وتعالى.

وقصـة إبـراهيم في سورة الحجر تحدثنا عن صفات هذه الصفوة المختارة، وكيف ان الله تبارك وتعالى تداركهم بعنايته.

يبدأ الحديث عن قصة ابراهيم في سورة الحجر بعد قصة آدم، ولكننا نجده مبدوءاً بهذه الجملة المسندة الى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لينبيء عبـاد الله من اجـل ان يعيشوا بين الخوف والرجاء، ولا بد منهما في حياة العبد المخلص؛ فإن الله تبارك وتعالى لايجمع لعبد بين أمنين، ولا بين خوفين، فمن أمنه في الدنيا لم يأمنه في الآخرة، ومن خافه في الدنيا لم يخفه في الآخرة يقول الله تبارك وتعالى ﴿نَبِىء عِبَادِيَ أنِّي أنَا الغَفُور الرَحِيمْ وأنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأليمُ، ونَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إبراهيمَ﴾ هكذا جاء الحديث عن إبراهيمَ... وإذا كان إبراهيمُ عليه السلام كثيَر الخوف من ربه، أواهاً كما حدثتنا سورة هود، واذا كان عظيم الأمل في رحمة الله؛ فان الآيات تحدثنا عن جانب من هذه الصفات في شخصية إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قصة إبراهيم في سورة الحجر لاتحدثنا عما جرى بينه وبين قومه، وانما عن جانب مما كان بينه وبين الملائكة، فتأتي قصة إبراهيم في الحجر مقدمة للحديث عن لوط... لكن القصة هنا تطوى فيها كثير من المشاهد التي وجدناها في سورة هود... ومع ذلك ففي القصة دروس جديدة تطلب الآيات من النبي - عليه وآله الصلاة والسلام - ان يحدثنا عن ضيف إبراهيم في وقت دخولهم عليه محيين مسلِّمين، ولكن ابراهيم - عليه السلام - يجد في نفسه منهم مقدمات الخوف، وهـو الـوجـل فيؤانسونه بان لا داعي لهذا الوجل، فنحن نبشرك بغلام عليم، ويستفهم متعجبـاً ماهـذا الذي تقولون وقد مسني الكبر فبأي شيء تبشرون؟! ويجيبـونه بأنَّ ماسمعه حق فلا ينبغي له أن يعجب ويستغرب، وحريٌّ به أن لا يكون من القانطين، ويسارع - عليه السلام - ليرد هذه الصفة عن نفسه وهي صفـة القنـوط؛ لأنها من الصفات التي لا يحبها الله تبارك وتعالى، ولا يليق أن يتصف بها عباده، فالقنوط ليس صفة أولئك الذين ملأ اليقين قلوبهم وأشرق نور الإيمان في جوانب نفوسهم، وإنَّما هو صفة اولئك الضالين الذين لم يكرموا بقبس الهداية فهم في حيرة وتردد ثم يسألهم عن شأنهم وخطبهم وبهذا تنتهي قصة ابراهيم في هذه السورة لتبدأ قصة لوط وهذه الآيات الكريمة:

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾

والمتدبر للآيات الكريمة يلمح الجدة فيها لأول مرة دون عناء، فأولاً: يسميهم القرآن ضيفاً، وثانياً: يطوى فيها ذكر الطعام ومايتصل به، وثالثاً: يطوى فيه ذكر المرأة، ورابعاً: يشعرهم ابراهيم هنا بوجله، وهو مقدمات الخوف ﴿انا منكم وجلون﴾ وفي السورة السابقة أوجس منهم خيفة. خامساً: يوصف الغلام الذي بشر به هنا بأنه عليم، سادساً: نقف عند هذه العبارة المصورة المعبرة ﴿مسني الكبر﴾، سابعاً: نجد هنا صفة زائدة على ماتقدم في سورة هود وهي (عدم القنوط) إنما الذين يقنطون هم الضالون فقط، وابراهيم ممن أكرمهم الله بالهداية.

ألا ترى - أخي القاريء - أن مافي السورة كله جديد لا تحوم حوله شبهة تكرار، ولا تشوبه شائبة إعادة، وان الذين يدَّعون التكرار انما هم واحد من اثنين؛ اما أنهم لا ينعمون نظراً، واما انهم لا يفقهون خبراً.

٥ـ ثم جاءت **سورة الأنعام**، وسورة الأنعام تتحدث عن العقيدة، لا من حيثُ تاريخُها البعيد العميق - كما رأينا في سورة الأعراف - وإنما تتحدث عن

العقيدة من حيثية أخرى، وهي ردُّ الشبهات وإقامة الحجج، وتقدير الأدلة لإلزام المشركين، بل لإلزام أولئك الذين يجحدون الحق في شأن الالوهية والرسالة في كل زمان.

ومن هنا فليس عجيباً أن لا يذكر في سورة الأنعام أي قصة من قصص الأنبياء - عليهم السلام -، ولكن الخبر الوحيد الذي ذكر في هذه السورة هو خبر إبراهيم - عليه السلام -، وقد ذكرت هذه القصة من الجهة التي يعالجها موضوع السورة وهو إقامة البراهين على وحدانية الله تبارك وتعالى، وإبطال كل مايُعبد من دونه، هكذا جاءت قصة إبراهيم - عليه السلام - في سورة الأنعام، وهي اقامة الحجة على أولئك الذين يدَّعون أنهم على دين إبراهيم، ومع ذلك يعبدون الأصنام، ويستهجنون أمر التوحيد، وهكذا بدأت قصة ابراهيم، فهو ينكر على أبيه آزر أن يتخذ أصناماً آلهة إن هذا لضلال مبين يتبعه آزر وقومه... وتحدثنا الآيات أن الله اكرم إبراهيم بأن أراه ملكوت السماوات والأرض ليحاجَّ قومه من جهة، وليزداد يقيناً من جهة أخرى. ويظلم عليه الليل فيرى كوكباً بازغاً فيقول على سبيل الاستهزاء والزام قومه بالحجة «هذا ربي» بصيغة الاستفهام الانكاري دون أن تذكر أداة الاستفهام، «فلما ذهب ضوءه قال: لا أحب الآفلين، وكان قومه يعظمون الكواكب وهذا لا يتنافى مع عبادتهم الأصنام لانها هي صورها القريبة منهم وهكذا رأى القمر فاعاد مقالته الأولى، فلما غاب بين لهم أن الهداية ليست إلَّا من الله. وهكذا حينما رأى الشمس تساءل منكراً على قومه هذا ربي ان هذا الضوء أكثر سطوعاً من غيره؛ ولكنها حينما غابت وغربت وجد ان ذلك كان كافياً لتبكيت قومه والزامهم بالحجة، وهنا يعلن براءته مما يعبد قومه، كما يعلن أنه لا يوجه وجهه الا للذي خلق السماوات والأرض مبتعداً عن كل اعوجاج، وعن كل جنف حنيفاً متجهاً نحو الحق بعيداً عن لوثة الشرك، وحاجَّه قومه وجادلوه؛ ولكنه أنكر عليهم ذلك كلَّه فكيف يحاجونه ويجادلونه في دين الله؟! وقد هداه الله إلى الحق، ولذلك فهو لا يخاف شيئاً من أصنامهم أو معبوداتهم أو كيدهم؛ فلن يكون الا مايشاؤه الله تبارك وتعالى، ويقرعهم ويعنفهم فما بالهم يعرضون عن الحق فلا يتذكرون؟!.

ثم يأتيهم بهذه الحجة الدامغة، والدليل القاطع، والبرهان الساطع، فكيف

يخاف من أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة؟ وكيف يخاف كيدهم ومكرهم؟ وهم لا يخافون الله تبارك وتعالى الملك الحق المبين؛ فيشركون به دون أن يكون معهم حجة أو سلطان، لم يخاف إذن وهم لا يخافون؟؟ انهم أولى بالخوف من إبراهيم بل إنهم هم الذين ينبغي أن يخافوا؛ أما هو فلينعم بالأمن؛ لأنه يأوي إلى ركن شديد، وهكذا كل من آمن بالله ،ولم يخلط عبادته بشرك ،هو الحريّ بالأمن الجدير بالهداية، وهذه بحق حجة عظيمة، اكرم الله بها إبراهيم - عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلاة الله وسلامه - فأقامها على قومه فلم يبق لهم منفذ، وهكذا يرفع الله درجات من يشاء من عباده؛ فإنه سبحانه المربِّي لهم الحكيم العليم، وهكذا اكرم الله ابراهيم - عليه السلام - فجعل كثيراً من الأنبياء عليهم السلام من ذريته.

تلك هي قصـة ابراهيم في سورة الأنعام كانت أحداثها جميعها متسقة مع موضوع السورة الكريمة، - وكما قلت من قبل - انها القصة الوحيدة التي ذكرت في هذه السورة، وفيها الحجة الدامغة على أولئك الذين انحرفوا عن ملة إبراهيم فجلبوا الأصنام للبيت الذي بناه.

وهذه الآيات الكريمة كما حدثتنا عنها سورة الأنعام نجد في آخرها بعد ذكر الأنبياء - عليهم السلام - بياناً شافياً كافياً تاماً كاملاً بأنَّ أولئك هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة؛ فإن أبى العربُ الا الكفر؛ فإن هناك من اكرمهم الله بالإيمان وأولئك هم الذين هداهم الله تبارك وتعالى؛ فبهداهم يقتدى ويهتدى.

ولا بد أن ننبه هنا إلى أنه قد وردت أقوالٌ كثيرة في تفسير هذه الآيات يُفهم منها أن ابراهيم - عليه السلام - كان جادًّا حينما قال عن كل واحد من هذه الكواكب هذا ربِّي قاله على سبيل الإخبار والإعتقاد؛ لأنه لم يكن يعرف شيئاً غير هذا، ولكنَّا نُجِلُّ شيخ الحنفاء، وأبا الأنبياء - عليه السلام - عن مثل هذه الأقوال وهي مما حشيت بها الكتب - مع كل أسف - فينبغي أن نضرب عنها صفْحاً وان نبتعد بها عن الآيات الكريمة تفسيراً وشرحاً وإنما قال: «هذا ربي» منكراً على قومه ساخراً منهم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ

أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ
مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ
لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا
رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ
أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ
سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ
وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ
قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا

هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

وهذه الآيات الكريمة تدل على أمر آخر اكرم الله به نبيه وخليله ، فَفَضْلاً عما اكرمه به من يقين وقد أراه ملكوت السماوات والأرض،فلقد أكرمه بهذه الحجج والبراهين والأدلة التي لا يوفق لها إلا ذو بصيرة نفاذة، ومن هنا فنجده أولا بدأ في الترقي وهو ينفي الألوهية عن الكواكب بدءاً ببعض النجوم ثم القمر ثم الشمس، ولـو انه بدأ بالأكبر منها، وهي الشمس ماأمكنه أن يتحدث عن القمر والنجوم ولكنه بدأ من الأصغر إلى الأكبر، وهذا من حسن الاستدلال، ودلالة الرشد،ثم نجده بعد ذلك استدل على عدم إلاهية هذه الكواكب بالأفول دون السطوع ﴿فلما افـل قال لا أحب الآفلين﴾ ونجده يعلق براءته من الشرك حينما اثبت ان اكبر الكواكب وهي الشمس لا تصلح لأن تعبد، ثم يعلن أنَّه وجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، والحنف هو الميل عن الباطل والجنف هو الميل عن الحق

فانظر إلى هذه اللغة المحكمة، لغة القرآن فبين المعنيين المتضادتين نقطة واحدة، وبعد أن يحاجه قومه ينكر عليهم محاجتهم فقد هداه الله؛ ولئن خوفوه أصنامهم وآلهتهم فإنه لن يخافها - كما قلنا من قبل - إذ كيف يخاف مالا ينفع ولا يضر، وما بالهم لا يخافون الله الذي بيده ملكوت كل شيء.

نعم إن المؤمن الذي صفى إيمانه كُدورات الشرك والشك والاخلاد إلى الأرض ولوثة المادة. هو الذي يكرمه الله باعظم منتينْ، واكبر نعمتين وهما الأمن والهداية. الأمن حتى لا يروع قلبه، والهداية حتى لا يضل عقله. ويقيني: أن مابعدهما تابع لهما. وتلك هي الحجة التي آتاها الله ابراهيم على قومه فهو سبحانه يرفع درجات من يشاء من عباده وهو الحكيم العليم بمن يستحق ذلك من أولئك.

ثم يبين ماأكرم به نبيه من أنه جعل الأنبياء من ذريته وجعله هو من ذرية نوح - عليه السلام -، وهذه الآيات من سورة الأنعام جمع فيها ثمانية عشر نبياً من انبياء الله: ابراهيم واسحق ويعقوب ونوح، هؤلاء أربعة ثم ذكر اربعة عشر نبياً في مجموعات ثلاث كما تجد ذلك في الآيات السابقة. وهنا لفته نقدرها لصاحب المنار عن سر الجمع بين هذه الفئات الثلاث.

قال رحمه الله: فالقسم الأول: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، والمعنى الجامع بين هؤلاء أن الله تعالى آتاهم الملك والأمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان لأنهما كانا ملكين غنيين منعمين وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميراً غنياً عظيمًا محسناً، والثاني وزيراً عظيمًا حاكمًا متصرفًا، ولكن كلا منهما قد ابتلي بالضراء فصبر كما ابتلي بالسراء فشكر، واما موسى وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة تمتاز بفرية،والترتيب بين الأزواج على طرق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقي في الدين؛ فداوود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر أن موسى وهارون أفضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف، وان هذين افضل من داود وسليمان بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء - والله أعلم - وقد قال تعالى بعد ذكر هؤلاء: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ اي بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق وهداية الدين وإرشاد الخلق وهذا كما قال الله تعالى عن أحدهم

وهو يوسف[1] ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين﴾ فهو جزاء خاص بعضه معجل في الدنيا، أي ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب احسانه في الدنيا قبل الآخرة ومنهم من يرجيء الله جزاءه إلى الآخرة.

والقسم الثاني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وهؤلاء قد امتازوا - عليهم السلام - بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها ولذلك خصَّهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم وان كان كل نبي صالحاً ومحسناً على الإطلاق.

والقسم الثالث: إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، وأخَّر ذكرهم لعدم الخصوصية؛ إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا، أو سلطانها ماكان للقسم الأول ولا بد من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ماكان للقسم الثاني، وقد قفى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذي جعله الله تعالى لكل نبي على عالمي زمانه»[2].

ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشرك اولئك لحبط عملهم؛ ولكن الله علم أنهم لم يشركوا فهو تحذير لغيرهم، وهؤلاء هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، فان أبى أهل مكة وغيرهم إلا الكفر، فان الله وكَّل بها أقواماً يذبُّون عنها، وهؤلاء هم الذين هداهم الله فبهداهم اقتده، وهذا فيه مافيه من الذكرى للعالمين.

ذاك خبر إبراهيم - عليه السلام - في سورة الأنعام؛ السورة التي نهجت اكثر من أسلوب في تقرير العقيدة؛ أسلوب التقرير تارة؛ كقوله: ﴿وهُوَ القَاهِرُ فوقَ عباده﴾ ﴿وهو الذي انشأكم من نفس واحدة﴾ ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم﴾ إلى غير ذلك.

أو الأسلوب التلقيني: وهو المُبْتَدَأ بكلمة (قل)، ﴿قل أغير الله تتخذ ولياً﴾

---

(١) وقد أغفل الشيخ رشيد موسى عليه السلام فلقد جاء في حقه كذلك، "فلما بلغ أشده واستوى آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين" (القصص).

(٢) تفسير المنار جـ٧، ص٥٨٧.

﴿قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله﴾ ﴿قل أرأيتم ان أتاكم عذاب الله﴾ ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾.

والأسلوب الثالث هو هذا الأسلوب؛ أسلوب إبطال حجة الخصم، كما رأينا في قصة ابراهيم - عليه السلام -. لقد تمثلت الروعة والدقة فيما أعطيه إبراهيم - عليه السلام - من هذا التدرج في إقامة الحجة. يقول الزمخشري رحمه الله: «وكان أبـوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب؛ فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لايصح أن يكون إلٰهاً؛ لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها محدثاً أحدثها وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها»[1].

٦- ثم تأتي **سورة الصافات**، وهي مكية كذلك، وسورة الصافات - كما تحدثنـا عن موضوعها من قبل - تحدثنا عن إكرام الله لأنبيائه - عليهم السلام -... وهكذا كان الحديث عن ابراهيم ﷺ فبعد الحديث عن نوح - عليه السلام - وقد مر معنا من قبل - تحدثنا آيات الصافات أن ابراهيم كان من شيعة نوح - عليه السلام - لأن كلًا منهما كان صلباً في دين الله لم تلن قناته، وأنه أخلص لربه بقلب سليم خالٍ من كلِّ صفات النقص، وقد أنكر علي أبيه وقومه مايعبدون، وكل هذه الآلهة التي يدعونها من دون الله؛ إنما هي إفك وباطل وهذا كله؛ لأنهم لا يرجون لله وقاراً؛ ولأنهم ماقدَّروا الله حق قدره، فكان ظنهم بربِّ العالمين غير منسجم مع براهين العقل، ويقين القلب.

كما تحدثنا الآيات كذلك عن يقظة إبراهيم - عليه السلام - ورجاحة عقله، وبعـد تفكـيره، وحسن تخلصـه، وشدة حرصه على دينه، وشدة قوته في محاربة الباطل، فلقد أراد أن يشاغل قومه حتى لا يسير معهم إلى حيث يريدون فيحملهم على تركه لينفذ أمراً عزم عليه، لذلك نظر نظرة في علم النجوم وقد كانوا يعولون على هذا العلم؛ فأخبرهم أن به سقمًا يمنعه من أن يشاركهم مسيرتهم، ولا يظنن ظان أن ذلك كذب من إبراهيم - عليه السلام -، وانما ذلك من باب التعريض

---

(١) الكشاف جـ٢، ص٤٠.

والتورية؛ فهو سقيم لعدم إيمانهم وتصديقهم بالحق وعبادتهم الباطلة، وهذا شأن الأنبياء - عليهم السلام -، بل هو شأن الدعاة إلى الله والمصلحين، وقد حدثنا القرآن الكريم عما كان يختلج في نفس النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من ألم، وما يشعر به من حسرة حتى لقد كان ربه تبارك وتعالى يهون عليه ذلك ويسليه في كثير من آياته فيقول له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (فاطر-٨) كما يقول له: ﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ألَّا يَكُونُوا مؤمنينَ﴾ (الشعراء-٣) وفي آية أخرى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مايُوحَى إلَيْكَ وضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ (هود-١٢) والآيات كثيرة، تلك التي جاءت تبدِّد الألم الذي كان يساور النبي - عليه الصلاة والسلام - من عدم إيمان قومه به، وكذلك إبراهيم - عليه السلام -؛ فهو سقيم حقاً؛ ولَّما سمع القوم ذلك من ابراهيم - عليه السلام - تولوا عنه؛ فأدبروا إلى حيثُ يريدون، وهنا رأى ابراهيم - عليه السلام -؛ أنها فرصة سانحة لا ينبغي أن تفوت أو تضيع؛ لأنها ربَّما لا تعوض فأسرع فذهب في سرعة وخفاء إلى آلهتهم وقد ترك القوم عندها المآكل الطيبة حتى ينعموا بها حين رجوعهم فخاطبهم متهكمًا مستهزءاً ألا تأكلون؟! كما يأكل الذين يعبدونكم. ثم بكتهم مستهزءاً مالكم لا تنطقون؟! الا تتكلمون؟! وهنا وبكل سرعة وخفاء، وبكل قوة وشدة، يأخذ بتحطيم هذه الأصنام. ويأتي القوم ليروا ماحلَّ بأصنامهم فيقبلون مسرعين، وقد جنَّ جنونهم؛ يقبلون مسرعين إلى ابراهيم، ولكنَّ ابراهيمَ - عليه السلام - يباغتهم فيلزمهم الحجة، فكيف يعبدون هذه الأصنام التي ينحتونها هم بأيديهم مع أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلقهم وخلق كل مايعملون، خلق عملهم وهو الذي خلق هذه المواد التي ينحتونها، ويرى القوم أنه قد سُقط. في أيديهم فلا يستطيعون أن يحروا جواباً وهذا باطلهم قد دمغ بهذا الحق الذي قذفه إبراهيم - عليه السلام -، فلما لزمتهم الحجة ورأوا أنهم بعيدون عن الحجة لجأوا إلى القوة والبطش، وكذلك أهل الباطل في كل زمان حينما يعجزون عن مجابهة الحجج، وحينما يدركون أنهم في عماية ولجج؛ فانهم يعمدون إلى النكاية المادية ومحاولة التصفية الجسدية، ذلك ماحدثنا عنه التاريخ، بل ذلك مايشهد به الواقع لاسيما حينما لا يجد الحق عنه أي مدافع، كذلك قوم ابراهيم - عليه السلام -، فما وجدوا خيراً من استعراض العضلات فتواصوا ببنيان يبنونه، وكيد لإبراهيم يريدونه؛ فليسعِّروا ذلك البنيان بالنار حتى تصير جحيمًا، فليلقوا فيها إبراهيم. . . ولكن

كما بطلت حجتهم من قبل فلم يستطيعوا أن يقابلوا إبراهيم بمنطق . . . أبطل الله كيدهم الذي أرادوه كذلك، فلم يُصب ابراهيم بسوء. ورأى أنه لابد أن يهاجر من أجل الله وهو واثق من أنَّ ربَّه سيهديه إلى مافيه صلاح هذا الدين، وكذلك الأنبياء ومن بعدهم الدعاة حينما يرون الأرض التي هم فيها أمحلت من الخير، وحينما يرون الجو الذي يعيشون فيه عقيمًا؛ فإنهم يبحثون عن تربة صالحة تنبت فيها الكلمة الطيبة. ويسأل ابراهيم ربه أن يهب له من الصالحين ذرية طيبة فيستجيب الله دعاءه ويبشره بغلام حليم ولا عجب فالحلم صفة لابراهيم - عليه السلام - كذلك - والولد سر أبيه - ويولد هذا الغلام لإبراهيم ويشتد عوده حينما يبلغ مبلغاً يمكنه من أن يسعى مع أبيه في قضاء حوائجه، يحدثنا القرآن عما يدل على حلم الولد من جهة، وحلم الأب من جهة أخرى، والحلم صفة يحبها الله، ولقد وصف بها إبراهيم في أكثر من آية وأي حلم أعظم من أن يبتلى الأب بذبح ابنه؛ فيتغلب على كل عاطفة وحنان، وأيُّ حلم أعظم من أن تطيب نفس هذا الأبن المذبوح بما يريده أبوه فيذعن لهذا الحكم بكل رضى ومحبة من غير مداورة وتردد، تحدثنا السورة الكريمة عن هذا المشهد حينما أخبر ابراهيم ابنه أنه رأى في المنام أنه يذبحه، فما كان من الابن إلا أن يعلن لأبيه بأن يفعل مايؤمر به وسيجده إن شاء الله صابراً محتسباً

ويسلم كل من الأب والابن لله بكل خضوع وطمأنينة، وتباشر عملية الذبح بكل جدية وحزم، وحقاً إنه لمشهد مؤثر، وقد أبدع القرآن تصويره البياني في هذه القصة وينادى إبراهيم وقد تلَّ ولده للجبين قد صدَّقت الرؤيا وحقاً إنها أعلى مراتب الإحسان من الأب والإبن معاً، ولا بد للمحسن أن يجازى بإحسانه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وحقا انه لابتلاء عظيم، ويكرم الله إبراهيم بالفداء، ويفدى الولد البارُّ بذبح (كبش) يقوم بذبحه الأب القانت، ويكرم الله ابراهيم الذي جمع بين عزِّ الإيمان وخضوع العبودية وهما مقاما الافتقار، والافتخار.

ويبشره الله تبارك وتعالى بولد آخر هو إسحاق نبياً ويبارك عليهما، أما ذريتهما ففيها المحسن الخيِّر والظالم المسيء.

تلك هي قصة إبراهيم - عليه السلام - في سورة الصافات، ومع مافيها من

مشاهد مؤثرة ووقفات تربي الضمائر، وتهذب النفوس فترتفع بها وهي تلقنها أروع الدروس، ومع ذلك فلا نرى في القصة أي أثر من آثار التكرار، ورغم مافيها من أحداث عديدة إلا أنها مع ذلك كله جديدة ثرية بالعظات، ولله الحمد والمنّة . . .

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن الذبيح كان إسماعيل - عليه السلام -:ـ

(١) لأن الرسول ﷺ «ابن الذبيحين» وهما إسماعيل - عليه السلام -، ووالده عبدالله ؛ فلقد نذر عبدالمطلب أن يذبح أحد أولاده فخرجت القرعة على عبدالله ثم فداه بمئة من الإبل.

(٢) لأن إسماعيل كان بمكة.

أما مانقل عن بعض الأئمة من أنه إسحاق - عليه السلام -، فهو مردود يستند إلى بعض الإسرائيليات، وهو مايدَّعيه اليهود وإن كانت توراتهم تناقض نفسها؛ ذلك لأنه جاء فيها: «ان اذبح ولدك الوحيد» وبالطبع لم يكن إسحاق الوليد الوحيد؛ لأن إسحاق جاء بعد إسماعيل - عليهم السلام - جميعاً، فإسماعيل هو الولد الوحيد قبل أن يولد إسحاق.ونثبت هنا الآيات الكريمة التي جاءت في سورة الصافات من اجل أن يتدبرها المتدبرون:

۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ

فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾
وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ
يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾
فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ(١) ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ
صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى
ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

وفي الآيات - كما رأينا - مشاهد مؤثرة؛ فضلاً عمّا فيها من الأسلوب القوي الجزل. والعجيب الذي يحتاج إلى وقفة وتأمل.ان كلمة (راغ) وهي الذهاب بسرعة وخفاء نجدها تستعمل كثيراً مسندة لابراهيم - عليه السلام - في هذه السورة، وفيما مر معنا من قبل، وما نظن ذلك إلا لحكمة وهدف كما نلمح في صفات خيرة لإبراهيم تضاف الى ماسبق.

---

(١) وتله للجبين: صرعه على شقه فوقع أحد جنبيه على الأرض تواضعاً على مباشرة الأمر بصبر وجلدٍ ليرضيا الرحمن.

ولقد تجلت صفة الصبر هنا وهو يغالب عواطفه، ويلقي ابنه على الجبين وقد شحذ شفرته ليذبحه امتثالاً لأمر الله ولا ندري أيهما كان أكثر صبراً الأب أم الإبن. . . ذرية بعضها من بعض وقد أثنى الله عليه بالإيمان والعبودية والإحسان وأكرمه بالبشرى. - صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً -.

(٧) ثم جاءت بعد ذلك **سورة الزخرف**، وفيها إشارة موجزة متلائمة مع موضوع السورة، داخلة في ثناياها. وسورة الزخرف إحدى الحواميم؛ ولكنَّ المتأمل في موضوعها يجد أنها من أول وهلة جاءت تضيِّق على أولئك المشركين كل مسربٍ يمكن أن يسيروا فيه جدلين خصمين؛ فهي ترد على شبهاتهم بحجج نيِّرة، وتبطل ماادَّعوه من تقليد الآباء ذوي النفوس السيئة؛ لأنهم كان حرياً بهم أن يتبعوا ذوي النفوس الخيِّرة، والسورة كلها مبنية على العقل الذي كان حريًّا بهم أن يستعملوه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حـٰمٓ والكِتَاب الُمبِين إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنَاً عَرَبِيَّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونْ﴾.

وبعد أن تناقشهم السورة فيما ادَّعوه من جعل الملائكة بنات الله، وعبادتهم لها، مدَّعين أن تلك مشيئة الله، يردُّ القرآن عليهم من أين لهم هذا؟ هل لهم مستند عقلي؟ وان لم يكن، ألهم مستند نقلي؟! الحق أن لا مستند لهم، لا من العقل، ولا من النقل، نقرأ ذلك في السورة الكريمة: ﴿وَقَالُوا لَوْا شَاءَ الرَّحْمَنُ مَاعَبَدْنَاهُمْ﴾ (آية ٢٠) ثم يرد القرآن عليهم ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (آيه ٢٠) وهذا نفي للحجة العقلية، فليس عندهم دليل يستندون إليه، وإنما هو خرص وكذب وظن، ثم يقول ﴿أم آتَيْنَاهُمْ كِتَابَاً مِنْ قَبْلِه فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُون﴾ (آية ٢١) وهذا نفي للحجة النقلية ان يكون عندهم كتاب، فالحق أن ماادَّعوه ليس له برهان من عقل أو دليل من نقل، ولكن من أين جاؤوا به إذن، ﴿بَلْ قَالُوا إنَّا وَجَدْنا آبَاءَنَا عَلى أُمَّةٍ وإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُون﴾ (آيه ٢٢).

وبعد مناقشة ومحاورة تأتي الآيات تشير إلى إبراهيم - عليه السلام -؛ فكأنها تقول لهم: إذا كنتم صادقين في اتباع آبائكم فكان حريًّا بكم اتباع ابيكم الأول الذي تدَّعون الانتساب إليه، وتزعمون أنكم على دينه، ثم ان ابراهيم - عليه السلام - وأنتم تعترفون أنه أرجحكم عقلاً وأبعدكم نظراً وأصدقكم خبراً - كان

يبرأ مما يعبد أبوه وقومه، فكيف تدَّعون أنكم من أتباع إبراهيم ومع ذلك تصرون على تقليد آبائكم فيما هو باطل، وإبراهيم نفسه - عليه السلام - كان يبرأ من فعل الآباء، فهو يدعو إلى التوحيد لعبادة الله وحده فهو الذي فطره وخلقه، حريٌّ بأن يعبد، وهو الذي يهدي، إن الذي أنعم بنعمتي الخلق والهداية، وهما أعظم النعم هو الذي ينبغي أن يتوجه إليه الناس بالعبادة وحده، وهذه الكلمة؛ كلمة التوحيد جعلها إبراهيم باقية في نسله من بعده؛ لعل المعترضين - وأنتم منهم - يرجعون عن غيهم وشركهم.

ماجاء في سورة الزخرف إذن يتطلبه موضوعها - كما ألمحنا إليه - وهذه هي الآيات الكريمة:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

٨- ثم جاءت سورة الذاريات تتوعد المكذبين بالعذاب، فهو وعد صادق، وجزاء؛ لابدَّ أن يقع، ولهذا فهي تضرب لهم الأمثال بمن سبقهم، أمَّا ماذكر فيها من قصة إبراهيم - عليه السلام -؛ فإنما هي توطئة لذكر العذاب الذي حلَّ بقوم لوط - عليه السلام -، ومع أن الجانب الذي عالجته سورة الذاريات من قصة إبراهيم تقدم في سورتي الحجر وهود إلَّا أننا مع ذلك نجد أنَّ لكلٍّ واحدة لوناً خاصاً بها وهدفا يبعد شبهة التكرار في القصتين، صحيح أن هناك تشابهاً في بعض الأحداث، وهذا أمر لابد منه؛ لأن هناك قضايا أساسية رئيسة تشترك فيها كثير من الموضوعات - تماماً كما نرى ذلك في الكون والإنسان - لكن لا يستطيع أحد أن يدَّعي أن ذلك يعني التماثل بين هذه الأشياء.

بدأت القصة في سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ وفي سورة الحجر: ﴿ونبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيم﴾، لكن القصة هنا بدأت بداية أخرى ﴿هَلْ أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المُكرمينَ﴾ فنرى هنا أن

التعبير عنهم بأنهم ضيوف مكرمون، ثم إنَّ إبراهيم - عليه السلام - قد أنكرهم، وسواء كان هذا الإنكار من حيثُ هيئاتُهم أم من حيثُ تحيتُهم، إلا أنَّ إبراهيم - عليه السلام - مع ذلك أسرع في خفية عنهم، فجاءهم بعجل سمين، ولما قربه إليهم أنكر عليهم مرة أخرى عدم أكلهم، فأوجس منهم خيفة فبشروه بغلام عليم، فأقبلت امرأته في صيحة تضرب وجهها لغرابة ماسمعت، كيف وهي عجوز عقيم! ويجيبونها بان ذلك هو قضاء الله الحكيم العليم.

نجد هنا أشياء جديدة في هذه القصة لم تذكر في سورة هود والحجر، وكثير مما ذكر في سورة هود والحجر لم يكرر هنا، وعلى سبيل المثال فقد ذكر الوجل في سورة الحجر، وهو غير الخوف وذلك لسر بديع. أما هنا فلم يذكر الوجل، وفي سورة هود كان العجب من امرأة إبراهيم ولكنها عبرت عن ذلك بما أخبرت به من قول، وتحدثت به من كلام أمَّا في سورة الحجر فلم يرد لامرأة إبراهيم ذكر، وإنما كان العجب منه - عليه السلام -، ولكن هذه السورة تبين لنا طريقة اخرى عبرت بها المرأة عما في نفسها حينما أقبلت في صرة فصكت وجهها... هذا مع تنوع البداية لكل قصة وإيرادها بما يتسق مع شخصية السورة التي ذكرت فيها. وهذه هي الآيات الكريمة:

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

٩- اما سورة النحل، وهي من اواخر مانزل في مكة، وسورة النحل - كما نعلم - تسمى سورة النعم، ولقد جاءت الإشارات فيها عن إبراهيم - عليه

السلام - متفقة تماماً مع موضوع السورة، فإبراهيم الذي أكرمه الله وأنعم عليه كان شاكراً لهذه الأنعم فمنَّ الله عليه بان زاده من نعمه وأدامها عليه وهذا على عكس ماكان من اليهود الذين لم يشكروا النعم حينما كانت تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً فأبوا شكر هذه النعمة:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا(1) وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

١٠- ثم جاءت بعد ذلك سورة ابراهيم - عليه السلام -، وهي مكية كذلك، والحديث فيها عن ابراهيم جاء في سلسلة هذه الإلزامات الكثيرة التي تنعى على أهل مكة وغيرهم من العرب استمرارهم في عبادة الأصنام، وكان من حقهم أن يعبدوا الله الذي منَّ عليهم بهذا الأمن في بلدهم، وأن يتذكروا دعوة إبراهيم حينما سأل ربه أن يجعل هذا بلداً آمناً، وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ويصرفهم عنها؛ فإنها أضلَّت كثيراً من الناس، ويبين إبراهيم - عليه السلام - بأن الرابطة الحقيقية التي تربط بنيه به إنَّما هي رابطة العقيدة ﴿فَمَنْ تَبِعَني فإنَّه مِنِّي﴾ كما تبين الآيات الكريمة حرص ابراهيم على هذا البلد الآمن وساكنيه، كل ذلك من أجل أن يشكروا نعم الله عليهم، فلا يكفروها ولا يكفروا بالله الذي

---

(١) القانت: القائم بما أمره الله.
الحنيف: المائل إلى ملة الإسلام، غير الزائل عنه.

أنعَم بها، ويعطي القدوة من نفسه على هذا الشكر فهو يحمد الله الذي وهب له على الكبر ولديه إسماعيل وإسحاق ويسأل ربه سميع الدعاء ان يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته كذلك وأن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين.

فنحن نرى أن ماجاء في سورة ابراهيم - عليه السلام - كان جانباً جديداً من خبر إبراهيم فهو متسق مع موضوع السورة من جهة، ومع شخصيتها واسمها من جهة أخرى، وهذه هي الآيات الكريمة التي جاءت في سورة إبراهيم نتلوها ونتدبرها:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

١١- ثم جاءت سورةُ الأنبياء - عليهم السلام - تحدثنا عن قصة أبي الأنبياء، ويعلم الله ان في هذه القصة من النسق الفني، وروعة البيان، ودقة التعبير، كما فيها من جدة الموضوع ما تأنسُ له النفس خير إيناس، ويخشع له القلب، ويأسر اللب ساطعاً بالحق على مالهذا الكتاب الكريم من عظمة التأثير على الجنّة والناس. ذكرت قصة إبراهيم في هذه السورة الكريمة بعد حديث موجز عن موسى - عليه السلام -. وقد تكلمنا من قبل عن ترتيب القصص في القرآن الكريم فارجع إليه.

وتبدأ القصة بما أكرم الله به ابراهيم - عليه السلام - من الرشد، وهي كلمة جامعة لكل مايصلح شؤون الحياة المادية والروحية والدنيا والآخرة. والرشد يقابل الغواية، كما أن الهدى يقابل الضلالة، ومن عظمة القرآن الكريم أنه تستعمل الكلمة فيه مع غيرها، فيكون لها معنى خاص، فإذا أفردت كان لها معنى أعم، وذلك كثيرٌ في كتاب الله تعالى. كالإسلام والإيمان، والبر والتقوى، والفقير والمسكين، والكفر والشرك، والرشد والهداية، فاذا استعملت هاتان الكلمتان معاً كان لكل منهما معناها الخاص بها ألا ترى أن قول الله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا: قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُم﴾ (الحجرات ١٤) فلا يشك أحد بأن كلا من الإيمان والإسلام في الآية الكريمة له معنى خاص له، وكذلك قوله سبحانه ﴿وَتَعَاوَنُوا على البرِّ والتَّقوى﴾ (المائدة ٢) وقوله ﴿إنَّما الصَدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ والَمسَاكِين﴾ (التوبة ٦٠) وكذلك قوله سبحانه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوى﴾ فإن كلَّ كلمةٍ في هذه الآيات لها معناها اللائق بها.

أما إذا ذكرت الكلمة وحدها فإنها تكون شاملة لمعنى الكلمتين معاً فإن ذكرت كلمة الإيمان دون كلمة الإسلام كانت شاملة للمعنيين، وكذلك إذا ذكرت كلمة الفقراء دون كلمة المساكين، أو كلمة الكفر دون كلمة الشرك. والذي يعنينا هنا أنَّ كلمة الرشد في سورة الأنبياء ذكرت وحدها دون كلمة الهداية؛ فهي إذن كلمة عامة تدل على سلامة العقيدة والسلوك الخير، إنها تدل على التوفيق في العلم والعمل، وصدق الظاهر والباطن.

وتحدثنا الآيات عن هذه المحاورة التي كانت بين إبراهيم - عليه السلام -،

وبين قومه. ولا بدَّ أن ننبه قبل كل شيء إلى هذه الموضوعية التي نجدها في القصة القرآنية لقد تحدثنا عن هذه المحاورات في سور قرآنية سابقة، فرأينا في إحداها قول إبراهيم لقومه ﴿ماذا تَعْبُدونَ﴾ ويبين لهم أن هذا إفك، وفي بعضها الآخر يقول لهم ﴿ماتَعْبُدونَ﴾ وماأعظم الفرق بين الأسلوبين. وكان جوابهم كما تحدثنا سورة الشعراء حينما سألهم إبراهيم ﴿ماتعبدون﴾ قالوا ﴿أصناماً فنظل لها عاكفين﴾.

وتأتي سورة الأنبياء التي نتحدث عنها فلا يكون التساؤل فيها عن العبادة، وإنما عما أجابوا به من قبل حينما قالوا: ﴿نَعبُد أصناماً فنظلُّ لها عاكفينَ﴾ فيأتي التساؤل في سورة الأنبياء بهذا الأسلوب الذي هو استكمال لما ذكر في السور السابقة ﴿ماهذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفونَ﴾ إنه يستنكر عكوفهم ولزومهم لهذه التماثيل. وفي هذه التسمية مايدل على حقارة شأنها؛ لأن التماثيل ماهي إلا أشكال صنعت لتشبه صوراً مخصوصة. وهذا كافٍ في ضآلتها وكونها غير مستحقة لهذا العكوف، ولا يجد القوم مايجيبون به عن أحقية هذه التماثيل بعبادتهم وعكوفهم، ولكنهم يتهربون من الإجابة مدَّعين أنهم إنما قلدوا في عبادتها، والعكوف لها آباءَهم دون أن يكون لهم نظر مستقل في شأنها. ويجيبهم - عليه السلام -: أنهم هم وآباؤهم مستغرقون في الضلال، منغمسون فيه؛ وكأنه يبين لهم أن الباطل لايمكن أن يصير حقاً مهما كثر أتباعه وتعدد أنصاره، ويردون عليه متجاهلين الحديث عن هذه الأصنام والتماثيل، متسائلين: تُرى أجئتنا بالحق أم أنت لا تزالُ منغمساً في لهوك ولعبك، ويجيبهم - عليه السلام - جوابَ الداعية الواثق من دعوته الذي لاينتقم لنفسه، لكن همه كله أن يبلغ عقيدته ورسالته، وهذا شأن الأنبياء - عليهم السلام - بل هو شأن تلامذتهم من الدعاة إلى الله كذلك، إنهم يتناسون كل شيء في سبيل إيصال الرسالة إلى الناس، وهذا يوسف - عليه السلام - حفيد إبراهيم حينما يسأل عن تأويل الرؤيا من صاحب السجن. نجده قبل أن يؤولها يقول ﴿أءرباب متفرقونَ خيرٌ أم الله الواحدُ القهَّارُ﴾ ولقد كان له أسوة في جده - عليه السلام -. لذلك نراه يجيب قومه حينما اتهموه بالاستغراق في اللعب واللهو يجيبهم بأن ربهم الذي ربَّاهم وأنعم عليهم حريٌّ به أن يعبد وهو رب السماوات والأرض، وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. ويعلن أن هذه هي عقيدته وهذا هو دينه، فهو على ذلك كله من الشاهدين.

ثم تحدثنا السورة الكريمة عمّا قرره إبراهيمُ في نفسه، وأعلنه ليسمعه بعض أولئك، فهو يقسم أن يدبر أمراً لأصنامهم بَعْد أن يذهبوا للهوهم ولعبهم في عيدهم، وهذا لا يتعارض مع ماذكر من قبل في سورة الصافات، ففي قوله تعالى ﴿فَرَاغَ إلى آلِهَتِهِمْ﴾؛ لأن هذا القول لا ينافي أنه سيذهب لتحطيم الآلِهَة متخفياً مسرعاً، ويظهر أن القسم الذي أقسمه إبراهيم - عليه السلام - ليكيد أصنامهم ويدبر لها أمراً يسوؤهم، إنما سمعه بعضهم كما نفهم من الآيات.

وقد برَّ إبراهيم بقسمه فحطَّم الأصنام وجعلها جذاذاً وقطعها قطعاً. ولكنَّه - عليه السلام - كان ذا رأي وحنكة وحجة، فقد أبقى كبير هذه الأصنام دون أن يصيبه بأذى، وذلك لأمر في نفسه؛ ليرجع إليه أولئك بعد مجيئهم من عيدهم؛ ليسألوه عن شأن الأصنام فيلزمهم الحجة ويدمغهم بالبرهان، وهكذا كان .. فلقد رجع القوم ووجدوا ماامتعضت منه نفوسهم وطارت منه عقولهم، وماذا أكثر من هذا الذي حل بآلهتهم، ويتساءلون مَنْ الذي فعل بآلهتهم هذا الفعل؟؟! ان ذلك لظلم عظيم، ويقول بعضهم - الذي سمع ابراهيم حينما أقسم قسمه - إنهم قد سمعوا ذلك الفتى يذكر أصنامهم بسوء وهو ذلك الذي يقال له إبراهيم، ويقررون أن يأتوا بإبراهيم - عليه السلام - أمام جموعهم وعلى أعينهم، ويجاء به ويُسأل ليقرروه بما فعل ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم﴾. وهنا تظهر حنكته ومهارتُه في إقامة الحجج ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾. وهذا ليس كذباً في حقيقته، وإنما هو من باب التعريض والتورية، فليسألوهم إن كانوا يستطيعون جواباً، ويدرك القوم ماهم فيه من خطأ، وما هم عليه من انحراف ويرجعون إلى أنفسهم، يرجع بعضهم إلى بعض، إنكم أنتم الظالمون، كيف تعبدون مثل هذه الآلهة التي لا تستطيع أن تدفع عن نفسها سوءاً ولا تقدر على أن ترد ماأريد بها من ضُرٍّ، فكيف ترد عنكم أنتم السوء والضر، ولكن هذه الجذوة من الحق لاتلبث أن تنطفيء، وإذ بهم يرجعون إلى غيهم فينكسون على رؤوسهم يطرقونها خجلين مفكرين، كيف نسألهم وأنت تعلم أنهم لا يستطيعون نطقاً، ولا يحرون جواباً.

ويستغل إبراهيم - عليه السلام - هذه الكلمات ليلزمهم الحجة مرة اخرى، وإذن أتجهلون فتعبدون مالا يجلب لكم نفعاً ولا ضرراً، إن ذلك يدعو الى التضجر والتأفف منكم ومما تعبدون، كان حرياً بكم ان تستعملوا عقولكم التي

منحكم الله إيَّاها، ولَّما لم يجد القوم مايدافعون به عن ضلالهم، ولما رأوا أنهم لا يملكون حجة وليس لهم منطق سليم يمكن أن يجابهوا به الحق يهرعون الى القوة، وكذلك شأن الطغاة في كل زمان ومكان، يقول بعضهم لبعض والغيظ يملأ قلوبهم «حــرِّقـوه» بهذا الاسلوب الـدالِّ على الغيظ والشـدَّة حرقـوه وانتقمـوا لآلهتكم وانصروهـا. وهذا درس ينبغي أن يعيه أهل الحق وهم يرون كيف يدافع أهل الباطل عن باطلهم.

وهنا تكون المعجزة، فهذه النار التي أضرموها وجمعوا لها كل مايستطيعون، يوحي الله تعالى لها ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ وهكذا أذهب الله من هذه النار الحرارة والإحراق واستبدل بهما الإضاءة والإشراق ﴿إنَّ اللهَ مع الّذينَ اتَقَوْا والّذينَ هُمْ مُحسنونَ﴾ ﴿وأرادُوا بِهِ كَيْداً فَكَانُوا هُمُ الأخْسرينَ﴾ وهكذا نجيَّ الله إبراهيمَ ولوطاً - عليهما السلام - إلى الأرض التي باركها، وهي أرضُ فلسطين، ووهب له من وهب من ذرية صالحة.

ذكر الشهاب الألوسي(١) رحمه الله: «ماروي عن أبي بن كعب قال: حين أوثقوه ليلقوه في النار قال - عليه السلام -: لا إله إلاَّ أنت سبحانك لك الحمد، ولـك الملك لا شريك لك، ثم رمـوا به فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال: ياإبراهيم ألك حاجة؟! قال: أما إليك فلا. قال جبريل - عليه السلام -: فاسأل ربك فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ويروى أنَّ الوزغ كان ينفخ في النار وقد جاء ذلك في رواية البخاري».

هذه قصة إبراهيم في سورة الانبياء، وهي - كما قلنا من قبل - فيها من بديع البيان، وروعة الفن القصصي وجدة الموضوع، ودقة التعبير مالا يخفى. ونعتذر إن لم نعرض لذلك كله لأننا نتحدث عن زاوية خاصة، وهي قضية التكرار. ولقد أشير إلى هذه القصة إشارة مجملة في سورة الصافات كما مر معنا من قبل. لكن ماجاء في هذه السورة كان تفصيلاً جديداً لا من حيثُ الموضوعُ فحسب بل من حيثُ بعضُ المفردات كذلك. كما رأينا في أول القصة. وعلى سبيل المثال ذكر في سورة الصافات ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأسْفَلِينَ﴾ عقب ذكر البنيان الذي أرادوا أن يجعلوه بأسفله، وذكر هنا «الأخْسرينَ» بعد محاولتهم نصر آلهتهم. وذكر هناك ماأكرمه الله

(١) روح المعاني ١٧/ ٦٨.

به من إسماعيل وخبر الفداء، وذكر هنا ماأكرمه الله به من إسحاقَ. وهكذا لكل قصة نسقها.

والخلاصة التي ينبغي ان نقررها، ومعنا كل المنصفين، هي ان أمر التكرار بعيد كل البعد، وتلك هي الآيات التي ذكرت في هذه السورة:

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ

رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

١٢- ثم تأتي **سورة العنكبوت** بعد ذلك، وهي آخر السور المكية التي تحدثت عن إبراهيم - عليه السلام - وكان الحديث فيها عمّا كان بينه وبين قومه، وسورة العنكبوت سورة الدعاة - كما قلت من قبل - ولذا فان الحديث فيها يأتي على سبيل الإيجاز والعناية بالقضايا الكلية التي تهم الدعاة الى الله. . . وقد رأينا فيما مضى أنَّ قصص الانبياء تكون موجزة مجملة في السور الأخيرة التي ذكرت فيها هذه القصص، رأينا ذلك واضحاً مثلا في قصة آدم وقد ذكرت آخر ماذكرت في سورة الكهف، وفي قصة نوح التي ذكرت آخر ماذكرت في سورة العنكبوت. . . إلا أنَّ الذي يلفت النظر هنا أن السور السابقة كانت تحدثنا عن جانب من جوانب قصة إبراهيم - عليه السلام -، وإذا كان قصص الانبياء الذي مر معنا ليس له إلّا جانب واحد، وهو ماكان بينهم وبين أقوامهم فان الحديث عن إبراهيم أبي الأنبياء تكتنفه جوانب كثيرة مهمة، فتارة يكون عما بينه وبين أبيه وقومه، وتارة عما جرى

بينه وبين الملائكة حينما جاؤوا مبشرين وهم في طريقهم الى قوم لوط، وتارة كان الحديث عما جرى بينه وبين ابنه في شأن الذبح - عليهما السلام -، وتارة كان حديثاً عن صفاته وخصاله وشكره بعد ان عرفنا الكثير عن صبره، وستأتي جوانب أخرى في السور المدنية إن شاء الله . . . أقول الذي يلفت النظر ويثير الاهتمام أن سورة العنكبوت حدثتنا عن جانبين اثنين من جوانب العبرة في قصة إبراهيم - عليه السلام - ولاعجب فهي سورة الدعاة كما قلت - كانَ الجانب الأول: عما كان بينه وبين قومه. وكان الجانب الثاني: عن مجيء الرسل من الملائكة[1].

تحدثنا الآيات في الجانب الاول: أنَّ إبراهيم - عليه السلام - أمر قومه أن يعبدوا الله ويتقوه، وهذه إشارة بحرص الانبياء أن يبينوها لأقوامهم؛ ليدركوا أنَّ التدين الحق لابد له من إصلاح الظاهر والباطن، ولما كانت العبادة امراً ظاهراً يمكن أن يدَّعيه كثير من الناس كان لابد من أمر آخر يكون ثمرة لهذه العبادة، وهو التقوى فكثيٌر اولئك الذين يتظاهرون بالعبادة بعيدون كل البعد عن ان يكونوا متقين، ولعلَّ في الأحاديث الكثيرة لسيدنا رسول الله - عليه وآله الصلاة والسلام - التي تبين لنا أنَّ المفلس من هذه الامة قد يأتي بصلاة وصيام وزكاة، وأنَّه كم من صائم ليس له من صومه الا الجوع والعطش، وان هناك اناساً يأتون بحسنات أمثال جبالِ تُهامة بيضاء يجعلها الله هباءً منثوراً، مع أنهم يقومون الليل، إلَّا أنهم قوم إذا خلوا إلى محارم الله انتهكوها . . .

ثم يبين إبراهيم - عليه السلام - لقومه أنَّ مايعبدونه من دون الله ليس إلَّا أوثاناً وأنَّهم إنَّما يفترون كذباً في هذه العبادة . . فهذه الأوثان لاتملك لهم رزقاً فحريٌّ بهم أن يطلبوا الرزق من الله، وان يعبدوه ويشكروا له نعمه، أمَّا إن اختاروا التكذيب فليسوا بدعاً من الأمم فقد كذبت من قبلهم أمم كثيرةٌ وليس هو بدعاً من الرسل فقد كُذبت من قبله رسلٍ كثيرة، وهو كغيره ممن سبقه من الأنبياء ليس عليه إلَّا البلاغ ويذكرهم بالبعث، وأنَّهم إلى الله وحده سيرجعون، وان هذا البعث ليس فيه شيء من الصعوبة فالذي بدأ الخلق هو الذي سيعيده، والذي كان قادراً

---

(١) وهذا يتناسب مع شخصية السورة وموضوعها فهي إذ تبين ماتحمله الأنبياء وما ينبغي أن يتحمله الدعاة ورثتهم تبين النتائج الطيبة التي يكرم الله بها هؤلاء الأنبياء وأولئك الدعاة.

على البداية الاولى لاتصعب عليه النشأة الآخرة، ولا بد من هذا البعث ليأخذ كل انسان مايستحقه من عذاب أو ثواب، والناس ليسوا معجزين في الأرض ولا في السماء إن استطاعوا أن يصعدوا إلى الجو والذين يكفرون بآيات الله وينكرون هذا البعث أولئك هم الذين يئسوا من رحمة الله، فلهم مالهم من العذاب والنكال.

ثم يبين ابراهيم لقومه قضية مهمة، وهي لاتقل أهمية عما سبقها من القضايا ذات الحيوية والحساسية التي ينبغي أن يذكرها الدعاة دائمًا، هذه القضية التي يبيِّنها إبراهيم أخيراً لقومه هي أنَّ هذه الاوثان التي اتخذوها من اجل ان تكون رباطاً لهم يربط بعضهم ببعض، ومن اجل ان تجعل المودة بينهم في هذه الدنيا، وكذلك أنصار الباطل في كل زمان ومكان يجدون في باطلهم الرابط الذي يشد بعضهم إلى بعض... وهذا مانجده في واقعنا الذي نحياه، ينبه إبراهيم - عليه السلام - قومه إلى أنَّ هذا الباطل الذي اجتمعوا عليه رجاء أن يجمع شملهم سوف يزول ويتبدد ويتلاشى؛ لأنه ليس له أساس ولا حقيقة وسيكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضها دون ان يجدوا ناصراً ينصرهم...

ويحدثنا القرآن الكريم أنه رغم كل هذه العظات، ورغم هذه الدروس والحجج إلَّا أنَّ قومه لم يزيدوا على أن قال بعضهم لبعض اقتلوه أو حرِّقوه فأنجاه الله من النار، وفي ذلك آيات عظيمة لأولئك الذين ثبتوا على الحق، فإيمانهم متجدد دائمًا، وتجدُّد الإيمان أمر لابد منه للدعاة إلى الله، وفي الحديث[1] عن سيدنا رسول الله ﷺ «إنَّ الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق فسلوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم» هذا ماتشير اليه الآية لقوم يؤمنون.

وتحدثنا الآيات أنه آمن له لوط وهاجر بعيداً عن قومه، وأكرمه الله بما وهب له من ولد وحفيد، وأكرمه الله بما جعل في ذريته من نبوة وكتاب، وأكرمه الله بالأجر العظيم في الدنيا وبالجزاء العظيم في الآخرة.

أما الجانب الآخر من قصة ابراهيم الذي حدثتنا عنه سورة العنكبوت فهو جانب موجز كذلك، وكل من الجانبين له أهميته في حياة الدعاة إلى الله، هذا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك.

الجانب هو ماكان بين إبراهيم وبين الرسل من الملائكة وتشير إليه الآيات اشارة سريعة بهذه الآية الكريمة ﴿وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنَا إبْراهيمَ بالبُشْرَى قالُوا إنّا مهلكـو أهل هَذه القريةِ إنَّ أهْلَهَا كانُوا ظالمينَ قالَ إنَّ فيها لُوطاً، قالُوا نحنُ أعلَمُ بِمَنْ فيها لَنُنْجِيَنَّهُ وأهْلَهُ إلاَّ امرأَتَهُ كانَتْ مِنَ الغابرِينَ﴾ هكذا بهذا الإجمال والإيجاز التام يذكر هذا الجانب في هذه السورة الكريمة فما هي البشرى؟ لقد مر ذلك من قبل، ولكن هنا شيئاً آخر، وهو الدفاعُ عن لوط ﴿إنَّ فيهَا لوطاً﴾ وتطمئنه الملائكة بأنهم يعلمون ذلك وسينجى لوط وأهله الا امرأته.

ونجد أنَّ ماحدثتنا به سورة العنكبوت كان جديداً لامن حيثُ الموضوعُ فقط، بل من حيثُ الجزئياتُ، والقضايا التي ذكرت في هذه السورة الكريمة وهذه هي الآيات الكريمة:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى

ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

ذلكم هو حديث السور المكية عن إبراهيم - عليه السلام -.

ثم يأتي دور السور المدنية، فنجد فيها اشارات متعددة قد تطول وقد تقصر، ولكنها في مجملها تشمل موضوعات ثلاثة :-

الأول :- بناء إبراهيم للبيت العتيق، ومايتصل بذلك من دعواته لهذه الأمة.
الثاني :- تبرئته - عليه السلام - من ان يكون يهودياً أو نصرانياً.
الثالث :- براءته صراحةً من أبيه بعد أن تبين له ماتبين من شركه.

ونجد ان هذه الموضوعات الثلاثة تقتضيها طبيعة العهد المدني؛ لأنها ذات صلة مباشرة بما كان بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الكتاب، كما انها ذات صلة مباشرة بتحويل القبلة، وهي كذلك ذات صلة مباشرة بالتأكيد على نوع العلاقة التي ينبغي ان تكون بين المؤمنين وبين أقربائهم وذويهم اذا اختار أولئك الأقرباء الكفر على الإيمان، ومع هذا كله نجد ان شائبة التكرار منتفية انتفاءً تاماً، بعيدة كل البعد وإليكم البيان :-

١) حدثتنا سورة الحج، وسورة الحج مُختَلَف في مكيّتها ومدنيتها حدثتنا السورة أنَّ الله أكرم إبراهيم فبوأ له مكان البيت، وأمره أن يعبده وحده وأن يطهر بيته للطائفين والقائمين والركع السجود، وأن يؤذن في الناس بالحج.

هذه الاشارة التي اكتفت بها سورة الحج ﴿وإذْ بَوَّأْنا لِأبْرَاهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ أنْ لاتُشْرِكَ بِي شَيْئَاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلْطَائِفِينَ والقَائِمِينَ والرُكَّعِ السُجودِ وأذِّنْ في النَّاسِ بالَحجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ يأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميق﴾ (الآيات ٢٦، ٢٧).

واذا اخذنا بالقول الذي يذكره الكثيرون من ان سورة الحج نزلت بعد سورة البقرة تكون هذه اشارة موجزة على عادة القرآن - كما رأينا من قبل - حينما تذكر القصة في سورتها الأخيرة، وتكون سورة البقرة هي السورة الأولى التي حدثتنا عن هذا الجانب؛ جانب بناء ابراهيم للبيت العتيق.

٢) والحديث في سورة البقرة عن ابراهيم - عليه السلام - يتلاءم مع موضوعها، وسورة البقرة - كما عرفنا من قبل - هي أطول السور، وأكثرها علمًا، وأحكاماً، لذلك وردت في فضلها أحاديث كثيرة، وقد ذكر الائمة ان ابن عمر رضي الله عنهما مكث سبع سنين في تعلم هذه السورة الكريمة؛ هي كبرى الزهراوين، وهي سورة التكاليف والأوامر.

ومن هنا جاء الحديث عن ابراهيم يتلاءم مع موضوع السورة فقد بينت لنا أول مابينته أن الله تبارك وتعالى اختبر ابراهيم وابتلاه بأوامر ونواهٍ فأقام بحقهن وأتمهن فاستحق أن يكون إماماً ويسأل لذلك ذريته - عليه السلام -، ولكن الله تبارك وتعالى يبين له أن ذلك الشرف لايكون للظالمين الخارجين عن الحق.

وتتحدث الآيات عن البيت، وكيف ان الله جعله مثابة للناس وأمناً يرجعون إليه، ويأمنون عنده، وخصه بآيات فليتخذوا من مقام ابراهيم مصلى، وان الله عهد الى ابراهيم واسماعيل ان يطهرا هذا البيت للطائفين، والعاكفين، والركع السجود، وان ابراهيم - عليه السلام - سأل ربه أن يجعل هذا البلد آمناً، وقد مرّ معنا في سورة ابراهيم قوله: ﴿اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أما هنا فقد جاء النص هكذا ﴿اجعل هذا البلد﴾ ولعل السبب - والله اعلم - ان ماذكر في سورة ابراهيم كان ابراهيم قد دعا به بعيداً عن مكة قبل ان يصلها ولعله حينما امر ان يتوجه اليها مع ابنه اسماعيل - عليه السلام -.

أما ماذكر في سورة البقرة ﴿اجعل هذا البلد آمناً﴾ فكان منه - عليه السلام - وهو في مكة نفسها، ويسأل ربه كما اكرم اهله بالأمن ان يمن عليهم بالرزق كذلك من الثمرات.

وفي سورة ابراهيم ذكر الزرع هناك ثم تحدثنا الآيات عن كيفية بناء ابراهيم واسماعيل للبيت وهو حديث اختصت به واكرمت به سورة البقرة، وهما يرفعان القواعد يدعوان الله ان يتقبل منهما فهو السميع العليم، وان يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما كذلك، وان يعلمهما مناسكهما، وان يبعث في الامة رسولا منهم يتلو عليهم الآيات، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ويستجيب الله دعاء ابراهيم - عليه السلام -، ثم تبدأ الآيات في حجاج أهل الكتاب فهذا هو ابراهيم الذي اسلم لله رب العالمين والذي وصّى بنيه جميعاً بكلمة التوحيد:-

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ

إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

٣) وتحدثنا سورة آل عمران بإشارة موجزة عن ان اول بيت وضع للناس هو هذا البيت العتيق الذي ببكة مباركاً، وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم، ومن دخله كان آمناً.

أما الموضوع الثاني فنجده في كثير من الآيات في سورة البقرة مثل قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟

﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾

ومثل قوله في سورة النساء بعد قوله: ﴿لَيْسَ بأَمَانِيكُمْ ولا أَمَاني أهل الكِتَاب﴾ (الآية ١٢٣) يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أحسَنُ دِيناً ممَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ الله إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (الآية ١٢٥) كما تحدثنا سورة الحديد عن إرسال الله نوحاً وإبراهيم وجعله سبحانه في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ثم تذكر السورة بعد ذلك خبر اهل الكتاب وماابتدعوه واستحدثوه.

أمَّا الموضوع الثالث وهو براءته - عليه السلام - من المشركين بعامة وابيه بخاصة فنجده في سورتين اثنتين من السورة المدنية إحداهما.

(١) سورة الممتحنة وهي التي نهي فيها المؤمنون أن يتخذوا عدو الله وعدوهم أولياء وللسورة سببها وهو ماجرى قبيل فتح مكة من أحد الصحابة رضي الله عنهم ويأتي ذكر ابراهيم في هذا المقام متسقاً مع ماجاءت السورة من أجله:-

﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾

وأما السورة الاخرى، فهي سورة براءة، وهي السورة التي ذكر فيها المنافقون، وماكان من استغفار المؤمنين والنبي لهم، فتذكر السورة نبأ ابراهيم - عليه السلام -:ـ

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾

ونجد ماجاء في سورة براءة ليس هو ماجاء في سورة الممتحنة؛ لأن سورة الممتحنة تبينُ أن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار مع أنّه لايملك له من الله شيء، ولكن سورة براءة بيَّنَتْ لنا انه تبرأ منه بعد ان تبين له ماتبين.

وهناك قضيتان اشارت إليهما سورة البقرة بآيتين اثنتين؛ وهما دالتان على رشد إبراهيم - عليه السلام -، دلالة بينة ظاهرة.

أما **القضية الاولى** فقد جاءت بهذا الاسلوب الدال على التعجيب: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذي حَاجَّ إبْرَاهِيمَ في رَبِّه﴾ (البقرة ٢٥٨) وهذه الجملة «أَلَمْ تَرَ» كثيراً ماتذكر في كتاب الله تعالى، تقريراً وتعجيباً، هذا الذي حاجَّ إبراهيم في ربه وقد آتاه الله الملك فكان حرياً به ان يشكر لا أن يكفر؛ قيل إنه نمروذ، والقرآن لم يذكر اسمه؛ لأن القرآن إنما يُعنى بموطن العبرة فقط، قال ابراهيم - عليه السلام -، وهو يصدع بالحق امام هذا الظالم ﴿رَبِّيَ الّذي يُحْيِي ويُمِيتُ﴾ ولكن ذلك المتغطرسَ الأحمق قال أنا أُحيي وأميت، ومثل هذا ليس غريباً على اولئك الذين منعوا الهداية، وأحاطت بهم الغواية، وماأكثر مايلاقي الدعاة الى الله من امثال اولئك،

وهم يعذبونهم، ويقولون لهم أين الله الذي تؤمنون به؟ لِمَ لايأتي لينقذكم؟ وأين نبيكم؟! أدعوه ليخفف عنكم، قالها ذلك الصليبيُّ الحاقد وهو يحكمُ الكرك في أيام صلاح الدين - رضي الله عنه - فأقسم صلاح الدين - رضي الله عنه - أن يقتله، وبر بقسمه وكانت معركة مشهودة من يوم الجمعة في السابع عشر من ربيع الثاني سنة ٥٨٤.

ولا زالت تقال اليوم ولكن ممن يسمُّون مسلمين، قال أنا أُحيي وأُميت؛ لقد غرّه ماأعطيه من ملك وقوة، وهنا ينتقل ابراهيم - عليه السلام - بما أُعطي من حجة وبصيرة الى قضية اخرى ﴿إنَّ اللهَ يأتي بالْشَمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فأتِ بهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الذي كَفَرَ واللهُ لايَهْدِي القوم الظالمينَ﴾ وما أروع ماختمت به الآية الكريمة.

أما القضية الثانية؛ فهي في قول الله تعالى ﴿وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ أرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قَالَ أوَلَمْ تُؤمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة ٢٦٠) الذي نعجب منه. بل نرده ونرفضه، ان نجد بعض الكاتبين المحدَثين يفهم من هذا ان ابـراهيم كان شاكـاً؛ فأراد أن يذهب هذا الشـك، وإنما نعجب حقاً لأنَّ هذا الكاتب ليس غريباً على أسلوب القرآن، فلقد كتب كثيراً حول القرآن الكريم، وكان يكفيه ان ينظر في اسلوب الآيات قبل ان يقرر ماقرر، او ان يكتفي بهذه الآية وحدها فهي كافية ان أراد، فابراهيم - عليه السلام - يطلب من الله ان يريه كيف يحيي الموتى، ويقول أولم تؤمن وهو يعلم ايمانه سبحانه، ويقول ابراهيم (بلى)، وهذه الكلمةُ - كما نعلم - تدل على الايجاب، أي: «بلى قد آمنت» ولكن ليطمئنَّ قلبي؛ ولعل هذا الذي حمل الكاتب على ان يقول ماقال؛ لكنه - سامحه الله - غفل عن اشياء كثيرة، فنحن نعلم ان الله تبارك وتعالى قد أرى ابراهيمَ ملكوتَ السماوات والأرض، ليحاجَّ قومه، وليكون من الموقنين هذا اولاً.

وأما ثانياً؛ فإن طمأنينة القلب لاتعني الشك والارتياب، ونحن اذا استعرضنا بعض الآيات التي ذكرت فيها الطمأنينة نجد أن الذين نزلت فيهم لم يكونوا شاكين ابداً فمثلاً قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَاجَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ (آل عمـران ١٢٦) وهذا خطابٌ للرسول - عليه وآله الصلاة والسلام -

وللمؤمنين الصادقين، أفيمكننا ان نتهم اولئك بالشك. ان قضية الطمأنينة لاتدل من قريب ولا بعيد على شك يساور النفوس او يسوِّل للقلوب.

وأما ثالثاً: فنحن نعلم أن الإيمان يمكن أن يزيد او ينقص من جهات ثلاث والذي يهمنا احدى هذه الجهات، وهي الادلة؛ فكلما كانت الادلة اكثر ظهوراً، وأقوى تأثيراً، كلما ازداد إيمان صاحبها، «ماراءٍ كمن سمع» وشتان بين علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فكل الذي أراده ابراهيم - عليه السلام - ان يرى هذا الدليل معاينة؛ ليطمئن قلبُه به طمأنينة معاينة ومشاهدة.

رابعاً: ومما يشهد لذلك خير شهادة، شهادة الله لإبراهيم «والله اكبر شهادةً» في مثلِ قوله ﴿ولِيَكُونَ مِنَ الموقِنِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ ﴿ إنَّ إبْرَاهِيمَ كانَ أُمَّةً﴾ ثم شهادة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد جاء في الحديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[1] ياللروعة! وياللعظمة!، عظمة النبي - عليه وآلـه الصلاة والسلام -: «نحن أحق بالشك من ابراهيم» انه نفي بحزم وقوة للشك عن ابراهيم - عليه السلام - يقول النبي الكريم: «إن كان ابراهيم شاكاً فنحن اولى بالشك منه ومع ذلك فنحن لم نشك ابداً فمن الاحرى، والأَولى ان لايشك ابراهيم - عليه السلام -، ولا أدري كيف يغيب كل ذلك عن اولئك الذين يسمحون لانفسهم أن يتهموا ابراهيم بالشك، ولو ان الله علم شكاً من ابراهيم لعاقبه، او عاتبه، ولكنه مع ذلك يكرمه ويجيبه: ﴿خُذْ أرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصرهُنَّ إلَيْكَ﴾ أي ضمهن واجمعهن، وانـما أمـر بذلـك حتى يعـرف اشكالها واحجامها وصفاتها، ثم أمر أن يجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً بعد أن يذبحهن أو يقطعهن، ﴿ثُمَّ ادعوهنَّ يأتينَكَ سعياً، واعلم أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾ والمفسرون مجمعـون على أنَّ إبـراهيم فعل ذلك، ثم دعاهن فجئنَه يَسْعَيْنَ، ولكن القرآن الكريم لم يشر الى ذلك صراحة، ويلوح لي خاطر في النفس، وهو أن إبراهيم - عليه السلام -، قد يكون فعل ذلك، وقد تكون الثانية؛ أي أنه لم يفعله. ونحن وان كنّا لانجزم لواحدة، إلاَّ أننا لانرى بأساً، ولا نرى مانعاً من أنَّ إبراهيم - عليه

---

(١) أخرجه الإمام مسلم / صحيح مسلم بشرح النوري، جـ٢ ص١٨٣. كتاب الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الآيات.

السلام - لم يفعل ذلك استحياءً من الله تبارك وتعالى، ورجوعاً عما طلب، لانهدف بذلك ان نخالف المفسرين، ولكن نرى أن ذلك غير مستبعد ويبقى الأمر أولا وآخراً لله تبارك وتعالى.

هذه هي قصة إبراهيم في كتاب الله تعالى، شجرة مباركة ذات فروع باسقة، كل فرع له ما يخصه من الثمر، وهكذا رأينا هذه القصة لأبي الأنبياء، كأنما تفرعت عنها اخبار الانبياء جميعاً الذين كانوا من ذريته - عليهم السلام -، ولا عجب؛ فهـو الأصـل، ومع مافي هذه القصة من جوانب متعددة انتقلنا من خلالها بين هضاب عالية لايتسلقها إلاَّ أصحابُ القوة وذووا البأس، وكذلك شأن المؤمنين، كما تنسمنـا من خلالها النسيم الطيب الذي يفوح عرفه وشذاه، وتفيأنا ظلالاً عديدة، فمن شدة في الحق، وعنف على الباطل الى ثبات في الامر وعزيمة على الرشد، مع صبر وشكر، وحجة في القول وأسوة في العمل، ودفاع عن المؤمنين، مع كرامات ربانية يزين ذلك كله اسلوب قرآني أخّاذ جذاب، ومع ذلك فكل آية في موضعها، وكل قصة في سورتها التي تتفق مع موضوعها مابين إجمال وتفصيل، دون شبهة ترديد أو شائبة تكرار ﴿تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان ١) تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ.

ثانياً: تعقيب على قصة ابراهيم عليه السلام

هذه هي الانسانية، وقد قاربت ان تبلغ أشدها، وتستكمل رشدها، كيف لا، وهاهي رحمة الله تعم هذا الكون بأبي الانبياء، وشيخ الحنفاء، ابراهيم - عليه السـلام -. . . واذا كان الحديث عن ابراهيم فيما مضى متعدد الجوانب؛ فان مايمكن ان نعقب عليه من خلال مامضى مستلهمين مستنتجين لابد أن يكون كذلك.

والحق ان شخصية ابراهيم - عليه السلام - كان طرازاً جديداً، فهي نبع معين لاينضب لما يحيي القلوب، ولذلك لانعجب إذا سمعنا سيدنا رسول الله - عليه وآله الصلاة والسلام - يقول عن نفسه بأنه اشبه الناس بأبيه إبراهيم.

ومن خلال ماعرفناه رأينا هذه النجوم الزهر ذات الفخامة والقدر التي تضيء جوانب الحياة المتعددة؛ رأيناها تظهر في شخصية هذا النبي الكريم نمطاً جديداً

في حياة الناس. بعض الناس يكون ذا عاطفةٍ مشبوبة متقدة تتدفق عطفاً ورحمة، وبعضهم يكون ذا منطق قويم، وبرهان ساطع، وحجة واضحة؛ تبدد كل مافي طريقها من شبهات وبعض آخر يكون ذا قوة وشكيمة ونمط رابع يمتاز بالصبر، وخامس: يكون من أبرز صفاته مامنَّ الله به عليه من جود، واكرمه به من سخاء وبذل. وأبونا ابراهيم - عليه السلام - يجمع ذلك كله، واكثر من ذلك مع قوة يقين، وبشاشة ايمان، وصلته بربه خير صلة واكرمها. ولعل مما يلفت النظر أولا ماوجدناه من ابراهيم الأبن وهاهو لايترك مدخلاً من المداخل يمكن ان يتلطف من خلالها حتى يزحزح أباه عما هو فيه من شرك، ولعل ماقصه القرآن علينا مما ذكرناه آنفاً خير دليل على هذه العاطفة التي تتأجج في نفسه بهذا المنطق الذى يتدفق رقة، ويترقرق صفاءً ويمتلىءُ وفاءً وينضر رواءً ويتفتق حياءً: ﴿لِمَ تعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولاَ يُبْصِرُ ولا يُغني عَنك شيْئاً﴾ ثم يرقى بعد ذلك، وفي كل مرة يبدأ بعبارة الحنو ﴿يا أبتِ إنِّي قد جَاءني من العلم ِ مَا لَمْ يأْتِكَ﴾ ومما ارتكز في الطبائع أن الناس لا يرضى واحدهم أن يكون من هو خير منه - اللهم - الا ابنه.

ومن هنا فلقد عمد ابراهيم - عليه السلام - إلى هذا الأسلوب مع أبيه، ثم نجده مرة ثالثة يأتيه من جانب آخر: ﴿ياأبَتِ لاتَعْبُدِ الشَيْطَانَ﴾ ومرة رابعة: يظهر من خلالها الإشفاق ﴿ياأبَتِ إنِّي أخَافُ أن يَمْسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمَن﴾ ومع قسوة الاب فاننا نجد ابراهيم - عليه السلام - لايزيد على ان يقول لابيه ﴿سلامٌ عليكَ سأسْتَغْفِـرُ لَكَ رَبِّي إنَّهُ كانَ بي حَفِيَّاً﴾ وبمقابل هذا نجد صورة اخرى، لاتقل روعة، ان لم تزد والاباء يجدونَ استمراراً لهم في الابناء. وابراهيم المشفق على ابيه نجده في هذا الجانب الاخر يقف من ابنه موقفاً آخر. فهاهو يلقيه ليضع السكين على عنقه كما تذبح الشياه، وذلك لرؤيا رآها في نومه كان يمكن ان يتأوَّلها، وهو الذي عرفناه من قبل تتجلى الرحمة فيه وهو يحاول عن قوم لوط. ولكنه أمَّة مَنَّ الله عليه بالرشد. ذلكم هو ابراهيم الابن والاب.

أمـا جوده وكرمه، فلا أدل عليه مما عبر به القرآن الكريم ﴿فَرَاغَ إلى أهْلِهِ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ﴿فَمَا لَبِثَ أنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾. واما بشاشته ولين معاملته، فلا أدل عليه من الـتـحـية التي رد بها على اضيافـه. واذا كانت تلك جوانب شخصيته، ومع اننا لايمكن ان نفصل بين الجانب الشخصي وبين جوانب الدعوة

الى الله، إلا أنَّ الذي ينبغي، أن نقف عنده تلك الدروس القيمة الرائعة التي يمكن أن نفيد منها في جانب الدعوة إلى الله. ويمكن ان تكون القاعدة التي ننطلق منها، من ذلك ماوصف الله به ابراهيم خليله - عليه السلام -، من اوصاف، وذلك في قوله تعالى ﴿أُولِي الأَيدي والأَبْصار﴾ وقوله ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشداً﴾ وما من الله به حين أراه ملكوت السماوات والأرض. فلقد كان ابراهيم - عليه السلام - يضرب المثل، فهو يدعو إلى الله بكل مامنحه من وسائل وما اصدق قول الله ﴿أُولِي الأَيْدي والأَبْصار﴾. لقد كان يحارب المنكر بكل الآلات والجوارح، واذا كان المنكر ينبغي أن يغير باليد أو باللسانِ، فمن لم يستطع فبقلبه؛ فان ابراهيم - عليه السلام - كان يغير المنكر بهذه جميعاً مع قوة، ودون ضعف، فهاهو يعلن سقمه من عبادات قومه الباطلة وهو سقم القلب بغضاً لما يفعل أعداء الله، وها هو ينتهز الفرصة؛ ليحطم المنكر بيده كذلك، فهاهو يسرع لتحطيم الاصنام ضرباً باليمين فيجعلهم جذاذاً، ذلكم هو عمل القلب واليد عند إبراهيم.

ويبقى بعد ذلك ماهو حريٌّ بالتأمل، وهو ذلكم المنهج الذي انتهجه ابراهيم، وهو يدعو الى الله؛ - ويعلم الله ان ذلك يحتاج الى مُؤلف على حدة -. لقد وجدناه لايضيع أيَّ فرصة تسنح له، وإنما هو ينتهزها ليقيم بها الحجة على قوم كان العناد واللجج وتقليد الآباء أبرز ماهم من صفات، ومثل أولئك بحاجة إلى لسن ورشد، وبصر ومعرفة، وثبات وحزم. ولقد منَّ الله على ابراهيم فأكرمه بذلك كله. هاهو ينتهز مجيء الليل ليقف مع بزوغ الكواكب والقمر، ويستغل مجيء النهار ليقف مع بزوغ الشمس. ويخلص من ذلك كله لإبطال حجج القوم بمنطق تتضاءل أمامه براهين الفلاسفة، ثم لايكتفي بهذا، وها هو يرد على قومه كل ماحاولوا أن يقيموه عليه من حجج - وما هو الا اللجج - يخوفونه بأصنامهم فينكر ساخراً «كيف تخوفونني بالباطلِ ولا تخافونَ اللهَ الحق، وها هو يلزم خصمه الحجة، حينما ادَّعى انه يحيي ويميت - كما مر معنا من قبل -... ﴿إنَّ اللهَ يأْتي بالشَمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فأتِ بِها مِنَ المَغْرِبِ﴾...

والذي يتتبع خبره - عليه السلام - يدرك مامنَّ الله به عليه من هذه المنن قوة في الحق، ترتكز على الرشد واليقين والمنطق. ولنأخذ موقفين مما كان بينه وبين قومه؛ لنرى أي رشد ذلكم الذي أكرمه الله به: هاهو يحاج قومه، وهو ينهاهم عن

عبادة الاصنام؛ لأنها لاتسمعهم إذ يدعون، ولا تنفع ولا تضر. هاهو يجلّي لهم هذه الحقائق التي هي غاية في فقه الدعوة، يقول لهم: إن الذي تعبدونه من دون الله إنما هي أوثان، وأنتم مفترون بهذه العبادة. هذه الاصنام لاتملك لكم رزقاً فهو يشير لهم إلى قضية حساسة ذات شأن، ولكنه لايكتفي بذلك؛ فهاهو يزيد هذا المعنى تفصيلاً، هو يعلن لهم أن هذه الاوثان التي اتخذتموها مودة بينكم في الحياة الدنيا هي التي جمعتكم على الباطل، ولقد رأيتم فيها رابطة لكم مع أنها لاتصلح لذلك، إن مثل هذه الإشارات بحاجة إلى درس وتأمل، ونحن نجد أن اعداء الاسلام يجتمعون من كل صوب، لا شرقاً وغرباً فحسب، يجتمعون وهم يحاولون ان يختلقوا أي أمر يجمعهم لينطلقوا منه لعداء الاسلام والمسلمين. ان ماذكره القرآن عن ابراهيم - عليه السلام - أمر خطير لاينبغي أن نتجاوزه فنمر عنه، لا أقول مرور الكرام؛ لأن مرور الكرام إنما هو عما لاخير فيه ولكن اقول مرور الغافلين.

أما الموقف الثاني: فنختاره من مواقف ابي الانبياء - عليه السلام -، حينما حطَّم الأصنام وقد أقسم على ذلك وبر بقسمه، ولكنه انتهز الوقت الذي يمكن فيه مما أراد، وما اكثر من يخطيء التقدير!، إذ لايحسن تخير مايريد أن يفعل من حيثُ الزمانُ او المكان أو غيرهما فَيُسيء أكثر مما يحسن، لقد أحسن ابراهيم - عليه السلام - إختيار الوقت الذي يَبَرَّ فيه بقسمه، ونذكر ونحن نقرر هذه القضية ماكان من ذلك الغلام الذي جاء خبره عن النبي ﷺ في صحيح الامام مسلم، هذا الغلام الذي حاول الملك الجبار قتله فلم يستطع؛ فدله الغلام على الطريقة التي تمكنه من فعل ذلك واختار الوقت الذي رأى أنَّ فيه خيراً لدعوته، دعوة الحق؛ ولعله اقتدى في ذلك بأبي الأنبياء، والله يلهم من يشاء مايشاء إلى الخير.

وتتجلى الحكمة في أروع صورها في هذا الموقف، هاهو ابراهيم - عليه السلام - يحطم الأصنام جميعاً؛ لكنه يبقي واحداً منهم وهو كبيرهم، نحن حينما نقيس الامور بمقياسنا، وندعها لأمزجتنا فإن أول مانقوم به تعبيراً عن السخط على الباطل وأهله، إن اول مانقوم به أن نحطم هذا الصنم الكبير؛ لأننا نجد ذلك يشفي صدورنا ولكن صدق الله ﴿وَلَقَد آتينا ابراهيمَ رشداً﴾، وقل لي - بربك - اي فطنة تلك التي اكرم بها شيخ الحنفاء!، يدع هذا الصنم الكبير وآلة التحطيم

معلقة به كما يقال، ويسألون فيكون جوابه - عليه السلام - ﴿فعلَه كَبيُرهُم هَذا فاسألوهُم إنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ لقد كان هذا الفعل من ابراهيم جديراً به ان يحملهم على الإيمان، وقد كان، فلقد راجع القوم أنفسهم، وكادوا يرجعون عن الغِيِّ لولا عنجهيةُ الجهل. ان الذكاء والحنكة والحكمة من الأمور الضرورية التي ينبغي أن تتوافر لأصحاب الحق حتى يكون تصرفُهم صحيحاً في كل شيء، فلا يهدمون اكثر مما يبنون.

هذان الموقفان مما كان بينه وبين قومه - عليه السلام -، رأيناهما تتجلى فيهما الحكمة مع قوة وحزم، وصدق عزيمة، ولنختر موقفين من جانب آخر، وذلك حينما جاءته الرسل بالبشرى، فماذا كان منه؟ لن نتحدث عن الجود وحسن الاستقبال، وكرم الضيافة، والمبالغة في التحية؛ فلقد تحدثنا عن هذا من قبل وان كان التفصيل فيه يحلو ويجمل.. وانما نستوحي موقفين ونحن نتلو الآيات الكريمةِ.

أما **الموقف الأول** فهاهو ابراهيم - عليه السلام -، يقدم الطعام إلى ضيفه وقد اختار الطعام الذي يقدمه ولكنهم لايأكلون، فيوجس منهم خيفة؛ هكذا يقول القرآن، وللقرآن كلماته المعبِّرة التي لايصلح غيرها محلها. أوجس منهم خيفة؛ ولكنه كظمها في نفسه، وحاول اخفاءها عنهم، أراد أن يتجمل بالصبر وأن يكتم كل مايتفاعل في نفسه وهذه رباطة جأش - يعلم الله - احوج مايكون لها المصلحون، ونحن نرى أن بعضهم تخور قواهم، وتنهار شخصياتهم لاقل الاسباب وأبعد المقدمات، ولكنَّ ابراهيم - عليه السلام - الذي اكرمه الله في الدنيا والآخرة كان يستحق أن نصلي ونسلم عليه، ونحن نصلي ونسلم على نبينا ﷺ كان يستحق ذلك كله، ونحن نستلهم منه هذه الدروس والعبر.

هذا هو الموقف الاول واذا كان هذا الموقف نابعاً من الحكمة؛ فإنَّا نختار الموقف الثاني دالاً على الرحمة، وماأجملَ الحكمة والرحمة، حينما لاتطغى احداهما على الأخرى. يبشر الملائكةُ ابراهيمَ بغلامٍ، واذا رأينا امرأته تارة تصك وجهها؛ وتقول عجوز عقيم، تقبل في صيحة وضجة، وتارة تقول ياويلتا! تستغرب ذلك تعجبة، وهي تلقي ظلالا على نفسية المرأة، حينما تتعرض لما هو غير مألوف، ومايمكن ان تحدثه من حركات وكلمات. ولكن ابراهيم - عليه السلام - لا يزيد

على ان يقول ﴿ابَشَّرتموني على أن مسَّني الكبر فَبِمَ تُبشِّرونِ﴾، وهو ان دل على شيء، فهو يدل على الوقار والهيبة.

اقول: لما كان ذلك كله، نجده - عليه السلام - يجادل عن قوم لوط، يجادل عن اولئك الذين يعلم اكثر من غيره مالقيه منهم ابن اخيه او ابن عمه، ولكن الشيخ الوقور تتفجر الرحمة من جوانبه؛ فلعلهم يرجعون. هذه الرحمة التي كانت كرامة للأب، وطبيعة ثابتة في الابن، سيدنا رسول الله ﷺ، وهو يقول كلمته التي لازالت وستبقى تنتشر اريجاً، وتسطع نوراً (اليوم يوم المرحمة) وماقاله من قبل؛ (لعلَّ الله يخرج من أصلابهم من يُوحِّدُ الله).

وبعد هذين الموقفين هناك جانب آخر نختار منه موقفين اثنين كذلك، هذا الجانب عند بناء الكعبة، وقد ابتلاه الله بكلمات فأتمهن ﴿قال إنِّي جَاعِلُكَ للنَّاس إماماً﴾ ولكنه اراد ان يكون من ذريته أئمة كذلك ﴿قال ومن ذريتي قالَ لاينالُ عهدي الظالمينَ﴾.

اما الموقف الاول، فهاهو ابراهيم - عليه السلام -، وقد سأل الله ان يجعل مكة بلداً آمناً، وأن يجنبه وبنيه أن يعبدوا الاصنام. هاهو ابراهيم - عليه السلام -، هاهو الشيخ الكبير يأبى إلا أن يقف هو؛ ليبني اول بيت وضع للناس، الم يقل الله ﴿اولي الأَيدي والأَبصار﴾ يقف هو، ويؤتى بحجر ليقف عليه يالروعة الشيخ!! حقاً انها لاتشيخ قلوب يملؤها الإيمان والحكمة والرحمة، يذكرنا هذا الموقف بما كان من اكثر الناس به شبها - صلى الله عليه وآله وسلم - حينما كان يبني مسجده الشريف، والبناءون كثر؛ ولكنه يأبى - عليه وآله الصلاة والسلام -

وقد نيَّف على الخمسين الا ان يشارك لامشاركةٍ شكلية فحسب[1]، وانما يشارك مشاركة فِعْلية، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا ابراهيم، وعلى آل سيدنا ابراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم وسلم تسليماً كثيراً ياربَّ العالمين، تلكم هي القدوة الحسنة.

---

(١) كما نجده من بعض الناس في أيامنا هذه. حيث يكونُ الهدف الدعاية والتهريج والتهويش.

اما الموقف الآخر فيتمثل لنا في حرص ابراهيم على الحق، وحبه لاستمرار الخير ورغبته وبذله كل امكاناته وجهده من اجل ان لايطغى الباطل ومن اجل ان يبقى الحق هو المهيمن. ان تفكيره ليس لعصره الذي يعيش فيه، وإنما يتسع ويمتد ليشمل تلك العصور البعيدة الآتية. هاهو ابراهيمُ يضرع الى ربه ﴿ربَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لكَ ومن ذريَّتنا أُمَّةً مسلمةً لكَ﴾ ثم لايكتفي بهذا، بل يريد أن يكون له لسان صدق في الآخرين ﴿ربَّنا وابعثْ فيهم رسولا منهم يتْلُو عَليهم آياتِك ويُعلمهمُ الكتابَ والحكمةَ ويزكيهمْ إنَّك أَنْتَ العزيزُ الحكيمُ﴾.

ذلكم هو حرص إبراهيم - عليه السلام - على أن تستمر اعلام الحق خفاقة وضَّاءة. وأذكرُ وانا اكتب هذه السطور، ماكان من حرص اشبه الناس به سيدنا رسول الله ﷺ، ماكان من حرصه على أمته، بل على النَّاس، وماكثر ماكان يحذرها من ان تضل بعده عن الطريق، ومن ان تنحرف عن الجادَّة، ومن أن يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض، كان يحذرهم ان تتداعى عليهم الامم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، كان يُحذرنا من الوَهَن. كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يحذرنا من ان نعظم الدرهم والدينار، فتعس عبدالدرهم، وتعس عبد الدينار، يحذرنا من أن نترك الأمرَ بالمعروفِ والنهي عن المنكر يحذرنا من أن نركن الى الدنيا حينما تبسط علينا فنتنافسها فتهلكنا وصدق الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ عَزيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحيمٌ فإنْ تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاإله إلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ وما أُحيلى وأُميلح الحديث عن أبي الانبياء، وخاتم الانبياء. ولكننا نختتم هذه المواقف التي اخترناها، بذلكم الموقف وان كنا قد اشرنا اليه من قبل. ذلكم الموقف الذي يقف فيه الاب يحد شفرته، لا ليذبح عجلا يقدمه لأضيافه ولكن ليذبح ابنه الوحيد امتثالا لأمر ربه، وماذا يمكن للقلم أن يكتب، وماذا يمكن للكلمات ان تعبِّر، إي: والله مانظن ذلك «يابني» سبحان الله! لقد كان من قبلُ يقول ياأبتِ حريصاً على هداية أبيه، ولكنه اليوم يقول: يابني لا من اجلِ أن يرشده لأمر خفي عليه، ولا من أجل أن يمنحه منحة جاء بها إليه، وإنما ﴿إنِّي أرى في المنامِ أنِّي أذبحُكَ فانْظُر ماذا تَرَى﴾ ياللجلال الموقف! ويالاضطراب الكون!! بل ياالضجيج الملائكة! ياالكل مايمكن ان يتصوره الحس المرهف! والعاطفة الجيَّاشة! ياالتجلد الشيخ

الرحيم!! الذي لم يطل مكثه مع ابنه ويا لروعة الايمان! ويالصبر الابن الذي عاش طفولتـه، وايام صباه بعيداً عن ان يقبس من عاطفة أبيه ﴿ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين﴾.

ان الموقف بحق يصور لنا ضآلة كل شيء أمام الايمان، التضحية بكل غالٍ ونفيسٍ في سبيل العقيدة، هكذا نتعلم من أبي الأنبياء - عليه السلام -، ومن ابنه من بعده أن الدين لايصلح له الا أولئك الذين يجيدون فن التضحية قولا وعملا:-

وَلَسـتُ أُبـالي حينَ أُقتـل مُسلمًا على أيِّ جنبٍ كَان في اللهِ مَصْرَعِي

وما أصيب الناس بهذا الشر ومااانحسر عنهم هذا التأييد الرَّباني الا حينما جعلوا الـدين تكـأة في حياتهم لايخصـونه إلاَّ بما فضل عندهم من وقت وجهد وعاطفة، وربما مالٍ عند بعضهم . . إننا لابد أن نعطي هذا الدين زهرة مامنَّ الله به علينا، ومامنحنا اياه سبحانه.

هذه بعض المواقف والجوانب في قصة ابراهيم - عليه السلام -، - وكما قلت من قبل - يعلم الله أن مُؤَلَّفاً كبيرا لن يكون كثيراً على خبر ابراهيم - عليه السلام -. هذا فضلاً عمَّا سجَّله القرآن له من حمدٍ وشكر للنعمة وجزاء الشاكرين عند الله عظيم، ولا نجد أحداً منَّ الله عليه بالمكارم، وأكرمه بالأنعم الكثيرة، فشكرها شكراً ليس قولياً فحسب؛ وانما شكراً قولياً وعملياً معاً، فتعددت انواع الجزاء الخيِّر الذي اكرمه الله به من أجر في الدنيا واجتباء وهداية، وناهيك عما في الآخرة مما لايمكن وصفه. لانجد واحداً كان له ذلك كله كما كان لابراهيم - عليه السلام -. واذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يعرف هذا القدر لابيه ابراهيم، وتلك المنزلة السامقة الرفيعة فيقول - كما مر معنا من قبل - «نحن أولى بالشك من ابراهيم» اذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يعرف ذلك كله فحريٌّ بنا ان نعكف على سيرته - عليه السلام - بما اخبر عنه القرآن الكريم؛ لنستخلص العبر التي لن نستغني عنها ابداً في جميع مواقفنا ومعاملاتنا ﴿سَلامٌ على إبراهيمَ إنَّا كذلك نجزي المحسنينَ إنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المؤمنينَ﴾ ﴿وآتينَاه أَجْره في الدُّنيَا وإنَّه في الآخرة لمن الصالحينَ﴾ ﴿ومَنْ يرغب عن ملةِ إبراهيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ﴿ولَقَدْ اصطفيناهُ في الدنيا وإنَّه في

الآخرة لمن الصالحينَ، إذْ قالَ لَه ربُّه أَسْلِم قال أسلمتُ لربِّ العالمينَ﴾ ﴿وجعلنَا في ذريته النبوةَ والكتاب﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ولنستمع اليه ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيلَ واسحاقَ إنَّ ربي لسميعُ الدعاء، ربي آجعلني مقيمِ الصلاة ومن ذريتي ربَّنا وتقبَّلْ دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أَنَبْنَا وإلَيْكَ المصير، ربَّنا لا تَجعلنا فتنةً للذين كفـروا واغفر لنا، ربَّنا إنَّك أَنْتَ العزيزُ الحكيمُ﴾ ﴿ربِّ هَبْ لي حُكمًا وألحقني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين، واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي إنَّه كان من الضالين ولا تخزني يَوْمَ يُبْعَثْون يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلاَّ مَنْ أتى الله بقلبٍ سليمٍ﴾ ذلكم هو دعاء ابراهيم - عليه السلام - فما اجمله! وما اجمعه! وما أجدره من دعاء يحفظ ليدعوَ به الداعون.

ونتساءل بعد ذلك كله، ماهي تلك اللبنة التي اضافها ابراهيم لهذا البناء المحكم... والحق انها كانت لبنة عظيمة مميزة، كما امتاز الحجر الاسود الذي وضعه ابراهيم في بناء البيت، كذلك كانت اللبنة التي وضعها في بناء الانسانية المحكم. لقد عرفنا اللبنات السابقة، ومع مالها من خطر ودور وشأن... الا ان اللبنة التي وضعها ابراهيم - عليه السلام - في هذا البناء المحكم كانت تمتاز، لا من حيث مساحتُها فحسب، وإنما من حيثُ الموضعُ الذي وضعت فيه كذلك لقد كانت اللبنة التي وضعها الأنبياء بعد آدم تختص بالشؤون المادية للإنسان من حيثُ تقديسُهُ للصلات العرقية، أو بطشه وقوته أو ركونه إلى مايجعله في ترف وبطر... ولكن اللبنة التي وضعها ابراهيم - عليه السلام - كانت غير ذلك كله؛ فهي شيء جديد في حياة الإنسانية؛ إنها نعمة الرشد التي لابد أن ترقى الانسانية إليه وتعول في تعاملها عليه؛ إنها النعيم العقلي ولذة الروح. ثم ماذا؟؟ إنه رقي الانسانِ لينعم بالحجة الدامغة وامام هذا الرشد وذلك اليقين وتلك اللذات العقلية والروحية، أمام ذلك كله يتهاوى كل صرح من صروح المادية البغيضة. فصلة الدم - رأيناها - تتلاشى عند إبراهيم، وهويتبرأ من ابيه، ويريد ذبح ابنه. أما الركون الى القوة، والاغترار بالامن والترف، فهما يتبددان كذلك. وهاهو ابراهيم - عليه السلام - لاينظر الى امجاد قومه ويبنون له بنياناً ليلقوه في الجحيم، وتكون الصفعة لاولئك الذين يغترون بالقوة والأمن، ويريدون به كيداً فيكونون الأسفلين والأخسرين.

إن اللبنـة التي وضعهـا ابراهيم في بناء الانسانية المحكم كانت أوسع مساحةً، وأعظم أثراً، واكثر تلاؤماً مع تقدم الانسان. والحق أنّها كانت بداية لعصر جديد وطور جديد، يؤهل الانسانية لتصل الى ماوصلت اليه فيما بعد.

واذا كانت سيرة ابـراهيم متعددة الجوانب؛ فلقد كانت اللبنة التي وضعها كذلـك. فالانبياء قبله كانـوا يُهَدَّدونَ من قبـل أقوامهم، ولكن ابراهيم - عليه السلام - لم تكن قضيته قضيةَ تهديد وابعاد؛ لكنّهم نفّذوا مايستطيعونه فألقوه في النار؛ فكانت برداً وسلاماً. هذا جانب من تلك اللبنة التي وضعها إبراهيم - عليه السلام - مضافاً إلى الجوانب التي تحدثنا عنها، إنها جوانب يشرق بها الإيمان في نفـوس المؤمنين من جهة، وتتسع دائرة تفكيرهم من جهة، ويكونون اصلب في مقاومة الباطل والشر من جهة ثالثة.

المبحث السادس

قصة لوط عليه السلام

أولاً: ما ذكر في قصة لوط من آيات.

١- في سورة النجم.

٢- في سورة ق.

٣- في سورة القمر.

٤- في سورة الأعراف.

٥- في سورة الفرقان.

٦- في سورة الشعراء.

٧- في سورة النمل.

الفرق في القصة بين سورة النمل وسورة الأعراف.

٨- سورة هود.

٩- سورة الحجر.

١٠- سورة الصافات.

١١- سورة الذاريات.

١٢- سورة الأنبياء.

١٣- سورة الحاقة.

١٤- سورة العنكبوت.

ثانياً: تعقيب على قصة لوط.



قصة لوط عليه السلام:

لوط هو ذو القرابة القريبة لابراهيم - عليه السلام -، فهو ابن أخيه او ابن عمه كما قيل، وهو من المقربين اليه كذلك، بل لعله الوحيد من اقربائه الذي آمن به وهاجر معه. ومساكن قوم لوط لم تكن بعيدة عن العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم أول مانزل، فهم يمرون عليها في طريقهم الى الشام في تجاراتهم وأعمالهم.

أولاً: ما ذكر في القصة من آيات:

ولذلك نجد اشارات مبكرة في كتاب الله تعالى من حيثُ النزولُ تتحدث عما حلَّ بهم، ولعلَّ في ذلك تشويقاً لكي يعرف المخاطبون ماذا كان بين نبيهم وبينهم، وهذه - لا شك - قضية تربوية مهمة فيها من التشويق ماتتشوف له النفوس، وتتهيأ لمعرفته وتستعد لتلقيه؛ لذلك كنا نجد هذه الاشارات كثيرة في كتاب الله تعالى عن الامم السالفة قبل أن يحدثنا القرآن عن أحوالهم مفصلة، فهذه اشارات مبكرة في سورتي النجم و ق.

١) ففي سورة النجم: ﴿والْمُؤتَفِكَةُ أَهْوى فغشَّاها ماغَشَّى فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى﴾ (آية - ٥٤) وهذه الاشارات - بالطبع - تتحدث عن قوم لوط دون ان تذكرهم باسمهم، فهم يُعرفون بهذا الاسم، وهذه الاشارة متفقة مع سورة النجم، وما اشد التلاؤم بين قوله: ﴿والنَّجمِ اذا هَوى﴾ ﴿والْمُؤتفكةَ أَهْوى﴾ وبين قوله ﴿إذْ يَغْشَى السدرةَ مايَغْشَى﴾ وقوله ﴿فغَشَّاها ماغشَّى﴾ وان كان هناك فرق كبير بين هوي وهوي، بين هوي النجم ليسطعَ نورُه وبين اهواء قراهم وقلبها رأساً على عقب، وما أعظم الفرق بين التغشيتين! ماغشى السدرة مما لايعلمه الا الله فخامة وعظمة، وماغشي قواهم من عذاب.

٢) أما سورة (ق) فلقد جاءت فيها هذه الإشارة تسلية للنبي - عليه وآله الصلاة والسلام -، وتثبيتاً للمؤمنين ﴿كذَّبَتْ قبلَهُمْ قومُ نوحٍ وأصحابُ الرَّسِّ وثمودُ وعادٌ وفرعونُ وإخوانُ لوطٍ وأصحابُ الأيكةِ وقومُ تُبَّعٍ كلٌّ كَذَّبَ الرُّسلَ فحقَّ وعيدِ﴾ (الآيات ١٢-١٤).

٣) ثم تأتي سورة القمر، ولعلها السورة الأولى التي تحدثنا عن قوم لوط وتكذيبهم لنبيهم وبالنذر التي جاءتهم، والسورة تحدثنا عما حل بهم من عذاب، وعما انعم الله به على آل لوط، وعن الوقت الذي نجوا فيه، وتجمل لنا الأسبابَ التي استحقوا من أجلها هذا العذاب، وتبين لنا سببين اثنين:-

١- المماراة والجدال.

٢- مراودتهم له عن ضيفه وهذه اشارة مجملة كذلك ستفصل فيها بعد. قال تعالى:

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا[1] إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟[2] بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

---

(١) حاصباً: ريحاً تحصبهم بالحجارة أي ترميهم.

(٢) فتماروا: فكذبوا.

٤) ثم تأتي **سورة الأعراف**، وفيها بعض البيان لما قاله نبيهم لهم وماقالوه، تبين السورة الكريمة أخبار الانبياء: نوح وهود وصالح متتابعة، ثم يأتي الحديث عن لوط - عليه السلام -، وهنا قضية نلحظها من خلال دراستنا للسور القرآنية، وهي ان قصة لوط - عليه السلام - ذكرت مع قصة ابراهيم - عليه السلام -، بل عقبها مباشرة، وذكرت تارة في بعض السور دون ذكر قصة ابراهيم - عليه السلام -، وثالثة: ذكرتا معاً في سورة واحدة، ولكن مفصولاً بينهما بقصص بعض الانبياء - عليهم السلام -، والطريقة الاولى: هي التي تذكر مجيء الرسل لإبراهيم من الملائكة بالبشرى، ثم ذهابهم للوط - عليه السلام -، وهي التي تذكر لنا هذه المحاورات بين لوط وبين الرسل. وأمَّا الطريقة الثانية والثالثة: فتقتصرانِ على ذكر المحاورات بينه وبين قومه - عليه السلام - وسننبه لهذه الطرق الثلاث في كل سورة نعرض للحديث عنها ان شاء الله تعالى.

وسورة الاعراف التي نتحدث عنها ذكرت فيها قصة لوط دون أن تذكر قصة ابراهيم - عليه السلام -، ينكر لوط على قومه اتيان الفاحشة مبيناً شناعة هذه الفاحشة؛ وبأنهم هم المبتدءون والمبتدعون لها فلم يأتها أحد قبلهم من الناس، ويبين هذه الفاحشة بأنها اتيان الرجال شهوة من دون النساء، وهم بذلك متجاوزون لحدود العقل والذوق والشرع والعرف، وهو الإسراف الذي يذم صاحبه؛ ولكنَّ القوم كانوا غير مبالين بأيِّ قيمة من تلك القيم التي يمتاز بها الإنسان؛ فيستحق التشريف والتكريم، فلا يزيدون على أن يقولوا مستهزءين أن أخرجوهم من قريتكم إنهم اناس يتطهرون.

ومثل هذا التسيب والسقوط والتمرغ في أوحال الرذيلة والتهكم بكل فضيلة هو شر مايمكن أن تصل إليه الانسانية حينما يكثر فيها أمثال أولئك، ولكن لوطاً لايجيبهم بشيء، وإنَّما تبين السورة الكريمة أن الله تبارك وتعالى قد أنجاه ومن آمن من أهله وأمطر على قومه مطراً بسبب إجرامهم، وأي إجرام أعظم مما قصَّه القرآن عنهم!.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ

شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

٥) ثم تأتي **سورة الفرقان**، وهي سورة الحجج التي تمحو كل الشبهات التي يتمسك بها الكفر وأهله، والتي تدور حول القرآن، وحول شخص الرسول الكريم - عليه وآله الصلاة والسلام -، كقولهم: ﴿إنْ هَذا إلا إفكٌ افتَراهُ﴾ وقولهم ﴿أساطيرُ الأَوَّلينَ اكْتَتَبَتها﴾ إلى غير ذلك من شبهاتهم.

من هنا ماكنًا لنستمعَ في سورة الفرقان لما قاله الانبياء، وما قيل لهم؛ ولكن ماورد فيها يتناسب مع موضوع السورة نفسها، وهو إقامة الحجج على أولئك المكذبين، والذي يعنينا ماورد في خبر قوم لوط - عليه السلام -، واننا لواجدون هذه الاشارة ﴿ولقَدْ أتَوْا على القَرْيَةِ الَّتي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ[1] أفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا، بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشوراً﴾ (آية ٤٠). كل هذا في معرض التذكير، ولا شك أن القرية التي أمطرت مطر السوء، وكان العرب يرونها في مسيراتهم انما هي قرى قوم لوط.

٦) ثم تأتي **سورة الشعراء**، فيكون الحديث عن لوط - عليه السلام - وقومه متناسباً مع موضوعها الذي تحدثنا عنه من قبل، أسلوب جذّاب له طابعه الخاص به، وسورة الشعراء من السور التي ذكر فيها نبأ ابراهيم ولوط معاً، ولكن ليسا متعاقبين، - وقد حدثناك عن ترتيب قصص الأنبياء في السور ذلك الترتيب البديع فارجع إليه - فبعد ذكر قصة ابراهيم - عليه السلام - ذكرت قصة نوح

(١) القرية: قرية سدوم من قرى قوم لوط، (مطر السوء): أي الحجارة، والمعنى أن قريشاً مروا مراراً كثيراً في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء.

وهود وصالح، ثم ذكرت قصة لوط، ولذا وجدنا فيها المحاورات بينه وبين قومه - كما قلنا من قبل - والمحاورات في سورة الشعراء تبدأ كما بدأت اكثر القصص باشارة موجزة لتكذيب الأقوام، كما رأينا في الحديث عن القصص السابق، حينما تحدثنا عن نوح وهود وصالح... هكذا بدأت قصة لوط ﴿كَذَّبَتْ قومُ لوطٍ المرسلينَ﴾.

ولأول مرة تحدثنا الآيات عما قاله لوط لقومه غير نهيهم عن الفاحشة؛ فالذي رأيناه في سورة الأعراف كان انكاره عليهم إتيان الفاحشة فحسب، أما هنا فهو يحدثهم عن رسالتهم وأمانته ويأمرهم بتقوى الله وطاعته، ولا يريد على ذلك أجراً منهم؛ فخراج ربه وأجره خير، ثم يوبخهم صراحة على فعلتهم القبيحة بإتيان الذكور وترك الأزواج أنه من شر انواع الاعتداء، اعتداء على الحرمات، اعتداء على الذكور، وهو مع ذلك اعتداء على النساء بحرمانهن حقوقهن.

وتحدثنا السورة هنا حديثاً جديداً، وهو انهم توعدوه بالرجم إنْ لم يكفَّ عن ذلك، وهنا؛ - وبعد ذلك كله - يعلن - عليه السلام - بأنه لما يعملون من المبغضين المستنكرين، ويطلب من الله أن ينجيه ومن آمن معه من عملهم، ويستجيب الله تبارك وتعالى دعاءه، فينجيه واهله الا من يستحق العذاب منهم، ثم تذكِّر الآيات بأحوالهم، كما هي السنة في سورة الشعراء ﴿إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهُم مؤمنينَ﴾ وهذه هي آيات سورة الشعراء:

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ

لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ[1] ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ[2] ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

٧) ثم تأتي **سورة النمل**، ويبين فيها لوط لقومه انهم يأتون هذه الفاحشة، وهم يبصرون آثارها السيئة وما يمكن أن تلحقه بهم، ويبصر بعضهم بعضاً دون أن ينكر أحد على الآخر وهم يبصرون كذلك أو يبصرون ماحل بالأمم المخالفة لهدي الله تبارك وتعالى، ويبين هذه الفاحشة باسلوب المنكر المستقبح المستهجن! وهي إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء! ثم ينتقل من هذا الإنكار الى وصفهم بالجهل، وهذا لاينافي ماوصفوا به من الإبصار في قوله ﴿وأنتم تبصرونَ﴾؛ لأن علم الإنسان وبصيرته اذا لم يوجهاه توجيهاً عملياً في الحياة فوجودهما وعدمهما سواء، ولذلك وصف الله المعرضين عن الحق من المنافقين والكافرين بأنهم صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لايرجعون، وهم لايعقلون، فلا يكون جواب قومه الا هذا الاستهزاء والتهكم وعدم المبالاة والتنكر لكل حق «أخْرجُوا آل لوطٍ من قريتكم؛ لأنهم يتنزهونَ ويترفعونَ عما تعملونَ، ويكرم الله لوطاً ومَن آمن من أهله الا امرأته حيثُ كانت في قدر الله من الهالكين.

وأود أن أُنبِّه القاريء هنا قبل أن يتساءل هو إلى هذا التشابه الذي نجده بين سورتي الأعراف والنمل، وكأني به يقول: أليس هذا التكرار بعينه؟!؛ ولكني

---

(١) القلى: البغض الشديد، كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد والمراد القلى من حيث الدين والتقوى.

(٢) عجوزاً في الغابرين: صفة لها، في الغابرين في العذاب، والهلاك أي غير الناجين.

أقول: مهلاً، فنحن مع معرفتنا بمقاصد التكرار وفوائده، ومع يقيننا بأنه من الاساليب التي يمكن أن تؤديَ غرضاً ما لم يكن ممجوجاً متكلفاً، إلَّا أننا مع ذلك لانحكم على ماجاء في كتاب الله تبارك وتعالى بأنه من التكرار، وقد سبقت هذه المسألة في أول هذا الباب، فراجعها هناك ان شئت، ولكن لنبقى مع الآيات التي تحدثنا عن سيدنا لوط - عليه السلام - في سورتي الأعراف والنمل وقد عرفنا من قبل أن القضايا الرئيسة التي جاء بها الانبياء - عليهم السلام - سواء كانت عقدية كعبادة الله وحده أم اجتماعية. وهذه تختلف باختلاف الاقوام كتطفيف المكيال عند مدين وإتيان الفاحشة عند قوم لوط، مثل هذه القضايا لابدَّ أن يكون كل رسول أمر قومه بتركها وحذرهم مغبَّتها وعاقبتها اكثر من مرة في اكثر من مكان وزمان، وحينما نقلها القرآنُ إلينا صاغها بأسلوبه فأضفى عليها مع روعة الإعجاز جمال الإيجاز، فيظن القاريء لأول وهلة أن ذلك هو التكرار، ولكنه بتكرار التلاوة المتدبرة سيبدد هذا الوهم ويغير ذلك الفهم، ولنقف مع مابين القصة في السورتين من فروق:ـ

(١- **سورة الأعراف**): ١- أنكر لوط الفاحشة على قومه مبيناً أنهم لم يسبقوا بها من قبل ﴿أتأتونَ الفاحشةَ ماسبقكم بها من أحدٍ من العالمينَ﴾ بهذا التعبير الرائع «من احد»، كأنَّما يريد أن يبين لهم أنها لم يسبق لأي فرد من افراد الناس صغيراً كان أو كبيراً أن زاول مثل هذه الفاحشة «من أحد». ٢- ثم يبين لهم هذه الفاحشة على جهة الإخبار «إنكم»، ٣- ثم يصفهم بالإسراف، والوصف بالإسراف متلائم متناسب مع فعلتهم للفاحشة دون غيرهم من البشر ودون ما سبقهم من الناس مع كثرة الذين سبقوهم من حيثُ الزمانُ والمكانُ ٤- ثم يأتي قوله تعالى: ﴿وما كانَ جوابَ قومه﴾ بهذا الحرف من حروف العطف وهو (الواو) «وما كان جواب قومه» والواو: لا تدل على ترتيب ولا تعقيب، ٥- ثم يذكر ربنا قول قومه «أخرجوهم» بهذا الضمير الدال على الغيبة. ٦- وأخيراً يبين الله تبارك وتعالى أنه أنجى لوطاً وأهله الا امرأته كانت من الغابرين، يعبر بهذا الفعل فعل الكون «كانت».

(٢) ولكن ماجاء في **سورة النمل** نجده مغايراً لهذا النظم الذي وجدناه هناك:ـ

١- ينكر لوط على قومه إتيان الفاحشة دون أن يعرض لكونهم أول من فعلها في هذه الدنيا، وانما ينكر عليهم هنا إتيان هذه الفاحشة، وهم يبصرون أي: وهم يعلمون عواقبها، أو ما حلَّ بالأمم أو يبصر بعضهم بعضاً كما مر من قبل.

٢- ثم نجده ينكر عليهم مرة أخرى «أئنكم لتأتون» بهذه الهمزة الدالة على تشنيع الفاعل وتقبيح العمل وكأن لوطاً بدأ يضيق ذرعاً؛ لأنَّ إصرارهم على قبائحهم لايزيده الا إنكاراً و لأن انكاره عليهم لايزيدهم الا اصراراً.

٣- ثم يصفهم بالجهل وما أجمل الطباق والمقابلة بين الجهل وبين البصر في الآية السابقة.

٤- ثم يأتي قوله تعالى ﴿فما كان جواب قومه﴾ بالفاء، ولا شك ان هذا مقام يختلف عن قوله تعالى ﴿وما كان جواب قومه﴾ في السورة السابقة، فلقد جاءت الفاء هنا تسرع بالمستمع لتدله على إصرار أولئك على قبائحهم ثم أن الفاء هنا جاءت بعد الجملة الفعلية (تجهلون) فكأن قولهم كان مرتباً على هذه الجملة بينما جاءت الواو هناك بعد الجملة الاسمية بل انتم قوم مسرفون وهذا يختلف عن غيره[1].

٥- أما قولهم الذي يذكره الله هنا فهو: ﴿أخرجوا آل لوط﴾، فلم يستعمل الضمير الذي استعمل من قبل (أخرجوهم) لقد خلع القوم رداء الحياء وانتهوا من كل كناية «اخرجوا آل لوط».

٦- وأخيراً يذكر الله عن امرأة لوط: ﴿الا امرأته قدرناها﴾ وفي سورة الأعراف (كانت) قدرناها وما أعظم الفرق بين العبارتين «كانت» -وهو فعل ناقص يحتاج إلى اسم وخبر -وقدرناها حيثُ تدل العبارة الثانية على أن ذلك تقدير الله تبارك وتعالى الذي لايمكن أن يردَّ. ومن لطيف التعبير أن هذا التقدير جاء بعد قوله (كانت) وفي ذلك من العدل الإلهي مافيه.

مما سبق نجد أن ماذكر في سورة **النمل** فيه زيادة على ماكان في سورة **الأعراف**

---

(١) ذكر صاحب المنار مع هذا الرأي رأياً آخر فليراجعه من شاء.

من الوجوه الستة التي رأيناها، وهو يدل دون أدنى شك على أن القصة في سورة النمل نزلت عقب القصة في سورة الأعراف لما فيها من اختلاف الأسلوب الذي رأيناه، والعجب من صاحب درة التنزيل - رحمه الله تعالى - الذي ذهب إلى عكس ذلك وهو أن سورة النمل نزلت أولا؛ لكن ماذكره مدفوع بما بيناه، وماعليك إلا أن تراجع قوله في درته التي نسأل الله أن يجزيه عنها خيراً. «درة التنزيل»[1] التي لاننكر أننا أفدنا منها في هذا الكتاب: وإخالك بعد أن تقرأه لا أظنك إلا أن تذهب إلى أن القصة في سورة النمل نزلت متأخرة.

وهذه هي الآيات التي جاءت في كل من السورتين ليتدبرها القاريء. في سورة الأعراف:-

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

أما آيات النمل:-

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ

(١) ص٦٠.

ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

٨- ثم جاءت سورة هود وهي أول سورة تذكر فيها قصة لوط عقب قصة إبراهيم - عليهما السلام -، ففي السور السابقة ذكرت وحدها دون قصة إبراهيم، اللهم إلا في سورة الشعراء حيث ذكرتا معاً إلا أنه فصل بينهما بعدة قصص.

عرفنا من قبل عند الحديث عن قصة ابراهيم في سورة هود ان الرسل جاؤوا بالبشرى وهم في طريقهم إلى قوم لوط، كما حدثتنا السورة هناك ان ابراهيم - عليه السلام - لحلمه الذي طبع عليه واكرمه الله به، بدأ يجادل في شأن قوم لوط حتى قيل له: ﴿ياإبراهيمُ أَعْرِضْ عن هذا انه قد جاء أَمرُ ربِّك وإنهم آتيهم عذابٌ غير مردود﴾.

وتحدثنا الآيات بعد ذلك ان الرسل لما جاؤوا لوطاً أصابته المساءة، ولحق به الضيق من كل جانب حتى انـه لم يجد أي حيلة، وأي منفذ للخروج من هذا المأزق، وماأصعبه بل ماأعصبه من يوم! وهنا وقد رأى قومه أضيافه في صورهم البهية جاؤوا مسرعين من كل جانب، ومن طبعهم عمل السيئات، فهو أمر مستقر فيهم، ويبدأهم لوط - عليه السلام - بأن أولئك أضيافه بعيدون عن هذه البلاد، وقد جعل الله لهم من النساء مايسد عوزهم ويزيل عجزهم، وهؤلاء بناته ليزوج كل واحد من وجهاء القوم بواحدة منهن فليتقوا الله، اراد أن يحرك هذا الجانب في نفوسهم أن يوقظ هذه المشاعر، وان يوقد هذه الجذوة كي لايخزوه في ضيفه، ثم يهيب بهم علَّهم يرتدعون عن غيهم، الا يوجد فيهم رجل رشيد عاقل يمنعهم من الغواية، ولكنهم وقد جردوا من كل عرق يمت بصلة للإنسانية الكريمة يعلنون

ويعلمون لوطاً بأنه يعلم كل العلم ان ليس لهم حق في بناته، وهو يعلم كل العلم كذلك مايريدونه.

وهنا وقد اعيته - عليه السلام - الحيل كلها، وسدت دونه الطرق والمنافذ يقول، مايقوله كل واحد مثله ولعل كل واحد منا يدرك هذا الضيق الذي أصابه - عليه السلام - فيتمنى أن يكون له قوة ليجابه أولئك الذين تجردوا من إنسانيتهم، أو أنه يأوي إلى ركن شديد يستعين به على صلافة أولئك، وسلام الله على لوط فلم يكن هناك ركن أشد من الركن الذي يأوي إليه ولهذا يقول رسول الله - عليه وآله الصلاة والسلام -: «يرحم الله لوطاً فلقد كان يأوي إلى ركن شديد»(١) وهنا يكون الفرج ويرى الأضياف ماحل بصاحبهم فيكشفون له هويتهم ويعرفونه بأشخاصهم ماأعظم الفرج بعد الشدة! اللهم إنَّا نسألك الفرجَ بعد الشدة فيخبرونه بالحقيقة وبأنهم رسل ربه الذي لايتخلى عنه فلا يهولنه الأمر، وليسر بأهله بقطع من الليل وهذا القطع كما بينته سورة سابقة سورة القمر هو وقت السحر ولا يلتفت منهم أحد، اما آله الذي ينبغي أن يسري بهم فهم جميع أهله إلا امرأته فلا بد أن يلحق بها ماسيصيبهم من عذاب جزاءً وفاقاً؛ لأنها كانت عيناً لهم تعينهم عليه فليس عذابهم بعيداً، إنه الصبح، وكثيرون أولئك الذين يعانون من القسوة والبلاء والشدة والتنكيل وإلى أولئك جميعاً يسوق الله هذه البشارة: ﴿أليسَ الصُبحُ بقريب﴾، بلى بلى ماأعظمها من بشارة للمستضعفين! وما أشده من وعيد لأولئك الذين حسبوا أن القسوة والعتو هما كل شيء!.

ويجيء أمر الله بإهلاك المعذبين وتقلب قراهم رأساً على عقب ويمطر الله عليها حجارة من سجيل وماهي ببعيدة عن الظالمين. نعم ماهي عن الظالمين ببعيدة لكنهم لايرعوون.

وهذه هي الآيات في سورة هود:ـ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة جـ٢، ص١٨٣.

وأخرجه البخاري كتاب الأنبياء وباب قوله تعالى: «لقد كان لكم في يوسف وإخوته آيات للسائلين» حديث رقم ٣٢٠٧.

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ
قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا
يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ
﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ
مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾
فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا
حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ[1] ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً[2] عِندَ رَبِّكَۖ
وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾

٩- ثم جاءت سورة الحجر، وتُذكر فيها قصة لوط - عليه السلام - عقب قصة ابراهيم ﷺ، ونجد أن السياق في سورةِ الحجر يختلف عما جاء في سورة هود حيثُ

---

(١) منضود: نضد في السماء نضداً، معداً للعذاب وقيل يرسل بعضه في اثر بعض متتابعاً.
(٢) مسومة: معلمة للعذاب.

بدأت القصة في سورة الحجر تبين لنا أنه لما جاء آلَ لوط المرسلون من الملائكة - عليهم السلام - خاطبهم لوط بأنهم قوم منكرون؛ وذلك لأنه يخشى أن يطرقوه بشَرٌّ أو أن تحدث له بسببهم مساءة؛ ولكنهم يجيبونه - عليه السلام - بأن الأمر لِيس كما توقع، بل هو على العكس من ذلك، بل إنهم جاؤوا بهذا العذاب الذي كان قد توعد به قومه، وأتوه بالحق الذي لامرية فيه؛ ولكي يَستلّوا كل ظن يمكن أن يعتريه، وكل حزن يمكن أن يصيبه أكّدوا له صدقهم بما قالوه بمثل هذا الاسلوب ﴿وإنّا لصادقونَ﴾، المشتمل على أكثر من تأكيد.

والذي جاء في سورة هود ان الرسل جاؤوا لوطاً أما هنا فذكر أن مجيئهم لآل لوط، وفي هذا من الإيناس والإكرام له - عليه السلام - مالايخفى، ثم تذكر الآيات الكريمة بعد ذلك في سورة الحجر ان اهل المدينة جاؤوا مستبشرين فرحين. ويرى بعض المفسرين أنَّ ما في الآيات من باب التقديم والتأخير؛ فمجيء أهل المدينة كان قبل بشارة الملائكة لوطاً بأنهم جاءوه بعذاب أولئك، والواو لاتفيد ترتيباً. ونقل صاحب روح المعاني عن ابن عطية ان ماقاله لوط لأهل المدينة مما قصته السورة الكريمة من أن أولئك ضيفه فلا ينبغي أن يفضحوه بالاعتداء عليهم، وأمره لهم بتقوى الله ونهيه لهم عن خزيه وإذلاله؛ إنما كان على سبيل التبكيت لهم، وإخفاء العذاب الذي سيصيبهم عنهم، ولقد ضعف أبو الفضل الشهاب الألوسي -رحمه الله- ماذكره ابن عطية وصار مع الجمهور فيما قالوه من ان باقي القصة من باب التقديم والتأخير.

ولكن الذي يبدو لي بعد اجالة وإمعان -والله -أعلم- بما ينزل أن تضعيف علاّمة الرافدين لما قالة علاّمة الأندلس رحمهما الله، فيه نظر ولا نستطيع أن نسلِّمه له، بل قول علامة الأندلس جدير بالتأمل والنظر، والذي يظهر لي أنه أولى بالقبول، وأن ليس في الآية تقديم وتأخير، وان مافي سورة الحجر فيه من الأحداث والمشاهد ماليس في سورة هود، وأستدل لذلك بمايلي:

إنَّ الذي ذكر في سورة هود ان الرسل لما جاؤوه - عليه السلام - سيء بهم، وضاق بهم ذرعاً، وقال: هذا يوم عصيب، وجاءه بعد ذلك قومه يُهرعون إليه، وكل هذا لانجده في سورة الحجر، لذلك فالذي يبدو لي -والله أعلم- أن ماحدثتنا

عنـه سورة هود غير الذي حدثتنا عنه سورة الحجر، ففي سورة هود جاءه قومه يهرعون إليه - وكان بينه وبين قومه ماتحدثنا عنه من قبل. أما هنا في سورة الحجر، فقد جاءه أهل المدينة مستبشرين فرحين. فهناك مجيئان:

المجيء الأول: لقومه، وهم فئة جاءت مسرعةً لتظفر بالغنيمة -قاتلهم الله- فسيء بهم - عليه السلام - وضاق بهم ذرعاً، وطمأنه الملائكة، ثم جاء بعد ذلك أهل المدينة بعد أن وصل إليهم النبأ وكان لوط قد اطلع على الأمر من الملائكة - عليهم السلام - فقال لهم ماقال على سبيل التبكيت وتعمية الخبر عنهم.

والذي يرجح ماقلناه أن آيات سورة الحجر لم تحدثنا بشيء عن ذلك الألم الذي كان يكتنف نفسه - عليه السلام -، وماذهبنا إليه أولى بنظم الكتاب العزيز ونسقه.

والخلاصة: أن الحديث في سورة هود - عليه السلام - كان غيرَ الحديث الذي في سورة الحجر؛ ولعل مما نستأنس به -كما قلناه- زيادةً على ماتقدم من قول لوط - عليه السلام - هنا: ﴿هؤلاء بَنَاتي إنْ كُنْتُم فاعلينَ﴾ قالها بصيغة الشك الذي تدل عليه كلمة (إن) ولم نجد ذلك التقريع الذي وجدناه في سورة هود، ثم يقسم الله تبارك وتعالى بحياة سيدنا محمد - عليه وآله الصلاة والسلام - بأنهم في غوايتهم وسكرتهم وقد عميت بصائرهم ﴿لعمركَ إنَّهم لفي سكرتِهم يعمهونَ﴾ فجاءهم العذاب، واخذتهم الصيحة في وقت يجد الناس فيه أنسهم وهدايتهم، وهو وقت شروق الشمس فقلبت قراهم رأساً على عقب، وأمطرت عليها حجارة وفي ذلك آيات كثيرة لذوي الفكر والنظر والتوسم، وان هذه القرى قرى قوم لوط في طريق باقٍ غير مندرس يمر به أهل مكة وغيرهم من العرب، واذا كان في ذلك آيات كثيرة للمتوسمين الذين كانوا في زمن لوط، لأنهم رأوا هذه الفعلة تامة غير ناقصة فان فيما بقي من هذه الآثار للمؤمنين بالله ورسوله ﷺ لآية واحدة، وفي الآية الواحدة مايكفيهم.

ومما انفردت به سورة الحجر كذلك طلب الرسل من لوط أن يقدم أهله حينما يسري بهم بقطع من الليل فيجعلهم أمامه ويكون خلفهم حتى يتأكد من خروجهم جميعاً وحتى يضمن عدم التفات احد منهم وهذا معنى قول الله له في

السورة الكريمة ﴿واتبع ادبارَهُم﴾ أي سر وراء أهلك الذين سريت بهم ولا تجعل أحداً منهم وراءك .

وقضى الله له ذلك الأمر العظيم الحازم وهو أنَّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين .

ومما انفردت به السورة كذلك قول قومه له وقد حدثهم في شأن ضيفه ﴿أولَمْ نَنهكَ عن العالمينَ﴾ فهم ينكرون عليه أن يستقبل أحداً من الناس ؛ لأنهم يخشون أن يستجيبوا لدعوته . وهناك أمر آخر يقصدونه وهو أن لا يعترضهم حينما يريدون أن يحققوا فعلتهم الشنيعة مع من يمروا في ديارهم ، وكان - عليه السلام - يمنعهم من ذلك ، وهذه هي الآيات في سورة الحجر :-

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ(١) مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

---

(١) دابر هؤلاء : أي آخرهم يعني يستأصلون عن آخرهم حتى لا يتبقى منهم أحد .

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ[1] ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ[2] ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

١٠- ثم تأتي **سورة الصافات** بعد ذلك: وسورة الصافات - كما قلنا من قبل - تحدثنا عن إكرام الله لأنبيائه - عليهم السلام - فهم في مصافٍّ المكرمين، بل هم المكرمون، وهذا مااقتصرت - عليه السورة - من الحديث عن لوط - عليه السلام -، فهي لاتحدثنا عما جرى بينه وبين قومه؛ ولكنها تكتفي بالحديث عما خصه الله به وما أصيب قومه به ثم تذكرُ العرب الذين يمرون بديارهم صباح مساء وتنعى عليهم عدم تذكرهم، وتعنفهم لأنهم لم يستعملوا عقولهم فيما هو خير لهم، وهذه هي الآيات الكريمة:-

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم

---

(١) مشرقين: داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس.

(٢) للمتوسمين: للمتفرسين المتأملين وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء. (لبسبيل مقيم): أي ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش.

﴿مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٣٨﴾

١١- أما سورة الذاريات التي جاءت بعد ذلك فإن الحديث فيها عن قوم لوط لم يأت من خلال قصته - عليه السلام - معهم، وانما جاء في ثنايا حديث ابراهيم ﷺ حينما جاء الرسل من الملائكة مبشرين؛ فبعد أن هدأ خاطره، وذهب روعه يسأل الرسل من الملائكة ماشأنكم وماخطبكم فيجيبونه بأنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين ليعذبوهم بنوع من العذاب خاص لمن أسرف وتجاوز الحد وأن هذا العذاب لم ينج منه إلا بيت واحد أولئك الذين ثبت الإيمان في قلوبهم وانقادوا لأوامر الله تبارك وتعالى ولا زال في هذه الفعلة وفي تلك القرى آيةٌ لأولئك الذين يخافون أن ينزل بهم العذاب.

ماجاء في سورة الذاريات إذن كان استكمالاً للحديث عن إبراهيم خليل الله :-

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ۝٣٣﴾

١٢- أما سورة الأنبياء فجاءت فيها إشارة موجزة متسقة مع موضوع سورة الأنبياء، وهو آيات الله، وحججه سواء كانت هذه الحجج كونية بصرية أم انسانية سمعية. تأمل السورة الكريمة تجد ذلك واضحاً فيها ويكفي أن نذكرك بمثل قول الله: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتْقاً ففتقناهما﴾ وما بعد ذلك من آيات ولها من اسمها نصيب، ولذلك كان الحديث فيها عما أكرم به الأنبياء - عليهم السلام - .

فبعد أن نجّى اللهُ براهيمَ ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين وبينت الآية ماخص الله به ابراهيم - عليه السلام - بينت بعد ذلك ماخص به لوط كذلك ولأول مرة يبين الله ماأكرم به لوطاً من الحكم والعلم مما منّ به عليه فأدخله في رحمته، وفي زمرة الصالحين من عباده ففي السورة الكريمة :-

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

١٣- أما سورة الحاقة فكان الحديث فيها مندرجاً في ذكر بعض السالفين المكذبين، ومع ذلك الإيجاز فلقد كانت هناك جدَّة في تسمية قرى قوم لوط بالمؤتفكات[١]، وهي بعض آية في قوله تعالى:-

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً[٢] ﴿١٠﴾﴾

١٤- ثم جاءت سورة العنكبوت، سورة الدعاة كما سميناها من قبل، ورغم إيجاز القصة في هذه السورة إلا أنه والحق يقال، ذكر فيها الكثير مما لم يذكر في غيرها من السور السابقة، وهذا يقيناً متسق مع شخصية السورة الكريمة.

تبدأ القصة في السورة الكريمة بتقريعه لقومه بهذا الأسلوب الذي لم يمر بنا من قبل، وهاهو - عليه السلام - يقرعهم إنهم يأتون الفاحشة، ولم يسبقهم بها أحد من الناس.

ثم بين معايبهم ومثالبهم ومساوئهم بهذا الأسلوب الجامع بين التأكيد والإنكار، ولئن كانت الآيات السابقة تبين أن فعلتهم الفاحشة التي يُذمون عليها إتيان الرجال؛ فإن السورة الكريمة تبين هنا عيوباً كثيرة فهم يقطعون السبيل،

---

(١) المؤتفكات: قرى قوم لوط.

(٢) رابية: شديدة زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح.

ويأتـون في ناديهم المنكر، ماتنكره الطباع والعقول والشرائع جميعها؛ ولئن كان جوابهم فيما مضى ﴿أخـرجـوهم من قريتكم﴾ إلا أنّهم هنا يتركون هذه المقالة ويستبـدلـونها بغيرها وهي أن يأتيهم بعذاب الله إن كان من الصادقين في ذلك ويضرع لوط إلى ربّه أن ينصره على القوم المفسدين. ؟

ثم تحدثنا الآيات الكريمة عن مجيء الرسل ابراهيم بالبشرى، ولكن هذه البشرى لاتفصل هنا تلاؤماً مع موضوع السورة؛ ولأنه قد مر في السورة نفسها ماخص الله به إبراهيم - عليه السلام -، ولكن الآيات هنا تقتصر على ماكان بين إبراهيم وبين الرسل - عليهم السلام - في شأن لوط بما لانراه في سورة أخرى، فيبلغون إبراهيم أنّهم يريدون إهلاك أهل هذه القرية، وذلك لهذا الظلم الشائن الذي يصدر عنهم، ولكن إبراهيم - عليه السلام - يخشى أن يصاب لوط بأذى فيبادر إلى القول: كيف تهلكونها إن فيها لوطاً!؟ ويجيبه الملائكة بأنهم يعلمون مَنْ فيها، وانهم سينجونه وأهله إلا امرأته.

ثم تبين الآيات مجيء الرسل لوطاً - عليه السلام -. وما أصابه حين مجيئهم ويبينون له أنهم منجوه وأهله إلا امرأته، كما بينوا لإبراهيم من قبل، وأنّهم منزلون على أهل هذه القرية عذاباً من السماء بسبب فسقهم، ثم يبين الله تبارك وتعالى أنه ترك من هذه القرية ومن هذه العقوبة أثراً لمن كان ذا عقل ولبٍّ، والحقُّ أن اسلوب القصة في سورة العنكبوت اسلوب فريد، لامن حيث الألفاظ وحدها ولكن من حيثُ الجزئياتُ التي ذكرت فيها كذلك، ولعل في ذكر الآيات الكريمة خير دليل على ماذهبنا إليه وهذه هي آيات سورة العنكبوت:ـ

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ

﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾

ونرى أن من المفيد أن ننبه هنا إلى ماذكر لقوم لوط من صفات، قد لانجدها لغيرهم من الأقوام ومن يستعرض الآيات يجد ذلك في أجلى بيان، وأوضح صورة، فالتكذيب والجدل وإتيان الفواحش والاعتداء والإجرام والإسراف وعمل السيئات والخبائث وإتيان المنكر وقطع السبيل والجهل والفسق والظلم، وتلك لعمر الحق هي أسوأ الصفات التي يمكن أن يتصف بها قوم.

تلك هي قصة لوط كما جاءت في كتاب الله تبارك وتعالى نجد لكل سورة فيها جانباً من الجوانب وجزئيات وأحداثاً وأسلوباً يضفي عليها صبغة البيان وظاهر الإعجاز وعظيم الروعة وتأثير الموعظة وإلى جانب ذلك كله هذه الدروس الاجتماعية التي لابدَّ لأي مجتمع خيِّر أن يدعيها وهو ينظر في تلك الصفات التي تعصف بكل من يتصف بها كما عصفت بقوم لوط.

ثانياً: تعقيب على قصة لوط عليه السلام

إنَّ أول مايقفنا ونحن نقرأ قصة لوط - عليه السلام - هذا الصلف والترهل، بل هذا التدني والانحدار، بل التعري من كُلِّ رداءٍ من أردية الإنسانية. ذلك بحق ماكان عليه أولئك القوم الذين ابتلى الله بهم لوطاً - عليه السلام - فأرسله إليهم. لقد كان القوم ممعنين في الغي مستغرقين في الفحش لا يبالون بما يمكن أن يقال.

بدأنا نسمع في العقدين الأخيرين من هذا القرن عن تسيب يشبه تسيبهم. قد نجد أناساً يفعلون الرذيلة، ولكنهم قد ينكرون أو يستخفون أو أقل مافي الأمر لا يفتخرون مجاهرين بما يعملون ولكن أولئك القوم لم يكونوا ليعلنوا المنكر فحسب، بل يسخرون من كل من يرشدهم ﴿إنَّهُمْ أُناسٌ يتطهرون﴾ ويبذل لوط - عليه السلام - طاقته وجهده دون جدوى، والأنكى من ذلك كله أنهم أرادوا الحيلولة بينه وبين النَّاس وإلَّا فإن أراد غير ذلك فليتحمل ما يترتب عليه من نتائج.

ويحدثنا القرآن لأول مرة عن امرأة لوط وكونها مقدرة من الغابرين. ونحن نعلم أن لوطاً - عليه السلام - هاجر مع ابراهيم ﷺ، فكان ابراهيم شديد الحرص عليه؛ لذلك يسهل عليهم أن يهددوه بالرجم؛ لأنه منهم؛ ولكنه - عليه السلام - لا يزيد على أن يقول بعد ذلك إنِّي لعملكم من القالين المبغضين الكارهين المنكرين.ربِّ نجني وأهلي مما يعملون، ويستمر لوط دون أن يؤمن به أحد منهم.

وإذا كان من لبنة يضيفها لوط للبناء الإنساني المحكم - وقد أحكم ابراهيم - عليه السلام - اللبنة كما رأينا من قبل - وهي كائنة لا محالة، فإنها تتلخص في هذا الدرس وإن كان قاسياً بالفعل، ولكنه درس نافع مفيد يمكن أن يكون تسلية وعزاءً لأولئك الذين شاء الله لهم أن يحاولوا الإصلاح في أرض خبثت فلا تخرج إلا نكداً ﴿والبلدُ الطيِّبُ يخرجُ نباتُهُ بإذنِ ربِّه والذي خَبُثَ لا يخرجُ إلا نكداً﴾ وما أشده من درس أن لا يجد المصلح قلوباً صاغية! وآذاناً واعية! رغم مرور الزمن وتحمل المحن:ـ

على المرءِ أن يَسْعى إلى الخَير جهده   وليس عليهِ أنْ تتم المطالبُ

وهكذا خرج لوط بأمر ربه دون أن يؤمن معه أحد فلا عليه، فالله قد منَّ عليه وأدخله في رحمته انه من الصالحين.

المبحث السابع

قصة شعيب عليه السّلام

أولاً : ما ذكر فيها من آيات :

١- سورة الأعراف .

٢- سورة الشعراء .

٣- سورة هود .

٤- سورة العنكبوت .

ثانياً : تعقيب على قصة شعيب .

قصة شعيب عليه السلام:

أولاً: ما ذكر فيها من آيات:

قيل إن شعيباً - عليه السلام -، هو أحد الأنبياء من العرب، كهود، وصالح - عليهم السلام -، ويقال أنه كان خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه. ولقد ذكرت قصة شعيب في اكثر من موضع، وان كانت أقل ذكراً من قصص بعض الأنبياء ﴿وكل شيء بقدر﴾، ولم تكن مساكن قوم شعيب بعيدة، كما لم يكن خبرهم غريباً عن الذين بعث فيهم الرسول - عليه وعلى آله الصلاة والسلام -.

واننا لنجد بعض الإشارات المبكرة تحدثنا عنهم، وهي تنظمهم في سلك المكذبين المعاقبين، نجد ذلك مثلاً في سورة (ق) وسورة (ص) وقد مرت الآيات من قبل، وهناك إشارة ذكرت في سورة متأخرة بعض الشيء، وهي سورة الحجر، وقد جاءت عقب قصة لوط - عليه السلام -، وهي قوله سبحانه:-

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

والإشارة -والله أعلم- لهم ولقوم لوط؛ فهم في طريق ظاهر يسلكه المارة ويأمونه في مسيراتهم.

١- إلاَّ أنَّ أول سورة حدثتنا بالتفصيل عن سيدنا شعيب - عليه السلام - كانت سورة الأعراف، وسورة الأعراف إحدى السبع الطوال، ولقد ذكرت فيها أخبار الأنبياء - عليهم السلام - مرتبة ترتيباً زمنياً، حيث ذكر فيها خبر آدم، كما

مرَّ من قبل منفصلا عن غيره من اخبار الأنبياء، ثم ذكر خبر نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى صلى الله على نبينا وعليهم، وعلى جميع الأنبياء وسلم. فذكرت قصة شعيب معطوفة على ماقبلها من القصص وفيها يبين الله تبارك وتعالى لنا خبره، وتبدأ القصة كما بدأ غيرها ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، ثم ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ ويبين شعيب مابينه اخوته الأنبياء لأقوامهم، فيأمر قومه أن يعبدوا الله وحده فليس لهم من إله غيره، فهو سبحانه الجدير بالعبادة والتوحيد، ويحثهم على هذا الإيمان، فقد جاءتهم المعجزة الدالة على صدقه - عليه السلام -. والقرآن الكريم لم يبين لنا نوع هذه الآية التي جاءتهم، فنسكت عما سكت الله عنه.

وبعد أمرهم بالتوحيد الذي هو الأصل لسعادة الدارين نجده - عليه السلام - يخطو خطوة أخرى تتصل بالجوانب الحياتية: اجتماعية واقتصادية، تلك التي كانت تنتشر فيهم، وهي من السيئات التي لاتنتج إلا البوار والدمار. وهكذا نجد الأنبياء - عليهم السلام - كانوا لا يُغفلون شؤون الحياة التي تتصل بواقع أقوامهم ذلك لأن الدين في حقيقته ليس كمايفهم بعضهم، أو يريده بعضهم على أنه علاقة فردية بين الإنسان وخالقه، ولا صلة له بعد ذلك بدنيا الناس؛ لذا كان أول ماأمرهم به بعد التوحيد هو إيفاء الكيل، وإيفاء الوزن بكل قسط وعدل، ويظهر أن البخس والتطفيف كان الديدن لأهل مدين، ثم ينهاهم بعد ذلك عن أن يبخسوا الناس حقوقهم، وهي خصلة لاتقل عن سابقتها سوءاً، ثم ينهاهم بعد ذلك أن يظهروا في الأرض الفساد، وبعد هذه الخصال الأربع أعني الشرك، والتطفيف، وبخس الحق، والإفساد في الأرض، ينهاهم عن خصلة خامسة لاتقل خطراً عن سابقاتها، فإذا كانت الخصال السابقة تتعلق بالقضايا المادية فإن هذه تتصل بجانب آخر من جوانب الحياة، وهو الجانب الفكري والروحي. فلقد كانوا لايدعون أي ثغرة، أو أي طريق إلا ويقعدون به لإغواء الناس، يوعدونهم، ويخوفونهم، ويصدونهم عن الحق، وهم يشككون فيه، وما أشبه هذه المهمة -لعمر الحق- بما جرد ابليس نفسه له! والذي ذكر في أول هذه السورة، حينما قال: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، ولا تجد اكثرهم شاكرين﴾.

وبعد هذا النهي والتحذير والإرشاد من شعيب - عليه السلام - أهاب بهم أن يتذكروا نعم الله عليهم، فيذكروها ويشكروها، وقد كانوا قلة فكثرهم الله، أذلة فأغرهم، ثم نبههم إلى أن يعتبروا بغيرهم من الأمم الذين أفسدوا فأهلكوا، ولقد لانت قلوب فأذعنت واجابت داعي الله، وبقيت قلوب غلف في أكنة، أبت الانصياع إلى الحق؛ لذلـك وجدناه - عليه السلام - يتلطف في خطابهم بهذا الاسلوب الـذي يمتليء رقة وإشفاقاً، فإن كان منكم قوم آمنوا بما أرسلت به، وآخرون اختاروا الكفر والبقاء على ماهم فيه من باطل، فليصبر هؤلاء وأولئك، ليصبر الكافرون على مايسوءهم من إيمان المؤمنين، وليصبر المؤمنون على مايلحقهم من أذى الكافرين، فلن يدوم الأمر إلى مالانهاية، ولا بد له من غاية حينما يحكم الله تبارك وتعالى بين الفريقين، وهو سبحانه خير الحاكمين، وأحكم الحاكمين، أعدلُهُم حكمًا، وأعظمهم حكمة. وهنا تثور نعرة الباطل، وتظهر حمية الكفر ويبرز أولئـك مامنحـوه من قوة مادية؛ ليحـاربوا بها الحق ويسكتوه، ويخرسوا صوته، فيتـوعـدون شعيباً، ومن آمن معه، فهم بين أمرين: إما أن يرجعوا عن دينهم الجديد ليسيروا في ملة الكفر، وإلاَّ فإنهم سيخرجونهم من بلدهم بالقوة يجردونهم من جنسيتهم، فيسلبونهم كل مايترتب عليها من حقوق، ولكن خاب ظنهم وما أشبـه الليلة بالبـارحة!، وهم وقد لوَّحوا بهذا التهديد، وأرعدوا، وأزبدوا بهذا الـوعيد، وقد حسبوه مجدياً؛ فكثير أولئك الذين جردوا من جنسياتهم في القرن العشرين، وصودر كل مايمكنهم من التنقل؛ إلاَّ أن شعيباً - عليه السلام - يردُّ عليهم مقالتهم بثبات الداعية الصادق، الرسول الواثق: أنعود في ملتكم، ولو كنا كارهين لها، نافرين منها؛ لأنها نحلة سوء، وملة شر، والله إننا لمفترون كاذبون على الله إن عدنا فيها، وكيف نعود، وقد اكرمنا الله -تبارك وتعالى- فنجَّانا من حمأتها، وأوحالها، وفتنتها، وقد منَّ علينا بالهداية؟! لن نعود أبداً إلا أن يشاء الله ربُّنا ذلك.

وهذا أمر غيبي لانعلمه -ومعاذ الله أن يضلَّ من فتق ذهنه بالحق، وشرح صدره للهداية- والله يعلم حالنا وحالكم، وسع ربنا كل شيء علمًا، عليه وحده نتوكل ونعتمد، ثم يدعو عليه السلام ربَّه أن يحكم بينه وبين قومه بالحق، وان يفصل بينهم، فهو سبحانه خير الفاتحين، وحينما يجد أئمة الكفر أن لامطمع لهم

في شعيب يتوجهون إلى الذين آمنوا معه رجاء إغوائهم، فلعلهم أقل من شعيب تمسكاً بهذا الدين، يتوجهون إليهم منذرين محذرين بأنهم إن اتبعوا شعيباً فسيكونون من الأخسرين، سيخسرون المال والجاه وغيرهما من الحقوق، وهنا تحق عليهم الكلمة، ويأخذهم العذاب، ويبين الله تبارك وتعالى أن أولئك الذين كذَّبوا شعيباً، وحكموا على الذين اتبعوه بالأخسرين، هم الذين حل بهم ماتوقعوه لغيرهم، كأن لم يكن لهم وجود ولا حياة، وهم الذين وقعوا في الخسران، أما شعيب - عليه السلام - فيعرض عنهم، وقد بلغهم رسالات ربه، وعمل كل مافي وسعه ناصحاً لهم. أما وقد اختاروا طريق الضلال والغواية، فلماذا يأسى، ويحزن عليهم؟. تلك. هي قصة شعيب، كما صورتها سورة الأعراف، وهي بحق صفحة مليئة بالعظات، ولوحة ذات مناظر خلاَّبة، وحقائق مجسمة مؤثرة:-

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ[1] عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

٢- ثم تأتي سورة الشعراء ذات النبرة المثيرة، والآيات القصيرة، تبدأ قصة شعيب بما بدأت به أخواتها، ولكنها هنا تذكر لنا أصحاب الأيكة بدل أصحاب مدين ويظهر أنهم قوم كانوا على مقربة من مدين، وأن شعيباً أرسل لهم كذلك، وان كان من مدين - عليه السلام -، وليس من الأيكة.

يدلنا على ذلك هذا التغاير في الاسلوب، ففي سورة الأعراف ﴿وإلى مدين

---

(١) الأسى: شدة الحزن، اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال كيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل.

أخاهم شعيباً﴾، وفي سورة الشعراء عند الحديث عن أقوام الرسل نجد هذه الآية ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح﴾، ﴿إذ قال لهم أخوهم هود﴾، ﴿إذ قال لهم أخوهم صالح﴾، ﴿إذ قال لهم أخوهم لوط﴾، أما عند الحديث عن اصحاب الأيكة فنجد هذه الآية ﴿إذ قال لهم شعيب: ألا تتقون﴾، وهذا يرجح ماقلناه: من أن شعيباً - عليه السلام - كان أخاً لمدين وقد أرسل إلى أصحاب الأيكة كذلك؛ يأمر شعيب قومه بتقوى الله فهو الرسول الأمين الذي أُرْسل إليهم، ولا يسألهم على مايريد أجراً، إنما أجره من رب العالمين.

وبما تمتاز به سورة الشعراء من أسلوب يفوق ماللشعر من خصائص كما قلنا من قبل، يوجه لهم هذه الأوامر التي اشتهرت فيهم بكل إيجاز: إيفاء الكيل، والوزن بالقسطاس، وعدم غمط الناس حقوقهم، وعدم الفساد في الأرض، فالأسلوب مغاير تماماً لما جاء في سورة الأعراف، بل ليس الأسلوب وحده، وانما كثير من الجزئيات كذلك، هذا من حيث قوله - عليه السلام -، أما من حيث قولهم له فالأمر فيه أظهر، فلقد أجابوه بهذا الأسلوب الذي فيه أداة القصر كما يقول علماء البلاغة، وبهذه الأداة التي تدل على البدهية، كأنما الأمر مفروغ منه وهي (إنما) إنما أنت من أولئك الذين أصابتهم لوثة في عقولهم بسبب السحر، هذا أولا.

وأما **ثانياً** فبأسلوب آخر من أساليب القصر، اختلفت فيه الأداة عن الأول حيث جاءت الأداة هنا أداة النفي وأداة الحصر. موسطاً بين الأسلوبين بحرف العطف ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾، وإنهم ليظنونه من الكاذبين أما إن كان صادقاً فليسقط عليهم قطعاً من العذاب من السماء، ولا يجيبهم - عليه السلام - إلا بهذه الكلمة ﴿ربي أعلم بما تعملون﴾ فهو سبحانه يعلم عملهم، وهو الذي يعلم مايناسبهم من العذاب كذلك، ويصرون على تكذيبه؛ فيرسل الله عليهم سحابة ظنوا أنها ستظلهم من شدة الحر، ولكنها كان فيها العذاب، وهو بحق عذاب يوم عظيم، وفي ذلك آية تدعو إلى الإيمان، وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربنا تبارك وتعالى عزيز لايهمل ظالماً، ورحيم يمهلهم لعلهم يرجعون.

تلك قصة شعيب في سورة الشعراء. فقل لي هل ترى فيها شائبة تكرار؟؟ أم أنك تجد لكل واحدة لونها في لوحتها البديعة، كما تجد أن لكل واحدة منها على

أذنك، وعلى قلبك قرعاً في صنعتها الرفيعة مع جزئيات، ومواقف، ومشاهد يتلاءم موضوعها مع موضوع السورة، ويعلم الله ان الذي يتوهم التكرار ليس الا كمن يتوهم الماء في سراب بقيعة.

وهذه آيات سورة الشعراء:-

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾

٣- أما سورة هود التي يقول في شأنها الرسول ﷺ: «شيبتني هود»(١)، فلن

(١) أخرجه الترمذي / سنن الترمذي أبواب تفسير القرآن، من سورة الواقعة، حديث رقم ٣٢٩٣ جـ٩ ص٣٦، الحديث: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت» قال أبو عيسى هذا حديث غريب لانعرفه من حديث ابن عباس الا من هذا الوجه.

نتعجل فيها الحكم الا بعد أن نشنف الآذان ونشرف اللسان بما جاء في قصة شعيب من احداث، وما يمكن أن يستنتج منها من أهداف.

بدأت السورة الكريمة الحديث عن شعيب بعد الحديث عن نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط عليهم السلام، وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً صلوات الله وسلامه. ومن نافلة القول أن نذكر ان القصة تبدأ بأمر شعيب قومه بالتوحيد، ثم ينهاهم بأسلوب موجز عما اشتهروا به من خصال سيئة، وهو نقص المكيال والميزان، فلا حاجة لهم في ذلك كله، وقد من الله عليهم بهذا الخير، وهو يخاف عليهم عذاباً محيطاً، يحيط بهم من كل جانب، ويطوقون به من كل جهة، فحري بهم إذاً أن يوفوا المكيال والميزان، وأن لايبخسوا الناس ماعندهم، وان لايعثوا إفساداً في الأرض، ثم يلفتهم إلى قضية مهمة، وهي أن مابقاه الله لهم من حلال، وما اكرمهم به من رزق طيب، هو خير لهم ويقسم هذا الخير حينما يجمعون بين هذه البقية وبين الإيمان، إنه خير الدنيا وخير الآخرة، ولكننا نجد أقوالهم في سورة هود فيها من الشدة والعنف والتهكم، مالا نجده في سورة أخرى، فما الذي قالوه ياترى؟ لقد اقتصر قولهم في سورة الأعراف على أن خيَّروه بين أن يخرجوه من بلده؛ فيجردوه من الجنسية ويحرموه من جواز السفر!!، أو أن يصير في ملتهم هو وقومه.

أما في سورة الشعراء فلقد اقتصر قولهم على «أنه من المسحرين، وأنه بشر مثلهم، وليأتهم بالعذاب إن كان من الصادقين» لكننا نرى هنا نمطاً آخر، فهم أولا وقد عرفوه - عليه السلام - كثير العبادة فهم يخاطبونه منكرين مستهزءين :- عجباً لك أصلواتك وعبادتك هي التي سوَّلت لك، وخوَّلتك أن تأمرنا بهذه الأوامر التي من شأنها أن تأتي على كل مانعتز به، وإن أعز شيء لدينا أن نستمر على عقائد آبائنا أولاً، وأن نتمسك بما نشأنا عليه من عادات وتكون لنا حرية التصرف في أموالنا ثانياً. أفهذه نتيجة صلواتك؟ التي حملتك على أن تأمرنا أن نترك عبادة الآباء، ونترك التصرف في أموالنا كما نشاء، ثم يزيدونه تهكمًا بوصفهم له بالحلم والرشد، آلحلم الذي جعلك تأمرنا بالعبادة، والرشد الذي دعاك أن تطلب منا أن نحسن التصرف بالأموال ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾؟ وهذا الأسلوب ليس غريباً على الرسل أن يستمعوه، ومن ثم فليس غريباً على ورثتهم من الدعاة

كذلك، ولقد مر معنا من قبل ماقاله قوم لوط لنبيهم، وسيمر معنا - إن شاء الله - ماسيقال من أقوام آخرين؛ بل إن واقعنا مليء بهذه الأساليب. ويجيبهم - عليه السلام - بما يدل على حلمه ورشده: ياقوم، أخبروني إن كان الله قد أكرمني بالبينة والنبوة، فوجب عليَّ شكره وعبادته، ورزقني من لدنه رزقاً حلالاً حسناً طيباً، أفأضرب عن تذكيركم صفحاً؟ أءترككم في غوايتكم تعمهون؟ وأنا حينما أنهاكم عن الإعتداء على حقوق الناس فلن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه، أي لا أنهاكم عن شيء، لأكون له من الفاعلين، بل أنا اكثر تجنباً لما أنهاكم عنه، فما أريد إلا الإصلاح قدر طاقتي واستطاعتي مستمداً التوفيق من الله، فعليه وحده أتوكل، وإليه وحده أنيب وأرجع، وياقوم لايحملنكم بغضي ومخالفتي على أن يصيبكم ماأصاب الأمم قوم نوح وهود وصالح وماقوم لوط منكم ببعيد لامن حيث المكان ولا من حيث الزمان، ورغم تهكمكم فإني آمركم أن تستغفروا ربكم من ذنوبكم، ثم تتوبوا إليه؛ فربي رحيم ودود كثير الرحمة، عظيم الودِّ لعباده إن أحسنوا التوبة...

ورغم هذا التلطف، ورغم هذه المراجعة الحسنة الطيبة، إلا أنهم يمعنون في الغي ويزدادون عتواً. فماذا يقولون: لقد كانوا أولا متهكمين ساخرين فماذا يقولون ثانياً: انهم الآن متهددون متوعدون. قالوا له: ياشعيب لسنا نفقه كثيراً مما تقول وانت ضعيف لايخفى ضعفك علينا وكان حري بنا أن نرجمك وما جزاؤك إلا أن نرجمك، ولكننا امتنعنا عن رجمك من أجل قرابتك، وهم قلة في العدد لايتجاوزون عشرة رجال، لكنهم على ملتنا؛ من أجل ذلك يعزون علينا، أما أنت فلن نعزك، ولن نجلك كما تعلم. ولم يكن - عليه السلام - أقل حلمًا ورشداً بعد الوعيد والتهديد منه بعد التهكم والاستهزاء، ولكنه هذه المرة وقد أدرك أن لاسبيل لهدايتهم، يقول منكراً عليهم قولهم، مستنكراً فظاظتهم: أرهطي الذين امتنعتم عن رجمي من أجلهم أعز عليكم من الله الذي أكرمني بالنبوة وقد نبذتم أوامره، وتركتم شرعه وراء ظهوركم، إنه ربي محيط بكل أعمالكم، وإذا كان نصحي لاينفعكم فلتعملوا على مكانتكم، وإني عامل، وسوف تعلمون من سيصيبه العذاب ومن هو كاذب، وانتظروا فإني معكم من المنتظرين.

ويجيء أمر الله، وينجي شعيباً والذين آمنوا معه، وتأخذ الذين ظلموا

الصيحة؛ فيصبحوا جاثمين على ركبهم خامدين، كأن لم يقيموا فيها بالأمس فهلاكاً لمدين، كما هلكت ثمود من قبل، فكل من الأمتين أخذ بالصيحة.

هذه قصة شعيب في سورة هود - عليهما السلام -، وأخالني لست بحاجة لأذكر ما اختصت به كل سورة من السور الثلاث: الأعراف، والشعراء، وهود، من حيث الأسلوب، ومن حيث الموضوعات. ماقاله شعيب، وماقيل له، ومن حيث نوع العذاب الذي اصيب به كل من اصحاب الأيكة وأصحاب مدين، ومن حيث النهاية التي ختمت بها كل قصة :-

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ(1) أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا(2) ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

٤- ثم تأتي **سورة العنكبوت** بعد ذلك، وهي آخر سورة تذكر فيها قصة شعيب، ولا أود أن أكرر هنا ماقلته عن سورة العنكبوت من قبل، وماقلته عن كل قصة في سورتها الأخيرة التي تذكر فيها. وقصة شعيب في سورة العنكبوت منسجمة تماماً مع القصص الآخر، فلقد جاءت القصة فيها مجملة موجزة يأمر شعيب قومه

---

(١) أي لا يكسبنكم شقاقي أن يصيبكم العذاب.

(٢) واتخذتموه وراءكم ظهريا: أي نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به.

فيها أن يعبدوا الله، ويرجو اليوم الآخر، وهو بهذا النص يذكر هنا لأول مرة، ولكنهم يكذبونه فتأخذهم الرجفة :ـ

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

وبهذا تنتهي قصة شعيب، وهي كما رأينا في سورها المتعددة ثرية بما تعرضه من جوانب، وبما يستنتج منها من اهداف، إلى جانب الروعة في التعبير والخصائص البيانية في اسلوب كل قصة، كل ذلك بعيداً عن شبهة التكرار، وشائبة الإطناب ولله در التنزيل، وهو حسبنا، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم.

ثانياً: تعقيب على قصة شعيب - عليه السلام

هذه قصة شعيب. ونلمح من الآيات الكريمة ماكان عليه شعيب - عليه السلام - من مهارة في القول، وحكمة في الدعوة، وحسن مراجعة لما يريد تقريره من أمور والقضية التي كان يعالجها في قومه مع قضية التوحيد من اكثر القضايا عسراً وصعوبة؛ إنها قضية المال الذي طبعت النفوس على حبه. لذلك نجد أن هذه القضية قد أخذت مساحة غير قليلة من دعوته؛ ومن هنا اشتد انكارهم عليه، ونيلهم منه فهم لايفقهون مايقول، كيف وقد أراد أن يقيدهم في التصرف بهذه الأموال حسب قواعد رشيدة، ومباديء سديدة؛ لذلك لم يحل بينهم وبين رجمه -في زعمهم- إلاَّ رهطه وجماعته.

والحق أن قضية المال من أشق وأشد القضايا التي تحتاج معالجتها إلى حكمة ولطف؛ لذا إن لم تكن النفوس قد أضاءت جوانبها العقيدة الحقة، فمن الصعب بل من المحال أن تكون هناك استجابة لأصوات المصلحين مهما ارتفعت. وقد

تحدثنا من قبل عن مساويء أهل مدين والأيكة، ونود أن نزيد هنا أن أصحاب الباطل يعز عليهم أن يجدوا من يجادلهم في باطلهم. وكذلك كان قوم شعيب؛ لذلك عملوا جاهدين على أن يردوا شعيباً، ومن آمن معه إلى ملتهم تارة بالوعيد ﴿لنخرجنك ياشعيب، والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودن في ملتنا﴾، وتارة بالإغراء: ﴿لأن اتبعتم شعيباً إنكم إذن لخاسرون﴾، ستخسرون الكثير من مال، وجاه، ومنصب، وعز وفخر. ولكنَّ شعيباً - عليه السلام -، وامام هذه الوسائل المختلفة يحث من آمن معه على الصبر حتى يحكم الله بين الفريقين، ويحكم الله بينهم، وينجي شعيباً والذين آمنوا معه.

وإذا كان من لبنة يضيفها شعيب للبناء المحكم فإنها تتمثل في هذا الصبر والثبات، كما تتمثل في قضية أخرى، وهي قضية مهمة، تلكم هي محاربة هذا الجشع الذي يسيطر على النفوس لتستولي على الأموال بأي طريقة من غير تفريق بين الحق والباطل، وما يحل ومايحرم، وقضية ثالثة، وهي عدم الاكتراث بهذه النظرة الاجتماعية التي ينظرها أهل الباطل لأهل الحق، وقوم شعيب كانوا يرونه فيهم ضعيفاً لايستحق أن يعزوه ويجلُّوه، ولكنه - عليه السلام - صبر وصابر، وثبت على أمر ربه إلى أن أخذتهم الصيحة، وذلك جزاء المعرضين المكذبين.

المبحث الثامن

قصة موسى - عليه السلام

الإشارات المبكرة التي ذكرت قصة موسى - عليه السلام

الجوانب المتعددة في قصة موسى - عليه السلام

أولاً : خبره مع فرعون .

١- سورة الأعراف .
٢- سورة الفرقان .
٣- سورة طه .
٤- سورة الشعراء .

فروق بين سورة الأعراف وطه والشعراء من حيث الأسلوب .

٥- سورة النمل .
٦- سورة القصص .
٧- سورة الإسراء .
٨- سورة يونس .
٩- سورة هود .
١٠- سورة غافر .
١١- سورة الزخرف .
١٢- سورة الدخان .
١٣- سورة الذاريات .
١٤- سورة المؤمنون .
١٥- سورة الحاقة .
١٦- سورة النازعات .
١٧- سورة العنكبوت .

ثانيا: خبره مع بني إسرائيل في السور المكية.

١- سورة الأعراف.
٢- سورة طه.
٣- سورة إبراهيم.

ثالثاً: مبدأ الرسالة.

١- سورة طه.
٢- سورة النمل.
٣- سورة القصص.

فروق بين السور الثلاث في بعض القضايا.

رابعاً: جانب من مولده ونشأته.

سورة القصص.

خامساً: جانب المنن الإلهية.

١- سورة الصافات.
٢- سورة الأنبياء.

سادساً: مع العبد الصالح.

حديث السور المكية عن خبره - عليه السلام - مع بني إسرائيل.

١- سورة البقرة.
٢- سورة الصف.
٣- سورة المائدة.

الحكمة من كون قصة الأرض المقدسة هي آخر الحلقات في قصة موسى - عليه السلام -

تعقيب على قصة موسى - عليه السلام.

قصة موسى عليه السلام

الاشارات المبكرة التي ذكرت في قصة موسى عليه السلام

ليس غريباً أن يكون الحديث عن سيدنا موسى - عليه السلام - في كتاب الله تعالى اكثر من غيره من الأنبياء - عليهم السلام -، فهو من أولي العزم، ذو شريعة مستقلة.

ومع أن عيسى - عليه السلام - من أولي العزم إلا أن شريعته ليست كذلك؛ ولذلك نقرأ في القرآن عن القرآن ﴿وَمِنْ قَبْلِه كتابُ موسى إماماً ورحمةً﴾، مع أن الذي كان قبله مباشرة كتاب عيسى؛ ولكن لما كانت رسالة عيسى - عليه السلام - مكملة للرسالة الموسوية، فهي فرع عنها، كان الذي يذكر قبل القرآن الكريم كتاب موسى؛ لأنه هو الذي يشبهه من حيث الأصل والاستقلال، وليس غريباً أن يكون موسى - عليه السلام - اكثر ذكراً من غيره كذلك؛ لأنه أرسل إلى فئتين كانت كل منهما إلى جانب من العناد والقسوة والكفر: فئة ممعنة في التكبر والطغيان (فرعون وملؤه)؛ وأخرى استمرأت الذلة والتبعية والاستضعاف (بنو إسرائيل).

وليس غريباً أن يكون أكثر من غيره ذكراً كذلك؛ ذلك لأن الذين أرسل إليهم كان لبعضهم آثاره الباقية الدالة على قوتهم، وبطشهم، وهم الفراعنة. أما بعضهم الآخر، وهم بنو إسرائيل فإنَّ لهم شؤوناً مع المسلمين أصحاب القرآن منذ فجر الرسالة المحمدية على صاحبها صلاة الله وسلامه إلى يومنا هذا. والله وحده يعلم إلى أيِّ مدىً سيستمر هذا الصراع، وتدوم تلك الشؤون، ونرجو أن يكون ذلك الأمد قريباً الذي تكتشف هذه الأمة فيه عناصر قوتها الكامنة في هذه الرسالة: كتاباً، وسنة، وتاريخاً، وتراثاً.

وليس غريباً أن يكون موسى أكثر ذكراً من غيره في كتاب الله كذلك، ذلك

لأن الحديث عنه لم يكن من زاوية واحدة، كما هو شأن اكثر الأنبياء - عليهم السلام -، وإنَّما تعددت الزوايا، وكثرت الجوانب التي عرضت للحديث عنه - عليه السلام -؛ وذلك لما في كل منها من عظات ودروس حريٌّ بها أن تتناول وتُدرس، فبعض الجوانب حدثتنا عن رسالته - عليه السلام - إلى فرعون، وبعضها حدثتنا عن رسالته إلى فرعون، وبني إسرائيل.

وفي جانب ثالث اكتفي في الحديث عن شأنه مع بني إسرائيل. وجانب رابع رأينا الحديث فيه عن ميلاده، وطفولته، وشبيبته، وماحدث له في هذه الأثناء، وعن مبدأ رسالته ونبوته، وجانب خامس حدثنا عن هذا الأخير فحسب أعني مبدأ الرسالة. وأخيراً كانت هناك أحداث خاصة في حياته - عليه السلام -.

هذه جوانب ستة في حياة موسى حدثنا عنها كتاب الله تعالى. ومن هنا رأينا أن الحديث عنه لايقتصر على السور المكية كما هو شأن الحديث عن كثير من الأنبياء، وإنما وجدناه في السور المدنية بل ربما في آخر هذه السور نزولاً، كما سنتبين ذلك فيما بعد -إن شاء الله-.

ومهما يكن من أمر فلقد كانت هناك اشارات مبكرة كما مر معنا لكثير من الأنبياء، فلم يكن خبر اليهود غريباً عن العرب، وبينهم جوار ومعاملات، وهذه الاشارات كان بعضها يذكره باسمه - عليه السلام -، وبعضها الآخر يعرض إلى فرعون وقومه.

وأول هذه الإشارات تأتي في سورة المزمل في قوله تعالى: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ (الآيات ١٥، ١٦) وهي تهديد لأهل مكة وإيناس للنبي - عليه وعلى آله الصلاة والسلام -، والقلة المؤمنة معه.

أما سورة الأعلى فذكر فيها قوله سبحانه: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صُحف إبراهيم وموسى﴾ (الآيات ١٨، ١٩).

ثم جاءت **سورة الفجر** تؤنس المسلمين وتتوعد قريشاً بالأمم المهلكة، وتذكر أمماً ثلاثاً: عاد وثمود، وقد تبين لنا من قبل ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾. وهذا

الوصف متفق مع وصف عاد وثمود في السورة الكريمة، فقد وصفت إرم بأنهم ذات عماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، ووصفت ثمود بأنهم الذين جابوا الصخر بالواد، أما فرعون فهم ذو الأوتاد وسواء كانت الأوتاد قد أريد بها الجنود والأعوان، وركائز القوة، أم أريد بها الأهرامات كما يرى بعضهم، فإن الغاية بيان قوتهم، وماكانوا عليه من تمكين في الأرض.

وكذلك سورة (ق) حينما ذكرت المكذبين قبل قريش، بينت أن من جملتهم قوم فرعون ﴿كذبت قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾ (الآيات ١٢، ١٣).

أما سورة القمر فربما كانت الإشارة فيها زائدة على ماتقدم حيث بينت أن آل فرعون جاءتهم النذر، وأعطوا الآيات الكثيرة، ولكنهم كذبوا بها جميعاً؛ فاستحقوا إخذة قوية. قال تعالى ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ (الآيات ٤١، ٤٢) وهذا متسق مع موضوع السورة كما قلنا من قبل، فقد ذكر في أولها عن أهل مكة قوله سبحانه: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر﴾.

أما سورة (ص) فقد ذكرت فيها اشارة كما ذكرت في سورة (ق)، ولايظنن ظان أن هاتين الاشارتين شيء واحد، ففي سورة (ق) ذكرت كلمة فرعون فحسب، أما سورة (ص) فقد ذكر فيها قوله سبحانه: ﴿وعاد وفرعون ذو الأوتاد﴾.

ومهما يكن من أمر فإن سورة الأعراف إحدى السبع الطوال كانت أول السور الكريمة تفصيلاً لخبر موسى مع فرعون، ومع بني إسرائيل كذلك، ولعلها أكثر السور تفصيلاً كذلك، ونعجب من بعض الكتاب قدامى ومحدثين الذين ذهبوا إلى أن سورة الأعراف مبنية على الاختصار، وسورة الشعراء مثلاً مبنية على البسط، والذي أوقعهم في هذا -فيما يظهر لي- تفسيرهم لبعض الكلمات، وبعض المواقف التي خصت بها سورة دون أخرى، وهذا يرجع إلى ماقررته من قبل، وهو عدم النظر إلى مانزل أولاً، ومانزل آخراً؛ لذلك كان للطريقة الموضوعية التي نسلكها الفضل في عدم الوقوع في مثل هذه الأوهام.

الجوانب المتعددة في قصة موسى عليه السلام

ونرى قبل أن نفصل الحديث تتميمًا للفائدة ان نجمل هنا السور التي تحدثت عن موسى - عليه السلام -، والجوانب التي اختصت بها كل سورة حتى يسهل علينا، وعلى القراء الإفادة من هذه القصة المتعددة الجوانب، ومن الله التيسير والتسهيل:

(١) الأعراف: عرضت لجانبين: موسى مع فرعون، وموسى مع بني إسرائيل.
(٢) طه: ذكرت فيها جوانب ثلاثة: مبدأ الرسالة، وفرعون، وبنو إسرائيل.
(٣) الشعراء: ذكر فيها جانب واحد وهو خبر فرعون.
(٤) النمل: ذكر فيها جانب واحد وهو الرسالة.
(٥) القصص: ذكر فيها ثلاثة جوانب: الميلاد، والرسالة، وفرعون.
(٦) يونس: خبر فرعون.
(٧) الصافات: تكريم وامتنان.
(٨) غافر: نبأ فرعون.
(٩) الزخرف: نبأ فرعون..
(١٠) الدخان: نبأ فرعون.
(١١) الكهف: جانب خاص مع العبد الصالح.
(١٢) ابراهيم: بنو إسرائيل.
(١٣) النازعات: نبأ فرعون.
(١٤) البقرة: أنباء مع بني إسرائيل.
(١٥) المائدة: مع بني إسرائيل.

وقد نجد في هذه الجوانب اشارات عن جانب آخر؛ لإنها ليست مفصلة، وهذا ماجعلنا نخصها في جانب دون آخر، وسيظهر ذلك جلياً -إن شاء الله-.

من هذا الإجمال ندرك أن قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ذكرت في السور التالية: الأعراف، وطه، والشعراء، والقصص، ويونس، وغافر، والزخرف، والدخان، والنازعات.

أمـا خبر موسى مع بني إسرائيل ففي السور: الأعراف، وطه، وابراهيم، والبقرة، والمائدة.

أما الميلاد ومايتصل به فذكر في سورة واحدة وهي القصص. أما مبدأ الرسالة فذكر في: طه، والنمل، والقصص.

أما سورة الكهف فقد انفردت بقصة خاصة، وهي نبأه مع العبد الصالح.
وسيكون كلامنا عن هذه الجوانب كالتالي:-

١- خبره مع فرعون.
٢- خبره مع بني إسرائيل.
٣- مبدأ الرسالة.
٤- مولده ونشأته.
٥- جانب المنن الإلهية.
٦- مع العبد الصالح.

أولا: خبره مع فرعون:-

وسنبدأ الحديث الأول عن خبره - عليه السلام - مع فرعون عليه اللعنة. وسـورة الأعـراف -كما قلنا- هي السورة الأولى التي فسرت ذلك النبأ في نيف وثلاثين آية، ابتـداءً من قوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ (آية ١٠٣) إلى قوله سبحانه: ﴿فـانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ (اية ١٣٦) وهي آيات متوسطة من حيث الطول.

فبعد قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب - عليهم السلام -، يبين الله تبارك وتعالى أنه بعث من بعد أولئك الرسل موسى[1] مؤيداً بالآيات البينات

---

(١) نلحظ أن الأسلوب الذي جاءت به قصة موسى يختلف عن القصص السابق فأولا جاءت القصص السابقة «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه»، «وإلى عاد أخاهم هوداً»، «وإلى ثمود أخاهم صالحاً»، «ولوطاً إذ قال لقومه»، «وإلى مدين أخاهم شعيباً» أما هنا «ثم بعثنا». فالفرق من جهتين:- =

إلى فرعون وملئه، ولكن إفسادهم في الأرض حال بينهم والإيمان ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ وماالحق بهم من دمار وإهلاك، وبعد هذا الإجمال يحلو التفصيل ويجمل. ويأتي التفصيل مبتدئاً بالواو «وقال موسى يافرعون»، وهذا يختلف عن الاسلوب في القصص السابقة، لأن هذه الآية الكريمة وحدها، أجملت قصة موسى مع فرعون، فالقاريء يمكنه أن يستخلص النتائج من هذه الآية الكريمة.

ويبدأ موسى تبليغ الرسالة تبليغاً مباشراً لفرعون، فينبؤه أنه رسول رب العالمين ويعتز موسى بهذا الحق فحقيق عليه أن لا يقول غيره. وان لم يقل موسى الحق فمن للحق أن يقوله «حقيق[1] علي أن لا أقول على الله إلا الحق» وهي من النظم البديع الذي لا يكون إلا في هذا الكتاب المعجز، ثم يبين له أنه قد جاء بمعجزةمن ربه بينة ظاهرة، فليخل فرعون بينه وبين قومه من بني إسرائيل.

ولكن فرعون يقول بلهجة الشَّاك المرتاب في مجيء البينة، والمتشكك المرتاب في صدق موسى، كذلك يدلنا على هذا الشك كلمة إنْ التي ذكرت مرتين في آية واحدة ﴿إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾، وجاء موسى بالآيات من غير بطء، ولا تهيب، وكانت هذه الآية تتمثل بالعصا ألقاها، وإذ بها تتحول إلى ثعبان مبين، كما كانت تتمثل باليد كذلك نزعها فإذا هي بيضاء، ذات شعاع لايراها فرعون وحده، وإنما كل من شاهد معه هذه الآية، فماذا كان بعد أن أظهر موسى الآيات. يحدثنا القرآن الكريم عما كان بعد ذلك، قال الملأ من قوم فرعون: «إن هذا لساحر عليم كل مايبغيه ويقصده أن يخرجكم من أرضكم فماذا ترون؟ وما الذي تشيرون به؟ هذا مايقوله بعضهم لبعض، ويجمعون على رأي واحد، وهو أن يطلبوا من فرعون أن يؤخره وأخاه، ويرسل في البلاد جامعين كي

= أولاً: ثم الدالة على التراخي وقد يكون تراخياً زمنياً لأن موسى متأخر عنهم وقد يكون تراخياً في الرتبة فهو ترتيب تصاعدي، لأن رسالة موسى كانت لفئتين.

ثانياً: ذكر كلمة البعث دون الرسالة فهي تدل على أكثر مما تدل عليه كلمة ارسال؛ لأنه (أي البعث) انما يكون في الأمور المهمة. والمتأمل لورود هذه الكلمة في القرآن يدرك، ذلك ويكفي إطلاقها على بعثة النبي عليه وآله والصلاة والسلام.

(١) حقيق: أي حريص على أن لا أقول على الله غير الحق.

يأتوا له بذوي الخبرة والمهرة من السحرة ويجيء السحرة. والقرآن المبني على الإيجاز يطوي كثيراً من الجمل للعلم بها يجيء السحرة فرعون» وأول مايبدؤنه به من القول هو مايريدونه من أجرٍ مجزٍ إن كانت لهم الغلبة ويعدهم فرعون بالأجر، وبشيء آخر، وهو أنهم سيكونون من المقربين عنده، وبعد هذا الوعد يُخاطب السحرة موسى «إما أن تلقي». والقرآن الكريم يبين لنا ثقتهم بأنفسهم واعتزازهم، وتأكدهم بأنهم هم الأعلون. هذا الذي يجول في خواطرهم ينطق به النظم القرآني حيث لم يقولوا: إما تلقي، وإما أن نلقي، ولكنهم قالوا: «إما أن نكون نحن الملقين». وهذا ليس من أجل الفاصلة كما يظن، وإنما يدلنا على أن القوم كانوا يرون أنفسهم أحقاء بالإلقاء قبل موسى فهم كثرة، وهو واحد، وهم أشد منه مراساً، وأعلم بهذه الحرفة.

ويقول موسى: ألقوا فما كان منهم حين ألقوا إلا أن سحروا أعين النَّاس، وأرهبوهم رهبة مروعة، وجاؤوا بسحر عظيم في نوعه وكثرته، وأوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى: «أن ألق عصاك» فإذا هي تلقف كل هذا الإفك الذي جاؤوا به، فوقع الحق، وبطل هذا الذي عملوه من السحر، إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر، فغلب القوم، ورجعوا أذلاء صاغرين. وهنا يكون الانقلاب وإذ بالسحرة الذين ألقوا ماألقوا يُلْقون جباههم ساجدين، معلنين إيمانهم لرب العالمين.

ويشتط فرعون غضباً «آمنتم به قبل أن آذن لكم»، إن هذه خديعة منكم إنه مكر دبرتموه في هذه المدينة من أجل أن تخرجوا منها أهلها، ولكن ذلك لن يتم لكم، ولسوف تعلمون ماسيحل بكم، لأقطعن أيديكم، وأرجلكم من خلاف، ولأدعنكم تعذبون بعد هذا القطع قبل أن تأتي نهايتكم، ثم تأتي هذه النهاية فلأصلبنكم أجمعين؛ ولكن السحرة يعلنون لفرعون أنهم إلى ربهم وحده راجعون منقلبون، وحينما تشتد عاطفة الإيمان في النفس لايقف في طريقها أي تيار مهما كان عاتياً، ثم يقَنِّطون فرعون من أنه لن يستطيع أن ينال منهم فهو ماينقم منهم، إلا أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم ويضرعون إلى الله تبارك وتعالى أن يفرغ عليهم صبراً، وأن يثبتهم على الحق، فيتوفاهم مسلمين، ويعود الحديث عن الملأ من قوم فرعون الذين قالوا من قبل: إن هذا لساحر عليم.

ونلحظ أن سورة الأعراف ركزت كثيراً -كما قلنا من قبل- على قضية الأتباع . فالملأ هم الذين أوغروا صدر فرعون أكثر مما فيه حينما قالوا : ﴿إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ وهاهم بعد أن بطل مادبَّروه، وانقلب الأمر وبالاً عليهم يعودون مرة ثانية لإيغار صدر فرعون، فماذا بعد ماحدث «أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك[1] وآلهتك»، أتمكنه من أن يفسد في الأرض هو وقومه ويخرجوا عن طاعتك، فيتركوك، ويتركوا آلهتك، ولكن فرعون لايخيب أولئك بل يجيبهم وقد فهم ماأرادوه، فيقول لهم : لا . لن نمكنهم من ذلك كله، ولا من بعضه سنعاقبهم بكل شدة نقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم، وستكون لنا الغلبة، والقهر عليهم، فماذا كان من شأن موسى - عليه السلام -؟

كان من شأنه ماحدثنا عنه القرآن بعد أن سمع قومه ماسمعوه. قال لهم موسى : استعينوا بالله واصبروا فالاستعانة بالله تمد الإنسان بطاقاتٍ من الصبر. ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، ولكن قومه لايجيبونه بما طلب، وانما يكررون الشكوى، فلقد أُوذوا من قبل أن يرسله الله إلى فرعون، لقد استعبدهم فرعون استعباداً تاماً، وأُوذوا كذلك من بعد رسالته، ويكرر موسى ارشاده لقومه، ويطمئنهم «عسى ربكم أن يهلك عدوكم، ويستخلفكم في الأرض، فينظر كيف تعملون»، أتشكرون فتدوم لكم النعم، أم تكفرون فتعاقبون وتهلكون .

وبعد هذه المحاورة بين موسى - عليه السلام - وبين قومه يعود الحديث إلى آل فرعون، فيقص الله تبارك وتعالى علينا نبأهم، وهو أنه قد اخذهم بالشدة والقحط، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون هذه الآيات، فيرتدعون عن الغي، ويرجعون عن الكفر، ولكنهم لايزالون مصرين على وصف موسى بالسحر يقولون له : أي شيء، وأي آية تأتينا بها لتسحرنا فلن نؤمن بك أبداً، ويرسل الله عليهم أنواعاً من العذاب : الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم آيات مفصلات كل لها مهمتها وعملها، ولكن القوم يستكبرون مصرين على جرائمهم وحينما يلم بهم العذاب ويحيط بهم، يهرعون لموسى - عليه السلام - طالبين منه

(١) يذر: يترك الشيء بدون اهتمام.

أن يدعو لهم ربه بما له من عهد عنده لئن كشف عنهم العذاب ليؤمنن أولا، وليرسلن بني إسرائيل[1] ثانياً. فلما كشف عنهم العذاب فاجئوا بالنكث والكذب، فانتقم الله منهم، فأغرقهم في اليم، وهي نتيجة حتمية لمن كذب بآيات الله.

هذه قصة موسى في سورة الأعراف، أو هذا هو الجانب الذي يتحدث عن ارساله لفرعون، وبقي الجانب الآخر نأتي له فيما بعد -إن شاء الله- وكي نصدر حكمًا على مانحن بصدده من قضية التكرار، فلا بد أن نلم بالآيات التي حدثتنا عن فرعون في سورها المتعددة قال تعالى :-

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

(١) أي سيمنحونهم شيئاً من الحرية ليؤمنوا بموسى ويخرجوا معه ان شاؤوا ذلك.

لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ
أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا
يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ
فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾
قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ
﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ
نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ
ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا
مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ

أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

(٢) وبعد سورة الأعراف جاءت سورة الفرقان، ولكن ماذكر فيها عن قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون جاء في معرض رد شبهات الكافرين! فكان اشارة موجزة وهي قول الله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً﴾.

والحق: أن سورة الفرقان - ولها من اسمها نصيب - جاءت لعلاج الشبهات التي أثارها المشركون على القرآن، والنبي الذي جاء بها، لذلك كان ماذكر فيها من قصص الأنبياء اشارات تتلاءم مع هذا الموضوع[1].

• (٣) ثم تجيء سورة طه بعد ذلك، والذي يهمنامن سورة طه جانب الارسال إلى فرعون؛ لأننا آثرنا أن نتحدث عن كل جانب من جوانب حياة سيدنا موسى - عليه السلام - على حدة، وهذه هي الطريقة المثلى كما نظنها، والله أعلم.

تبدأ هذه الآيات الكريمة بعد الحديث عن الرسالة بقوله سبحانه: ﴿اذهب إلى فرعون إنَّه طغى﴾[2]، والحق أن اللون الذي سنجده في سورة طه مغايراً لذلك الذي مر معنا في سورة الأعراف، وإليكم بيان ذلك:

يسأل موسى ربَّه أموراً يتقوى بها على الذهاب إلى فرعون، فهو يسأله أن يشرح له صدره، وييسر أمره، ويحلَّ عقدة من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وبعد هذه الثلاث الخاصة به - عليه السلام - يسأله أن يجعل له وزيراً من أهله، وعلى الخصوص هارون أخاه؛ ليشد به أزره؛ ويشركه في أمره كي يتقوى كل بالآخر على ذكر الله: تسبيحاً، وذكراً، والله بصير بهم، مطلع على مافي قلوبهم. ويمن الله على موسى - عليه السلام - بأنه قد استجاب له، وأعطاه سُؤله، ثم يمتنُّ الأمر عليه سبحانه فليست هذه المرة التي أجيب سؤلك فيها، وأمنُّ عليك فلقد مننت عليك مرة أخرى قبل هذه المرة، وذلك فيما مضى من الزمن حينما أوحيت لأمك ماأوحيت من هذا الأمر العظيم العجيب، أن اقذفيه في التابوت، فاقذفيه في اليم، فليلقه اليم بالساحل؛ ليأخذه عدو لي وعدوٌّ له، ويمنن عليه بعد ذلك بأنه ألقى عليه محبة منه، ومعنى ذلك أنه أحبه سبحانه حباً عظيمًا، وجعله محبوباً لكل من يراه من ذوي القلوب السليمة، ثم أخبره عن عنايته، ورعايته به، وخفظه له في قوله: ﴿ولتصنع على عيني﴾، وامتَنَّ عليه بعد ذلك بما كان من خبره يوم كان عند فرعون، ولم يقبل أن يرضع من أي امرأة فمشت أخته تدلهم على من يكفله ويرضعه، ورجعه سبحانه إلى أمه، ثم امتن عليه بأنه حينما قتل نفساً نجاه من

---

(١) انظر كتابنا في الإعجاز.

(٢) من آية ٢٤-٧٩.

الغم وفتنه فتوناً، وابتلاه بأنواع كثيرة من الابتلاء، ولبث سنين في أهل مدين، ثم جاء على قدر، واصطنعه لنفسه فأكرمه بالرسالة.

وبعد هذه المنن يأتي دور التكليف، فيأمره أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون من غير ما توانٍ ولا تأخر ولا غفلة عن ذكره، أو توانٍ في إبلاغ رسالته، ولئن أمره أولا أن يذهب إلى فرعون وحده، فإنه الآن يأمره أن يذهب هو وأخوه، ويعلمهما كيف يأتيانه بجانب اللين فلعل في هذا اللين مايدعوه إلى التذكر، ويدفعه إلى الخشية، ويقول موسى بلسانه ولسان هارون: بأنهما يخافان أن يفرط عليهما، أي أن يسبق إلى عقوبتهما، أو أن يطغى، ولكن الله يطمئنهما فلا ينبغي أن يخافا، وهو سبحانه معهما يسمع ويرى، ويعلمهما ماذا يقولان له حينما يأتيانه: إنَّا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم فيكفي ماذاقوه منك في هذه الدنيا فلا تعذبهم بالصد عن الإيمان؛ فتكون سبباً في عذابهم الدنيوي والأخروي وقد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى.

وبعد هذا التلطف يلمحان له بالقول بأنه قد أوحي إليهما: أن العذاب إنما يقع على المكذبين المتولين عن الحق، وبعد هذا العرض يقول فرعون: - فمن ربكما ياموسى، ويجيبان ممجديْن الله بآثار قدرته وحكمته: ـ ربُّنا الذي أعطى كل شيء فطرته التي تلائمه ثم هدى، فهو سبحانه الذي خلق فسوى، وقدر فهدى؛ ثم يسأل فرعون سؤالاً آخر عن الأمم الغابرة: ما شأنها وما حالها؟ فيجيب ـ عليه السلام ـ: بأن ذلك من أمور الغيب وعلمها عند ربه في كتاب لا يضيع صغيرة ولا كبيرة، لا يضل ربي ولا ينسى.

ثم يبين له نعم الله تبارك وتعالى في هذه الحياة، فهو الذي مهد الأرض لتصلح للحياة، وسلك لكم فيها طرقاً متعددة كثيرة، ثم أنزل من السماء ماءً بعد ذلك؛ فأخرج به أصنافاً من الثمرات، ومن هذا النبات لكم ولأنعامكم، وفي ذلك آيات لذوي العقول الحصيفة التي تنتهي بأصحابها إلى الخير، وتنهاهم عن السوء. ثم يذكرهم باليوم الآخر بعد هذه النعم، فالله الذي خلقهم من الأرض وسيعيدهم فيها تارة أخرى.

وإلى هنا نجد أن ما في سورة طه جديد من حيث الأسلوب، ومن حيث

الموضوع، ومن حيث الجزئيات والأحداث، وهو لعمر الحق علم مرتفع من أعلام الإعجاز لهذا الكتاب، ثم يقول الله بعد ذلك، وبعد الذي سمعه فرعون من هذا الإرشاد، ومن تلك البراهين ﴿ولقد اتيناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾ لذلك فهو يخاطب موسى ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك﴾ ويعده بسحر مثله فليضرب موعداً بينهم وبينه، موعداً لا يخلفه أحد منهم، ويحدد موسى[1] الموعد يوم الزينة، يوم أن يجمع الناس، وفي ضحوة ذلك اليوم يمكن أن يتم كل شيء، ويتولى فرعون، ويجمع كيده ثم يأتي. وهنا يعاود موسى التذكير والإرشاد: ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى، ويتنازعون أمرهم بينهم، ويتسارون متناجين: فما هـذان إلا ساحران، كل ما يريدانه أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهم، ويذهبا بطريقتكم المثلى فما لكم إلا أن تجمعوا كيدكم، ثم تأتوا صفاً، فهذا هو يومكم، يوم فلاح المستعلين، ولا شك أنكم أنتم الأعلون.

ويسأل السحرة موسى: إما أن تلقي، وإما أن نكون نحن أو أول من ألقى. ولعل هذا موقف متشابه مع ما في سورة الأعراف إلا أن هنا تصريحاً بهذه الأولية التي تحدثنا عنها هناك أخذاً من النظم، ويقول موسى: ﴿بل ألقوا﴾، وهذه الكلمة «بل» لم توجد في سورة الأعراف؛ فإذا حبالهم وهذه مادة سحرهم، تذكر هنا لأول مرة، وهذه الحبال والعصي حينما ألقيت فإذا هو يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فيضمر في نفسه شيئاً من الخوف، وهذا جديد كذلك في سورة طه، فيقول الله له: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾، بكل هذه المؤكدات، ويأمره أن يلقي ما في يمينه وهي العصا، كما عبر عنها في سورة الأعراف، تلقف ما صنعوا فالذي صنعوه كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى، ولعل الموقف المتشابه هو موقف إلقاء السحرة وجوهم سجداً لله بعد إلقاء عصيهم وحبالهم، وشتان بين الإلقاءين، ولكن مع ذلك التشابه فإن هناك ملامح وفروقاً تخص كل سورة ما يناسبها: هناك ﴿ساجدين﴾ أما هنا ﴿سجداً﴾، وشتان بين الوصفين، ثم هنا ﴿آمنا برب هارون وموسى﴾ [2] ويقول فرعون بعد ذلك: ﴿آمنتم له قبل أن آذن

---

(١) في هذا حسن تصرف ورجاحة عقل؛ لأنه اختار الوقت الذي يتجمع فيه الناس ليميزوا بين الحق والباطل.

(٢) انظر كتابنا في الإعجاز في الفرق بين ساجدين وسجّداً وفي بيان تقديم هارون على موسى.

لكم﴾، وفي سورة الأعراف ﴿آمنتم به﴾، ويقول هنا ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾، ولكنه في سورة الأعراف: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ وكان في سورة الأعـراف قد هددهم بأمـرين اثنـين، أمـا هنا فقد هددهم بأمور ثلاثة: الأمرين المتقدمين إلا انه هناك عطف الثاني على الأول ب«ثم» وهنا بالواو.

والذي يظهر لي أن سبب ذلك -والله أعلم- إنما هو مجيء الأمر الثالث هنا، فبعد مجيئه ليس هناك حاجة ل«ثم» الدالة على التراخي، وهو قوله ﴿ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾ وقد قال المؤمنون بعد تركهم السحر قالوا هناك ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أما هنا فيخاطبون فرعون بقولهم: ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا﴾ أي لن نفضلك على هذه البينات التي جاءتنا وعلى الذي فطرنا وخلقنا؛ لذا جعلنا الواو عاطفة، ويمكن أن تكون الواو للقسم، أي وفاطرنا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، فهو قسم بالله تبارك وتعالى.

ثم يقولون افعل ما تريد فعله، واقض ما تريد قضاءه فإن قضاءك وفعلك لا يتجاوز الحياة الدنيا التي لا يخلد فيها أحد، ونحن سنموت سواء كنت أنت السبب أم لم تكن، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا هذه الخطيئات، وهذا السحر الذي أكرهتنا عليه والله خير وأبقى، ثم يرشدون فرعون علّه يرعوي بأن الذي يأتي ربه مجرماً له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، كل ذلك جزاء للمتطهرين الذين زكوا نفوسهم.

وتختم قصة موسى بهذا المشهد، وهو أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى أن يسري بعباده فيضرب لهم طريقاً في البحر يبساً، لا يخاف أن يدركه فرعون ولا يخشى غرقاً، ولكن فرعون تبعهم بجنوده فغشيهم من اليم وغطاهم ما غشيهم. ما أعظمه من هول! وهكذا أضل فرعون قومه وما هدى.

تلك قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون في سورة طه. وما أظن أحداً يزعم أن هناك تكراراً، اللهم إلا تشابهاً في بعض الأجزاء الرئيسة، ومع ذلك فلكل جزء خاصيته، جدة في العرض بعيدة عن التعارض، وعرض فيه تشابه بعيد عن أي شبهة

ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ

وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟
وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ
فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى
﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ
وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟

كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾
قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟
كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا
فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾
وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا

فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

(ج) ثم جاءت سورة الشعـراء تحدثنـا عن نبـأ موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون؛ وإذا كانت سورة الأعراف قد ذكرت فيها قصة موسى بعد ذكر قصص كثير من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ. وإذا كانت سورة طه التي لم يذكر فيها سوى قصـة موسى، بدأ الحديث فيها عن ذكر الرسالة، وكيف تلقاها موسى ـ عليه السلام ـ، ثم جاء بعد ذلك خبر فرعون. إذا كان لكل من السورتين طراز جديد، فإن سورة الشعراء التي ذكر فيها قصص كثير من الأنبياء نجد قصة موسى ـ عليه السلام ـ كانت أول هذه القصص، والجانب الذي ذكر فيها هو ما يختص بفرعون.

بدأت القصة مباشرة بعد ذكر الكتاب المبين، وبعد الإشفاق على النبي ﷺ، مما يلاقيه من صعوبات نفسية؛ لعدم إيمان قومه ﴿لعلكَ باخعٌ نفسكَ ألا يكونوا مؤمنينَ﴾ وبعد إيناسه ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ. ﴿إن نشأ ننزلْ عليهم منَ السماءِ آيةً فظلتْ أعناقُهُم لها خاضعِينَ﴾، بعد بيان طبيعة الذين أرسل إليهم، وتكذيبهم بالحق، وتهديدهم بالعذاب، وتذكيرهم بنعم الله، وفي ذلك كله آية ﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهُم مؤمنينَ وإن ربَّكَ لهو العزيزُ الرحيمُ﴾، ولعل هذا معنى تكذيبهم بالحق، وتهديدهم بالعذاب، وتذكيرهم بنعم الله هو السبب الذي كانت فيه قصة موسى هي أول القصص في هذه السورة.

تبدأ الآيات بقوله تعالى: ﴿وإذْ نادى ربُّك موسى أن ائْتِ القومَ الظالمينَ﴾ فإذا قارنا هذه البداية بما سبقها وجدنا ذلك النظام المحكم، والأسلوب البديع.

ففي سورة الأعراف كان بعث موسى عليه السلام بالآيات إلى فرعون وملئه، وفي سورة الفرقان إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا، أما سورة طه فكان الإرسال فيها

إلى فرعون وحده، وأما هذه السورة التي معنا فكان الإتيان إلى القوم الظالمين قوم فرعون.

أرأيت هذا التنوع الحاذق الذي يدركه كل ذي ذوق وبصيرة، كيف اختصت كل سورة بل كل قصة بعنوان ومقدمة تكوّن منهجاً متعدد العبر، متنوع العظات؟ هـولاء القوم الظالمون هم قوم فرعون ألا يتقون.

ولأول مرة يحدثنا لقرآن الكريم عما كان يجول في خاطر موسى ـ عليه السلام ـ وما تتوقعه نفسه أن هناك أموراً أربعة يتوجس منها خيفة:

أولها: أنه يخاف أن يكذبوه، وثانيها: ما يعرض له من ضيق الصدر، وثالثها: ألا ينطلق لسانه، ولهذه الثلاثة رجا من ربه أن يرسل إلى هارون؛ ليكون نبياً مثله، فإن هارون يمكن أن يهون عليه هذه الأمور جميعاً. ولكنْ هناك أمر رابع ربما لا يهون من شأنها إرسال هارون؛ ولهذا أفردها على حدة وغاير بينها وبين سابقتها في الأسلوب، وهي أن لهم عليه ذنباً فيخاف أن يقتلوه، ويطمئنه الله تبارك وتعالى بقـولـه: كلا لن يكـون شيء من ذلك، وكأنه يعلمه بإجابة دعوته بإرساله إلى هارون؛ لذلك يقول له: ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ فنحن معكم -عندها تأتي أنت وأخوك إلى فرعون- مستمعون غير غائبين وما عليكما إلا أن تأتيا فرعون؛ فتخبراه بأنكما رسول رب العالمين من أجل أن يؤمن، وأن يرسل معكما بني إسرائيل.

وهنا جزئيات وأحداث جديدة تحدثنا عنها سورة الشعراء لأول مرة ندرك منها بعض الملامح لشخصية موسى ـ عليه السلام ـ: شجاعة، وفكراً مقابلاً كل حالة بما يناسبها، هذا ما تعرض إليه الآيات الكريمة. يقول فرعون منكراً على موسى قوله مستعلياً ممتناً كأنما يريد أن يقرر موسى بهذه الأحداث: ألم نربك فينا وليداً؟ أما نشأت وترعرعت في أنعمنا، وظلِّ رعايتنا ولم يكن ذلك مدة يسيرة بل لبثت فينا من عمرك سنين كثيرة، ثم فعلت فعلتك[1] التي فعلت، وأنت من الكافرين بأنعمنا، ولم تكن صاحب رسالة كما تدّعي الآن.

---

(١) يعني قتل القبطي.

وهنا تظهر هذه الملامح من شخصية موسى ـ عليه السلام ـ حينما يرد على فرعون بهذه القوة والمنطق: فعلتها إذ فعلتها ولكنني لم أكن كافراً كما زعمت، وإنما كنت من الضالين التائهين عن غير قصد، المترددين دون إصرار، وبعد ذلك فررت منكم لما خفتكم فأكرمني الله حينما وهبني حكمًا ومنّ عليَّ بالرسالة، ثم عجباً لك يا فرعون كيف لك أن تمن على وتعد بقائي فيكم، وتربيتك لي نعمة من النعم! وهذه لم تكن لولا أنك استعبدت بني إسرائيل وظلمتهم، فكنت تقتل كل مولود منهم، من أجل ذلك كان ما كان، فتربيتك لي، وبقائي فيكم لم يكن أمراً برغبتي، ولكن سببه المباشر استعبادك لبني إسرائيل وظلمك لهم، وماذا يقول فرعون بعد ذلك؟. ما وراء ذلك إلا التعنت، ويدلنا على هذا التعنت سؤاله: ما ربّ العالمين؟ وكأنه يظنه شيئاً من الأشياء التي يمكن لموسى أن يشرح حقائقها، فيبين ـ عليه السلام ـ أنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كان من شأنكم أن يهديكم الله وتكونوا من الموقنين فستعرفون ذلك.

ويشير فرعون إلى ملئه، وأشراف قومه الذين كانوا حوله مستغرباً: ألا تستمعون! كأنما الذي يقوله موسى أمر يدعو إلى العجب والإستنكار والغرابة، فيجيبهم موسى إجابة فيها شيء من التخصيص؛ لعل ذلك يكون ألصق بهم، فبعد أن قال: رب السماوات والأرض يقول هنا: ربكم وربّ آبائكم الأولين. فماذا قال فرعون ياترى؟ يقول مستهزئاً ساخراً: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، يؤكد هذا لملئه بهذا الأسلوب الذي بينه القرآن حيث الحقد والإستهزاء والغرور، هذه الثلاثة هي أكثر عناصر الشر خطراً وأشدها ضرراً. فماذا قال موسى ياترى؟ هل رد هذه التهمة عن نفسه، هل كان لنفسه حظ فيما قال فرعون؟ اللهم لا. ولكنه ردّ على فرعون وملئه رداً فيه الحمية لدينه من جهة، وردّ التهمة إليهم من جهة ثانية، قال: رب المشرق والمغرب، وما بينهما إن كنتم تعقلون، إن الذي يدعو إلى الله وعبادته وتوحيده ليس هو المجنون، ولكن الذي لا يدرك آثار هذه الربوبية هو الذي لا يعقل!

وهنا يشتط فرعون بعد هذه الأجوبة المسكتة فيقول: لئن اتخذت إلـهاً غيري لأجعلنك من المسجونين، أي من أولئك الذين استغرق السجن حياتهم، فيقول موسى ـ عليه السلام ـ: أو أكون كذلك ولو جئتك بشيء مبين، فيقول فرعون:

فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين؛ فقال الملأ من قومه :ـ إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟ ويقول الملأ أرجه وأخاه، وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم، ويجمع السحرة لميقات يوم معلوم، وينادى الناس ويطلب منهم أن يبادروا إلى الإجتماع ليشهدوا ما سيكون من أحداث ﴿هل أنتم مجتمعون﴾؟ أي اجتمعوا لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين.

ولما جاء السحرة يسألون فرعون: أَئِنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، فيجيبهم نعم وإنكم إذاً لمن المقربين. ويقول لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون، ويلقون حبالهم وعصيهم ويقسمون بعزة فرعون إنهم هم الغالبون، ويلقى موسى عصاه فتلقف ما يأفكون.

وهنا يلقي السحرة جباههم على الأرض ساجدين معلنين الإيمان لله رب العالمين رب موسى وهارون، ويقول فرعون ﴿آمنتُمْ له قبلَ أن آذنَ لكمْ إنه لكبيركُمُ الذي علمكُمُ السحرَ فلسوفَ تعلمونَ لأُقطعنَّ أيديَكُم وأرجلَكُم من خلافٍ﴾ أي اليد اليمنى، والرجل اليسرى وبالعكس ﴿ولأصلبنكم أجمعين﴾، ويجيبونه ﴿لا ضير﴾ أي لا ضرر علينا من ذلك كله إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع من ربنا أن يغفر لنا خطايانا أن كنا أول من آمن بموسى ورسالته.

ذلك المشهد الذي يتحدث عن السحرة، والذي أثرت أن لا أطيل الحديث فيه. وهذا المشهد أكثر ما يظهر فيه التشابه في قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون، مع أن هناك فروقاً من حيث الأسلوب في السور الثلاث: ففي سورة الأعراف استعملت كلمة ساحر ﴿يأتوك بكل ساحر﴾، كما استعملت كلمة الإرسال دون البعث(١)، وفي سورة الشعراء استعملت كلمة سحّار، وكلمة البعث ﴿وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم﴾(٢). وفي سورة الأعراف

---

(١) ذلك أن كلمة بعث استعملت في حق موسى ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾ فاقتضى الأسلوب القرآني التغاير في التعبير.

(٢) تقدم لنا الفرق بين المادتين.

جاء السحرة فرعون قائلين ﴿إِئنَّ لنا لأجراً﴾، أما في سورة الشعراء التي نتحدث عنها ﴿ولما جاء السحرة قالوا لفرعون أَئِنَّ لنا لأجراً﴾، فالهمزة و«لّما» ذكرتا في هذه السورة؛ وبهذا ذكر بعدهما «إذاً» لأن ما ذكر يقتضي جواباً.

في سورة الأعراف هم الذين خيروا موسى أيلقي أولاً هو أم هم؟ أما هنا فقد بدأه موسى بالحديث: ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾.

في سورة الأعراف لم تذكر الحبال والعصي، وذكر عوضاً عن هذا سحر أعين الناس ورهبتهم، ومجيئهم بسحر عظيم. في سورة الشعراء ذكرت الحبال والعصي وذكر قولهم، وقسمهم بعزة فرعون بأنهم هم الغالبون.

في سورة الأعراف قال آمنتم به أي بالله تبارك وتعالى. في سورة الشعراء قال آمنتم له، أي لموسى؛ لأن هناك فرقاً بين آمنتم به وآمنتم له.

في سورة الشعراء ذكرت كلمة «ضير»، كما ذكر قولهم بأنهم أول المؤمنين. والذي ذكر في سورة الأعراف غير هذا وهذا بالطبع لأنها متأخرة عنها.

أما سورة طه التي جاءت وسطاً بين السورتين فكان الحديث يأخذ مسلكاً آخر، فإن القول فيها عن موسى «بأنه ساحر عليم» كان للملأ من قوم فرعون الذي رأيناه في سورة الأعراف، أو سحار، كما رأينا في سورة الشعراء.

أما سورة طه فهي تنسب كل شيء لفرعون، ففرعون هو الذي قال: «جئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك» وفرعون هو الذي وعد بأن يأتيه بسحر مثله، ولكنه طلب من موسى أن يجعل موعداً بينهم وبينه. وتحدد سورة طه الزمان بأنه يوم الزينة، والوقت الذي يجمع فيه الناس وهو الضحى، كما تبين سورة طه أن فرعون هو الذي تولى، وجمع كيده، ثم أتى، وتبين لنا تحذير موسى لهم من عذاب الله، كما تختص ببيان تنازعهم وإصرارهم وتناجيهم، في سورة طه كذلك يصرحون بأولية الإلقاء ﴿أول من ألقى﴾، كما تختص سورة طه ببيان حرف الإضراب «بل» وتبين ما حدث لموسى نتيجة إلقائهم الحبال والعصي، بينما الذي تبينه سورة الأعراف أنهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم.

أما سورة الشعراء فلم تعرض لشيء من هذا.

كما تختص سورة طه من بين السور جميعاً ببيان ما حدث لموسى ـ عليه السلام ـ من الإيجاس في نفسه خيفة، حتى قال الله له: لا تخف إنك أنت الأعلى. ونظن من أجل ذلك -والله أعلم- قدم هارون على موسى في هذه السورة دون غيرها، كذلك ما كان من حديث السحرة حينما ألقوا سجداً كان فيه عنصر زائد على ما رأيناه في سورتي الشعراء، والأعراف، وقد مر معنا ذلك من قبل، وإنما أطلت لأن هذا المشهد ـ كما قلت ـ هو أكثر المشاهد في القصة تشابهاً، أما انه ذكر أكثر من مرة؛ فلأنه الغاية، وهو كذلك الأساس الذي أراد القرآن تثبيته في النفوس، ومع ذلك رأينا في هذا المشهد نفسه «مشهد السحر» جديداً في كل سورة من سور القرآن الكريم.

ولنكمل الآن ما بقي من القصة في سورة الشعراء، وسنجده جديداً كذلك فبعد إيمان السحرة يوحي الله إلى موسى أن أسر بعبادي، فإن فرعون سيتبعهم ويلحق بهم، ويرسل فرعون في المدائن شرطه، وجنوده؛ ليجمعوا الناس. وإرسال فرعون هذه المرة لم يكن بمشورة الملأ الذين أشاروا عليه من قبل، فالقضية هنا قضية حياة أو موت بالنسبة له، والوسائل التي اتبعها هي الوسائل التي يتبعها كل من غرته قوته من ذوي البطش الذين لا يعتزون إلا بقوتهم، لا ترهبهم إلا القوة كذلك كما نرى من قوى البغي في أيامنا هذه. فكانت وسائل إعلامه التي يحاول بها أن يجمع الناس، وأن يرغبهم ليخرجوا معه تقوم على دعامتين اثنتين:

التقليل من شأن موسى ومن معه، فهم شرذمة قليلون، يغيظون السادة بوجودهم وتصرفهم وعدم خضوعهم.

والدعامة الثانية: هي عرض عضلات فرعون، والإهابة بقوة كل الذين يخرجون معه، وهذا ما يشير له قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ﴾ وكان ما كان حيث أخرجهم الله من جنات وعيون، وكنوز، ومقام كريم، وخرج قوم موسى وقد سرى بهم، كما أمره ربّه، ولحق بهم فرعون وجنوده مشرقين، ورأى كل من الجمعين صاحبه، وصاح أصحاب موسى وقد رأوا قوة فرعون عدداً وعدّة صاحوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، فيردعهم

موسى - عليه السلام - بهذه القوة التي تبين الثقة والطمأنينة، ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وتكون المعجزة التي يؤيد الله بها أنبياءه وأولياءه، ويوحي الله إلى موسى: أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البحر، والعصا التي التقفت كل الإفك يجعل الله لها معجزة أخرى، فينفلق البحر، ويسير موسى ومن معه، ويرى فرعون وجنده فيتبعونهم، وكذلك العقلية الجماعية دائمًا المستسلمة تخلو من التفكير في كثير من الأحيان، وتكون النهاية ينجي الله موسى ومن معه ويغرق فرعون.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ

لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ
فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ
لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا
أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم

مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

ولعل هذه السور الثلاث كانت أكثر السور حديثاً عما كان بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين فرعون، وما جرى من شأن السحرة. وليس معنى هذا أن الحديث عن فرعون لم يكن في غير هذه السور، إنه في سور كثيرة، ولكنها كانت موجزة في أكثر هذه السور، أو كان فيها تفصيل لجوانب أخرى غير التي ذكرت في السور الثلاث:

(٥) فسورة النمل مثلاً التي جاءت بعد سورة الشعراء وقد بدأت الحديث عن الرسالة، لكن فيها إشارة لفرعون، وتبين السورة أن الله أرسل موسى لفرعون وقومه في تسع آيات، وهذا العدد يذكر لأول مرة. . ولكنهم كانوا قوماً فاسقين، قالوا عن الآيات حينما جاءتهم: إنها سحر. وتبين السورة قضية مهمة جداً لم نجدها في غيرها، وهذا ما نقوله دائمًا من أن الإجمال في بعض السور القرآنية، والإيجاز يخص بها لم يوجد في غيره. الذي تبينه سورة النمل أن فرعون وقومه جحدوا بالآيات، ولكن لم يجحدوا بها لأنها غير وافية ولا كافية، فقد استيقنتها أنفسهم، ولكن مادامت أنفسهم قد استيقنتها فلماذا جحدوا بها ياترى؟ يبين القرآن سبب ذلك بأنهم إنما فعلوا ذلك ظلمًا وعلواً. قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾

(٦) ثم جاءت سورة القصص وهي أكثر السور حديثاً عن طفولة موسى وشبابه ـ عليه السلام ـ، ولكن الحديث عن فرعون كان حديثاً موجزاً، فبعد ذكر الرسالة أكرمه الله ببرهانين: العصا واليد، يذهب بهما إلى فرعون وملئه، ولكنه ـ عليه السلام ـ يخشى أموراً، رأيناه يضرع بها إلى ربه، وربه أعلم به، وهو أنه قتل منهم نفساً؛ فيخاف أن يقتلوه ويصرح هنا لأول مرة بأن أخاه هارون هو أفصح منه لساناً فليرسله معه معيناً مصدقاً له، ويجيبه الله تبارك وتعالى بأنه سيشد عضده بأخيه فلن يستطيعوا الوصول لهما والنيل منهما، ثم ويطمئنه سبحانه ﴿بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ كما تخبرنا الآيات الكريمة أن موسى لما جاءهم بالآيات قالوا: إنه سحر مختلق مفترى؛ وبأنهم لم يسمعوا بمثل هذا في آبائهم الأولين وهذا ما يصرحون به هنا لأول مرة فماذا قال موسى ـ عليه السلام ـ؟ قال لهم أن ربّه هو أعلم بمن جاء بالهدى من عنده سبحانه ومن تكون له عاقبة الدار ويعني نفسه عليه السلام، ثم يبين ظلم فرعون وقومه وظلمهم لبني إسرائيل ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أما فرعون فقد آزداد طغياناً، ولأول مرة يعلن إلـٰهيته لملئه ويطلب من وزيره هامان أن يوقد له على الطين لعله يطلع إلى إلـٰه موسى وما يظنه إلا من الكاذبين، وهذا ما أشار إليه الكتاب الكريم ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وهـٰهنا إشارة ذكية لأبد أن نفطن لها في الآية الكريمة، وهي أن الجبابرة حينما يُهيأ لهم رعية تلغي عقولها وتعطي من أنفسها الدنيّة فإن هـٰؤلاء الجبابرة يلبّسون عليهم كيفما يريدون، ففرعون يؤكد لملئه انه ليس هناك إلـٰه غيره، ومع ذلك يريد بناء صرح فخم ضخم ليطلع إلى إلـٰه موسى مع يقينه بأن موسى من الكاذبين، فلو كانت هناك مِسحةُ عقل عند رعيته وذرّة شجاعة وجرأة لقالوا له لِـمَ نجهد أنفسنا بالبناء مادمت على يقين أن ليس هناك إلـٰه، ولكنه الإخلاد إلى الأرض يجرد كل الذين رضوا بالإستضعاف والذل من مقومات الإنسانية الكريمة، نعوذ بالله من ذلك.

ويستكبر فرعون وجنوده كما تحدثنا سورة القصص، يستكبرون في الأرض بغير الحق ظانين أن الله لن يحيط بهم فيأخذهم الله تبارك وتعالى؛ يأخذه هو وجنوده فينبذهم في اليم وتلك عاقبة الظالمين ويجعلهم أئمة يدعون إلى النار ولن يجدوا يوم القيامة ناصراً لهم ويتبعهم في هذه الدنيا لعنة، أما في يوم القيامة فهم من المطرودين المبعدين، تلك هي الإشارة في سورة القصص عما كان من أمر فرعون.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ

لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

(٧) **ثم تأتي سورة الإسراء** بإشارة موجزة، ولكن العجيب فيها أنها جاءت مناسبة متسقة مع ما قبلها في سورة القصص، فهي مرتبة عليها ترتيباً منطقياً غاية في الإبداع. وهاكم بيان ذلك: ادّعى فرعون في سورة القصص أنه ما علم لقومه من إلـه غيره، وأنه على يقين من كذب موسى، فجاءت الإشارة في سورة الإسراء

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾

فما أعجب هذا الترتيب وما أحكمه وما أبعده عن التكرار!!

(٨) **ثم جاءت سورة يونس** بأحداثها الجديدة وكلماتها المعبرة وأسلوبها المؤثر، تجمل أحداثاً مضت لتفصل غيرها مما يتفق مع سياق السورة نفسها ومع شخصيتها، والسورة ـ كما نعلم وكما قدمنا من قبل ـ بدأت بهذه الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

تبدأ القصة بعد قصص بعض الأنبياء، ولكنه قصص موجز في هذه السورة الكريمة ببعث موسى وهارون إلى فرعون وملئه بالآيات، ولكنهم استكبروا وكان هذا الإستكبـار ناشئاً عن تماديهم في الإجرام لذلك لما جاءهم الحق لم يجدوا ما يقولونه إلا أنه «سحر، لكن موسى ـ عليه السلام ـ ينكر عليهم هذه المقالة أتقولون للحق لما جاءكم هذه المقالة المستهجنة؟! أسحر هذا الذي جئتكم به؟

ثم تبين الآية الكريمة نتيجة فعلهم من قبل أن يحدث منهم أي فعل، وهو أن الساحرين لن يفلحوا أبداً، وهذه الإشارة لا نجدها إلا في هذه السورة الكريمة.

كما تبين السورة هنا ما أنكروه من موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ وهو غير ما بيّنته السور السابقة فإنهم أنكروا أن يلفتهم موسى ويفتلهم عما وجدوا عليه أباءهم هذه واحدة.

وأما الثانية: فهي أن يكون لموسى وهارون الكبرياء والملك في الأرض، ولهذا صمموا على عدم الإيمان بأسلوب قاطع مؤكد ﴿وما نحنُ لكما بمؤمنين﴾ ويطلب فرعون أن يأتوه بكل ساحر عليم. ونجد السورة الكريمة هنا لم تفصل في شأن السحرة كما فُصِّلَ في السور من قبل ويجيء السحرة، ويقول لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون ويلقون ما أرادوا إلقاءه ولكن موسى ـ عليه السلام ـ يبين لهم هذه القضايا الأربع في هذا الترتيب البديع.

القضية الأولى: أن هذا الذي جئتم به إنما هو السحر بأسلوب القصر الذي

يتحدث عنه علماء البلاغة، وذلك بتعريف جزئي الجملة مبتدؤها الذي هو «ما» لاسم موصول وخبرها الذي هو السحر. وإذاً فما جاء به موسى مغاير لذلك.

أما القضية الثانية: فهي مترتبة على القضية الأولى وهي قوله ان الله سيبطله، ثم تأتي القضية الثالثة: إن الله لا يصلح عمل المفسدين.

ونتيجة لهذه القضايا الثلاث فإذا كان الذي جاءوا به السحر وسيبطله الله تبارك وتعالى؛ لأنه نوع فساد والله لا يصلح عمل المفسدين فإن النتيجة الحتمية لذلك كله؛ أن يحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون، وتلك رابعة القضايا.

أما ما كان من السحرة ومن فرعون فكل ذلك قد طوي في هذه السورة انه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم. وفي الآية درسان على قدر كبير من الأهمية لم يذكرا في غير هذه السورة فهما بحق قضيتان حريتان بالوقوف والتأمل:

أما أولاً: فإنه لم يؤمن لموسى إلا ذرية من قومه، والذرية - بالطبع - تشير إلى أن الذين آمنوا كانوا من عنصر الشباب وهي إشارة ذات مغزى، فالشباب هم العنصر الفعال في حياة الدعوات وتاريخها.

وأما ثانياً: فإن عدم الإيمان لم يكن خوفاً من فرعون فحسب، وإنما كان خوفاً من ملئهم أي من ملأ هذه الذرية من بني إسرائيل. إن كثيراً من المستضعفين الذين استمرأوا الذل يقفون مع العتاة الطغاة في وجه الحق مع انهم يعلمون ان في هذا الحق دفعاً لكابوس الظلم عنهم، ولكنهم يداهنون مع ذلك، بل يكونون أشد من الطغاة أنفسهم، وهكذا كان الملأ من بني إسرائيل يحولون بين ذرياتهم وبين الإيمان لموسى مع أن فرعون هو الذي علا في الأرض وكان من المسرفين كان يسومهم سوء العذاب فما يجني هؤلاء المستضعفون من وقوفهم معه. ولكنها التبعية الذليلة التي لن تحلهم إلا دار البوار، ويلتفت موسى - عليه السلام - إلى هؤلاء الذين آمنوا معه وهم بين نارين وخوفين، فرعون من جهة، وملئهم من جهة أخرى، ليقول لهم إن كنتم آمنتم بالله فعليه وحده ينبغي أن يكون توكلكم إن كنتم منقادين إلى الحق، ويجيبونه معلنين إيمانهم وإسلامهم: على الله توكلنا ربنا لا

تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين، فهم يدعون ربهم ربنا لا تفتنا بما نُلاقي من عذاب منهم أو لا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بسببنا وهم يرون ما نلاقيه من عذاب ويوحي الله إلى موسى وأخيه أن يهيئا لقومهما بمصر بيوتاً وأن يجعلوا هذه البيوت قبلة ليعبدوا الله فيها بإقامة الصلاة[1]، ثم يأمر الله موسى أن يبشر المؤمنين.

ثم تبين الآيات الكريمة ما كان من دعاء موسى ـ عليه السلام ـ وهو يناجي ربّه ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾، بهذه الكلمات التي يسطع فيها الإيمان المؤثر يدعو موسى ربّه لا حسداً لفرعون على ما أوتيه، فمعاذ الله، ولكنه ـ عليه السلام ـ يدرك أن الزينة والمال وما ينتج عنهما من تعالٍ وغرور سبب في محاربة الحق. من أجل ذلك كان ذلك الدعاء ابتغاء للحق وحرصاً عليه، ويجيب الربّ دعاء العبد ﴿اجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾.

ثم تتحدث السورة الكريمة عن المشهد الأخير وقد جاوز ببني إسرائيل البحر، واتبعهم فرعون وجنوده باغين معتدين، وتأتي النهاية الحاسمة، فحينما يدرك فرعون الغرق يرجع عن كفره ويعلن إيمانه ﴿آمنت بالذي لا إلـه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾، وأنا من المسلمين، فلقد صدق موسى ـ عليه السلام ـ ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾.

بهذه العبارات التي كان يمكن أن يغني عنها كلمة واحدة «ينطق بها فرعون» ولكن لات حين مناص انه لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾، آلآن وقد فوت كل فرصة وما أكثر الفرص التي

---

(١) يذهب بعض المفسرين إلى أن هذه البيوت اتخذت قبلة لأنهم كانوا يخشون أن يصلوا في معابدهم، فأمروا أن يخفوا صلاتهم حتى لا يطلع عليهم فرعون ومن معه، وهذا إذا كانت البيوت للمساكن، أما إذا كان المقصود بالبيوت المساجد فلا يكون للسريّة معنىً، وذهب بعضهم إلى أن معنى قبلة أي متقابلة حتى لا يكون بينهم بعد. ولا تنافي بين هذه الأقوال ولكل وجهة.

سنحت لك، وتكـون المعجزة فاليوم ننجيك ببدنك هيكلاً لا حراك فيه لتكون للقرون من بعدك آية فما أكثر الآيات وما أعظمها!! ولكن كثيراً من الناس عنها غافلون، وصدق الله وكان لمن خلفه آية حتى يومنا هـذا.

تلك هي القصة في سورة يونس وقد رأينا عناصرها جديدة كل الجدة، أسلوباً وأحداثاً وكلمات معبرة ـ كما قلت من قبل ـ وفي ذلك خير دليل على ما أردنا تقريره من الجدة في كل ما يعرض له القرآن الكريم من أحداث يظن تشابهها

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ

فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ
أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ
وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾
قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ
ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

(٩) أما سورة هود فلم يكن فيها سوى إشارة موجزة على الرغم من أنه قد فصل فيها بعد القصص - كما رأينا - في قصة نوح، ومع الإيجاز هذه الإشارة فإنها لا تخلو من جدة.

تبين السورة الكريمة، بأنه أرسل موسى إلى فرعون وملئه باياته وسلطان مبين وقد اختلف المفسرون في معنى السلطان المبين فمنهم من يرى أنه الآيات نفسها، ومنهم من رأى إنها العصا؛ لأنها كبرى هذه الآيات، والذي يلوح لي -والله أعلم- ان السلطان المبين الذي اقترن بالآيات إنما هي الحجة الواضحة الدّالة على صدق موسى المستفادة من قرائن الحال، إنه سلطان الحجة الذي كان كافياً لمن أراد الهداية، ولهذا ذكر عقب الآيات دليلاً على التغاير بينهما فالآيات مادية والسلطان عقلي معنوي، والله أعلم بما ينزل. أرسله إلى فرعون وملئه ولكنهم اتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد إنه ممعن في الغواية والإضلال، وإذا كان قدوة لأصحابه في الدنيا، أو رضي أن يكونوا أتباعاً له فهو سيقدمهم يوم القيامة كذلك، ويكونون له تبعاً ليوردهم النّار وبئس الورد المورود؛ هذه النار وقد حلت عليهم اللعنة في هذه الدنيا ويوم القيامة بئس الرفد المرفود.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ[1] ﴿٩٩﴾﴾

(١٠) ثم تأتي سورة غافر، وهي سورة المؤمن؛ مؤمن آل فرعون، وهي السورة الوحيدة التي فصلت قول هذا المؤمن وبينت لنا شأنه، لذلك كان أكثر ما اشتملت عليه السورة. ومن الطبيعي. أن تحدثنا السورة الكريمة عن موسى ـ عليه

---

(١) بئس الرفد المرفود: أي بئس العون المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة، وقيل: بئس العطاء المعطى.

السلام ـ وفرعون. وأول ما نجده من هذا النبأ أن الله أرسل موسى بآياته وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون، وقد مر ذكر هامان وقارون في سورة القصص، أما هامان فقد مر فيما حكى الله تعالى عن فرعون في قوله ﴿فَأَوْقِدْ لي ياهَـٰمَـٰنُ على الـطينِ﴾، وأما قارون فلقد كانت له قصة في آخر سورة القصص لم نعرض لها هناك؛ لأنها ليس لها تعلق بحديثنا؛ فحديثنا عن فرعون، ولعلنا نتحدث عنها فيما بعـد إن شاء الله. ولكن هـٰؤلاء الثـلاثـة وصفوا موسى بالسحر والكذب، فلما جاءهم بالحق من عند الله تبارك وتعالى اشتطوا غيظاً، وركبوا متن الغواية، وقالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم، أي استبقوهن للخدمة والمهانة، وهـذا القتـل والإستحياء غير الذي كان يفعله فرعون ببني إسرائيل قبل رسالة موسى، ويمكن أن يكون هذا القتل هو المشار إليه في سورة الأعراف، والذي مر معنا من قبل ﴿قَالَ سَنقتّلُ أبناءَهم ونستحيي نساءَهُم وإنّا فوقهَم قاهرونَ﴾[1].

ويطمئِنُ اللهُ موسى وقومه بأنه ناصره، وبأن كيد الكافرين ليس إلا في ضلال وضياع وخسران، أما فرعون فيحدثنا عنه القرآن حديثاً عجباً؛ إذْ يحكي لنا قوله ﴿ذروني أقتل موسى وليَدْعُ ربّه، إنيِّ أخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دينَكُم أو أَنْ يُظهِرَ في الأرضِ الفسادَ﴾ وهذا لعمر الحق منتهى المكر والكذب والتلاعب بالعقول ﴿ذروني أقتل موسى﴾ أي خلّوا بيني وبينه؛ وكأنهم هم الذين يمنعونه عن ذلك مع أنه يوقن وهم يوقنون كذلك أن ليس بأيديهم شيء، وان الأمر أولاً وأخيراً إنما هو لفرعون، ولكنه الخبث الذي يتبعه كثير من الساسة وهم يوهمون رعيتهم بأنهم هم -أي الرعية- أصحـاب الحكم يحكمـون أنفسهم بأنفسهم، وهـذا أكثر ما يكون في الأنظمة الدكتاتورية وما يشبهها ولأمتنا النصيب الأوفر والحظ الأوفى. والأعجب من هذا ما علل به هذا القتل، وهو خوفه من أن يبّدل موسى الدين، وخوفه من أن يظهر موسى الفسـاد في الأرض، من أجـل ذلك يريد قتله حتى تبقى الحياة صالحة نظيفة. ما أعظمها من عِبر! وما أروعها من عِظات لقوم يتذكّرون!.

أما موسى ـ عليه السلام ـ؛ فإنه لا يزيد بعد أن سمع ما سمع على أن يقول

---

(١) وهذا الأسلوب هو الذي نجده من الظالمين العتاة الباغين حتى اليوم فما أشنع الظلم وأسوأ الظالمين؟!

لائذاً بربه، مستجيراً به سبحانه وهو ربهم كذلك: ﴿إنِّي عذتُ بربي وربّكم من كلِّ متكبرٍ لا يؤمنُ بيومِ الحسابِ﴾.

ثم تفصّل الآيات بعد ذلك قول هذا الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، وهو ينصح قومه يتلطف معهم بما ينم عن صدقه، وعمق إيمانه ﴿أتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ ربيَ اللهُ وقد جاءكم بالبيناتِ من ربكُمْ وإنْ يَكُ كاذباً فعليه كذبُه وإنْ يَكُ صادقاً يُصبْكُم بعضُ الذي يَعِدكُم إنَّ اللهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسرفٌ كَذّابٌ﴾[1]. ثم يبين لهم أن لهم الملك وأنهم هم الظاهرون في الأرض، ويذكرهم بالعاقبة ﴿فَمنْ يَنْصرُنَا مِن بأسِ اللهِ إنْ جَاءَنَا﴾، ولكن فرعون يزداد عتواً ويظهر حقيقة ما في نفسه؛ فهو يقول: ما أُريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. إن الرأي هو ما أحملكم عليه فليس لأحد أن يعارضني في شيء، فأين هذا القول مما قاله من قبل ﴿ذروني أقتل موسى﴾ وكذلك المتجبرون يكشرون عن أنيابهم حينما يجدّ الجدّ. ويعود المؤمن لنصائحه؛ فهو يخاف على قومه مثل يوم الأحزاب ﴿مِثْلَ دأبِ قومِ نُوحٍ وعَادٍ وَثَمُودَ والذينَ مِنْ بَعدِهِم وَما اللهُ يريدُ ظلمًا للعبادِ﴾. هذا كله في الدنيا، ثم يحذرهم من يوم القيامة يوم التناد ﴿يَوْمَ تُولُّونَ مُدْبرينَ ما لَكُمْ منَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ﴾.

ثم يذكرهم بما كان من يوسف ـ عليه السلام ـ حينما جاءهم بالبينات، ولكنهم كانوا في شك مما جاءهم به، فلما انتقل إلى الدار الآخرة قالوا: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعدهِ رسولاً﴾، ولكن فرعون مع ذلك لا يذعن للحق -وهكذا يضل الله كل من هو مسرف مرتاب من أولئك الذي يجادلون في آيات الله من غير حجة عندهم. وكبر هذا مقتاً عند الله وعند المؤمنين، وهكذا يطبع الله على قلوب المتكبرين الجبابرة-.

---

(١) لقد كان هذا الرجل المؤمن حاذقاً في أسلوبه حيث بدأ بافتراض الكذب قبل الصدق ثم قال ﴿يصبكم﴾ ولم يقل «يصبنا»، ثم عقب على هذا بأن الله لا يهدي المسرفين المكذبين فإن كان موسى منهم فلن يهدى إلى الخير، ثم قال يا قوم بهذا التلطف ثم قال ﴿لكم﴾ ولم يقل «لنا» ولكنه قال بعد ذلك ﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾، ولم يقل «ينصركم» وهكذا نجده حاذقاً في أسلوبه حيث لا يستطيع أحد أن يشتم منه رائحة الإيمان وهو درس جيد تدعو إليه الضرورة في كثير من الأوقات.

أقول: لكن فرعون لم يأبه لكلام ذلك الرجل المؤمن، فهو يأمر هامان أن يبني له صرحاً لعله يبلغ طرق السماوات فيصل إليها ليطلع إلى إلـه موسى مع أنه على يقين من كذب موسى ـ عليه السلام ـ، وهكذا زين لفرعون سوء عمله وصُدّ عن سبيل الحق وطريق الهداية وما كيد فرعون إلا في تباب وخسران وضياع. ويعاود الذي آمن وصاياه ﴿يا قَومِ اتبعونِ أَهْدِكُمْ سبيلَ الرّشادِ﴾، ثم يبين لهم حقارة شأن الـدنيا، ويفصـل لهم القول إلى أن يقول لهم ﴿فستَذْكُرونَ ما أَقُولُ لكُم وأُفوِّضُ أَمْري إلى اللهِ إنَّ اللهَ بصيرٌ بالعبادِ فَوَقَاهُ اللهُ سيئاتِ مَا مَكَرُوا وَحاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ﴾(1).

ثم تبين الآيات الكريمة أنها النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، أما يوم قيام الساعة فسيدخلون أشد العذاب، ثم تصور لنا هذا المشهد وهم يتحاجون في النار؛ فيقول الضعفاء للمستكبرين: لقد كنّا لكم تبعاً وخدماً نأتمر بأمركم، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار، فيقول المستكبرون: لا، إنا كلٌّ فيها، إن الله قد حكم بين العباد. ويطلبون من خزنة جهنم أن يدعوا ربهم ليخفف عنهم شيئاً من العـذاب، ويقال لهم: ألم تكن الرسل تأتيكم بالبينات، فيقولون: بلى، فيقال لهم: ادعوا ما استطعتم فلن يتقبل منكم، فما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

ثم يعقب على هذا كله بهذ الآية الجامعة ﴿إنّا لننصرُ رُسُلَنَا والذّينَ آمنوا في الحياةِ الدُنيا ويومَ يقُومُ الأشهَادُ يَومَ لا ينفعُ الظالمينَ معذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللعنةُ ولَهُمْ سُوءُ الدّارِ﴾، ويمنّ الله على بني إسرائيل بعد أن نجاهم من فرعون ﴿وَلَقَدْ آتينا مُوسى الْهُدى وَأَوْرَثْنَا بني إسرائيلَ الكتابَ هدىً وذكرى لأُولي الألباب﴾.

ثم يعقب على ذلك بطمأنينة النبي ﷺ، فكما أهلك فرعون وكما نصر الله موسى، فلابد أن يهلك المكذبين كذلك ﴿فاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ

---

(1) تراجع آيات المؤمن: ٢٣ ـ ٥٥.

فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ
عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ
نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥
وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ
لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ
ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا
فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي
يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨ يَٰقَوۡمِ
لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ
بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ
أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ
وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١
وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ
مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣

وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ
مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ
مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ
مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ
أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ
يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ
وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ
ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ
دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ
وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾

۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى
ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ
لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ

أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ
وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ
مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ
ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي
ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
لَكُمْ تَبَعٗا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ
﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ
قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ
جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمٗا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾
قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ
بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ
﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْۖ
وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى

وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾

هذه سورة غافر، ونحسب أنه من نافلة القول عدم وجود أي تكرار فيما أشارت إليه السورة الكريمة.

(١١) ثم تأتي سورة الزخرف لنقرأ فيها طرفاً من هذه القصة كذلك، والواقع أن ما ذكر في هذه السورة متلائم كذلك مع اسمها، كما سنرى ذلك بيناً إن شاء الله تعالى.

تبدأ السورة بإرسال موسى إلى فوعون وقوله ﴿إنّي رسُولُ ربِّ العَالَمِينَ﴾، وحينما يجيئهم بالآيات فإنهم يفاجئونه بضحكهم وسخريتهم منها وهزئهم بها، مع أن الآيات التي جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ كانت كل واحدة منها كافية لإيمانهم، فليس هناك آية إلا وهي أكبر من أختها؛ لأن في كل آية ميزة لا توجد في غيرها، وقد أُخذوا بالعذاب علّهم يرجعون عن غيهم الذي هم فيه سادرون، ولما رأوا العذاب قد أحاط بهم هرعوا لموسى ـ عليه السلام ـ قائلين له ﴿أيُّها الساحرُ﴾ ومناداتهم له بهذا الوصف قد يكون وصفاً له بالعلم والمهارة فلم يكن السحر صفة نقص عندهم هذا ما قاله بعض المفسرين. ولكن الذي نرجحه أنهم إنما نادوه بذلك؛ لأنهم كانوا عازمين على عدم الإيمان في قلوبهم، ونستأنس لهذا بقولهم ﴿ادعُ لنا ربّك﴾ ولو كان إيمانهم صادقاً لقالوا ربّنا. سألوه أن يدعو لهم ربه بما عهد عنده من إجابة الدعوة أن يكشف عنهم الرجس حتى يهتدوا، ولكنهم -وقد كشف عنهم الرجس- نكثوا ولم يؤمنوا.

وتحدثنا الآيات بعد ذلك عن غرور فرعون واعتداده بنفسه، وهو حديث لا نجده إلا في سورة الزخرف، فها هو ينادي في قومه: أليس لي ملكُ مصرَ، وهذه الأنهارُ تجري من تحتي أفلا تُبصرونَ ذلك أم تبصرونه. ثم يبين اعتداده بنفسه

وسخريته بموسى عليه السلام بقوله: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين -ضعيف محتقر- ولا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فهو لا يملك شيئاً من أسباب القوة، وعلامات الملك، ولو كان موسى صادقاً فهلّا ألقيت عليه أسورة من ذهب، أو جاءت معه الملائكة مصدقة له، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن فلم نجد شيئاً من أسباب النعمة ظاهراً عليه، ولم يجيء أحد من الملائكة يصدقه فيما يقول. . . وهكذا استخف فرعون قومه، استخف عقولهم؛ فلعب بها، وهذا شأن كل رعية ضعيفة. ومن هنا كان من أهل النار كما أخبر الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم «الضعيف الذي لا زبر له -أي لا عقل- الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً» هكذا كانَ قوم فرعون وهذا ما يجعل الشعوب تنحدر فتستمريء الذل، ومرجع ذلك كله: الفسق والخروج عن منهج الله، فلما أغضبوا الله تبارك وتعالى انتقم منهم، وجعلهم قدوة لمن بعدهم من أهل الضلال، كما جعلهم مثلا يمكن أن يتعظ به الأخرون، هذا ما جاء في سورة الزخرف وهو إن تدبرناه نجده يتسم بالجدّة في جُلِّ جزئياته

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْجَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

(١٢) أما سورة الدخان، فقد جاء الحديث عن فرعون وقومه في سياق الحديث عن قريش وما أصابهم حينما دعا عليهم النبي ﷺ يوم كذبوه ﴿فارتقبْ يَومَ تأتي السَّماءُ بدُخانٍ مُبينٍ يَغْشَى النَّاسَ، هـٰذا عذابٌ أليمٌ﴾ فقد دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني يوسف؛ فأصابهم القحط والجوع والشدة؛ فكان الواحد منهم حينما ينظر إلى السماء يتوهم انها ممتلئة بالدخان، وهو ما أصابهم من الظلمة في أبصارهم من شدة الجوع حتى كأنهم يرون دخاناً؛ فإن الإنسان إذا أشتد خوفه أو ضعفه اظلمت عيناه ورأى الدنيا كالمملوءة دخاناً. فدعوا ربهم أن يكشف عنهم العذاب فهم مؤمنون.

ثم بين لهم سبحانه أنه سيكشف عنهم العذاب قليلاً؛ فإنهم عائدون إلى الكفر ولكن هددهم بالبطشة الكبرى وهي ما سيصيبهم يوم بدر، ثم ذكر حديث قوم فرعون بقوله ﴿وَلَقَدْ فتنَّا قَبْلَهُمْ قَومَ فِرْعَونَ وَجاءَهُمْ رسولٌ كريمٌ﴾ وبماذا جاءهم هذا الرسول؟ تحدثنا السورة عن الأمور التالية:

١- أن يؤدوا إليه عباد الله؛ ويقصد بهم بني إسرائيل، وكأنه يشير إلى أن أولئك ليسوا عبيداً لهم ليعذبوهم، بل هم عباد الله وبانه رسول أمين يؤتمن على ذلك كله.

٢- أن لا يعلوا على الله؛ لأن الذي يتكبر على الرسول والرسالة يتكبر على المرسل كيف وقد جاءهم بسلطان مبين!.

٣- فهو يعوذ بربه وربهم أن يرجموه ويقتلوه.

٤- فإن لم يريدوا الإيمان به فليعتزلوه وليبعدوا عنه وليخلوه وشأنه، ولكنهم

خالفوه في ذلك كله، فدعا ربه ﴿أَنَّ هَـٰؤُلاءِ قومٌ مُجرمونَ﴾ فأمره الله أن يسريَ بعباده ليلاً، فهم متبعون من فرعون، وليترك البحر رهواً، أي ساكناً. بعد أن ينجيه الله ويخرج منه من أجل أن يدخله فرعون وجنده فإنهم مغرقون.

ثم يبين الله تبارك وتعالى فخامة ما تركوه من الخير الذي كانوا فيه من بساتين وعيون وقصور وتنعم وقد أورثه غيرهم فذهبوا غير مأسوف عليهم، فلم تبكهم السماء ولا الأرض، فهم منبوذون لسوء طباعهم، مقتهم كل شيء في هذا الكون لأن خالق الكون مقتهم من قبل.

ونلاحظ أن ما جاء في سورة الدخان جاء منسجماً تماماً مع الحديث عن أهل مكة؛ فهو يحمل في ثناياه التهديد والوعيد كما يطمئن في سناه الرسول ﷺ والمؤمنين.

۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ

كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

(١٣) ثم تأتي سورة الذاريات بلمحة موجزة تتناسب مع ما ذكر فيها من قصص بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

وهكذا تبين السورة الكريمة أن فرعون تولى بركنه وقومه، ثم تبين لنا تخبطه وعدم استقراره فيما يقول في موسى بهذا التردد الذي تدل عليه كلمة ﴿ساحر أو مجنون﴾ فهو لا يستقر على رأي، ثم تبين لنا أنه أخذ وهو مليم، وتلك إشارة في السورة الكريمة لها مغزاها ومدلولها.

(١٤) أما سورة المؤمنون، ففيها إشارة ولكن من نوع آخر، فالسورة تبين أن الله أرسل موسى وهارون بالآيات الواضحات والسلطان المبين إلى فرعون وملئه، ولكنهم استكبروا وكانوا قوماً عالين، ثم تبين السورة الدافع لهذا الاستكبار والعلو فكيف يؤمنون لبشرين مثلهم وقومهما -يعنون بني إسرائيل- لهم عابدون فكيف يؤمنون إذن لمن يعبدهم قومهما فما كان موسى وأخوه حريين بهذه الرسالة فكذبوهما فكانوا من المهلكين

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾

(١٥) أما سورة الحاقة، فقد جاء قول الله :

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾

(١٦) ثم تأتي سورة النازعات، وهي آخر سورة يذكر فيه خبر فرعون، وقد قلنا من قبل أن السورة الأخيرة دائمًا يأتي الحديث فيها موجزاً مجملاً كل ما تقدمه من حديث مع بعض الإشارات، كما رأينا ذلك في قصص بعض الأنبياء في سورة العنكبوت وقصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون، تمثل هذه الظاهرة فتنفرد بها سورة النازعات دون سورة العنكبوت، فتذكر القصة في سورة النازعات في سياق الحديث عن الذين أنكروا البعث

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾
إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

إن كل كلمة في هذه القصة إنما هي موضوع مستقل بذاته ﴿هل لكَ إلى أن تزكى﴾ ﴿أهديك إلى ربك فتخشى﴾ ﴿فكذب وعصى﴾ ﴿أدبر يسعى﴾ بعد حرف العطف ﴿ثم﴾، ثم تأتي الفاءات فحشر فنادى فقال ما قال، فأخذه الله كأنما القصة سرد سريع ولمحات خاطفة كل كلماتها ذات دلالات إيحائية ﴿إنَّ في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾.

(١٧) أما سورة العنكبوت، فقد ذكرت فيها هذه الآية ﴿وقارونَ وفرعونَ وهامانَ ولقد جاءَهُم مُوسى بالبيّنات فاستكبَرُوا في الأرضِ وما كَانُوا سَابِقِينَ﴾[١]

ذلكم هو: **الجانب الأول** من الحديث عن موسى في القرآن الكريم، **وهو قصته مع فرعون**، ولعله أكثر الجوانب مساحة وحوادث وجزئيات؛ لذلك نجد القرآن الكريم قد بدأ به دون غيره، وهكذا كانت النهاية أنه أخذ الله فرعون نكالَ الآخرة والأولى، وهكذا بينت الهدف من ذكر ذلك كله ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾.

وقد وجدنا كل سورة ذكر فيها هذا الجانب من حياة موسى ـ عليه السلام ـ كان ذا هدف يتلاءم مع موضوع السورة من جهة، ومع الغرض الذي سيق له من جهة، كما كان في كل قصة إبداع فني، ونسق بياني. هذا إلى جانب الصفات الخلقية والنفسية، والقضايا الإجتماعية التي يمكن أن تبرز في كل سورة من السور الكريمة بحيث إذا جمعت كلها يمكن أن تشكل لنا سلسلة من الحلقات المتصلة بعضها ببعض تكون زاداً ورصيداً، وثروة لعلماء النفس من الأخلاق والإجتماع فضلاً عما يجد فيها الأدباء من تنوع الأساليب وروعتها، ويبقى النصيب الأعظم والأوفر؛ نصيب الدعاة ليجمعوا ذلك كله حتى يكون الهادي لهم في مسيرتهم، والنور الساطع لمبصيرتهم. ولسنا نستطيع أن نأخذ ذلك كله بالتفصيل، وإنما اكتفينا ببعض الإشارات لأن حديثنا عن جانب من جوانب القصة، وهو دعوى التكرار، وتبقى القصة بعد ذلك بحاجة إلى من يفجر ينابيعها العذبة، تبقى بحاجة إلى من يفتق أكمامها، ويستخرج كنوزها ويحل رموزها ويجلي حقائقها ويكشف دقائقها وإنه لعمل لو تعلمون عظيم!.

خبره مع بني إسرائيل:

أما **الجانب الثاني** من قصة موسى ـ عليه السلام ـ **فهو** خبره مع بني إسرائيل، وإنما آثرنا هذا الترتيب فلم نذكر قضية ولادته وطفولته ومبدأ رسالته اقتداءً وتأسياً

---

(١) تلك هي النهاية في سورة الدعاة إلى الله، نهاية أعداء الله، الاستكبار في الأرض، ولكن لن يكون منهم السبق أبداً مهما طال الأمد وعلا الزبد.

بكتاب الله تعالى، وفي هذا أعظم دليل على أن القصص القراني لم يقصد به السرد التاريخي وإلا فكان ينبغي أن يذكر أولاً ولادة موسى ـ عليه السلام ـ، ثم رسالته، ولكن القرآن يذكر أول ما يذكر ما تتعلق به العبرة وما تكون منه العظة.

والحديث عن بني إسرائيل في كتاب الله تعالى حديث له جوانب متعددة كذلك، فقد يكون الحديث عنهم تمهيداً لما سيكلف الله به المسلمين، فهو يبين ما أنعم به عليهم، ثم ما قابلوا به النعم من جحود ثم ما استحقوه من عقاب. كل ذلك من أجل أن يكون درساً للمسلمين فيما يكلفون به حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل.

وقد يكون الحديث عنهم من جانب آخر؛ وهو ما يضمرون للمسلمين من بغضاء وكان يمكنهم أن يتعايشوا معهم بسلام وأمن وصدق، ولكنهم أبوا.

وقد يكون الحديث عنهم من جانب ثالث وهو، ما كان منهم مع موسى ـ عليه السلام ـ، وهذا الجانب الذي سنقصر عليه الحديث ههنا لأنه الذي يتصل بموضوعنا اتصالاً مباشراً. أما الجانبان الأولان: فربما يكون الحديث عنهما في مكان آخر إن شاء الله في كتابنا «نظرات في إعجاز القرآن».

وقصة موسى مع بني إسرائيل جاءت في السور التالية: **الأعراف، طه، إبراهيم، البقرة، الصف، المائدة**. مع إشارات في بعض السور نعرض لها في حينها إن شاء الله، وسنجد ونحن نعيش مع الآيات الكريمة أن مالاقاه موسى ـ عليه السلام ـ من بني إسرائيل من المشقة والعنت والعناد لا يقل بل قد يزيد عمّا لاقاه من فرعون؛ لذلك كانت عناية القرآن به، ولذلك نجد القرآن جعله في المرتبة الثانية بعد الحديث عن فرعون، ولئن اقتصر الحديث عن فرعون في السور المكية؛ فإن الحديث عن بني إسرائيل تجاوز ذلك إلى السور المدنية. وهذا بالطبع ما تقتضيه ظروف العبرة من القصة حيث اليهود يعايشون المسلمين هناك، ونظن أن في قصة موسى عليه السلام، وفيما تعدد فيها من جوانب، وفي ترتيب هذه الجوانب بعضها على بعض أمراً جديراً بأن يُبحث ويُفاد منه، وموسى ـ عليه السلام ـ من أولي العزم، والحديث عنه فيما لاقاه من عنت وصعوبة لا يكمن في إجماع فرعون وبني إسرائيل على الباطل ومعارضتهم للحق فحسب، وإنما فيما هو وراء ذلك، ومن

أجل هذا كانت قصة موسى جديرة بأن تستخلص منها الحِكَم والعبر للدعاة إلى الله، ففرعون كان يمثل الطاغية البطاش، المغتر بقوته المعتز بجبروته، المستعلي، ولكن بني إسرائيل كانوا على العكس من ذلك يمثلون الجانب الآخر، فهم الذين رضوا بالذل والإستضعاف واستمرءوهما وأعطوا الذلة والدنية من أنفسهم، وقبلوا أن يسلبوا كل مقومات الشخصية، وربما مرت معنا إشارات تؤكد هذا الذي قلناه من قبل، كما سنجد ذلك فيما سنقوله من بعد. وهذا ما أدركه موسى ـ عليه السلام ـ وهو يصارعهم ويقارعهم محذراً حيناً، ومذكراً حيناً؛ ولكنه بعد ذلك كله، وبعد هذا الشوط الطويل ذي المراحل القاسية، وفي خاتمة المطاف في آخر عهده بهم، لم يملك الا أن يقول «رب لا أملك إلا نفسي وأخي» يتبرأ منهم وهو يعتذر لربه، فلئن ضاع جهده معهم فعند الله الجزاء الأوفى، وما أحوج المسلمين أن يقفوا مع هذه الدروس ليعرفوا عدوهم على حقيقته.

(١) سورة الأعراف :-

بعد الحديث عن غرق فرعون انتقلت الآيات إلى الحديث عن بني إسرائيل وما منّ الله عليهم به، وهنا قضية لابد أن نتنبه لها؛ لأنها تلقي ضوءاً على ما نحن بصدده، وعلى ما قررناه من قبل فالآيات التي تحدثت عن فرعون في سورة الأعراف تبتدىء من آية (١٠٣) وتنتهي بآية (١٣٦)، بينما الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل كانت أكثر من ذلك حيث بدأت من آية (١٣٧) واستمرت إلى (١٧١).

بدأت الآيات بقول الله تعالى: ﴿وأورثْنـا القومَ الذّينَ كَانُوا يُستضعفونَ مشارقَ الأرض ومغاربها التي باركْنَا فيها﴾ فذكرت أول صفة من صفاتهم، وهي الإستضعاف، ولكن الله تبارك وتعالى خلصهم من نير العبودية فمنعهم ظلم العدو ومنحهم نسمات الحرية ليشكروه، وتمت كلمة ربك الحسنى عليهم؛ بما كانوا يتحلون به من الصبر. ولكن هذا الصبر في حياة كثير من الأمم لا يستقر على مفهومه، بل يخرج عن معناه، فبدلاً من أن يكون فضيلة تقوى بها النفوس على مقاومة الباطل، فإنه يفهم على غير حقيقته ليصير رذيلة تقبل بها النفوس كل ظلم وباطل وأصبح هذا المفهوم للصبر في حياة كثير من المسلمين الأساس الذي ينطلقون منه ويفاجأ كل ذي لُبٍّ، فبعد أن يغرق الله فرعون ومن معه ويدمر ما كانوا يصنعون ويعرشون ويجتاز بني إسرائيل البحر إلى البر الأسيوي، يمرون على

أقوام -لعلهم من العرب- يعكفون على أصنام لهم، وكان المتوقع من بني إسرائيل أن يطلبوا من موسى ـ عليه السلام ـ أن يأذن لهم بمحاربة هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، أو على الأقل أن يرشدوهم ويعظوهم، ولكن لم يكن هذا ولا ذلك، وربما يظن أن القوم تركوهم وشأنهم فلا قتال ولا إرشاد، حتى هذه مع صعوبتها يمكن أن توجد لها الأعذار والمسوّغات. ولكن القوم لم يكن منهم شيء من هذا، بل الذي كان منهم لا تتصوره العقول ولا يخطر ببال، هؤلاء الذين رأوا آيتين عظيمتين كانت واحدة منهما كافية لإيمان أبعد الناس عن التوحيد، وهم السحرة من المصريين، كانت الأولى منهما يوم أن ألقى موسى عصاه فألقي السحرة ساجدين ﴿قالُوا آمنّا بربِّ العالمينَ ربِّ موسى وهارون﴾ وثبتوا على إيمانهم رغم تهديد فرعون بالعذاب وبالقتل والتصليب، مع أنه كان يمكن أن يكون لهم شأن ولم يؤمنوا إذا لم يكونوا كذلك مستضعفين؛ لأنهم لم يكونوا إسرائيليين. ومن هنا كانت الرسالات دائمًا لا يحملها إلا ذووا النفوس القوية.

وأما الآية الثانية، فلقد كانت قريبة العهد بهم لم تجف أرجلهم من الماء حينما منّ الله عليهم بالسير في البحر[1]، ومع هاتين الآيتين العظيمتين، فإنهم لما رأوا عبّاد الأصنام قالوا ياموسى اجعل لنا إلـهاً كما لهم آلهة.

لا أود أن أقارن بين هذه النفوس التي يشهد واقعها بأن التوحيد لم يكن متغلغلاً في نفوسهم ولم يكن مستقراً كذلك رغم طول الأمد، وبين أولئك الذين استقر التوحيد في قلوبهم لمجرد إيمانهم به فكانوا حرباً على الباطل والوثنية أينما كانت، وما أعظم الفرق بين أولئك الذين قالوا ما قالوه وبين أولئك الذين قالوا لفرعون وقد هددهم وتوعدهم ﴿إنَّا نطْمعُ أن يغفرَ لنا ربُنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾ ﴿اجعل لنا إلـهاً كما لهم آلهة﴾ وماذا عساه أن يقول لهم؟ بعد الذي رأوا من الآيات. لقد بكّتهم وأنكر عليهم ولكن ذلك كلّه لم يكن ليردعهم، لقد سمعوا موسى يدعو إلى توحيد الله ومع ذلك يريدون منه أن يعينهم على الشرك مع أنه كان يتوقع منهم أن يطالبوه ويستأذنوه بتحطيم هذه الأصنام، ما أعظمه من جهل! لهذا يقول موسى عليه السلام ﴿إنَّكُمْ قومٌ تجهلون﴾ ثم إذا كانوا يريدون أن يكونوا مثل هؤلاء فكان من الممكن أن يستمروا مع فرعون، وكما أغرق فرعون وتُبِّر ما هو فيه

(١) يروى أن يهودياً قال لسيدنا علي اختلفتم بعد موت نبيكم قبل أن يجف ماؤه فقال له سيدنا علي: خالفتم نبيكم وتركتم دينه قبل أن تجف أقدامكم.

ودُمِّـر، وبـطل عمله فإن أولئك كذلك. هكذا يقول موسى لبني إسرائيل ﴿إنَّ هـؤلاءِ متبَّر ما هُمْ فيه وباطل ما كانوا يعملونَ﴾.

ثم ينكر عليهم ويستهجن مقالتهم وفي هذا الأسلوب كذلك إنكار على غير الله أن يكـون إلـهـاً، أغـير الله أبغيكم إلـهـاً وهو فضلكم على العالمين الذين تُعايشونهم في زمانكم بما خصكم به من النبوة، ثم يذكرهم بالنعمة الكبرى، وهي انجـاء الله لهم من آل فرعون، وكانوا يريدون لهم أشد العذاب وأنكاه تذبيحاً للأبناء، وإذلالاً للنساء، وفي ذلك بلاء ما مثله بلاء! ولكن ترى هل إرعوى بنو إسرائيل وأنابوا؟ هل استسلموا وتابوا؟؟ اللهم: لا!!

وهذه صنيعة أخرى لا تقل عن سابقتها سوءاً يحدثنا القرآن الكريم: أن الله قد وعد موسى أن يعطيه التوراة فيها التشريع لبني إسرائيل بعد إغراق فرعون، ووعد الله موسى ثلاثين ليلة ولكنه زادها عشراً فتم ميقات ربّه أربعين ليلة وترك موسى أخـاه هارون في بني إسرائيل، وهـو يدرك ما سيحـدث منهم من إفساد وتخـريب، وتعكـير صفو، وإفساد جوّ، مع أنه قد ذهب ليأتيهم بما فيه عزهم ومجدهم، وأين هـؤلاء من الذين كانوا إذا عرفوا الوحي يتنزّل على رسول الله ﷺ سكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، فرحين مؤملين

أولئـك آبائي فجئـني بمثلهم إذا جمعتنـا ياجـريرُ المجـامـعُ

وما أشد حاجتنا إلى أن يقتدي الأبناء بالآباء!. يخرج موسى ـ عليه السلام ـ، وهو يحدث نفسه بما يمكن أن يُحْدثه قومه من بعده، يدلنا على ذلك تلك الكلمات التي قالهـا لأخيه هارون ﴿اخلفني في قَومي وأصلحْ ولا تتبع سبيلَ المفسدينَ﴾ إنها كلمات تحمل ما تحمل من هموم موسى مما لا حاجة لأن نعلق عليه.

تحدثنا الآيات بعد ذلك عن أن موسى جاء للميقات وكلّمه ربّه، وقال ربّ أرني أنـظر إليك، وكان ما كان حينما تجلى ربه للجبل فجعله دكّاً، وخرّ موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين. ويصطفيه الله تبارك وتعالى برسالاته وكلامه فليأخذ ما آتاه الله بقوة وليشكر الله على نعمه، ويكتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لما يحتاجون إليه فليأخذها بقوة وليأمر قومه

أن يأخذوا بأحسنها. وهنا يحدثنا الله في كتابه عما سيكون من بني إسرائيل مقابل هذه النعم وهذا الفضل الإلـهي سأريكم دار الفاسقين -وهو تهديد يتوعدهم به إن لم تعملوا بها في الألواح وتنفذوه- فسأجازيكم منتقمًا وأريكم دار الفاسقين(١) فالإراءة ليس المقصود بها التفرج والنظر، وإنما المقصود بها العذاب والنكال!

ثم تذكر الآيات الكريمة بعض صفات أولئك، **فأولاً**: أن آيات الله تبارك وتعالى ليس جديراً بها الذين يتكبرون بها بغير الحق، بل إن الله سيصرف عنهم هذه الآيات ويمنعهم من نورها وبركتها، هـؤلاء الذين يتكبرون على الحق وقد كانوا مستضعفين للباطل، هذا أولاً.

وأما ثانياً: فرغم عظم الآيات إلا انها لا تؤثر فيهم ﴿وأنْ يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾، وماذا يريدون أكثر من أن أصبح البحر يبساً بعد أن رأوا من إيمان السحرة حينما ألقى موسى عصاه، إنه فساد في الطبع، إذن هو الذي حملهم على أن يكون الإنحراف ديدنهم، وعلى أن تكون طبائعهم غير منسجمة مع الحق.

إن الدافع لذلك كله تأرجح العقيدة وعدم ثباتها، كل ذلك تبينه الآية الكريمة، وهي تشرح لنا طبيعتهم التي ينبيء الله بها موسى ـ عليه السلام ـ ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرونَ في الأرض بغير الحقِ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيلَ الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يرواَ سبيلَ الغّي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذّبوا بآياتِنا وكانُوا عنها غافلين والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم، هل يُجزَونَ إلى ما كانُوا يعملونَ؟﴾.

ومن هذه القاعدة، ومن هذا الوصف تبدأ الآيات الكريمة تفصل لنا بعض التفصيل لبعض ما كان من أولئك، وكل فعلة تفوق ما قبلها شناعة وتعظمها انحرافاً وعتوًّا! فماذا كان منهم بعد ذلك كله؛ كان منهم ما حدثنا عنه القرآن، وهو انه بعد أن ذهب موسى لمناجاة ربّه، والمدة التي تركهم فيها لم يطل عليها الأمد، ولكنهم مع ذلك اتخذوا من بعده من الحلي التي كانت معهم والتي هي للمصريين

---

(١) وهذا كما يقول الأب لابنه مثلاً سأريك مكان الكسالى وكما يقول الناصح لقومه سأريكم نتيجة المتفرقين وبيوت المتخاذلين.

في الأصـل جمعـوها واتخذوا منها عجلاً جسداً له خوار: أي صوت يشبه صوت البقر، وهل ذلك الخوار كان على سبيل الحقيقة أم كان بسبب حذق في الصنعة ذلك مالا يتعلق لنا به بحث، ويمكن أن نعلق عليه في سورة طه.

هاهم القوم الذين عاينوا آيات الله وشاهدوها يتخذون ـ ونبيهم بين أظهرهم وخليفته وأخوه وهو نبي كذلك ينهاهم، ولكن النفوس حينما تنحرف فإنها يسهل عليها أن تتلاعب بالحقائق. لقد أخبرهم موسى أنه سيغيب عنهم أربعين ليلةفماذا فعلوا؟؟ قسموا اليوم قسمين: جعلوا نهاره قسمًا، وليله قسمًا آخر، وبهذه الطريقة استطاعوا أن يتلاعبوا بالعدد، فلما مضى عشرون يوماً قالوا: هذه عشرون ليلة خلت ومثلها عشرون نهاراً فتلك أربعون! إذن لم يأت موسى.

إن هذا الأسلوب الـذي بدأه بنو إسرائيل في عهد موسى ـ عليه السلام ـ نجـده اليوم يظهر في أشكال متعددة. إن التلاعب بالحقائق الدينية هو شر من إنكارها، ولا يقل خطراً عن هذا الإنكار. اتخذ قوم موسى هذا العجل محاولين أن يقنعوا أنفسهم بهذا الخوار الذي يسمعونه، ولكن أي شيء في الخوار حتى لو كان حقيقاً ألم يروا أنه لا يكلمهم! ـ إذن كيف يمكن أن يتخذوه إلـهاً وقد خص الله موسى بالتكليم ـ ولا يهديهم سبيلاً ﴿اتَّخذوه وكَانوا ظالمينَ﴾ وصفهم موسى بالجهل حينما طلبوا أن يجعل لهم إلـهاً، لكن الله هنا وصفهم بالظلم؛ ولكل من الوصفين ركائزه وآثاره. ولما سُقط في أيديهم وهو تعبير قرآني رائع جديد، لما اشتد ندمهم وحسرتهم عضوا أيديهم ندماً على ما فرط منهم فاسقطوا أفواههم في هذه الأيدي فكأن الفَاهَ ساقطٌ، واليد مسقوطٌ فيها، ورأوا ما هم فيه وتيقنوا من ضلالهم قالوا: وقد خافوا العذاب لا رجوعاً إلى الحق ﴿لئن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ويغفرْ لنَا لنكُونَنَّ من الخاسرينَ﴾

أما موسى ـ عليه السلام ـ فلما رجع إليهم غضبانَ أسِفاً، شديد الغضب على ما كان منهم وعلى ما فعلوه بعده أنكر عليهم أشد الانكار.

لقد وجد موسى من قوم فرعون من آمن به ودعا قومه للإيمان به كذلك ـ كما عرفنا ذلك من قبل ـ فما بال أولئك؟! أنكر عليهم موسى بقوله ﴿بئسَمَا خَلَفتُمُوني من بعـدي أعجلتم أمـر ربكم﴾ جاء ومعه الألواح التي فيها خيرهم وهديهم.

وتصـور لنا الآيات هذا الغضب والتأثر والغيظ والألم الذي لحق بموسى ـ عليه السلام ـ، ألقى الألواح على الأرض! ولعلنا نتصور كيف كان هذا الإلقاء بعنف من الحـديث الذي حدثنا القرآن حيث أخذ موسى رأس أخيه يجره إليه، وهو النبي، وهو الذي طلب من ربه أن يرسل معه أخاه إلى فرعون، ولكنه هنا يأخذ برأسه بعنف وقوة وشدة يلومه ويعنفه على هذا الذي كان، وهارون هذا الذي شهد له موسى من قبل بما شهد ربما يؤهله لأن يكون وزيراً ونبياً مثله يقول لأخيه: وقد رأى منه ما رأى يتودد إليه ويتحبب ويتلطف ويتقرب بكونه أخاه ابن أمه المؤمنة الصادقة التي تحملت ما تحملت وهو يحدثه عن صفات أولئك القوم الذين جبلوا على الاستعبـاد ولكنهم اليوم وقد آنسوا من أنفسهم حرية ما لابد أن يستضعفوا غيرهم وتلك علة الضعفاء المستعبدين دائمًا لا يعتدل مزاجهم؛ فهم لا يستمرءون إلا الظلم فإن لم يجدوا أحداً يظلمهم فليظلموا هم من يجدون، بهذا أوحت كلمات هارون، وهـو ما حدثنـا عنـه القـرآن الكـريم ﴿إنَّ القـومَ استضعفُوني وكادُوا يقتُلُونَنِي﴾ فحريٌّ بك ياموسى أن لا تُشمتهم بي؛ لأنهم يحبون أن يستعينوا بكل منا على الآخر حتى يخلو لهم الميدان، ويتم لهم الأمر، وهكذا الباطل دائمًا وأهله يجدون بغيتهم وضالتهم في تمزيق أهل الحق، وتصديع بنيانه وهدم أركانه، يقول هارون لموسى: ﴿لا تُشمت بِيَ الأعداء ولا تجعلني مَعَ القومِ الظالمينَ﴾ فأنا لست منهم، وهنا يرق موسى ويلين قلبه، وكذلك شأن المؤمنين فضلاً عن أن يكونوا رسلاً؛ فيسأل ربه أن يغفر له ولأخيه ﴿قالَ ربِّ اغفر لي ولأخي﴾. وهو لا يذكر أحداً بعد ذلك، وهذا يدلنا على أبعاد نفسيّة منه ـ عليه السلام ـ ويدلنا على ما تحمله ولاقاه منهم، وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين.

أما الذين اتخذوا العجل فسينالهم الغضب والذلة في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر، وتلك سنة الله لأولئك المفترين على الحق، أما من عملوا السيئات ثم تابوا وآمنوا فإن ربّك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ، ويسكت عن موسى الغضب ـ وهو تعبير قرآني فيه روعة التصوير وعظمة الإبداع ـ ويأخذ الألواح التي ألقاها بشدة وعنف من قبل وفي نسختها هدى ورحمة ولكن لمن؟ هنا سر قرآني رائع لم يقل القرآن هدى ورحمة لقومك ياموسى ـ كما وجدنا ذلك التعبير من قبل لبني إسرائيل ـ بعد أن كان منهم ما كان ـ ولكن للذين هم لربهم يرهبون.

ثم يختار موسى من قومه سبعين رجلا ليستغفروا الله عما فرط من قومهم[١] وتأخذهم الرجفة ويحزن موسى على ذلك ﴿ربِّ لو شئتَ أهلكْتَهُمْ من قبلُ وإيايَّ﴾ وهو حزن القائد على من يمكن أن يكون معه من خيرة قومه ممن يعول عليهم ﴿أتُهلكُنَا بمَا فَعَلَ السفهَاءُ منّا﴾ فما هو إلا ابتلاؤك واختبارك ياربّ تضل به من تشاء وتهدي من تشاء، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خيرالغافرين، واكتب لنا حسنة في الدنيا والآخرة فإنا تبنا إليك، ويقول الله: ﴿عذابي أُصيبُ به مَنْ أَشاء﴾ وهذا مع تحقق أن الله لا يظلم أحداً، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة، وهذا تعريض ببني إسرائيل؛ لأن ما فرط منهم من أعمال كان بعيداً كل البعد عن مفهوم التقوى، وفيه كذلك إشارة إلى ما جبلوا عليه من البخل، وهذا ما أشارت إليه الآيات في غير هذا الموضع.

ثم بينت الآيات بعد ذلك أن هذه الرحمة ستكتب لأولئك الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات ولمن يجيء بعدهم ممن اتبع ﴿الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندَهُم في التوراة والإنجيل يأمُرهُم بالمعروف وينهاهُم عن المنكر، ويحلُ لهم الطيبات، ويحرم عليهمُ الخبائث ويضعُ عنهم اصرهم والأغلالَ التي كانت عليهم فالذين آمنوا وعزرُوه ونصرُوه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[٢] ثم -وفي هذا السياق بالذات- يتوجه الخطاب إلى سيدنا رسول الله ﷺ ليعلن رسالته للناس جميعاً، وهذا له مغزاه في سياق الحديث عن بني إسرائيل وعما لقيه موسى منهم، له دلالته ذات الجوانب المتعددة، فمع ما فيه من عموم رسالة النبي ﷺ فهو تبيين للمسلمين عظم المسؤولية، وثقل الأمانة وضخامة الأمر الذي حملوه وهو مع هذا وذاك نعي على بني إسرائيل، وتسجيل عليهم عدم إيمانهم بالرسالتين: الرسالة الخاصة بهم، والرسالة العامة؛ رسالة موسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ، وهو رابعاً: تسلية للنبي ﷺ لما سيراه من أولئك الذين لم يؤمنوا بنبيهم، فلا يعجبنَ مما يلاقيه منهم.

---

(١) هذا ما يراه بعض المفسرين، ويرى بعضهم أن هذا كان قبل اتخاذ العجل حينما جعل الله الجبل دكاً وخرّ موسى صعقاً.

(٢) يفتري الخوري حداد مدعياً أن هذه الآية مزيدة وليس محلها هنا وسنردّ عليه في كتابنا «افتراءات دائرة المعارف البريطانية» إن شاء الله تعالى.

ويعد هذا الإعلان العام ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رسولُ اللهِ إِليكُم جميعاً الذي له ملكُ السَّمـٰوات والأرضِ لا إِلـٰهَ إلا هُوَ يحيي ويُميتُ فآمنوا باللهِ ورسولِهِ النَّبي الأُمِّي الذي يُؤمنُ باللهِ وكلماتِه واتبعُوهُ لعلكم تَهْتَدُونَ﴾ بعد هذا يعود السياق لبني إسرائيل لينصفهم القرآن الكريم من أن بهم ﴿أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ ولكن هـؤلاء الذين يهدون بالحق قلة إذا قيسوا مع غيرهم كثرة وجمعاً.

ثم تبين الآيات الكريمة ما جبلوا عليه من الحسد والنعرة العرقية الضيقة المقوته، هذه النعرة العرقية الضيقة الممقوتة هي الأساس للنظرة المعوجة والسلوك السيء الذي يظهر من تصرفاتهم، فلقد قطعهم الله اثنتي عشرة أمة أسباطاً أمماً، وهذا هو عدد أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ، ولما كانوا في الصحراء القاحلة الحارة حيث لا ماء ولا ظل ولا شجر، ويستسقي القوم موسى عليه السلام، ويوحي الله إلى موسى حين ذلك أن يضرب بعصاه الحجر فتنبجس منه اثنتا عشرة عينا يعرف. كل أناس عينهم الخاصة بهم، ولا نظن أن هناك سبيلا للمقارنة بين هـٰؤلاء وبين أولئك الصفوة المختارة الذين وضعوا كل ما منَّ الله عليهم في سبيل الله، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ألَمْ تَرَ أنَّ السيفَ ينقصُ قدرهُ   إذا قيلَ هذا السيفُ خيٌر من العصـا

يعرف كل أناس مشربهم، وكان يمكن أن تكفيهم عين واحدة، ولكنه القرآن يلقي لنا الظلال، ويبين من الاشارات ما هو حريّ بالوقوف عنده والإمعان فيه، وبعد أن تحل مشكلة الماء تحل المشكلات الأُخر فمن أجل أن لا يؤذيهم الحر يظلل الله عليهم الغمام، وكذلك ينزل عليهم المنّ والسلوى ليكون عنصراً غذائياً تاماً لهم، تلك الطيبات التي رزقهم الله، ولكن مع ذلك يبين القرآن أنهم لم يشكروا هذه النعم الكثيرة مما كان سبباً في ضياعها ﴿ومَا ظلمونَا ولكنْ كَانُوا أنفسَهم يظلمونَ﴾.

ثم تنتقل بنا الآيات إلى مشهد آخر وهو أنهم طبعوا على المخالفة، لا من حيثُ الأعمال فحسب، بل من حيث القولُ كذلك، فقد أمروا أن يدخلوا القرية ليأكلوا منها ويدخلوا الباب سجّداً، وأن يقولوا كلمات أمروا بقولها ﴿حطّة﴾ ولكنهم بدّلوا القول والفعل معاً؛ فيستحقون العذاب بسبب الفسق والظلم.

ثم تتحدث الآيات عن تلاعبهم في دين الله، فلقد كانوا في قرية قريبة من البحر تأتيهم الحيتان يوم السبت شرعاً؛ لأنه كان محرماً عليهم الاصطياد يوم السبت والله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى جعل السمك يلهم هذه الحقيقة وهي عدم اصطياده يوم السبت فكان يأتي السواحل القريبة منهم، وفي بقية أيام الأسبوع ما كان السمك ليقدم على هذه الخطوة كل ذلك كان ابتلاء من الله ليختبر دينهم، ولكنهم عدوا في السبت وبدأو يصطادون فيه، ولم يؤثر فيهم وعظ الواعظين، فأخذوا بعذاب بئيس، وأنجى الله الناهين عن السوء؛ ولكنهم حينما تمادوا في غيهم قال الله لهم كونوا قردة خاسئين، ومن أجل هذا تكفل سبحانه أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

أما ما لهم اليوم من دولة، فإن ذلك إنما هو ابتلاء للمسلمين ليدركوا سنة الله في عقابهم حينما يعرضون عن الحق ﴿إنَّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيمٌ﴾ وقطعهم في الأرض أمماً كل هذا لأنهم أخلدوا إلى الأرض، وأخذوا العرض الأدنى مدعين انه سيغفر لهم، زاعمين أنهم شعبُ الله المختار، أما الذين يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة فأولئك هم المصلحون الذين لن يضيع الله أجرهم.

وأخيراً تذكر السورة الكريمة ما تختم به الحديث عنهم، وهو أن تدينهم لم يكن مبدأً تتفاعل معه قلوبهم، وإنما كان خوفاً، وحينما يكون الإلتزام بالمبدأ خوفاً من العقاب فقط فإنه سرعان ما يتحول إلى مخالفات، وهذا ما نراه من نظرة الكثيرين إلى القوانين الوضعية، فلقد نتق الله الجبل فوقهم -أي دفعه- كأنه ظلّة، وظنوا أنه واقع بهم، وقيل لهم أن خرجتم عن الحق فسيقع هذا الجبل عليكم، فكان تمسكهم بالحق نتيجة لهذا الخوف، ومثل هذا التدين لا يغني عن صاحبه شيئاً[1].

هذا ما ذكرته سورة الأعراف عن بني إسرائيل، وهو -كما رأينا- متعدد

---

(١) وقد روي عن بعضهم وأظنها السيدة رابعة رحمها الله «إلهي إن كنت أعبدك طمعاً في جنتك فلا تدخلني جنتك وإن كنت أعبدك خوفاً من نارك فأحرقني بنارك، وإن كنت أعبدك لأرى وجهك الكريم فأرني وجهك الكريم» ومع اننا لا نلزم أحداً بمثل هذا فكلنا يطمع في الجنة ويخاف من النار ولكن نود أن نبين أن التدين لا ينبغي أن يكون خوفاً فحسب فالمسلم الصادق مادام يدرك أنه يرضي الله فليكن بعد ذلك ما يكون.

الجوانب، له أبعاده الكثيرة المختلفة، وثمراته التي يمكن أن يجنيها المسلمون إن كانوا جادّين.

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ
ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ
مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم
مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ
أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً
وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ

إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ
رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾
قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ
دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟
بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟
سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ
فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ
فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ
عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ
عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ
ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ لا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ قُلۡ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي
لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ
وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨
وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩

وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ
فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ
مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ
وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ وَإِذۡ

قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ
شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ
لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ
فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ
يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ
حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ
حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ
لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ
عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ
﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن
يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ
لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ
ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ

وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾
۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

(٢) ثم تأتي سورة طه:

فنجد الآيات فيها وبعد الحديث عن فرعون وإغراقه تتجه الآيات لخطاب بني إسرائيل، ومن روعة التنزيل التي تأخذ بالألباب دقة وموضوعية أن الآيات في سورة «طه» بدأت من مرحلة بعد التي تحدثت عنها سورة الأعراف، فقد مر معنا أن سورة الأعراف بعد الحديث عن فرعون ذكرت لنا ما كان من بني إسرائيل بعد أن جاوز الله بهم البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، لكن الحديث في سورة طه يتجاوز هذه المرحلة؛ إذ يبدأ مذكراً لبني إسرائيل بهذه النعم الثلاث الكبرى: نعمة الإنجاء من العدو، ثم نعمة الهداية؛ وهي من أهم النعم المعنوية، ثم النعمة المادية التي تصح به الأبدان.

بهذه النعم الثلاث بدأ الحديث في سورة طه ﴿يا بني إسرائيلَ قَدْ انجيناكُم من عَدُوكُمْ وواعدناكُم جانبَ الطُّور الأيمنَ ونزّلنا عليكُمُ المنَّ والسّلْوَى. كُلُوا من طيباتِ ما رزقنَاكُمْ﴾، ولكن الله العليم بأسرار النفوس يعلم ما سيكون منهم من طغيان؛ فيحـذرهم، وكان حرياً بهم أن يشكروا النعمة ﴿ولا تَطغَوا فيهِ فَيحلَّ عليكُمْ غَضبي ومن يَحلِل عليه غَضَبي فقدْ هَوى وإنِّي لغفّارٌ لمن تَابَ وآمنَ وعَملَ صالحاً ثُمَّ اهتَدى﴾ ونلمح من الآية الكريمة فظاعة ما سيقترفه بنو إسرائيل، نلمح

ذلك من الكلمة الأولى ﴿غفّار﴾ فهي صيغة نلمح منها -كما قلت- فظاعة الذنوب وكثرتها، لأن صيغة غفار تدلنا على كثرة المغفرة وذلك إنما يكون لكثير من الذنوب، وما أجمل كلمة ﴿ثم﴾ في الآية الكريمة! ﴿ثم اهتدى﴾ فهي تدلُّ على إمهال الله لهم ليراجعوا عقولهم وتاريخهم ومنن الله عليهم.

ثم تنتقل الآيات إلى ما كان بين موسى وبين ربّه، ونلاحظ هنا انها تطوي ما ذكر في سورة الأعراف؛ لأنه قد عرف من قبل، وفي ذلك أعظم دليل على ما نقصد إليه من عدم وجـود التكرار في القرآن، فلقد ذكرت سورة الأعراف مواعدة الله لموسى، وتحديد زمن هذه المواعدة، وما يتصل به من وصية موسى لأخيه هارون أن يخلفه في قومه، وما كان بعد ذلك من حديث مرَّ معنا من قبل. كل ذلك قد طوي من هذه السورة -سورة طه- وجاءت بشيء جديد، وهو قول الله تعالى ﴿وما أعجلكَ عن قومِكَ ياموسى﴾. كان قد سبق قومه شوقاً لمناجاه ربّه. ويجيب موسى ـ عليه السلام ـ معتذراً معللا عجلته بأنهم: أولاء على أثره ليس بينه وبينهم مسافة شاسعة ﴿وعجلتُ إليكَ ربّ لترضى﴾.

وهنا لا نجد الفصُول التي ذكرت في سورة الأعراف كذلك، وإنما نقرأ قول الله ﴿إنّـا قد فتنّا قومَكَ من بَعدكَ وأَضلَّهُمُ السَّامريُّ﴾ ولم يذكر السامري -كما رأينا- في سورة الأعراف. ويرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، منكراً على قومه ما كان منهم ﴿أَلَمْ يَعدكُم ربكم وعداً حسناً أَفطالَ عليكُم العَهْدُ أم أردتُم أن يحلَّ عليكُم غَضَبٌ من ربكُم فَأخلفتُم موعدي﴾. وإذا قارنا هذا القول بما ذكر في سورة الأعراف نجده شيئاً آخر، فلقد قال لهم في سورة الأعراف ﴿بئسما خلفتموني من بعدي أَعجلتم أمر ربكم﴾. ولكنه هنا فصّل في إنكاره عليهم راداً كل ما يمكن أن يتعللوا به، ويجيبونه بقولهم: -وهذا ما لم نجده في سورة الأعراف كذلك ولكنه ذكر هنا لأول مرة- ﴿ما أخلفنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ولكنّا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم﴾ أي ما أخلفناه بإرادتنا واختيارنا.

وتتحدث الآيات مفصلة في شأن العجل الذي كان الحديث عنه مجملاً في سورة الأعـراف ﴿فقذفناهَا وكذلكَ ألقى السَّامريُّ﴾ فصنع لهم من هذه الزينة عجلًا جسـداً له خوار فقـالـوا حينـما رأوه كذلك ﴿هَـذا إلـهُكم وإلـهُ مُوسَى

فَنَسِيَ﴾. وفي هذا أعظم دلالة على تخلخل العقيدة في نفوسهم، وانعدام نورها، فكيف يصح في عقل عاقل أن يجعلوا العجل إلـهاً لهم ولموسى كذلك، وإن يبادروا فيصفوا موسى بالنسيان، والقرآن يصور ذلك بلمحات سريعة خاطفة معبرة، فذكر منها هذه الواو -واو الجماعة- ﴿فقالوا﴾ فلم يصدر هذا القول إذن عن السامري وحده، وإنما اشتركوا فيه جميعاً. ثم هذه «الفاء» ﴿فنسي﴾، كأنهم أرادوا أن يثبتوا ذلك دون تمهل وتريث.

ولا بأس أن تذكر هنا أن خوار العجل يذهب فيه العلماء مذهبين:
فمنهم: من يفسره على الحقيقة، فيرى أنه خوارٌ حقيقي اكتسبه السامريّ بالقبضة التي قبضها من أثر فرس جبريل ـ عليه السلام ـ، وكان من خاصيتها أنها لا تمس شيئاً إلا ويوجد الله فيه الحياة.

ويذهب فريق آخر إلى أن ذلك لم يكن على الحقيقة، وإنما كان ذلك بسبب مهارة السامريّ، فلقد وضع أنابيب في داخل هذا العجل الذي صاغَهُ من حلي بحيث يدخلها الهواء فيحدث صوتاً كأنه الخوار.

ورغم أن القول الأول: ذهب إليه كثير من المفسرين إلا أننا لا نجد دليلاً قاطعاً مُطمئناً يلزمنا أن نأخذ به ونصدقه.

ثم يقول القرآن بعد ذلك مبكتاً لهم وناعياً عليهم ﴿أفلا يَرونَ الَّا يَرْجِعُ إليهم قولاً﴾ ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً كذلك.

ثم تحدثنا الآيات عما قاله لهم هارون من قبل، وهذا القول لم يذكر كذلك في سورة الأعراف. فلقد حذرهم هارون ـ عليه السلام ـ قائلاً: ﴿ياقوم إنَّما فُتنتُم به -أي بهذا العجل-[1] وإنَّ ربكُمُ الرحمنُ﴾ وما أجمل موقع هذه الكلمة: ﴿الرحمن﴾ الذي شملكم بأنواع من الرحمة رحمكم من إستضعاف فرعون، وتوالت عليكم رحماته، فما أجدركم أن تتبعوني وتطيعوا أمري، ولكنهم أجابوه مصرين على عنادهم غير متراجعين عن غيهم. ويصور القرآن الكريم لنا هذه النفسية المستغرقة

---

(١) أو بالسامري.

في الباطل بما تحمله الكلمات القرآنية ﴿لن نبرحَ عليه عاكفينَ﴾ فانظر إلى موقع هذه الكلمة ﴿لن﴾ وما بعدها. هكذا سيظلون في غيهم سادرين حتى يرجع إليهم موسى -كما يقولون- وما أبدع النمط القرآني في تصوير الأحداث، لقد حدثنا عن رجوع موسى من قبل، ولكنه انتقل للحديث عن بني إسرائيل وما كان بينهم وبين هارون، ولهذا يطوي القرآن قضية رجوع موسى هنا ليحدثنا عما كان بينه وبين هارون. ولقد كان الحديث مرتباً في سورة الأعراف على غير هذا النسق؛ لأن سورة الأعراف لم تذكر لنا تلك المحاورة بين هارون وبين بني إسرائيل ولا التي كانت بينهم وبين موسى كقولهم: ﴿ما أخلفنا موعدك بملكنا﴾. ولكن سورة الأعراف صورت ما كان من موسى مع أخيه هارون حين أخذ برأسه يجره إليه، أما هنا فلقد حدثتنا عما قاله موسى لهارون.

وهكذا تذكر كل سورة جانباً فجلَّ اللهُ الذي نزّل هذا القرآن ﴿وبالحقِّ أنزلنَاهُ وبالحقِّ نزَلَ﴾ ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ ﴿وقرآناً فرقنَاهُ لتقرأهُ على النَّاسِ على مُكثٍ ونزلنَاهُ تنزيلاً﴾.

وهكذا ذكرت سورة الأعراف عنف موسى مع أخيه، ذكرت لنا الجانب العملي. أما سورة «طه» فلقد ذكرت الجانب القولي ﴿قال ياهارونُ ما منَعَكَ إذْ رأيتَهُم ضَلُّوا ألَّا تتبعن أفَعَصيتَ أمري﴾ ويجيب هارون معتذراً معللاً عدم اتباعه لأخيه ﴿قَالَ ياابْنَ أمَّ لا تأخذْ بلحيتي ولا بِرأسِي﴾. وهذا الأخذ: ذكرت سورة الأعراف جانباً منه ﴿وأخذَ برأس أخيه يجره إليه﴾. وذكر هناك بأن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه، وقد مر معنا ذلك من قبل فلا حاجة لإعادته. أما هنا فيعلل هارون ما كان منه بقوله ﴿أنِّي خشيتُ أن تقولَ فرّقت بينَ بني إسرائيلَ ولم ترقُبْ قولي﴾ هذا الذي منعه من أن يلحق بأخيه؛ لأنه حينما يلحق به سيكون معه قوم من بني إسرائيل فخشي ما يمكن أن يقوله له موسى ـ عليه السلام ـ، وتكتفي السورة بهذا الجانب؛ لأن سورة الأعراف تكفلت بما كان من موسى مع أخيه هارون، وقد قبل عذره، وسأل الله أن يغفر له ولأخيه.

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد آخر لم يذكر كذلك في سورة الأعراف ﴿قالَ فَما خطبُكَ ياسامريُّ﴾، ويجيب السامري بأنه بَصُرَ بما لم يبصر به القوم، فقبض قبضةً

من أثر الرسول فنبذها، وكذلك سولت له نفسه وأملت له.

ونذكر هنا أن العلماء اختلفوا في تأويل هذه الكلمة ﴿قبضت قبضة من أثر الرسول﴾.

فذهب الأكثرون: إلى أن الرسول هنا جبريل ـ عليه السلام ـ، والقبضة التي قبضها، إنما قبضها من أثر حافر فرسه، وقد رآه. وهذه القبضة كانت لا تمس شيئاً إلا ويحدث الله فيه الحياة -كما قلت من قبل-.

وذهبت طائفة إلى أن الرسول هنا هو موسى ـ عليه السلام ـ وقوله ﴿قبضت قبضة من أثر الرسول﴾ أي: أخذت شيئاً من تعاليم موسى وهديه، ولكني نبذته بعد ذلك مرتداً، وكذلك سولت له نفسه. والنفس أمّارة بالسوء ويقول موسى ـ عليه السلام ـ للسامري إذا كنت كذلك فاذهب ولابد أن تلاقي عقابك، وجزاءك العاجل والآجل.

أما العاجل: في هذه الدنيا فهي إنك ستكون وحدك لا يقربك أحد من الناس، ولا يستطيع أن يمسك؛ لأن ذلك سيؤذيك. وأما الآجل في الآخرة فلك موعد لن تخلفه. أما هذا العجل الذي فتنت به بني إسرائيل الذي عكفت عليه وعكف عليه بنو إسرائيل معك فلنحطمنّه ولننسفنه في اليمّ.

وكما أن سورة الأعراف عقبت على قصة بني إسرائيل بإثبات الوحدانية والربوبية لله وحده إذ جاء عقبها ﴿وَإِذْ أخذ ربُّكَ من بني آدم من ظهورهم ذريَّتَهم وأشهدهم على أنْفُسِهم ألستُ بربكم قالوا: بلى شهدنا﴾ فإن هذه السورة كذلك عقّبت على قصة بني إسرائيل بهذا المعنى، ولكن بأسلوب آخر وذلك تعقيب بديع، بل هو آية من آيات النظم والموضوعية كذلك ﴿إنَّما إلـهكم اللهُ الذَّي لا إلـه إلا هو وسع كل شيء علمًا﴾.

تلكم هي قصة بني إسرائيل في سورة طه، ومع تشابه الموضوع بينها وبين سورة الأعراف فهل تجدون تكراراً؟! إن لكل زاويتها الخاصة التي تناولت منها هذا الموضوع، وفي كل من الأسرار النفسية والبيانية واللفتات الإجتماعية، ما يطمئن له القلب، وتستريح له النفس.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ
جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ
مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ
وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن
قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ
رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ
يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم
مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ
أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾
فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا
يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ
يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ
أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ
إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

(٣) أما سورة إبراهيم عليه وعلى نبينا صلاة الله وسلامه: فقد جاءت فيها إشارة للحديث عن موسى وبني إسرائيل، ومن بديع الحُسْن، وجمال الموضوع، وروعة البراعة، أن تكون في سورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ إشارة لبني إسرائيل الذين ينتسبون إليه.

ففي السورة الكريمة نقرأ قول الله تبارك تعالى ﴿وَلقد أرسلنَا موسى بآياتِنَا أَنْ أخرجْ قومَك من الظلماتِ إلى النّور وذكّرهم بأيّام الله، إنَّ في ذلك لآيات لكل صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ويذكر موسى قومه امتثالاً لأمر ربه يذكرهم بقوله ﴿اذكُرُوا نعمةَ اللهِ عليكُمْ﴾ وهذه العبارة يبدأ موسى بها بني إسرائيل في أكثر من موضع ـ كما سنعرف ذلك إن شاء الله ـ وما نظن ذلك إلا لأنه رأى منهم تفريطهم في النعم ومجانبتهم للحق في شكرها فهو يذكرهم دائماً بهذه النعم، ومن أعظمها نعمة الحرية ورفع نير الإستعباد؛ ذلك لأن الأمم المستعبدة تحرم كثيراً من النعم نتيجة رضاها بهذا الإستعباد، وهذا الإستعمار. ولهذا وجدنا موسى ـ عليه السلام ـ يذكر أول ما يذكر هذه النعم بقوله: ﴿إذْ أنجاكُم من آل فرعونَ يسومُونَكُمْ سُوءَ العذابِ

ويُذبّحونَ أبناءَكُم ويستحيون نساءَكُم وفي ذلكُمْ بلاءٌ من ربكُم عظيمٌ﴾، ولكن موسى -عليه السلام- يحس جحود قومه وكفرهم بآلاء الله ونعمه، فيقول كما حدثنا القرآن ﴿إن تكْفُروا أَنتُمْ ومن في الأرض جميعاً، فإنَّ الله لغنيٌ حميدٌ﴾ وقد بيّن لهم عاقبة الشكر والكفران ﴿وإذْ تأذَّنَ ربكُم لَئن شكرتُم لأزيدنَّكُمْ ولئن كفرتُمْ إنَّ عَذابي لَشديدٌ﴾. بهذه العبارات الهادفة الهادرة، وبتحذير موسى قومه عاقبة ما حلَّ بالأقوام السابقة تنتهي هذه الإشارة في السورة الكريمة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

وبهذا ينتهي الحديث عن موسى مع بني إسرائيل في السورة المكية. والذي ينبغي أنْ نُسجله هنا أن الحديث عن موسى مع بني إسرائيل لم تقتصر عليه السور المكية -كما رأينا في نبأ فرعون- وإنما كان في السور المدنية كذلك، والذي نلمحه في سبب ذلك -والله أعلم بكل شيء- أن الحديث عن بني إسرائيل كان له ضروراته وأسبابه في السور المكية والمدنية على السواء، فالمسلمون في المدينة يجاورهم اليهود، وكان من الممكن أن يتعايشوا معهم لولا ما جُبلوا عليه من طباع الأفاعي، فكان الحديث عنهم في الآيات المدنية فيه من البصر للمسلمين ما فيه

كي يحددوا مواقفهم، ويأخذوا حذرهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فالحديث عنهم في السور المدنية كذلك يذكّر المسلمين بما يجب عليهم اتجاه دينهم ونبيهم حتى لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من شقشقات جدلية، وتنازع وفشل، يؤدي إلى ذهاب الريح والقوة. وهذا هو اللون الذي تحدثنا عنه السور المدنية مما كان من بني إسرائيل مع نبيهم ـ عليه السلام ـ.

وعلى كل حال فسنقف الآن عن حديث بني إسرائيل وما كان منهم مع نبيهم؛ لنتحدث عن الجوانب الأخرى من قصة موسى ـ عليه السلام ـ فإذا انتهينا منها -بإذن الله وتوفيقه- نُعَاود حديثنا عن بني إسرائيل في السور المدنية فلا نخرج عن النهج القرآني، ولله الحمد في الأولى والآخرة.

٣- مبدأ الرسالة: -

الجانب الثالث: من قصة موسى ـ عليه السلام ـ قضية الرسالة. هذا الجانب كان الحديث عنه قبل الحديث عن مولد موسى ـ عليه السلام ـ فنحن نجده في سور ثلاث سورة طه والنمل والقصص.

(١) **ولعل سورة طه** كانت أكثر السور تفصيلاً لهذا الجانب؛ إذ بدأت الآيات بقول الله تبارك وتعالى ﴿وهَلْ أَتَاكَ حديثُ موسى إِذْ رأى ناراً فقالَ لِأهلِهِ امكثُوا إنّي آنستُ ناراً لعلّي آتيكم منها بقبسٍ أو أجدُ على النَّار هدى﴾، هكذا تبدأ القصة في هذه السورة «آنس ناراً» إذ ليس الإيناس الإبصار وحده، فيكون حسياً فحسب، وإنما هو أمر حسي ونفسي معاً، فطلب من أهله المكث، ـ وهو غير اللبث لأن ذلك محدد الزمن مبين المدة وغالباً ما يكون ذا أمد بعيد مثل: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنينَ وازدادوا تسعاً﴾ ﴿لبثنَا يوماً أو بعض يوم﴾ ﴿قالَ كم لبثت قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم قال بل لبثتَ مائة عام﴾ وليس كذلك المكث الذي ذكر هنا ـ لعله يأتيهم منها بقبس أو يجد على النار هدى، إنه يرجو ألا يرجع بغير فائدة ﴿فلَما أَتاهَا نوديَ ياموسى﴾ هكذا بلا مقدمات ولا وسائل ﴿إنّي أَنا ربُّكَ فاخلعْ نعليكَ إنَّكَ بالوادِ المقدّسِ طُوىً﴾ ويفاجئُه الخبر السار باختيار الله له، وإذا كان الأمر كذلك، فهي الرسالة فليلقي لها بالاً وليفتح لها قلبه وأذنيه، فاستمع لما يوحى، ويبدأ الوحي بكلمات التوحيد والأمر بالعبادة وبيان الساعة والبعث، تلك هي أمهات العقائد

التي يشترك بها الأنبياء جميعاً ﴿إنّني أنا اللهُ لا إلـه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاةَ لذكري، إنَّ الساعةَ آتيةٌ أكادُ أخفيها لتجزى كلُّ نفس بما تَسْعَى﴾، ولما كان أمر الساعة أمراً يحاج فيه المرتابون حُذر من أولئك ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يؤمنُ بها واتَّبعَ هواهُ فَتردَى﴾ فالحائل بين الناس وبين الإيمان بالساعة، إنما هو اتباع الأهواء.

وبعد أن تمت الرسالة، وأشرقت أنوار الحق في جنبات نفس موسى ـ عليه السلام ـ، وملأت قلبه، وذاق لذائذ الأنس، يلقى عليه هذا السؤال ﴿وَما تِلكَ بيمينكَ ياموسى﴾ فتحمله لذة الأنس على أن يسهب في قوله، ويطنبَ في حديثه، وهي قضية نفسيةٌ ما إخالها يغفل عنها أحد، فكم من موطن يجد أحدنا فيه نفَسَهُ تواقة؛ لأن يطيل الوقفة، فكيف إذا كانت بين موسى وخالقه الذي أنعم عليه! فيقول ﴿هي عصاي﴾ ثم يتطوع للتحدث عما يجنيه من هذه العصا من فوائد، وكل ذلك إنما هو تمهيد للمعجزة، ﴿قال ألقها ياموسى﴾. وتكون المفاجأة ﴿فألقاهَا فإذا هي حيةٌ تَسعى﴾ ويستمر الحديث ﴿خُذهَا ولا تَخَفْ سَنُعيدُهَا سيرتَها الأولى﴾، ثم تكون الآية الثانية آية اليد يضمها إلى جناحه؛ فتخرج بيضاء من غير سوء. كل هذا ليريه الله من آياته الكبرى ويكلف بالأمر والإنذار.

وهكذا نجد أن مرحلة الإنذار إنما هي المرحلة الثانية بعد مرحلة الإرسال. وهنا يعود موسى وقد ملأ قلبه الأنس ليسأل ربه أن يعينه على ذلك ﴿ربِّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ وقد أشرنا لذلك من قبل عند حديثنا عن موسى مع فرعون في سورة طه، فلا نرى ضرورة لإعادته هنا.

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

(٢) أما السورة الثانية التي تحدثت عن الرسالة فهي سورة النمل : فبعد قول الله تعالى : ﴿وإنَّكَ لتُلقى القرآنَ من لدنْ حكيمٍ عليمٍ﴾ تبدأ القصة ﴿إذْ قالَ موسى لأهلِهِ إنّي آنستُ ناراً سآتيكُم منها بخبرٍ أوْ آتيكُمْ بشهابٍ قبسٍ لعلكم تَصْطَلونَ﴾ ، والذي نجده هنا أن موسى يقول لأهله ﴿سآتيكم منها بخبر﴾ ، فقد عبر هنا «بالسين» الدالة على الإستقبال ، بينما عبر في سورة طه ، بحرف «لعل» الدالة على الترجي ، ولنا عودة لهذا إن شاء الله .

ثم يبين هنا الغرض من الشهاب بقوله ﴿لعلكم تصطلون﴾ ﴿فلما جاءها نُوديَ أنْ بُورِكَ من في النار ومن حولَهَا وسبحانَ الله ربِّ العالمينَ ياموسى إنَّهُ أنا الله العزيزُ الحكيمُ﴾ ، ولا نريد أن نشقشق الحديث هنا فيما ذكره المفسرون وأطالوا الحديث فيه ، عمن هو في النار ومن حولها ، فليرجع إليه من شاء[1] في كتب

(١) الذي يظهر لنا والله أعلم أن هذه البركة لمكان النار . وكل ما هو حولها فهو حديث عن بركة أرض فلسطين ، وقيل غير ذلك .

التفسير. المهم اننا لا نجد التفصيل الذي فسرته سورة طه. ولكن الذي ذكر هنا هو تنزيه الله تبارك وتعالى لأن التسبيح هو التنزيه كما ذكر وصف الله هنا بالعزة والحكمة وبدون المقدمات التي ذكرت في سورة طه يؤمر بإلقاء العصا، ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ياموسى لا تخفْ إنيّ لا يخافُ لدي المرسلون﴾ ثم يطمئن بعفو الله عنه عما صدر منه ﴿إلاَّ مَنْ ظَلم، ثُمَّ بَدّل حُسناً بعد سُوءٍ فإنيِّ غفورٌ رحيمٌ﴾

ثم يأتي دور الآية الثانية، وهي آية اليد، ولكنها هنا جاءت بصيغة غير الصيغة التي جاءت بها سورة طه ﴿وأدخِلْ يدكَ في جيبكَ تخرجْ بيضاء مِنْ غَير سُوءٍ﴾ ويبين له بأن هناك آيات أخر ﴿في تسع آياتٍ إلى فرعون وقومه﴾. وقد ذكرنا من قبل أن قوم فرعون الفاسقين جحدوا بالآيات، وقد استيقنتها أنفسهم، ولكن كان جحدهم ظلمًا وعلواً. والظلم والعلو: أصل لكل إنحراف، وسبب في كل مفسدة؛ فالظلم: سلب لحق الغير وانكار وحرمان وحيلولة بينه، وبين ما منحه الله في الحياة. والعلو: إختيال ينشأ عن شعور مقيت يجانب الحق والصواب فهو اعطاء للنفس أكثر مما هو لها، ونذكر هنا قول الله لنبيه ﷺ في سورة الأنعام ﴿قد نعلمُ إنّه ليحزنك الذي يقولونَ فإنّهم لا يكذبونك ولكنَّ الظالمينَ بآيات اللهِ يجحدون﴾. حقاً إنهم لا يكذبون الرسول ﷺ، ولكنه الظلم دفعهم إلى جحد الآيات

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ

سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾

(٣) **ثم تأتي سورة القصص**، وهي السورة الوحيدة التي تحدثت عن مولد موسى وما كان بعده من حلقات. صحيح أن سورة طه قد أشارت إلى ذلك، ولكنه كان إشارة موجزة **أولاً**، وكان في معرض الحديث عن النعم التي أنعم الله بها على موسى **ثانياً**، والذي يهمنا الآن أن نتحدث عن جانب الرسالة في سورة القصص، وإن كان قد ذكر بعد الحديث عن مولده حتى تكون السلسلة متصلة الحلقات. في سورة القصص جاء قوله تعالى:

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ[1] فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

(١) الرهب: الخوف.

ويهمنا الآن أن نبين أن سورة القصص قد حددت المكان الذي نودي منه موسى، وهذا ما لم نجده في سورة أخرى وهو قوله سبحانه: ﴿من شاطيء الوادِ الأيمن في البقعة المباركةِ من الشجرة أن ياموسى إنِّي أنا الله ربُّ العالمينَ﴾.

ولكن لابد من وقفة عند بعض القضايا، ففي سورة طه ﴿لعلِّي آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدى﴾ وفي سورة النمل ﴿سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ لعلكم تصطلون﴾، وفي سورة القصص ﴿لعلي آتيكم منها بخبرٍ أو جذوةٍ من النارِ﴾. هذا أولاً،

وأما ثانياً: ففي سورة طه ﴿فألقاها فإذا هي حيةٌ تسعى﴾ أما سورتي النمل والقصص فقد ذكر قوله سبحانه: ﴿كأنّها جآن﴾

أما ثالثاً ففي سورة طه ﴿واضمم يدك﴾، وفي سورة القصص ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ هذه قضايا ثلاث لابد من الوقوف عندها.

أما أولاً: فقد ذكر علامة الرافدين الألوسي ـ رحمه الله ـ أن «السين» «ولعل» يؤديان إلى معنىً واحد، ولسنا معه في هذا، وما نظن الفرق بين الكلمتين يحتاج إلى دليل وبرهان، والذي نظنه -والله أعلم- أن موسى ـ عليه السلام ـ كانت تتعاوره حالات نفسية مع أهله، فهو تارة يعبر بحرف الترجي والتوقع، وتارة يود أن يطمئن أهله بأنه آتيهم لا محالة بما هو خير لهم حتى لا يكونوا في انشغال وقلق، كيف لا وهو سيدعهم وحدهم، فلابد إذن من أمر يشعرهم بالراحة والطمأنينة ولا شك أن «السين» يكمن فيها كل ذلك، فكأنه لا يريد أن يقطع بالأمرويجزمهولا يريد أن يؤكد النتيجة حتى لا يصاب بخيبة أمل، فتارة يذكر الترجي وتارة يؤكد القضية، فهو يُعدُّ أهله إعداداً نفسياً لتقبل ما يحدث من النتائج، ونظن أن أي واحد منا حينما يجابه بموقف مثل هذا -إن وفقه الله- فسيسلك هذا المسلك.

أما تعدد العبارات، فلقد ذهب الاستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه «القصص القرآني» إلى أن الذي قاله موسى، إنما هو عبارة واحدة فقط، أما العبارتان الأخريان فكان مما يدور في خلده ويجول في خاطره ـ عليه السلام ـ.

وبالطبع فنحن لسنا معه فيما ذهب إليه، لأن الله لا يمكن أن يسجل خواطر دارت في خلد موسى يثبتها حديثاً بينه وبين أهله، وما نظن ذلك يتفق مع موضوعية

القرآن الكريم وواقعيته!، ولكنها عبارات قالها موسى ـ عليه السلام ـ ليوطن نفسيّة أهله -كما قلنا من قبل- وهو الذي سيتركهم دون أحد معهم يؤنسهم في غيبته.

ولقد اطلعت على ما كتبه جار الله الزمخشري -رحمه الله- بعد أن سطرت ما سطرت فوجدته -رحمه الله- قد أدرك بحسه المرهف، وقريحته الوقادة، وطبيعته المسترسلة المنقادة، وفهمه النفاذ، أدرك هذه اللمحة الدقيقة فهاهو يقول عند تفسيره لآية النمل ﴿سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ لعلكم تصطلون﴾

فإن قلت: سآتيكم منها بخبر، ولعلي آتيكم منها بخبر كالمتدافعَين؛ لأن أحدهما ترج والآخر تيقن.

قلت: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه الخيبة.

فإن قلت: كيف جاء بين التسويف؟ قلت: عدة لأهله انه يأتيهم به وان أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. فإن قلت: فَلِمَ جاء «بأو» دون «الواو»؟ قلت: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ثقة بعبادة الله، إنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده. وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين وهما العزّان: عز الدنيا وعز الآخرة»(1).

أما قوله تعالى ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ في سورة طه، وقوله في سورة القصص ﴿اسلك يدكَ في جيبكَ تخرجْ بيضاءَ من غير سُوءٍ، واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ فيقول فيها جار الله عليه الرحمة: «فإن قلت: ما معنى قوله ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ قلت: فيه معنيان:

أحدهما: أن موسى ـ عليه السلام ـ لما قلب الله العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له: إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية، فادخل يدك تحت عضدك مكان

(1) الكشاف جـ٣، ص٣٤٩.

اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى.. والمراد بالجناح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه.

والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه: تجلده وضبطه نفسه، وتشدده عند انقلاب العصا حتى لا يضطرب ولا يرهب. استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران.

ومعنى قوله ﴿من الرهب﴾ من أجل الرهب، أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك، جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه،

ومعنى ﴿واضمم إليك جناحك﴾ وقوله ﴿اسلك يدك في جيبك﴾ على أحد التفسيرين: واحد، ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني: اخفاء الرهب

فإن قلت: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر: مضموماً إليه، وذلك قوله ﴿واضمم إليك جناحك﴾ وقوله ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ فما التوفيق بينهما؟

قلت: المراد بالجناح المضموم ﴿واضمم إليك جناحك﴾ هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما: جناح»[1]

أما القضية الثالثة: وهي قضية العصا، فنرى المفسرين قد أكثروا فيها القول وخلاصة ما قالوه:

أن العصا وصفت بأوصاف ثلاثة: تارة بأنها حية تسعى، وأخرى كأنها جآنّ، وثالثة هي ثعبان مبين.

---

(١) الكشاف جـ٣، ص٤٠٨.

وقالوا ان هذه الأوصاف الثلاثة شيء واحد، فهي ثعبان مبين في ضخامتها، وهي حية تسعى كذلك، ولكنها جان في خفة حركتها؛ والجان صغار الحيّات ـ كما يقولون ـ.

والذي يبدو لي -والله أعلم- ان الأمر ليس كما قالوا ولكلٍ وجهة -والله أعلم بما ينزل- فوصف العصا بأنها ثعبان مبين إنما ذكره القرآن الكريم في سياق الحديث عن فرعون قال أولو جئتك بشيء مبين ﴿قَالَ فأتِ به إنْ كُنتَ من الصادقينَ فألقى عصَاهُ فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ﴾. ولا شك أن هذا الوصف ﴿ثعبانٌ مبينٌ﴾ يتسق منسجمًا مع السياق؛ لأن ما تعطيه هذه الكلمة تجد فيه النفس من الرهبة ما ليس في الوصفين السابقين، والمقام مقام تخويف ورهبة.

أما في سياق الرسالة فلم تأت ذكر الثعبان وإنما الحية والجان، ولا شك أن الحية تشمل الصغيرة والكبيرة فهم يعرفون الجان بأنها صغار الحيات، إذن هي حية صغيرة، والقرآن الكريم حينما قال حية تسعى لم يشر إلى صغرها أو كبرها؛ لذا فإن الـذي نميل إليه أن قولـه سبحانه ﴿هي حية تسعى﴾ غير قوله ﴿كأنها جانّ﴾ ونرجح تفسير الجان هنا لا بصغار الحيات -كما يقول المفسرونَ أو جلهم- وإنما نفسره بالجانّ الذي هو مقابل للإنسان، وهو من الجن. وقد قال تعالى: ﴿خلق الإنســان من صلصــال كالفخار وخلق الجانَّ من مارج من نار﴾ ونستأنس لهذا التفسير بما يلي:-

(١) إن كلمة ﴿الجانّ﴾ ذكرت في القرآن ُأكثر من مرة، ولا تعني إلا هذا النوع الذي خلق من النار، ولم يرد تفسير الجانّ بصغار الحيات إلا في هذا الموضع الذي هو وصف للعصا على ما ذهب إليه أصحاب هذا الرأي، فلم يرد تفسير الجان بصغـار الحيات في موضع آخر، -ولا يظن ظانّ هنا أننا ننكر أونستبعد أن تأتي الكلمات القرآنية في أكثر من موضع وأن يكون لها في كل موضع، تفسير غير الذي تفسر به في الموضع الآخر، كما لا يظن ظان أننا ننكر أن يفسر الجان لغة بصغار الحيّات-، ولكن الذي يتبادر لنا أن الجانّ إنما هو المخلوق المعروف، وربما يقول قائل: ان المشبه به يجب أن يكون أمراً حسياً معلوماً للمخاطبين، ونقول: إن هذا هو الكثير الغالب أن يكون أمراً محسوساً، ولكنه قد يكون غير ذلك كذلك. نعم

لابد أن يكون معلوماً للسخاطبين، وما نظن أحداً يجهل خفة الجانّ وقدرته على الحركة[1].

(٢) ذكر بعد هذا الوصف قول الله تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ولّى مدبراً ولم يعقبْ﴾ ولكن هاتين الجملتين -أعني ﴿ولى مدبراً﴾، ﴿ولم يعقب﴾- لم تذكرا في سورة طه بعد قوله حية تسعى. كل الذي ذكر ﴿خذها ولا تخف﴾ وقد ذكر ما هو قريب من هذا في السورتين الأخريين.

(٣) وهذا الذي نركز عليه أنه جاء في سورة طه فإذا هي حية تسعى، فالعصا إذن قد خرجت عن طبيعتها فصارت حية تسعى، ودليل هذا قوله سبحانه ﴿سنعيدهَا سيرتَهَا الأولى﴾ وهذا معناه أن طبيعة العصا قد تغيرت، وسيعيدها الله كما كانت عصاً. لكن الذي في سورتي النمل والقصص إنما جاءت بأداة التشبيه كأن ولا شك أن التشبيه لا يخرج الشيء عن حقيقته ونظن ذلك أمراًبـدهياً، ومن نافلة القول. وإذا كان هذا الذي أراه في هذه الآيات الكريمة -والله أعلم بمراده- فلست أقصد مخالفة المفسرين -معاذ الله-، ولست أريد حمل أحد على ما أرتأيه إن لم يجد فيه إقناعاً.

ذلك هو جانب الرسالة في قصة موسى ـ عليه السلام ـ، والذي يهمنا أن كل سورة كان لها حديثها الخاص بها، هذا إلى جانب تعدد الأساليب البليغة.

٤- مولده ونشأته:

أما الجانب الرابع من قصة موسى، فهو الجانب الذي يتحدث عن مولده ونشأته ـ عليه السلام ـ، ولما كان هذا الجانب لم يذكر إلا في سورة واحدة مع ما نبهنا إليه في سورة طه، فليس لنا كبير غرض في ذكره وانما نذكره موجزاً إكمالاً للفائدة.

تحدثت سورة القصص في أولها بعد قوله تعالى ﴿بسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ طسۤمۤ تلكَ آياتُ الكتابِ المبينِ نَتْلُو عليكَ من نبأ موسى وفرعونَ بالحَق لقوم

---

(١) ونستأنس لهذا بقوله تعالى: ﴿طلعها كأنها رؤوس الشياطين﴾.

يؤمنونَ﴾ مهدت لذلك الحديث عن استعلاء فرعون في الأرض وجعله أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين. كما بينت أن الله يريد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض، ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، ويمكنّ لهم في الأرض، ويري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

وبعد هذا الإجمال المحكم المركز بدأت تتحدث السورة عن مولد موسى ـ عليه السلام ـ، وذلك لما فيه من العبرة والعظة والحكمة والقدرة، بدأت بقوله تعالى ﴿وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خِفْتِ عليه فألقيهِ في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزني إنَّا رَآدّوهُ إليكِ وجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلينَ﴾ [آية: ٧]، وما أعظم هذه الآية في إيحائها وألفاظها وإعجازها!، ونعجب من الذين تحدثوا عن الإعجاز والبلاغة القرآنية، لِمَ يصرون على التمثيلِ لهذا الإعجاز بقول الله تعالى ﴿وقيلَ ياأرضُ ابلعي ماءَكِ ويا سماءُ اقلعي وغيضَ الماءُ وقضي الأمر واستوت على الجوديِّ وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾، لِمَ يصرونَ على هذا التمثيل بهذه الآية وحدها فقط يتبع لاحقُهم سابقهم، وخلفُهم سلفهم، ولعمر الحق إن آيات القرآن كلها تصلح للتمثيل، لتقف شامخة دليلاً على الإعجاز والبلاغة وآيتنا هذه فيها من الألفاظ والمعاني، والنظم الكثير الكثير مما لا يسعنا الحديث عنه الآن، ولكنها كما قالوا اشتملت على أمرين ونهيين وبشارتين في آن واحد.

وتحدثنا الآيات أنه التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، هكذا كانت العاقبة التي لم يكونوا يعرفونها، ولقد عقب القرآن عن ذلك بقوله: ﴿إنَّ فرعونَ وهامانَ وجنودهما كانوا خاطئين﴾، ثم يتحدث القرآن عما دار بين امرأة فرعون وفرعون ﴿قرة عين لي ولك لا تقتلوهُ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾، ويعقب القرآن بعد ذلك بذلك التعقيب الرائع الموجز المعبر ﴿وهم لا يشعرون﴾.

ثم يحدثنا القرآن عن مشهد آخر يتعلق بإرضاع موسى، وما كان من شأن أمه وقد أصبح فؤادها فارغاً لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين، وقولها لأخته قصّيه، وكيف انها بصرت به عن جنب دون أن يشعر القوم بشيء، وكيف أن الله أراد أن يتم أمره ويصدق وعده ويكرم التي امتثلت أمره فقد حرم عليه المراضع من

قبل وقالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ على أهلِ بيتٍ يكفُلُونَهُ لكم وهُمْ لهُ ناصحونَ﴾، كل هذا دون أن يشعر القوم بما يدبره الله تبارك وتعالى ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. نعم لا يعلمون، ويسدل الستار على حلقات كثيرة لم يذكرها الله تبارك وتعالى؛ لأن الله لا يذكر من القصص إلا ما تتعلق به الحكمة والعظة والعبرة فمن زمن الرضاع إلى أن يبلغ أشده، ويستوي ناضجاً، ويشب قوياً يؤتيه الله الحكم والعلم، وذلك هو الجزاء الذي يجزي الله به المحسنين دائمًا في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر فيدخل المدينة على حين غفلة من أهلها فيجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته، وهذا من عدوه، إسرائيلي وقبطي، ويستغيثه الإسرائيلي على القبطي، فيهب موسى لنجدة المظلوم، وتلك إشارة إلى ما كان يحتمل في نفسه فيضربه ضربة خفيفة، يعبر القرآن عنها «بالوكز» ليس من شأنها أن تقتل، ولكن شاء الله أن تكون هي النهاية[1] فقضى عليه، فلما رأى ذلك قال هذا من عمل الشيطان إنه عدوٌ مضلٌ مبينٌ.

وهنا تسطع في نفسه أنوار العلم والحكم ليعبر عن ندمه وأسفه، ولكن هذا الندم إنما هو من أجل الله ﴿ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي فغفرَ له إنَّه هو الغفورُ الرحيمُ﴾. ويدرك أن النعمة ينبغي أن تسموَ بصاحبها لتدخله في زمرة الأبرار والمتقين لا أن تصيبه بالبطر فيكون عوناً للفجار والمجرمين.

هذا ما أدركه موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمين﴾، وتصور الآيات الكريمة نفس موسى ـ عليه السلام ـ، وقد حدث ما حدث بهذه الكلمات البديعة الرائعة ﴿فأصبح في المدينةِ خائفاً يترقبُ﴾ ما أجمل الجمع بين الصباح والخوف ان لهما مغزى عظيمًا، ودلالة تخترق كل الحجب، والصبح يبعث في النفس الأنس والأمن، ولكنه أصبح خائفاً ثم ماذا؟ يترقب ما أعظم وقعها في صنعتها وهي التفعل ومادتها الترقب. يفاجأ بأن الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه اليوم مرة أخرى، ولكن موسى الذي ما كانت النعم لتبطره وتجعله ظهيراً للمجرمين، يقول لصاحبه الذي استنصره ﴿إنَّك لَغويٌّ

---

(١) وهذا لا ينافي عصمة الأنبياء، لأن موسى لم يقصد القتل ولم يضربه ضربة تقتل في العادة.

مبينٌ﴾ إن الإغواء طبيعة فيك ولكن ماذا كان بعد ذلك؟ تقول آيات ربي ﴿فلما أنْ أرادَ أن يبطشَ بالذي هو عدوٌ لهما﴾[1]. ولقد اختلف المفسرون مَنْ هذا الذي أراد أن يبطش به موسى ـ عليه السلام ـ.

يذهب بعضهم إلى أنه أراد أن يبطش بالقبطي؛ لأنه هو العدو لموسى وللإسرائيلي.

ويرى بعضهم بأنـه الإسرائيلي، أمـا عداوته للقبطي فظاهرة، وأما عداوته لموسى؛ فلأنه أغواه بالأمس ومع أن القرآن الكريم ترك الباب مفتوحاً كي يشحذ الهمم لأعمال الفكر. فإن الذي يبدو لي أننا يمكن أن نعتبر الإسرائيلي هو الذي أراد أن يبطش به موسى وذلك لما يلي:

(١) انه دخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان كان ذلك على حين غفلة من الناس.
(٢) قوله ـ عليه السلام ـ لن أكون ظهيراً للمجرمين.
(٣) قوله للإسرائيلي ﴿إنَّك لغويٌ مبينٌ﴾ فكيف يريد أن يناصره بعد ذلك.
(٤) قوله ﴿يا مُوسى أتريدُ أن تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمس﴾، ونحن لا نجزم أن القبطي كان على علم بذلك، أما الذي كان يعلم ذلك يقيناً فهو الإسرائيلي.
(٥) نظن ذلك منسجماً تماماً مع طبيعة اليهود الذين لا ينطلقون فيما يعملون ويذرون إلا من مصالحهم الخاصة، فكأن هذا الإسرائيلي حينما رأى ما يريده موسى ـ عليه السلام ـ أحبَّ أنْ يشي به «وقد كان»، وهكذا جعل الإسرائيلي نفسه داعية إصلاح فهو يكره التجبر في الأرض والبغي والإعتداء. يكره ذلك كله ويحب الصلاح والإصلاح والخير ﴿إنْ تريدُ إلا أن تكونَ جباراً في الأرضِ وما تريدُ أن تكون من المصلحين﴾ عجباً لك ياموسى.

ليت شعري أليست تلك نفسيتهم! أليس هذا هو الواقع الذي يصدرون عنه! أليسوا هم الذين يريدون أن يشعروا الدنيا بأنهم دعاة حق وأمن فجيشهم يسمونه

---

(١) إن شئت أن تدرك جمال موقع كلمة ﴿أن﴾ ودقتها في النظم الكريم فراجع كتابنا «دعوى الزوائد».

جيش الدفاع، ولهذه التسمية الحاضرة ما يربطها برباط نفسي، ورباط تاريخي، أليسوا يطلقون على غيرهم المخربين؟ إنَّ الذي يثور من أجل حقه مخرب، وإنَّ الذي لا يخضع لكل ما يريدون محب للحرب.

إيهٍ على واقـع مظلم تعيشـه أمتنا المقطعة؛ مقطعة الأوصال!! أكتبُ هذه السطور وعيناي -يعلم الله- مغرور قتان بالدمع. لماذا ابتعدنا عن هدي القرآن وإرشاداته النفسية والإجتماعية والتاريخية؟ ولو أنا إلتزمنا بذلك لكان خيراً لنا وأشد تثبيتاً. ياللضياع والمهانة!! ولـكن وكما تبدد الشمس الغيوم لابد أن تبدد شمس الحق في نفوسنا كل عفارات اليأس، وما ذلك على الله بعزيز ﴿ولينصرنَّ اللهُ من ينصره إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ﴾.

وماذا كان بعد ذلك كل سر جاوز الإثنين شاع، وهكذا انتشر الخبر، ويحدثنا القرآن الكريم أن موسى ـ عليه السلام ـ، وهو الحسنُ سيرة، الطاهر سريرة لم يعدم من يسدي له النصح من قوم فرعون، شتان بين الموقفين. بين موقف الذي وشى به وهو من من أهله وجماعته، وبين موقف ذلكم الرجل من آل فرعون يأتي ليخبره بما يبيت له ويدبّر، وما أشبه هـٰذين الموقفين بما مر معنا من قبل من موقف السحرة من القبط الذين ضحّوا بكل شيء في سبيل الإيمان، وبين موقف الذين قالوا أجعل لنا إلـٰهاً كما لهم آلهه.

جاء رجل من أقصى المدينة يسعى، وتذوق لحلاوة البيان تلفنا الذاكرة، لنقرأ قول الله في سورة «يس» ﴿وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى﴾ لنجد هذا التغاير بين الإثنين. نعم هنا ليست قضية البعد هي الأساس ولكن الذي يستحق التقدير حقاً أن يكون رجل من آل فرعون هو الذي جاء موسى ـ عليه السلام ـ، ولهذا جاءت الآية الكريمة على هذا النظم ﴿جاء رجل﴾ نعم إن التقديم والتأخير في الآيات القرآنية له مدلوله وإرشاداته ﴿قُل أنزلَهُ الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض﴾ وما أجمل هذه الكلمة ﴿يسعى﴾ وإذا أردنا أن نتذوق جمالها فلنقارن بينها وبين كلمة «تمشي» في الآية التي ستأتي قريباً ﴿جاءته إحداهما تمشي﴾ يقول النـاصح لموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، إنهم الملأ أشراف القوم، وإنهم يأتمرون والله إنّ هذا التعبير لترقص له القلوب والعواطف ﴿إنَّ الملأ يأتمرون بك

ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين﴾ ويخرج موسى ـ عليه السلام ـ خائفاً يترقب.

ماذا يمكن أن تلقي هذه الكلمة من ظلال؟؟ وبماذا يمكن أن تمد السمع والقلب؟؟ بالكثير الكثير ﴿يترقب﴾ إنها تصور ما كان يجول في نفسه ـ عليه السلام ـ، ولكن هذا الترقب مهما كان تملكه للنفوس إلا أن المؤمن يستطيع أن يتملك كل أسبابه حينما يتوجه إلى الله، وهكذا كان موسى ولهذا توجه إلى ربه ﴿ربِّ نجني من القوم الظالمينَ﴾ ويخرج من مصر قاصداً أرض الشام، هي مسافة ليست بالقصيرة في زمننا نحن، فكيف إذا كانت في زمنه هو، ولم تكن هناك وسائل المواصلات، فما بالنا بمن خرج وحيداً يترقب، وللإيمان جذوة تمد صاحبها دائماً، ولكنها تكون أكثر مدداً في أوقات الشدة.

وهكذا نجد موسى ـ عليه السلام ـ حينما يتوجه تلقاء مدين تمتلىء نفسه بالرجاء، رجاء الخير من ربه عسى أن يهديني ربي سواء السبيل. وتطوى المسافات بكل ما لقي فيها موسى وبكل ما كان يجول في خاطرِهِ من افكار وخواطر، كل ذلك يطويه القرآن الكريم. ويَردُ موسى ماء مدين ويجد عليه أمة من الناس يسقون ويكون ذلك بدءاً لحلقة جديدة في حياة موسى ـ عليه السلام ـ. إيةٍ ما أعظم الحِكم! وما أعظم الحكيم! ياحاكمي وحكيمي جميع فعلك حكمة.

فماذا وجد موسى! وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان؛ تمنعان غنمهما عن الماء، وهنا تبدو في موسى نوازع الخير. موسى الذي أكرمه الله بالحكم والعلم وجعله من المحسنين، موسى الذي لن يكون ظهيراً للمجرمين، موسى الذي توجه لربه بقوله ﴿إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾، موسى الذي يعترف بنعم الله، ولن يكون ظهيراً للمجرمين، موسى الذي يكره الغواية والظلم، موسى الذي يعده ويهيئه الله لحمل عبء لا يستطيعه أكثر الناس، ولا يصلح له إلا الصفوة المختارة، يدرك أن هاتين المرأتين، والتعبير القرآني له قصده ودلالته، فلم يقل فتاتين أو صبيتين، وإنما امرأتين يدرك موسى الذي أنهكه السفر أن هناك خيراً ينتظر حينما يعين ضعيفاً، ويساعد آخرق ﴿قالَ ما خطبكما قالَتَا لا نسقي حتَى يصدر الرعاءُ﴾ وتظهران ما يحمل النفس على اعانتهما ومساعدتهما،

وهـو أسلوب حكيم جيد فيه من الإثـارة ما فيه. الإثارة لعمل الخير والإشفاق ﴿وأبونا شيخٌ كبيرٌ﴾ فسقى لهما، ولكن أين ذهب بعد ذلك؟ كأنما وقف موسى ـ عليه السلام ـ ينتظر لعل هناك من هو بحاجة إلى معونة مثل هاتين المرأتين لعل هناك من يستطيع موسى أن يقدم له خيراً. لعل هناك ضعيفاً محتاجاً إلى ما مَنَّ الله به على موسى من قوة، كل هـٰذه يصورها حرف واحد من كتاب الله ﴿ثم﴾ ﴿ثم تولى إلى الظل﴾ ولم يقل «فسقى لهما فتولى إلى الظل» أو «وتولى»، وإنما قال ﴿ثم﴾ و﴿ثم﴾ كما يقول علماء العربية تدل على التراخي إنه يريد أن يشكر الله بما أنعم به عليه، ولكنه بعد ذلك كله وبعد أن اقتنع وتأكد أنه ليس هناك حاجة لبقائه عند الماء يتولى إلى الظل يناجي ربّه ﴿ربِّ إني لِمَا أنزلتَ إليَّ من خير فقير﴾ ما أعظم هذا التضرع! وما أوصله إلى الله! إنه محتاج ايما حاجة، وفقير أيما فقر، لأي خير ينزله الله إليه، ويسوقه له سبحانه كيف وقد أحاطت به مرارة الإغتراب وكآبة الفرقة والـوحدة، كل هذا إنما يشف لنا شفافية صادقة عما يتمتع به موسى من نفسٍ صادقة الإيمان محبة للخير.

وقد رأيت كلاماً للزمخشري بعد كتابة هذه السطور يدل على طول باع الرجل وتذوقه لكتاب الله تعالى، أحببت أن أنقله حتى يهنأ به القاريء، قال جار الله الزمخشري ـ رحمه الله ـ عند تفسيره هذه الآيات:

«والمعنى أنـه وصل إلى ذلك الماء، وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيماتهما مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما. وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة امتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوة وما لم يغفل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب، ترغيب في الخير، وانتهاز فرصة، وبعث على الإقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم»[1].

ومن روعة الإسلوب في الآيات الكريمة، وإن كنا ندرك أن هذا ليس محله،

---

(١) الكشاف: ٣/١٠٤.

لكن معانيه تتدافع في النفس تأبى أن تظل حبيسة النفس، وهو ما أشار إليه علامة البيان الإمام عبد القاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ من حذف المفعول في هذه الآيات الكريمة، وهو قوله تعالى ﴿يسقون﴾ ﴿تذودان﴾ ﴿فسقى لهما﴾ ﴿لا نسقي﴾ حيث لم تقولا «لا نسقي غنمنا» أو «يسقون أنعامهم» أو «تذودان شياههما» ؛ لأن ذكر المفعول لا تتعلق به الفائدة ولو ذكر فربما يغير ذكره المعنى . فلله در التنزيل!!

فماذا كان بعد ذلك، يقول القرآن الكريم: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ إن الحياء زينة المرأة، وللقراء طريقتان في الوقف على الكلمة.

فبعضهم يقف على تمشي، ثم يكون بدء الكلام ﴿على استحياء قالت إن أبي يدعوك﴾ فيكون الإستحياء من القول.

وبعضهم يقف على كلمة ﴿استحياء﴾ فيكون المعنى جاءت تمشي مستحيية.

وأقول: إن وضع كلمة ﴿على استحياء﴾ بين الجملتين بين جملة المشي، وجملة القول، تلمح إلى أن الإستحياء ينبغي أن يكون طبيعة في المرأة الخيرة قولاً وعملاً.

ويذهب موسى ـ عليه السلام ـ ويقص على الشيخ الكبير[1] القصص فيقول لا تخف نجوت من القوم الظالمين، وتقول إحداهما لأبيها ياأبتِ استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين، ما أجمع هذه الكلمة وما أدعاها لكل مقومات الحياة وركائز الأمم «القوة والأمانة» هما الأساس للراعي والرعية، وحينما تعدم إحداهما ينفرط نظام الأمم وتدول الدول، وتدور الدوائر على الأفراد والجماعات.

وما أحوجنا ونحن نعاني ضعفاً ونضعف معاناة ما أحوجنا للقوة والأمانة!!.
ويكون بين الشيخ الكبير وبين موسى ما حدثنا عنه القرآن

---

(١) ذهب الكثيرون إلى أن الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام ولعل الذي دفعهم لهذا أن شعيباً كان من مدين، وذهب بعضهم إلى غير ذلك وهو ما نرجحه وذلك لأن موسى عليه السلام لبث سنين في مدين فلو كان الشيخ شعيباً لكان لموسى عليه السلام بعض شأن معه ولرأيناه يذكر شيئاً من هذا ولأشار لذلك القرآن الكريم، ولا نحب أن نطيل في مثل هذه القضايا فليست ذات فائدة تذكر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ
أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾
فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ
فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن
رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ
لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ

۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

وبهذه الحلقة ينتهي هذا الجانب من جوانب قصة موسى ـ عليه السلام ـ وتستمر السورة تحدثنا عن الجانبين الآخرين، جانب الرسالة، وما تبعه، وقد تحدثنا عنهما من قبلُ.

٥- جانب المنن الإلـهية:

أما الجانب الخامس في قصة ـ موسى عليه ـ السلام فهو جانب المنن الإلـهية، والمنح الربانية، التي أكرم الله بها موسى وهارون، ونجده في السور التي كانت موضوعها تعداد النعم على الأنبياء، نجد هذا أولاً في سورة الصافات. وسورة الصافات -كما علمنا من قبل- كان حديثها عن الأنبياء من حيثُ ما أكرمهم الله به، ولا حاجة إلى إعادة ما قلناه من قبل، ولا أدلَّ على ذلك من أن نقرأ ما جاء في سورة الصافات حديثاً عن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

وهناك سورة أخرى يمكن أن تشبه سورة الصافات من بعض الوجوه، وهي سورة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، حيثُ جاء الحديث فيها موجزاً عما أكرم الله به أنبياءه ـ عليهم السلام ـ، ولقد أشرنا إلى ذلك من قبل ولا أدلَّ على ذلك من هذا الإيجاز المحكم المركز المعبر الهادف الجامع الذي تتحدث عنه هاتان الآيتان في سورة الأنبياء ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقانَ وضياء وذكراً للمتقينَ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩]، ونحن لا نجد تكراراً في هذا كله.

٦- مع العبد الصالح :

أما الجانب السادس في قصة موسى ـ عليه السلام ـ، فجانب كان ذا هدف تربوي وتعليمي، وكان لبنة في منهج رباني أراده الله لهذه الأمة، ونعني به ذلك الذي ذكره القرآن عن موسى ـ عليه السلام ـ في سورة الكهف، وما كان بينه وبين العبد الصالح، وهذا الجانب من القصة بحق مع ما اشتمل عليه من منهج تربوي فإنه مع ذلك نمط بياني رائع يتذوق حلاوته وينعم بأريجه من وقف أمامه يستجلي ما فيه من صور ويستلهمه مع ما فيه من أسرار التعبير، يقول موسى لفتاه[1] لا أبرحُ حتى أبلغَ مجمعَ البحرين أو أمضي حُقباً فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما حيث اتخذ الحوت طريقاً له في البحر سرباً. فلما جاوزا قال لفتاهُ آتنا غداءنا لنأكل معاً، ولم يقل غداءي وهذا هو توجيه النبي ﷺ «أطعموهم مما تأكلون». لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنِّى نسيتُ الحوتَ. نعم هو الذي نسيه؛ الفتى وحده، وما أجمل هذا الإعتذار المقنع! ﴿وَمَا أنسانيهُ إلا الشيطانُ أنْ أذكـره﴾ واتّخذَ سبيله في البحر عجباً، وذلك ما كان يوده موسى ﴿ذلكَ ما كنّا نبغ﴾، لقد كانت اللفظة القرآنية معبرة متسقة مع نفسية موسى فيما يريد فارتدا على آثـارهما قصصاً، فوجدا عبداً من عبادنا أكرمناه بالرحمة والعلم، رحمة من عندنا، وعلمًا من لدنّا، ﴿آتينا﴾ و ﴿علمنا﴾ ﴿من عبادنا﴾ ﴿من عندنا﴾ ﴿من لدنا﴾ كلمات مختارة منتقاه لسنا بصدد الحديث عنها الآن، ويطلب موسى منه أن يتبعه من أجل أن يعلمه مما علّم رشداً، ويقول العبد الصالح إنك لن تستطيع معي صبراً، ويعلل ذلك بقوله ﴿وكيف تصبرُ على مالم تُحط به خُبراً﴾، ولكن موسى يَعده بالصبر معلقاً ذلك الوعد على المشيئة، ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعص لك أمـراً، ونلحظ هنـا أنه قد انتهت مهمة الفتى الذي كان مع موسى ـ عليه السلام ـ، فقد رجع من حيث جاء وبقي العبدان الصالحان النبي العبد، والنبي الكليم، وتحدثنا الآيات عما كان بينهما حينما ركبا في السفينة فخرقها فأنكر موسى عليه ذلك، ثم اعتذر لأن ذلك كان نسياناً منه، ثم حينما لقي غلاماً فقتله فينكر

---

(١) لا لخادمـه، ما أروع التعبـير وما أعظم آداب القرآن ألم يَنْهَ النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين أن يقولوا «عبدي وأمتي وأنه طلب أن يقولوا فتاي وفتاتي، أي دين هذا! إنها الرحمة، إنها الإنسانية الصاعدة، لتنعم بالهدي الإلهي المنزل!

موسى ذلك عليه أشد الإنكار ويكرر العبد الصالح ما قاله له من قبل ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً. وهنا يعتذر موسى ولكنه هذه المرة وكأنما استحيا من نفسه فهو يقول ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً﴾ فما أجمل هذا التعبير وما أروعه!! ﴿قد بلغت من لدني﴾ ما أحوجنا كتاباً وخطباء وشعراء إلى أن نستجلي التعبير القرآني والصور القرآنية والنظم القرآني.

ثم يصلان إلى قرية يستطعمان أهلها لما بهما من جوع فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيه جداراً يريد أن ينقض فأقامه فلا يسع موسى إلا أن يقول لو شئت اتخذت عليه أجراً وهذا كله ينبئنا عما كان يتصف به موسى ـ عليه السلام ـ من إحساس مرهف وقوة في الحق، وحدة في المزاج وهذه صفات خيّرة تدل على اليقظة وطيب العنصر ويبين العبد الصالح لموسى ـ عليه السلام ـ بعد أن قال له ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ يبين له سبب ما كان منه من فعل ويروى عن النبي ﷺ قوله: «يرحم الله موسى لو كان صبر لقص علينا من أمرهما عليهما السلام»[1]

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، باب (٢٩)، حديث رقم ٣٢٢٠.

قَصَصٗا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ
عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ
مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا
لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ
لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾

۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا
﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ
قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي
وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا

وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

ونحب أن نبين هنا إلى أن هذه الحادثة يريد بعض الناس أن يأخذ منها، وأن يستدل بها على أن هناك ظاهراً وباطناً لكل مسألة فيمكن أن يفعل بعض الناس ما يذم ظاهراً، ولكنه يكون خيراً من جهة أخرى، ونحن إن فتحنا هذا الباب على مصراعيه فستعم الفوضى باسم الدين ويجد أرباب الإنحراف مجالاً لإنحرافهم بحجة الظاهر والباطن.

والحقيقة أن العبد الصالح لم يفعل شيئاً بمجرد الإلهام وإنما فعله وحياً، ومن هنا نرجح أن يكون نبياً[1]. ذلك لقوله تعالى ﴿آتيناه رحمة وعلمناه﴾ إن هذه الأوصاف إنما كانت للأنبياء فنحن نقرأ مثلاً ﴿قال ياقوم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده﴾ كما نقرأ قوله ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ ويكفي قول الله تعالى ﴿وما فعلته عن أمري﴾.

كل هذه الجوانب التي تحدثنا عنها كانت في السور المكية. أما السور المدنية فلقد حفلت كذلك بجانب من قصة موسى، ولكنه الجانب الذي تحدثنا عنه من قبل، وهو الجانب الثاني مع بني إسرائيل والذي تحدثنا عنه واقتصر حديثنا في حدود السور المكية وهي سورة الأعراف وطه وإبراهيم ووعدنا أن نكمل الحديث عنه فيما

---

(١) لقد بسط صاحب روح المعاني رحمه الله القول تاماً فوفق رحمه الله فليراجعه من يشاء.

بعد وها نحن نفي بالوعد إن شاء الله فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين، وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. ولنصل الحديث بعضه ببعض.

«وآخر ما ذكرناه من قبل حديثنا عن بني إسرائيل سورة إبراهيم قلنا إنه كان من روعة«النسق وجمال الموضوع أن تتحدث سورة إبراهيم عما كان من موسى مع بني إسرائيل، ولم يذكر فيها الحديث مع فرعون. وقد ذكرنا هناك الإشارة في هذه السورة الكريمة.

حديث السور المدنية:

ثم تأتي السور المدنية لتسجل لنا قضايا ذات خطر كانت مع موسى وقومه ـ عليهما السلام ـ. وهناك سور ثلاث ذكرت زوايا من هذا الجانب وهو خبر موسى ـ عليه السلام وعلى نبينا أنبياء الله صلاة الله وسلامه ـ مع بني إسرائيل.

فالسورة الأولى سورة البقرة كانت حافلة بالحديث عن بني إسرائيل. إن الذي يهمنا منه ما كان بينهم وبين موسى ـ عليه السلام ـ لأن الحديث الذي كان عنهم في سورة البقرة كان تذكيراً لهم بنعم الله، ثم بياناً لموقفهم من هذه النعم كيف جحدوها، ثم بيان ما حل بهم وقد استغرق الحديث عنهم ما يقرب الجزء من سورة البقرة. الذي يهمنا ما كان بينهم وبين موسى ـ عليه السلام ـ وأول ما تسجله لنا السورة الكريمة هذا الذي يدل على تعنتهم وذبول الحسّ الديني وضآلة عقيدة التوحيد عندهم، حينما قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، مع أن الله تعالى آتى موسى الكتاب والفرقان لعلهم يهتدون. ولقد سجل القرآن ناعياً عليهم في موضع آخر وهو ما جاء في سورة النساء تبياناً للنبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام وتسلية وتقريعاً للخلف منهم بعد السلف حيث قال الله:

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟

مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

كذلك حدثتنا سورة البقرة عن قول موسى لهم ﴿ياقوم إنكم ظلمتم أنفسم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ [الآية: ٥٤]. ثم تحدثنا السورة عن قضية أخرى تنبيء عن انحدار في الفكر، وجحد للنعمة ومجانبة للعلو ورغبة في التدني، وتخير لما هو أقل شأناً ونفعاً، وذلك هو قولهم كما حدثنا القرآن لموسى ـ عليه السلام ـ وقد أكرمهم الله بما هو أزكى طعاماً قولهم ﴿لن نصبر على طعام واحد فادعُ لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله﴾. ورحم الله ابن الجوزي إذ يقول: «يستدل على عقل العاقل، سكونه وسكوته. ومراقبته للحوادث فلا تستفزه شهوة عقباها ضرر عاجلة وتراه ينظر في الآفاق فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل ويتجنب ما يخاف ضرره ويستعد لما يجوز وقوعه».

فأين ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله من أولئك!!.

وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا

وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ
وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا
غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ
ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ
بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

وأخيراً تحدثنا سورة البقرة عما كان بينهم وبين موسى ـ عليه السلام ـ في أمر القتيل الذي خفي قاتله حيث قال لهم موسى ـ عليه السلام ـ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . وتصور لنا الآيات الكريمة اللجاج والتعنت وقلة الإستبصار. قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ويبدأ تمحلهم وتعنتهم حيث أمروا أن يذبحوا بقرة أي بقرة يمكن أن تغنيهم ، ولكنهم بدأوا يسألونه عن سنها ووصفها ولونها ، وكان لابد أن يعاملوا بما يستحقون ، فالبقرة لا فارض ولا بكر هي

عوان بين ذلك وسط في سنها، ولكنهم لا يكفيهم ذلك فيسألون عن لونها ويقال انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، ومع هذا كله فلم يكتفوا بذلك وفي كل مرة يقولون ادع لنا ربك يبين لنا، فقد تشابه البقر علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون، ويجيبهم موسى ـ عليه السلام ـ إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض، ولا تسقي الحرث فليست من نوع البقر الذي أعدّ للعمل، ثم هي بعد ذلك مسلمة لا شية فيها، ومع ذلك يقول القرآن عنها بعد أن قالوا الآن جئت بالحق، يصور نفسيتهم وشدة عنادهم فذبحوها وما كادوا يفعلون

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

وهـذه الآيات الكـريمـة ـ آيات قصة البقرة التي سميت السورة باسمها ـ لأعظم دليل على إعجاز القرآن الكريم لا من حيث النظم فحسب، ولكن من حيث التسجيل على بني إسرائيل وتعليمهم ما لم يعلموا ونحن لا نذهب في تفسير الآيات الكريمة مذهباً يخالف اللغة والسياق فلا نحملها على التمثيل كما ذهب إليه الاستاذ الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ[1].

هذا ما جاء في سورة البقرة عما كان بين موسى وبين بني إسرائيل.

(٢) ثم تأتي سورة الصف وهي تحث المسلمين على أن يوحدوا صفاً وهدفاً ورسالة. تأتي لتلهب مشاعرهم وتشحذ هممهم على أن يكون قولهم وعملهم سواء ﴿يـأيُّها الذين آمنوا لِـمَ تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[2].

ثم تعـرض السورة الكريمة ما كان بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين قومه تحذيراً للمسلمين وحاشاهم أن يسلكوا مع نبيهم مسلك أولئك ﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [آية: ٥]، والآية صريحة وهي تصور لنا إنكار موسى على قومه ومساءته منهم، ينكر عليهم إيذاءه وهم مستيقنون من أنه رسول الله إليهم، وقد رأوا المعجزات والآيات، ولعل في كلمة ﴿قد﴾ التي هي للتأكيد خير دليل على ذلك.

إنهم متـأكدون من رسالته كل التأكد ولكن مع ذلك لم يجدهم أسلوب التلطف والتـودد ولم تخترق الحجة قلوبهم بل زاغوا عن الحق وعن كل حجة وركبوا متن الغواية ولزموا جانب اللجج فلما كان منهم ذلك. لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، فليس من حكمة الله وليس من العدل كذلك أن يهدي القوم الذين استمرأوا الفسق، وهذا الإيذاء حذر منه المؤمنون بقول الله تعالى ﴿يـأيُّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالـوا وكان عند الله وجيهاً﴾ وهو إيذاء يشمل أكثر من جانب، يشمل الجانب الخلقي و الشخصي كما يشمل الجانب المعنوي كذلك وجل

---

(١) راجع تفسير المنار: جزء (١).
(٢) الآيات (٢ ، ٣).

المؤمنون عن هذا وهم الذين قال قائلهم «والسيف فوق عنقه والله لا أحب أن أكون في أهلي ومالي وأن تشوك محمد شوكه»

اسرت قريش مسلمًا في غزوة فمضى بلا وجل إلى السياف
سألوه هل يرضيك أنك سالم ولك النبي فدىً من الإتلاف
فأجاب كلا لا سلمت من الردى ويصاب أنف محمد برعاف

(٣) ثم تأت سورة المائدة وهي آخر الحلقات التي تحدثت عن قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع بني إسرائيل، بل عنه بشكل عام، بل هي كذلك كانت تتحدث عن آخر عهده ـ عليه السلام ـ في هذه الدنيا.

بدأت الآيات بقول الله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين﴾ ذكرهم بهذه النعم الثلاث إن كان منهم أنبياء ـ والأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى يتعبدون بشريعته ـ وجعلكم ملوكاً وهذه هي النعمة الثانية، وكما ورد في الآثار أن الذي كان يملك دابة وخادماً وزوجة من بني إسرائيل يسمى ملكاً، وفي هذا إشارة إلى ما منّ الله به عليهم من حرية بعد أن كانوا مستعبدين إرقاء، وكانت النعمة الثالثة أن آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين الذين كانوا في زمانهم حيث منّ عليهم بالحرية ـ كما قلنا من قبل ـ وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنّ والسلوى ثم يقول موسى لقومه ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾. ولابد من وقفة هنا لنبين أن معنى كتب الله لكم لا تعني أنه ملكهم إياها لتصبح حقاً لهم لا يشاركهم فيها أحد، وإنما كل ما تدل عليه الآية الكريمة إنه كتب لهم دخولها ومكنهم من سكناها شريطة أن يقيموا شرع الله ولا يمكن أن يكون ذلك على سبيل التأبيد بل التوراة التي في أيديهم لا تثبت ذلك كذلك، ولا نود أن نطيل هنا في هذه القضية[١]. والآية الكريمة تثبت ذلك وتؤيده ﴿ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ ولكن بني إسرائيل الذين عاشوا في أصفاد الذل وقيود العبودية فأثر ذلك كله في نفسياتهم يقولون لنبيهم:

---

(١) يراجع تفسير المنار: الجزء (٦).

ياموسى إن فيها قوماً جبارين، هم أشد منا خلقاً وبأساً وشكيمة وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، نحن لا نماري في دخولها لكن كل الذي نريد أن يخرجوا أولاً فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، يا ويل الضعفاء من الأقوياء. في هذه الإرشادات القرآنية دروس إن وعيها المسلمون استعصوا على كل مخبّل.

إن الآيات الكريمة ترشد إلى أن الأمم التي تستمريء الذل لا تصلح لتسوس نفسها فضلاً عن أن ترد بأس عدو. إن الشعوب التي يراد لها أن تعيش مكممة الأفواه مطأطأة الجباه مسلوبة القدرة على الإتجاه مبلدة الإحساسات عديمة الإنتباه، إن مثل هذه الأمم لن يكون لها دور إيجابي في الحياة. والحوادث كثيرة يشهد بها التاريخ البعيد وغير البعيد وما لنا نبتعد كثيراً وها هو الواقع خير شاهد «بل الله أكبر شهادة».

إن العصر الذي نعيش فيه؛ فيه أمثلة متعددة على ما يرشد إليه القرآن الكريم وإلا فكيف اندحرت الجموع الأرجنتينية القريبة من جزر «فوكلاند» بهذه السرعة، وفي مقابل هذا كيف استطاعت بعض الشعوب في جنوب آسيا أن تتصدى للقوة الأمريكية العاتية، وأخيراً لا آخر كيف يصمد الشعب الأفغاني المسلم أمام القمع الشيوعي الكافر والتحدي الروسي البغيض.

إن هناك فروقاً بين نفسيات الشعوب التي أريد لها أن تملك قلم رصاص لتسطر به أحلامها وآمالها ومستقبلها وتسجل به ماضيها وحاضرها، وبين الشعوب التي يعد ذلك حقاً طبعياً لها. وما أصدق كلمة ذلك الأسير في حوار بينه وبين العدو وقد قال إجابة عن سؤال لقد ربانا حكامنا على أن نخاف ونجبن أمامهم فلمَ لا نخاف ونجبن أمامكم أنتم.

كل هذا ترشد إليه الآية القرآنية وهي تحدثنا عن بني إسرائيل بأوجز العبارات وأخصرها ﴿إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾. قال رجلان من الذين يخافون، يحتمل انهما يخافون الله كما يقول كثير من المفسرين، ويمكن أن يكونا من الذين يخافون الجبارين ولعل المفسرين رجحوا الأول لقوله تعالى ﴿أنعم الله عليهما﴾ مع أن هذا القول الكريم ﴿أنعم الله عليهما﴾ لا يتنافى مع كونهم من الذين يخافون الجبارين.

والذي يهمنا أن نقف عند مقالة هـذين الرجلين لأن لنا بها غرضاً، ولنا فيها هدفاً فألق لها السمع. قال هـذان الرجلان ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ والذي نلمحه من كلام الرجلين اللذين أنعم الله عليهما، ويمكن أن يكون هذا الإنعام بما فتح الله به عليهما من قضايا الحرب ومعاملة العدو. دليلنا على ذلك مقالتهم التي سجلها القرآن ﴿أدخلوا عليهم الباب﴾ إنها تشير إلى عامل المباغتة، المباغتة التي رأينا العدو لا يدعها في حروبه جميعاً وما أجدر المسلمين أن يأخذوا من كتاب الله وآياته ما يرشدهم في أحوالهم جميعاً حرباً وسلماً ومع ذلك كله فلقد أبى بنو إسرائيل أن يستجيبوا لهـذين الرجلين الناصحين وقالوا مقالتهم الشنيعة المنكرة التي سجلها القرآن ﴿قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ وإننا لنفخر من جهة ونتضاءل ونتقوقع من جهة أخرى حينما تذكر مقالة الآباء الأول رضي الله عنهم وجزاهم الله عنا خيراً لسيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام لا نقول لك كما قال أصحاب موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون با لمجد الآباء ويا لضياع الأبناء!!

بعد هذا لم يبق لموسى ـ عليه السلام ـ شيء يقوله بعد هذا التطواف، وبعد هذه المعاناة بعد هذا الحنو، بعد ذلك كله وكأنه تمر بمخيلته وبمذكرته تلك الأحداث جميعها منذ أن استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه إلى أن أكرمه الله أكرمه بالرسالة فطلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، إلى غير ذلك من الأحداث المتوالية التي بذل فيها جُهداً ولقي فيها جَهداً لا يسعه إلا أن يقول، وتلك آخر مقالة له يسجلها القرآن، بل لعلها آخر مقالاته في حياته كذلك؛ لأنه ـ عليه السلام ـ انتقل إلى ربه بعدها ولهذا لم يحدثنا القرآن عن موسى ـ عليه السلام ـ بعد هذه المقالة أي حديث ﴿قال ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ إنه اعتذار إلى الله وإنكار على أولئك جميعاً، هكذا بكل حسرة ومرارة وبكل رقة وإستعطاف ﴿ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾[1] بعد هذا التطواف لا يسع موسى إلا أن يجأر لربه بهذه الكلمات طالباً

---

(١) وهذا يذكرنا بما قاله من قبل حينما اتخذ قومه العجل ﴿رب اغفر لي ولأخي﴾.

منه أن يفصل بينه وبين أولئك الذين كان الفسق طبيعة لهم وسجية فيهم، وكان حقهم بعد ما رأوا من الآيات أن يكونوا ربانيين قدّيسين ولابد أن نشير هنا إلى أن موسى ـ عليه السلام ـ يصرّحُ بأنه لا يملك إلا نفسه وأخاه، لا يملك أحداً وكان من المتبادر أن يذكر الرجلين الناصحين ولكنه لم يذكرهما كذلك؛ كأنه لا يثق بأحد أبداً وما أجمل ما أشار إليه الزمخشري: «فإن قلت: أمَا كان معه الرجلان المذكوران؟ قلت: كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه وتلونهم وقسوة قلوبهم فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره»[1].

ويقول الله لموسى ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ محرمة عليهم ولقد صدق الله وعده فلم يدخلها أولئك الذين قالوا لموسى ما قالوا، وكان جزاؤهم هذا التيه الذي حدثنا عنه القرآن فلا يصيبنّك الأسى على القوم الفاسقين

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

---

(١) الكشاف: جزء (١)، ص٦٢٢.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾

الحكمة من كون الأرض المقدسة هي آخر الحلقات التي ذكرت في القصة :

ولأمر ما أراد الله أن تكون آخر الحلقات في قصة موسى ـ عليه السلام ـ قصة الأرض المقدسة لا لأنها آخر أيام حياته ﷺ فحسب، ولكن لأن ذلك التوجيه القرآني يدل أول ما يدل على أن ذلك هو أول ما يعني المسلمين من هذه القضية، قضية الأرض المقدسة التي أبى اليهود دخولها؛ لأن فيها قوم جبارين ثم دخلوها ولكن بعد ذهاب نبيهم وانتقاله إلى ربه فعاثوا فسلط عليهم، وبقيت الأرض المقدسة تتعاقب عليها الأمم، ولكن أعظم فتح وأغلى مهر هو ذلك المهر الذي مهرها إياه المسلمون والذي استمر هذه القرون الطويلة حتى استطاع اليهود بمعونة دول البغي وبإضعاف كلمة المسلمين أن يدخلوها مرة أخرى ليسلبوا خيراتها ويشردوا أهلها، ورحم الله صاحب المنار السيد رشيد رضا الذي كان يحسن الظن فكان يرى أن الأمم النصرانية لا يمكن أن تساعد اليهود على أن يأخذوا فلسطين[1]، وأحب هنا أن أقرر الحقائق التالية :

(١)إن فلسطين التي جبلت تربتها بدماء الشهداء والتي ربطت برباطين عظيمين كان أحدهما في السماء وكان الآخر في الأرض في المسجد الحرام حيث أسري بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به من المسجد الأقصى إلى

---

(١) راجع تفسير المنار: الجزء (٦).

السماوات العلا لا يمكن أن تبقى هكذا، ولكن حينما يوجد الجيل الذي يستحق وسام النصر وشرف النصر سيكرمه الله بذلك.

(٢) لقد اثبتت الحقائق التي لا تقبل الشك بالأرقام الدقيقة أن كل الذي استطاع أن يحصل عليه اليهود من أرض فلسطين حتى دخول الجيوش العربية سنة ١٩٤٨ كان ٥ر٦٪، فقط وهذه النسبة الضئيلة منها ما أخذوه بواسطة الإنجليز أصحاب وعد بلفور الذين كانوا يحكمون فلسطين، أو اشتروه من أصحاب الأملاك الكبيرة من غير الفلسطينيين[1] ومنه ماشتري بواسطة بعض العملاء والسماسرة، هذا كله رغم الضيق والصعوبة التي كانت تقصدها حكومة الإنجليز حتى يزهدوا الناس في أرضهم فيتخلوا عنها لليهود، ولكن القوم قاوموا ذلك كله ومع ذلك فالمكر الصهيوني دائمًا يحاول أن يوجد الهوة بينهم وبين أخوانهم ليشوه سمعتهم.

(٣) إن أي تنازل عن شبر واحد من أرض فلسطين لا يجوز في شرع الله والله يقول ﴿يـأيُّها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ وكل من يجيز ذلك فهو مخادع خارج عن الحق موادٌّ لمن حادّ الله ورسوله

(٤) إن محاولة التفريق بين الصهيونية واليهودية لا تقوم على أساس تاريخي أو ديني أو واقعي كذلك؛ ولئن كان بعض الناس يريدون أن يفرقوا بينهما عن حسن ظن أو جهل في الأمور أو ضرب من النفاق السياسي فإنه لن يغني عنهم شيئاً، وقد سقط في أيديهم بعد أن برهن الواقع على غير ما يقولون.

معذرة إن أطلت، ولا أقول استطردت فإن ذلك ليس من الإستطراد ولازلت في صلب هذا الجانب الأخير من قصة موسى ـ عليه السلام ـ وإن الموضوع هو الذي يحتم علينا أن نقول هذا وأكثر منه، قالها ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ وبهذا تنتهي قصة نبي كان له في كتاب الله تعالى ما لا يوجد لغيره من الأنبياء، وما ذلك إلا لحكم وأسباب ولبعض الصلات والروابط والتشابه ولما يعلمه الله مما سيكون بين المسلمين الذين أكرمهم

---

(١) تراجع حقائق عن قضية فلسطين للحاج أمين الحسيني رحمه الله.

الله بالقرآن وبين أولئك الذين كان الحديث عنهم في قصة موسى ـ عليه السلام ـ. . . وبعد.

فهذه جوانب متعددة في قصة الكليم ـ عليه السلام أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ. قل لي بربك هل وجدت فيها تكراراً؟؟ ولنستعرض معاً بإيجاز هذه الجوانب:

لقد كان الجانب الأول متعلقاً بفرعون، وهذا الجانب كان أكثر الجوانب ذكراً من حيث تعدد السور التي عرضت له، فلقد ذكرت في قصة موسى مع فرعون فيما يقرب من عشرين سورة بين إشارة وإيجاز وتفصيل. ومع ذلك كان كل مرة بأسلوب له مغزاه ودلالاته فقضية السحرة مثلاً، وما كان شأنهم هي من القضايا الكبرى، ولهذا كانت عناية القرآن بها حافلة ومع ذلك لم تذكر بأسلوب واحد كأمر مضى من قبل. والحديث عن موسى تارة كان ينسب لفرعون وتارة ينسب للملأ ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم. . . الخ الآيات﴾ وكل ذلك له مسوغاته ودلائله، وله هدفه الأعلى الذي يقصد إليه القرآن، فالقرآن كتاب الإنسانية الخالد الذي لا تخلق جدّته ولا تنقضي عجائبه، وهكذا يشترك الملأ مع فرعون لأنه أذلهم وها هو بعد أن كان من السحرة ما كان وبعد أن خذلوه وآمنوا بالله يقول: ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربّه﴾ كأنما يريد أن يشعر قومه بشيء من الحرية، وبشيء من الإعتبار ولكنه بعد ذلك يقول: ما أريكم إلا ما أرى. ومثل ذلك بالطبع لن يسمى تكراراً أبداً ـ كما قلنا من قبل ـ وإذا كان هذا الجانب الذي كان أكثر الجوانب ذكراً وأشملها سوراً كان كذلك فمن البدهي أن تكون الجوانب الأخرى. وهكذا كان الجانب الثاني وهو الذي يتعلق ببني إسرائيل ـ وكما رأيناه كان بعيداً عن التكرار كل البعد نعم كانت هناك قضية مهمة خطيرة ذكرت مرتين ولكن كان لها أسلوبها وهدفها في كل مرة ما يجعلها تختلف عن أختها، ونعني بها قضية اتخاذ العجل، وهي قضية حريّ بأن ينبه لها لما فيها من الغرابة الكثير الكثير وبخاصة من قوم منّ الله عليهم بمننه.

أما الجانب الثالث: وهو قضية الرسالة فمع أهميته وخطورته إلا اننا نجد السور التي ذكرت فيه كانت أقل من غيرها، وقد تحدثنا هناك عن قضية العصا التي

توهم التكرار، ولا نود أن نعيد ما قررناه هناك، وهنا أمر آخر لابد أن ننبه له وهو أن القرآن الكريم كان حديثه عن موسى ـ عليه السلام ـ مرتباً هذا الترتيب البديع فهو يبدأ بالجوانب التي هي أكثر صلة بواقع المسلمين وأشد ارتباطاً. ولهذا كان الحديث أولاً عن فرعون، ثم عن بني إسرائيل كما رأينا، إلى آخر ما هنالك من جوانب.

تعقيب على قصة موسى ـ عليه السلام ـ

من خلال ما أكرمنا به من تشنيف آذان، وتشريف جنان ولسان، رأينا في الآيات الكريمة في قصة موسى ـ عليه السلام ـ أهدافاً وأبعاداً نفسية وإجتماعية بل سياسية وعسكرية. . . كل ذلك صِيغَ بعبارات معبرة في قوالب من البيان الساحر، ومن أجل أن تسعد الإنسانية وتصعد، يقص الله القصص على الناس. فالقصص يمدّ النفوس بروافد حتى لا تذبل ولا تذوي. ولقد كانت قصة موسى ـ عليه السلام ـ، تمثل هذا القصص بصدق وموضوعية؛ حيث تعددت جوانبها ـ كما رأينا من قبل ـ، وسنحاول أن نجْتزيء إن شاء الله بإيجاز مما يكرمنا الله به. وكأن موسى هيأه الله تبارك وتعالى ليعيش وليحيا هذه الظروف المتعددة حيناً، والمتناقضة حيناً آخر، وأول ما ينبغي أن نقرره هنا، أن القوم الذين تعامل معهم موسى ـ عليه السلام ـ، محاولاً إصلاحهم، كانت تتناقض نفسياتهم تناقضاً تاماً؛ فمنهم المستعلون المستكبرون؛ الذين تسيطر عليهم مشاعر القوة والبطش؛ وهم فرعون وملئه ومنهم المستضعفون المستعبدون الأذلاء المضطهدون المعذبون وهم بنو إسرائيل. وليس أمراً سهلاً يستطيعه كل أحد أن يوفق بين هاتين النفسيتين ليصهرا في دعوة واحدة. . . ولكن قدر موسى كان كذلك ولكي نُلِمَّ إلمامة موجزة نقف مع كل قضية من قضايا القصة الكريمة، ولنبدأ أولاً بشخصية موسى عليه السلام: -

من تطوافنا في القصة مع الآيات الكريمة في سورها الكثيرة المتعددة، نتصور ملامح شخصيته ـ عليه السلام ـ، وأول هذه الملامح ما نلمحه من حدّة في الطبع، وشدّة في المزاج. وكأن شدة أمواج اليم الذي ألقي فيه، شاء الله أن يكون لها فيه أثر. نلحظ هذا أول ما نلحظه مبكراً؛ فها هو ورغم حاجته إلى الرضاعة، يأبى أن يلتقم ويلتقف أي ثدي، ويأبى أن يهش أو يقبل على أي امرأة. . صحيح

كل ذلك من الله تبارك وتعالى؛ ولكن الله تبارك وتعالى هو الذي أودع فيه ذلك «حرّم عليه المراضع». ويكبر الطفل وتكبر معه هذه الحدة والشدة، ويدخل المدينة ويكز القبطي وكزة تقضي عليه. ثم يحاول في اليوم الثاني أن يبطش بآخر وتلك لاشك، مظاهر لهذه الحدة والشدّة. . . ويجد امرأتين تذودان ويسقي لهما، وتسير الأحـداث ويشرّف برسالة الله، ويكون ما بينه وبين فرعون، وما بينه وبين بني إسرائيل. ويعجل إلى ربّه، وهو يترك قومه الذين معه، ثم يرجع وقد وجد بني إسرائيل انحرفوا عن الجادّة، ويلقي الألواح بعنف ثم يأخذ برأس أخيه بعنف. وهـا هو وقد أخذ القوم الرجفة يناجي ربه بقوله: ﴿لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾.

ويكون بينه وبين العبد الصالح ما قص علينا القرآن الكريم. . . إلى غير ذلك مما تظهر فيه ملامح هذه الحدّة ظاهرة جلية، وإلى جانب هذه الشدة كانت القوة. . . القوة على التغلب على الأحداث والقوة في التحمّل، وإلى جانب هذه القوة: الأمانة، وهذا ما أدركته المرأة وقد نصحت أباها أن يستأجره ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾. . . وها هو يردّ على فرعون وقد منّ عليه بتربيته وليداً، يردّ على أسئلة فرعون ردوداً تظهر القوة من خلالها ظهوراً غير خفي، ولكن نجد إلى جانب هذه الصفات تبرز صفة أخرى كأنما هي متناقضة مع ما مر من صفات ولكنها ليست كذلك في شخصية موسى ونعني بها الرحمة؛ تظهر هذه الرحمة في جزيئات كثيرة كذلك فها هو يعلن تضرعه لربه بأنه ظلم نفسه، ولا أدل على ذلك من رحمته بهاتين المرأتين، ثم صفحه عن كثير من أعمال بني إسرائيل، وتلك صفة لابد منها للأنبياء وورثتهم كذلك.

وهنـاك صفات أخرى تظهر من خلال الآيات: كالصبر، والعناية بشؤون قومه، والعلم والمعرفة والرغبة في الإزدياد منها، يظهر ذلك في مثل قول الله تعالى ﴿قـال ربِّ أرني أنـظر إليك﴾ ﴿قـال ذلـك ما كنـا نبـغ فارتـدا على اثـارهمـا قصصا﴾. . . كل ذلك وغيره من الصفات الخيّرة يظهر للمتأمل في الآيات الكريمة.

ثانياً: كما نلمح من خلال الآيات ظاهرة التبعية والاستضعاف، وهي ظاهرة

لا ريب بحاجة إلى دراسة متأنية ليس محلها هذه السطور لكننا نكتفي هنا بالقول :

إن هذه التبعية ينشأ عليها الأبناء وهم يرتضعون لبنها العطن الآسن؛ كما يرتضعون حليب أمهاتهم. . . وهكذا يورثها الآباء للأبناء، ولا يسلم منها إلا من عصم ربك، وكان ذا شخصية قوية، ومع هذا فنجد أن آثار هذه التبعية تظهر حتى على ذوي الشخصيات القوية، ألم تر إلى موسى ـ عليه السلام ـ رغم ما تمتع به حين أرسله الله فطلب العون ولما أمدّه الله به ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾. إن صورة فرعون الجبار مرتسمة في مخيلاتهم، وهذا بالطبع؛ لأنهم لن يجدوا من قومهم النصرة؛ لأن نفوس أولئك الإسرائيليين أرضعت هذا الضعف والإستضعاف. ومن هنا نجد موسى ـ عليه السلام ـ وهو يطلب من ربه وزيراً من أهله لم يعتمد في ذلك على غير أخيه هارون، ولقد صدق حسه، وصح حدسه؛ فلم يجد غيره حتى بعد المسيرة الطويلة، ورغم كل ما كان ورغم ما بذل من محاولات لإصلاح القوم نجده يقول ﴿ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾

نجد قصة موسى ـ عليه السلام ـ وهي تتحدث عن هذه الظاهرة تبين آثارها السيئة وما ينتج عنها من أضرار، كما ترشد إلى طرق التخلص منها. . . وهذه التبعية من أخطر مشكلاتها وأبرز عقدها أنها ليست صراعاً بين فئتين اثنتين: فئة المستكبرين والمستضعفين، ولكن الأخطر من ذلك والأنكى منه؛ أن هذه التبعية تصبح صراعاً بين أبناء الفئة الواحدة؛ لا أعني الفئة المستكبرة، وإنما الفئة المستضعفة نفسها؛ إن هذه الفئة المستضعفة، هي التي سيكون منها الشرط والعسس والحرس والعيون، وأكثر من ذلك سيكون أولئك جميعاً في خدمة الفئة القوية، حرباً على قومهم يتحسسون أخبارهم، ويتجسسون عليهم، وتلك لعمر الحق أخطر من سابقتها ياويل المستضعفين!! لا أقول ياويل المستضعفين من الأقوياء فقط، بل أقول ياويل المستضعفين من الأقوياء ثم المستضعفين من المستضعفين، أي والله من المستضعفين!! وقبل ذلك ياويل المستضعفين من الله، ألم يحدثنا القرآن الكريم أن كثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا لموسى؛ لا خوفاً من فرعون فحسب، وإنما خوفاً من بني إسرائيل أنفسهم، ذلك هو خبر القرآن في مثل هذه القضية الخطيرة. ثم يأتي الواقع الذي نحياه ونعيشه؛ يأتي هذا الواقع ليصدق القرآن في كل شيء ولا ريب؛ فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثالثاً: ومما هو قريب الصلة بقضيتنا -قضية التبعية- **قضية الإستعلاء**: والحق أن القرآن الكريم أرشد -وهو كتاب الإنسانية كلها- إلى أمر جدير أن يُتَنبه له ويفاد منه؛ هذا الأمر -ليت قومي يعلمونه!! ولكن علمًا يكون له ثمرته، وما ثمرة العلم إلا العمل- هذا الأمر الذي أرشد إليه القرآن يتلخص فيما يلي:-

خلق الله البشر جميعاً من آدم من طينة واحدة؛ والعنصر الذي أودعه فيهم عنصر واحد فلم يجعلهم فئتين اثنتين: فئة أعطيت من العناصر ما يجعلها قوية، وما يجعل لها مناعة ضد الإستضعاف، وفئة لم تعط شيئاً من هذا، إن الله لم يخلق الناس كذلك؛ وإنما هذا الإستضعاف ينشأ من شيء آخر ليس ذاتياً ولا جوهرياً في حياة الإنسان، وإنما هو أمر كسبي، يختاره بعض الناس لأنفسهم، رغم مرارته وقسوته إلا انهم يستمرؤنه فيما بعد كما يستمريء المريض مرارة الدواء مع ما بينهما من فرق بعيد، لذلك نجد القرآن الكريم يحدثنا أن فرعون وقد نادى في قومه: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾ يحدثنا القرآن الكريم أن فرعون ﴿استخف قومه فأطاعوه﴾ ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ هكذا وبهذه الكلمة المعبرة، بهذا التعبير الهادف الهاديء من جانب، والهادر من جانب آخر: ﴿استخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾. إن هذا الإستخفاف: وتلك التبعية ينشآن أكثر ما ينشآن في البيئة غير المحصنة والتي لا تقوى على المقاومة كما ينشأ المرض في الجسم الضعيف، لذا كان التدين الحق غير المتصنع الوسيلة الوحيدة، أو هي أكثر الوسائل للتغلب على هذا الإستخفاف الذي يصل بأصحابه إلى تأليه الأفراد، إن الدين قوة بل أعظم قوة لذلك لا غرابة إن رأينا أنه يشن عليه حرب شعواء. وهنا نجد القرآن الكريم ينبه إلى حقيقة مهمة؛ وهي أن هـٰؤلاء المستخفين لأقوامهم يلبسون بكل حالة لبوسها الملائم لها، لذلك نجدهم يشعرون أقوامهم حيناً من الدهر، أن الكلمة كلمتهم، والرأي رأيهم، فهم أصحاب الحل والعقد وهم الشعب، هم أولوا الشأن وذووا الأمر، وهذا هو فرعون يطلب من قومه وملئه أن يخلوا بينه وبين موسى ليقتله، حفاظاً على دين الأمة ومبدئها.

سبحـان الله!! أذكر وأنا أكتب هذه السطور ما قاله توفيق الحكيم يوم أن

أثيرت قضية رسالة الفن القصصي في القرآن لمحمد خلف الله، وحينما وقف المسلمون في الجامعة والأزهر وبعض أولي الشأن، حينما وقفوا في وجه كاتب الرسالة والمشرف عليها، قال توفيق الحكيم:

«إن وقوفهم في طريق هذه الرسالة ومحاربتهم لما جاء فيها من أفكار إنما هو تمهيد وتوطأه لرجوع الإنجليز إلى مصر؛ لأن الذي يمكن أن يصد الإنجليز ويمنعهم عن مصر ويمنعهم من الرجوع إليها -كما يرى توفيق الحكيم- هو أن نسمح لما في هذه الرسالة من أفكار وغيرها مما يشبهها مما هي حرب على الإسلام أن نسمح لها بالإنتشار؛ لأن انتشارها هو الوقاية من رجوع الإنجليز». ومثل هذا كثير يقول أحد الساسة: «ان إعطاء الحرية للمسلمين للعمل في بلادنا سيكون من نتيجته أن ترجع فرنسا لتستعمرنا مرة أخرى». مقالة فرعون إذن وجدت من يكررها ويرددها وما أعظم هذا القرآن لو تعلمون!.

ولكن فرعون حينما يجد الجدّ يرجع عن كل ذلك، فها هو وقد رأى رجلاً من قومه وآله، ينصح بكلام رقيق مؤثر، تثور الحمية في نفسه فيبين لقومه أن لا رأي إلا رأيه وأن ليس هناك إلا قول واحد ورأي واحد، ومبدأ واحد، وبالتالي حزب واحد، ليس هناك إلا ما يقوله فرعون ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾

رابعاً: ومن الدروس التي ينبغي أن نقف عندها، درس على قدر من الخطر؛ ذلك أن كثيراً من المصلحين يدب في نفوسهم اليأس، حينما يرون ابتعاد الناس عنهم، ولكن ليعلم أولئك جميعاً أن هذه الكلمة حينما يمنّ الله على قائلها بالإخلاص والحكمة لابد أن يكون لها أثرها، وها نحن نجد موسى ـ عليه السلام ـ لا يعدم من يتأثر بكلمته. ولقد حدثنا القرآن الكريم عن مؤمن آل فرعون في سورة خاصة به سميت باسمه كان ينصح قومه وكانت كلماته كلمات مؤثرة معبرة.

ويجمل أن ننبه أيضاً إلى أمر مهم وهو أمر السرية فهو على قدر الخطر وهو ما تدعو إليه الحكمة في بعض الأوقات. إن مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه لو أنه جهر بهذا الإيمان وأعلنه ما كانوا ليمكنوه من أن يقدم لهم هذه النصائح

الغالية بهذا الأسلوب الرائع والذي سجله القرآن الكريم لأهميته وبراعته.

خامساً: كان لعنصر المرأة في قصة موسى أثر غير قليل حيث ظهرت في هذه القصة أكثر من غيرها في القصص السابقة ومجموع ما في هذه القصة يعطينا أنموذجاً للمرأة من حيث نفسيتها وقدراتها العقلية وعملها الإجتماعي وحكمها على الأشياء، وأول ما يقابلنا في هذا أم موسى التي امتثلت أمر الله تبارك وتعالى، ولكن مع هذا الإمتثال كانت عاطفة الحنان تهيمن عليها، ومع هذا فشخصيتها شخصية المرأة التي ربما لا تقوى على كثير من مرافقة الأحداث ومجابهتها وبخاصة إذا طال أمدها، وهاهي يصبح فؤادها فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين، وهاهي تقول لأخته قصيه ويشير القرآن إلى هذا الملحظ بقوله ﴿كي تقر عينها ولا تحزن﴾. وعدم الإشارة إلى أبي موسى في الآيات الكريمة يدلنا على أن الشأن إنما يتعلق بالمرأة نفسها لأنها هي التي قد تقوى على ما طلب منها أو تضعف.

والمرأة الثانية في قصة موسى هي أخته التي يدلنا القرآن على ما كان لها من دور يدل على بصر في الأمور وحسن مخرج في التغلب على ما يحرج، وهاهي كما يقول القرآن الكريم ﴿بصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ وقالت كلاماً لا يثير حولها شبهة بل يبعد بها كل البعد عن أن يشار إليها بأصابع الإتهام والموقف حرج حقاً ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ هكذا: ﴿أدلكم﴾، ﴿أهل بيت﴾، ﴿يكفلونه لكم﴾، ﴿وهم له ناصحون﴾ كل كلمة تشير إلى معنى.

وإذا تركنا أمه وأخته ـ عليه السلام ـ وقد رأينا أن كلا منهما تكمل ما للأخرى، وجدنا امرأة ثالثة تفيض رحمة وحناناً مع عقل راجح واستعطاف مؤثر، كل ذلك يتفاعل مع تدين صادق غير مفتعل وكأن فرعون أحس بأن هناك أمراً، وهنا ندرك ما للمرأة من تأثير في حياة الرجل حتى لو كان جباراً، نعم لقد استطاعت المرأة أن تؤثر واستطاع الجبار أن يستجيب فماذا قالت امرأة فرعون: لا تقتلوه، ولكن لماذا؟ ﴿قرة عين لي ولك﴾، تبدأ بهذه العبارة قبل أن تنهى عن قتله

﴿لي﴾ انها تستعطفه أولاً كأنها تقول له عندك من الأجناد والملك والعمل والمشاغل ما تشغل به وقتك، أما أنا فكما تعلم ليس لي من ذلك شيء أشغل به وقتي وابهج به نفسي، فمن أجلي أنا أولاً ﴿قرة عين لي﴾ ثم قالت ﴿لك﴾ هكذا يعبر القرآن الكريم، ومن يدري فلعلها لو قالت «قرة عين لك» قالت ذلك أولاً لقال «أنا أجد ما تقر عيني به فلا أريد» ولكن المرأة المؤمنة الحصيفة عرفت من أي مدخل تدخل، يا لروعة الإيمان! ويا لروعة التعبير فمن يهد الله فهو المهتد، اللهم اهدنا إلى صراط مستقيم ﴿قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾.

وبقي في قصة موسى ابنتا الشيخ الكبير، ولقد رأينا من قبل كثيراً مما تتمتعان به من صفات خيرة فهما لا تزاحمان الرجال أولا فتذودان حتى يصدر الرعاء، ثم تبينـان بحصافة ولباقة السبب الذي دعاهما لامتهان هذه المهنة مع أنها للرجال توضحان هذا السبب حتى لا يظن بهما شيء آخر ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ ثم لا نجد منهما ثرثرة فلم يحدثنا القرآن الكريم عن شيء بعد أن سقى لهما موسى ـ عليه السلام ـ إنه الوقار بل إن حديثهما لأبيهما أولاً قد طواه القرآن الكريم كذلك كأنما هو حديث موجز تحدثتا به لأبيهما خجلتين. ثم يبين القرآن هذا الحياء حينما جاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴿قالت إن أبي يدعوك﴾ ولكن يدعوك لماذا؟؟ تكمل ابنة الشيخ الكبير، تكمل قولها لتبين سبب هذه الدعوة ﴿ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ ليس لها ولأختها فقط بل للبيت كله، ثم تظهر منها تلك الحصافة ورجاحة العقـل لقـد رأت من موسى ـ عليه السـلام ـ كل خير ﴿استـأجره إن خير من استـأجرت القوي الأمين﴾ وأخيراً نجد في قصة موسى هذه الصفة من صفات المرأة؛ الطاعة للزوج تظهر هذه الصفة جلية، وهاهو موسى ـ عليه السلام ـ لما قضى الأجل وسار بأهله وآنس من جانب الطور ناراً، وقال لهم ما قال يذهب ويتركها وحيدة وكان يمكنها أن تطلب أن تكون معه، ولكنها الطاعة النابعة من الإيمان، والمزينة بالعقل والحصافة.

سادساً: ومن القضايا المهمة في قصة موسى قضية السحرة وكيف أحدثوا هذا الإنقلاب الهائل ولا عجب فنحن نرى كثيرين ممن يحملون ألوية العداء للدين يكرمهم الله بالهداية فتكون هدايتهم أقوى وأثبت من كثير من الهدايات المهزوزة

كهداية بني إسرائيل الذي طلبوا صنمًا يعبدونه بعد أن نجاهم الله، هكذا كان السحرة وهكذا من يكرمه الله بالهداية، ألم تروا إلى روجيه جارودي وكان منظّر الشيوعية في أوروبا كيف أكرمه الله بالهداية وغيره كثير. . .

وهكذا نجد الحكم الكثيرة في قصته ـ عليه السلام ـ ولكنه مع جهاده ومع ما تحمله من مصابرة وعناء مع ذلك كله ورغم أن الله أكرمه ونصره على فرعون، والله ينصر رسله في الدنيا والآخرة إلا أننا نجده مع بني إسرائيل رغم شدته وغضبه تارة ورغم استغفاره وصفحه عنهم تارة نجده وقد طفح الكيل وبلغ السيل لا يزيد على قوله ﴿ربِّ اني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾.

ولقد كانت اللبنة التي وضعها موسى ـ عليه السلام ـ في بناء الإنسانية ذات مكان ومكانة، لقد جاء ليخرج الناس من ظلمة التبعية وبؤرة الاستضعاف وأتّون العبودية. . . جاء ليخلص من هذا المنحدر الذي لا يتنسم فيه عليلاً وإن وجد فهو هواء فاسد. . . جاء موسى ـ عليه السلام ـ ليضع في بناء الإنسانية المحكم هذه اللبنة ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾.

كما أنه جاء يضع للناس لبنة يفرقون بها بين الحق والباطل، وكثير ما تسحر الناس أعمال وأقوال ذات مظاهر خلّابة وأشكال جذّابة ولكنها ليست في حقيقتها إلا خداعة كذّابة وما نبأ السحر ببعيد. . .

ومن مظاهر اللبنة التي وضعها موسى ـ عليه السلام ـ مظهر العلم الذي تشجم المشاق في طلبه وهو الرسول الكليم والنبي الكريم. . . هكذا إذن كانت اللبنة التي وضعها موسى في بناء الإنسانية المحكم تجمع بين العلم والعمل ومحاربة الضعف واخلاص العقيدة، ولئن كان حديداً في مزاجه شديداً في طبعه فذلك ما خصه الله به، فالمواقف التي سيجابهها ـ عليه السلام ـ بحاجة إلى هذه الشخصية ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ وقد شبه الرسول ﷺ صاحبيه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، شبه أبا بكر رضي الله عنه بإبراهيم وعيسى وذلك لما كان يعرف من رقته ولينه رضي الله عنه، أما إبراهيم فقد قال ﴿رب اجعل هذا

بلداً آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام رب انهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾. وأما عيسى ـ عليه السلام ـ فقد قال: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وشبه عمر رضي الله عنه بنوح وموسى ـ عليهما السلام ـ وذلك لشدته رضي الله عنه وحدته أما نوح فقد قال ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، وأما موسى فقد قال ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم﴾.

وتبقى في قصة موسى جوانب كثيرة تاريخية وجغرافية ونفسية واجتماعية لا يتسع لها المجال في هذا الكتاب، وخير ما نختم الحديث عنه ـ عليه السلام ـ قول الله تعالى له ﴿وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث التاسع

قصة يونس عليه السلام

١- سورة القلم .
٢- سورة يونس .
٣- سورة الصافات .
٤- سورة الأنبياء .

تعقيب على قصة يونس عليه السلام

قصة يونس عليه السلام:

وبقصة موسى عليه السلام ينتهي القصص الذي يصور لنا المعارك العنيفة بين الأقوام وبين أنبيائهم، اللهم إلا ما كان من إشارات لامحة خاطفة لما كان من خبر يونس عليه السلام مع قومه، ومع ذلك فلن نجد ما وجدناه في أخبار الأنبياء من قبل. وهناك أنبياء ذكروا في كتاب الله تعالى أكثر من مرة لا من حيثُ ما دار بينهم وبين أقوامهم وإنما من حيثيات أخرى. وسنحاول أن نتتبع ذلك بإيجاز إن شاء الله حتى يكون موضوعنامتكاملاً والله ولي التوفيق.

إذا كنا نتحدث عما كان بين الأنبياء وبين أقوامهم فنرى أن نتحدث الآن عن يونس عليه السلام. وهو يونس بن متّى، كما يقول النبي ﷺ في حديثه لعداس في الطائف وهو من نينوى من أعمال العراق.

(١) وجرياً على سنة القرآن -كما تكلمنا من قبل- نجد أول إشارة تحدثت عن يونس ـ عليه السلام ـ، وقد ذكرت مبكرة سورة القلم، وهي السورة التي جاءت تسلية للنبي ﷺ، وهي التي جاءت ترد التهم التي ألصقها به المشركون، وتبين ما أعدّ الله تبارك وتعالى له من أجر غير ممنون، وما أكرمه به من خلق عظيم، ثم ترد عليهم وتبكتهم وتضرب له الأمثال، ثم تحاجهم لتثبت لهم أنهم ليسوا على شيء، وبعد اقامة الحجة عليهم، ولكنهم لم يؤمنوا ولم يستجيبوا، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه الذي قال له إنَّك لعلى خلق عظيم عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ[١] إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا

---

(١) أملي لهم: أي أمهلهم.

فَهُم مِّن مَّغرمٍ مُّثقَلُونَ(١) * أَمْ عِندَهُمُ الغَيبُ فَهُمْ يَكتُبُونَ * فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾(١) [القلم: ٤٤-٥٠].

وجميل أن يشار لقصة يونس ذي النون في سورة (نٓ)، والنون يطلق على الحوت كذلك. هذه الآيات الكريمة ـ كما نرى ـ لم تذكر يونس باسمه، وإنما ذكرته بأنه صاحب الحوت. ويؤمر النبي ﷺ بأن يصبر لحكم ربه دون أن يكون من ضجر، ودون أن يستعجل ما ينبغي أن يحل بهم، كما كان من صاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم يمتلىء غيظاً وهماً ﴿لولا أن تداركه نعمةٌ من ربّه﴾ لولا أن الله تبارك وتعالى تداركه بنعمة، ومنّ عليه بلطفه ووفقه لما ينجيه، لنبذ بالعراء وهو مذموم وممقوت يصيبه اللوم، ولكن نعم الله التي أكرمه بها فوفقه للتوبة والتسبيح كانت نتيجتها أنه نبذ بالعراء غير مذموم، فليس معنى الآية أن يونس لم ينبذ بالعراء، وإنما المعنى -والله أعلم- أنه نبذ بالعراء غير مذموم. على كل حال هذه إشارة تتوق النفوس وتتشوق إلى ما بعدها.

(٢) ثم تأتي السورة التي خصّه الله بها وهي سورة يونس، فنقرأ قول الله تعالى ﴿فلولا كانت قريةٌ آمنتْ فنفعها إيمانها إلا قومَ يونس لما آمنُوا كَشَفْنَا عنهم عذاب الخزي في الحياةِ الدنيا ومتعناهُم إلى حين﴾ والذي تدل عليه الآية الكريمة أنه ليس هناك من القرى المهلكة قرية آمنت فنفعها ايمانها؛ لأنهم كانوا يؤمنون حينما ينزل العذاب بهم -كما رأينا من فرعون- وبعضهم كان ينزل به العذاب قبل أن يؤمن فلا يتمكن من الإيمان وهذا وذاك لا ينفعهما الإيمان، ولكن قوم يونس حينما بدت لهم أسباب العذاب وظنوا أنه واقع بهم، وقبل أن يحيط بهم ويحيق رجعوا إلى أنفسهم وتضرعوا إلى ربهم، فمهما عظمت ذنوبهم، وجلت فالله أجلّ وأعظم، فلما علم الله منهم صدق إيمانهم كشف عنهم عذاب الخزي، ومتعهم إلى حين، وهو الأجل الذي مُنّ لهم في علم الله تبارك وتعالى.

---

(١) المغرم: الغرامة، أي لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك الإيمان.

هذا الإجمال في الآية الكريمة نجد له تفصيلاً في سورة أخرى. إذ ماذا كان بين يونس وبينهم؟ وأين كان يونس ـ عليه السلام ـ حينما آمنوا؟ وما خبر يونس؟ نجد لمحات لذلك فيما ملجىء بعد ذلك من التنزيل.

(٣) تأتي سورة الصافات، قال الله تعالى:

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ[(١)] إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ[(٢)] فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ[(٣)] ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

والذي تبينه الآيات الكريمة أن يونس ـ عليه السلام ـ وهو من المرسلين الذين أكرمهم الله وقد ذكر بعضهم في السورة الكريمة لم يصبر على مغالبة قومه فتركهم وقد سمى القرآن الكريم هذا الترك اباقاً، والاباق؛ إنما هو هرب العبد من سيده.

وهكذا كان من يونس ـ عليه السلام ـ مع أنه كان حريًا أن يصبر وهذا ما أشارت إليه الآية التي تحدثنا عنها في سورة «نٓ» وقد جاء يونس إلى الفلك المشحون إشارة إلى امتلائه وثقل من فيه فساهم أي ضرب بالسهام وهي القرعة فكان من المدحضين، أي كانت القرعة عليه لينزل من الفلك إلى البحر فألهم الله الحوت أن

---

(١) الإباق: هربه من قومه بغير إذن ربه.

(٢) فساهم: المساهمة المقارعة يقال استهم القوم اقترعوا. والمدحض: المغلوب المقروع.

(٣) مليم: داخل في الملامة.

يلتقمه دون أن يؤذيه، ألم يجعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيم!! إلتقمه الحوت وهو مليم، أي: حريّ بأن يلام على ترك قومه والقرآن الكريم يبين نفع الأعمال الصالحات لصاحبها فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون، وهذا التسبيح يمكن أن يكون في بطن الحوت، ويمكن أن يكون من قبل، وقد قيل أن يونس ـ عليه السلام ـ كان يرفع له كل يوم مقدار عمل أهل الأرض ولم يكن ذلك بسبب العمل وحده؛ لأنه لا يمكن لواحد أن يعمل مقدار ما يعمله أهل الأرض وإنما كان ذلك بسبب تفكيره ساعة في عظمة الله تبارك وتعالى، وقدرته وآلائه، يقول الله سبحانه ﴿فلولا أنه كان من المسبحينَ للبثَ في بطنِهِ إلى يوم يبعثونَ﴾ أي لابتلعه الحوت وأكله، ولكن الله أكرمه فنبذه بالعراء وهو سقيم مما لاقاه في بطن الحوت وأنبت عليه شجرة من يقطين، تظلله ويحفظه الله بها وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون، والمقصود الكثرة، فآمنوا فمتعناهم إلى حين.

ذلكم تفصيل لما جاء في السورتين الأوليين سورة القلم وسورة يونس. وقد رأينا أنه تفصيل جديد لم يذكر من قبل، وننبه هنا إلى أنه لا ينبغي أن يعول على ما ذكره المفسرون من تحديد المدة التي مكثها يونس في بطن الحوت، فذلك مما لم يرد به نص صحيح وصريح، وإن كنا نرجح بأن هذا اللبث لم تطل مدته؛ لأن المقصود به كان التربية والعبرة تتحقق بالوقت القصير من ذلك.

(٤) ثم تأتي سورة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

عجيب أمر هذا القرآن في نسقه ونظمه. إن النفوس لازالت متشوفة لما تعرفه عن خبر يونس ـ عليه السلام ـ، فالذي ذكر في السورة السابقة سورة الصافات هو أنه أبق إلى الفلك المشحون أما ماذا وراء ذلك وما سببه؟ فتذكره سورة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في قوله تعالى ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾[1].

---

(١) الأيات (٨٧، ٨٨) من روعة التعبير في القرآن الكريم انه ذكر في سورة (نٓ) صاحب الحوت في سياق أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾، أما هنا فقد ذكر قوله ﴿ذا النون﴾ ذكرت كلمة «ذو» بدل صاحب وكلمة «النون» =

وذا النون: هو يونس ـ عليه السلام ـ، والنون هو الحوت -كما قلنا من قبل- وذهابه مغاضباً: تركه لقومه وقد جاءهم بالنذر وأنذرهم وخوفهم من أجل أن يؤمنوا، ولكنهم لم يستجيبوا فتركهم ضجراً وسآمه دون إذن من الله تبارك وتعالى ومن أجل هذا -والله أعلم- نهى الله النبي ﷺ أن يكون كصاحب الحوت، ولهذا نجده ﷺ كما ذكر في السيرة لم يهاجر إلا بعد أن أذن الله له في الهجرة، يونس ـ عليه السلام ـ ترك قومه سآمة وضجراً لعدم إيمانهم مغاضباً وقد أغضب قومه تركه لهم وغضب منهم كذلك ﴿فظنَّ أنْ لَنْ نقدرَ عليه﴾.

ولا يظنن أحد أن يونس ـ عليه السلام ـ ظن أن لا يقدر الله عليه، فهذا لا يمكن أن يدور بخلد أحد فضلاً عن أن يكون نبياً، وإنما معنى الآية أنه يظن أن لن يضيق الله عليه، ولن يؤاخذه بتركه لقومه والتقدير معناه. التضيق وذلك كما في قوله تعالى ﴿الله يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ وقد قال البعض في ليلة القدر انها سميت كذلك لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة لكثرتهم. الذي يهمنا هنا أن يونس ـ عليه السلام ـ ظن أن الله تبارك وتعالى لا يضيق عليه ولا يؤاخذه وقد ترك قومه دون إذن سآمة وضجراً، وهنا يُطوى في الآية اخباره ـ عليه السلام ـ التي ذكرت من قبل، كل الذي يذكر. ﴿فنادى في الظلمات أن لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين﴾ ولعل هذا ما يرجح ويقوي أن تسبيحه في قوله تعالى ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ الذي مر معناه في سورة الصافات أن هذا التسبيح كان في بطن الحوت فعلاً، ويمن الله تبارك وتعالى عليه ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغمِّ﴾ ولكن ينبغي أن لا ننسى هذا التعقيب في الآية التعقيب الذي تقصد إليه الآية الكريمة فهو أمر مراد ذكره في هذه القصة وهو قوله تعالى في آخر الآية ﴿وكذلك نُنجي المؤمنين﴾.

ما أجمل هذا التعقيب على قصة يونس! وما أحوج المؤمنين إليه في كرباتهم وهمومهم! وقد ورد في الحديث الذي أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في السبعين «دعوة ذي النون إذْ دعا وهو في بطن الحوت لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء إلا استجاب الله له».

= بدل الحوت والسياق هنا يختلف عن السياق هناك؛ فكان لكل من الكلمتين هنا ميزة على صاحبها / راجع البرهان جـ٤ ص

هذه قصة يونس ـ عليه السلام ـ فضلاً عن أنه لا يوجد أي شبهة تكرار فيها إلا أنها جاءت متسقة الحلقات، مرتبة الحوادث ثم ختمت بهذا التعقيب الهادف ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾، والحق أن ختم القصة قضية حرية بالدرس؛ لأننا لو استعرضنا هذا القصص لوجدنا كل قصة تختم بخاتمة معبرة هادفة حكمة وحكماً ولعل أقرب مثلاً على ذلك ما ختمت به قصة موسى ـ عليه السلام ـ وهو قوله له ﴿لا تأس على القوم الفاسقين﴾ إلى غير ذلك مما يمكن أن يدرس فتلمح منه الفوائد والعبر.

ثانياً: تعقيب على قصة يوسن عليه السلام

وإذا كان لابدّ من وقفة مع قصة يونس في كتاب الله أولاً؛ فلابد أن نذكر هذه الصلة المحكمة، وهذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء عليهم السلام.

أولاً: كلنا يذكر هذا الحدث المهم من أحداث السيرة النبوية يوم أن ضرب النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام أروع الأمثلة في التحمل والتضحية، وقد أعرض عنه أهل مكة، فذهب إلى الطائف مشياً على قدميه ليبلغ أهلها دعوة ربّه، ولكنهم كانوا أكثر إعراضاً وأشد قسوة، وأبعد عن الهداية، ويلقى النبي الكريم منهم من الإيذاء الكثير الكثير ويناجي ربّه بهذه الدعوات «اللهمّ إليكَ أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ياأرحم الراحمين». وفي هذه الأثناء يأتيه عبدٌ لأحد كبراء الطائف، ويسأله النبي عن اسمه وبلده، فلما عرف أنه من نينوى قال «أنت من بلد الرجل الصالح يونس بن متى»[1].

وهذه الحادثة تحمل في طياتها معاني كثيرة فهي تدلنا -كما قلت- على هذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما تدلنا كذلك على أن النبي ﷺ كان

---

(١) أخرج القصة ابن إسحاق (١/ ٢٦٠ ، ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً لكن قوله: «اللهم إليك أشكو. . .» ذكره بدون سند وكذلك رواه ابن جرير (٢/ ٨٠ ، ٨١) عن طريق ابن إسحاق، وروى هذه القصة الطبراني في «الكبير» من حديث عبد الله بن جعفر مختصراً وفيه الدعاء، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥) وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات.

يعلم مما علّمه الله كثيراً من أخبار الأول بعامة، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ بخاصة، ومن هذا القبيل معرفته لنسب يونس وبلده ويشهد لما قلناه قوله ـ عليه السلام ـ «أوتيت القرآن الكريم ومثله معه»(١) وإنما ذكرنا هـذا حتى لا يتوهم أن ما أعطيه النبي عليه وآله الصلاة والسلام مع القرآن كان ذا صلة بالأحكام التشريعية فحسب.

ثانياً: تدلنا قصة يونس كذلك على أن هذا الإنسان يبقى ضعيف التحمل لولا عونُ الله ومدده فسرعان ما يعيل صبره ويضعف تحمله حينما يَدْلَهِمّ به الليل، ذلك ما كان من يونس ـ عليه السلام ـ. فقد ذهب مغاضباً ظاناً أن الله لن يضيق عليه ولن يؤاخذه... وإذا كان مثل هذا الظن يمكن أن يقبل من غير أصحاب النفوس الكبيرة الذين لم يعدّوا في هذه الحياة ليكونوا مصابيح هادية؛ فإنه لا يقبل ممن أعدهم الله تبارك وتعالى ليحملوا رسالته، لذلك كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين، والله تبارك وتعالى الحكم العدل يأخذ كل واحد ويحاسبه على قدر ما أنعم عليه وبمقدار ما مكنه في هذه الحياة... ألم تر إلى الآيات الكثيرة، والأحاديث الكثيرة كذلك التي جاءت تبين أن الناس لا ينبغي أن يكونوا سواء وإنما كلٌ بقدر ما أنعم الله عليه... وإن شئت أن تطمئن نفسك فتعرف شيئاً من هذه الآيات الكريمة فاستمع إلى قول الله تبارك وتعالى لنبيه وحبيبه وأحب خلقه إليه خاتم أنبيائه سيدنا محمد ﷺ ﴿ولولا أنْ ثبتناكَ لَقد كِدْتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً إذن لأذقناك ضعفَ الحياة وضعفَ المماتِ ثُمَّ لا تجدِ لكَ علينا نَصيراً﴾ [الإسراء: ٧٥] ثم استمع إلى ما يوجهه لنسائه عليه وآله الصلاة والسلام أمهات المؤمنين عليهن سلام الله ورضوانه ﴿يانساءَ النبي من يأت منكنَّ بفاحشةٍ مُبينةٍ يضاعف لها العذابُ ضعفين وكانَ ذلكَ على اللهِ يسيراً ومن يقنتْ منكنَّ لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١]

يونس ـ عليه السلام ـ إذن كان من أولئك الذين أعدّهم الله ليقودوا هذه القافلة البشرية في زمان من أزمنتها ومكان من أمكنتها، فكان لابد من أن يكون

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب «السنن» باب لزوم السنة / مختصر سنن أبي داوود ص١٨، وأخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

أكثر تحملاً وأكثر تقبّلاً، وأقدر على التصرف وأجدر بتبديد الضعف لكنه لما لم يكن جعل الله منه درساً، فقال لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام ﴿فاصبِر لحكمِ ربِّكَ ولا تكن كَصَاحِبِ الحوتِ إذْ نَادى وهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

ثالثاً: لكن هذا منسجم مع بشرية الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وإذا كان الله قد أكرمهم بالعصمة فإن هذه العصمة إنما هي وقاية أولئك الأنبياء مما لا يليق بهم، وقد بيّن العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ هذا فاوله الشرك قبل النبوة وبعدها، ولهذا نجد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قد حفظهم الله من هذا الشرك، منذ نشأتهم، ومن قبل أن يرسلهم إلى قومهم، وبعد الشرك الكبائر فالأنبياء معصومون من فعلها قبل النبوة وبعدها كذلك كالسرقة والزنا والقتل، وقد قلنا إن ما حدث من موسى ـ عليه السلام ـ حين قتل القبطي لم يكن قاصداً له ولم يكن منه سبق إصرار، ولم يكن بما يقتل في العادة كالأدوات التي يستعملها الذين يصرون على القتل، ومما يعصم عنه الأنبياء كذلك الصغائر التي تخل بالمروءة وتتنافى مع الهيبة، ذكرنا ذلك كله لنبين أن ما حدث منه عليه السلام لم ينافِ العصمة؛ لأنه ليس من الأنواع الثلاثة التي تقدمت وهي الشرك والكبائر والصغائر التي تتنافى مع المروءة.

على أن كثيراً من العلماء يرى أن ما كان من يونس ـ عليه السلام ـ حينما التقمه الحوت إنما كان قبل النبوة، وأظن أن الذي يقرأ الآيات الكريمة فيرى سياق الآيات يرضى هذا القول. . . مع أن القائلين به أقل من غيرهم لكنني أستريح له؛ لأنه لا يجعلنا نتكلف في فهم الآيات. والمتأمل لآيات سورة الصافات أظنه يقف معي لترجيح هذا القول ﴿فَنبذنَاهُ بالعراءِ وهو سقيمٌ وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين وأرسلناه إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدونَ﴾

وإذا كان من لبنة خص بها يونس في بناء الإنسانية المحكم، فإنما هو هذا الإعداد الذي ينبغي أن يكون لذوي النفوس الكبيرة حتى تقدر على التحمل وتصبر على الأذى، وهو نوع من الجهاد عظيم.

المبحث العاشر

قصة داوود وسليمان عليهما السلام

١- في سورة (ص).
٢- في سورة النمل.
٣- في سورة سبأ.
٤- في سورة الأنبياء.
٥- في سورة البقرة.

تعقيب على قصة داوود وسليمان عليهما السلام.

قصة داوود وسليمان عليهما السلام

ومن القصص التي ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله تعالى قصة داوود وسليمان عليهما السلام، ونذكر هنا -ما قلناه من قبل- من أن هذا القصص لا نجد فيه ما وجدناه فيما تحدثنا عنه مما كان بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وبين أقوامهم، ولكننا نجد فيه عِبراً أخرى لها أكثر من مغزىً كما سنعلم ذلك إن شاء الله تعالى.

ونلحظ هنا ملحظاً مهمًا لابدَّ من التنبيه عليه، وهو أن هذا القصص لم ينزل مبكراً -كما وجدنا في القصص السابق- وذلك لأنه ليس من ذلك النوع الذي يتعلق تعلقاً مباشراً بالدعوة فيحمل التهديد ويظهر من خلال آياته تهديد المشركين المعارضين، والطمأنية للمؤمنين، وتثبيت قلب النبي ﷺ هذا **أولاً**.

وأما **ثانياً**: فإن السور التي ذكرت فيه مثل هذا القصص لم تكن من الكثرة -كما رأينا في النوع الأول- وينتج عن هـٰذين أمر ثالث، وهو أننا لم نر الحديث في هذه القصص يبدأ بالإشارات الموجزة المعبرة -كما رأينا من قبل-؛ لأنه لا داعي لها... فالحديث عن داوود وسليمان ذكر في هذه السور الأربع: (صٓ) والنمل وسبأ والأنبياء... ولا يظنن ظآنّ أن هـٰذين النبيين الكريمين لم يذكرا إلا في هذه السور، فقد ذكرت أسماؤهما في سور كثيرة، كسورة البقرة والنساء والأنعام، ولكن الذي نقصده بأن هذه السور الأربع هي التي ذكر فيها أخبارهما عليهما السلام.

(١) ففي سورة (صٓ) بعد ذكر ما لاقاه النبي ﷺ من المشركين يقول الله تبارك وتعالى له ﴿اصبر على ما يقولونَ واذكر عبدنا دَاوودَ ذا الأيدِ إنَّه أوابٌ﴾[1] [الآية: ١٧] ويبين الله تبارك وتعالى ما خص به داوود من قوة، ومن نعم، ومع

---

(١) ذا الأيد: ذا القوة في الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه.
أواب: تواب رجاع إلى مرضاة الله تعالى.

ذلك لم تخل حياته من خصوماته... فقد سخر الله تعالى الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق صباحاً ومساءاً، وكذلك الطير وقد قوى الله ملكه وآتاه الحكمة، ومع ذلك الملك فقد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) ﴾

ثم حدثنا القرآن عن قضية غلط فيها الكثير من الكاتبين والمفسرين وهي قوله الله تعالى:

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) ﴾

فقد نَسجوا حول هذه الآيات الكريمة قصصاً كاذباً، وهذا نتيجة الثقة بالإسرائيليات -مع كل أسف- التي كثرت في تفسير قصص القرآن، ومع انها

ضرر كلها إلا أن بعضها خروج صريح عن العقيدة، ومنافاة لعصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، قالوا: إنه عليه السلام رأى امرأة أحد جنوده فأرسله للمعركة ليقتل ليتزوجها وكان له تسع وتسعون من النساء، فأرسل الله له هـذين الملكين ليبين له فظاعة ما فعله.

وهذا القول من حيثُ المروءة والليباقةُ والدين لا يليق بأي أحد من الناس فكيف ينسب إلى نبي، وسامح الله الذي ذهبوا إلى أن النعجة يقصد منها المرأة، والنعجة نعجة، وقد كرم الله بني آدم، وكل ما كان من داوود أنه حينما تسور أولئك المحـراب فلم يدخلوا من البـاب الـذي ينبغي أن يدخلوا منه فزع منهم، ومع تطمينهما له بقولهما: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض، إلا أن أثر ذلك الفزع كان لايزال له أثره في نفسه، والدليل على ما نقول: أنه حينما بدءا يتحدثان قال أحدهما، وهو صاحب النعجة، بأن أخاه له تسع وتسعون. . . إلى آخر ما قال تكلم صاحب النعجـة وكان حرياً بداوود أن يتريث ليسمع ما يقوله الآخر وهو صاحب التسع والتسعين، ولكننا نجد أن داوود يصدر الحكم دون أن يسمع من الآخر نصاً، من أجل ذلك عوتب واستغفر ربّه وخر راكعاً وأناب، فغفر الله له ذلـك، وأكرمه بالقربى وحسن المنقلب، ثم أرشده بقوله ﴿ياداوود إنا جعلناكَ خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلكَ عن سبيل الله﴾ فإن الذي نهي عنه أن يتبع الهوى في الحكم فأين هذا من الإسرائيليات التي حشي بها كتب التفسير قديمها وحديثها!!

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى أن الله وهب سليمان لداوود ويلاحظ أن الأب والإبن يذكران معاً، لكن بعض السور قد تفصل عن الأب -كما رأينا- في هذه السورة. والأخرى قد تفصل عن الإبن.

ثم ذكـرت السـورة قصـة عن سليمان ـ عليه السلام ـ اختلفت فيها كلمة المفسرين ـ مع كل أسف قديما وحديثاً كذلك، وما حق لهم أن يختلفوا في مثل هذه القصة ـ هي قول الله تعالى:

وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ

﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ[1] ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

ذهب الكثير من المفسرين في تأويل هذه الآيات إلى أن سليمان ـ عليه السلام ـ عرضت عليه الخيل، وهي الصافنات الجياد في وقت العشي وبدأ يتفقدها واحدة واحدة، وكانت من الكثرة بحيث شغلته عن صلاة العصر حتى غربت الشمس وتوارت بالحجاب وهذا معنى قوله ﴿فقالَ إني أحببتُ حبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾ أي آثرت حب الخيل على ذكر ربي أي على الصلاة حتى توارت الشمس بالحجاب أي غربت، ثم أراد أن يُكفِّر عما حدث منه من ذنب فقال: ردوها علي، أي ردوا الخيل عليّ فلما ردّوها بدأ يقطع سوقها وأعناقها، والسوق جمع ساق. هذا ما يراه كثير من المفسرين.

وذهب البعض -وهم القلة منهم- إلى تأويل الآيات على غير هذا النحو، حيث قالوا:

أنّ سليمان عرضت عليه الخيل التي كان يعدها من أجل الجهاد في سبيل الله ففرح وقال إني أحببت حب الخير أي الخيل عن ذكر ربي أي أحببتها وآثرت حبها من أجل الله تبارك وتعالى والجهاد في سبيله حتى بعدت الخيل وتوارت بالحجاب، فقال ردوها عليّ أي ردوا الخيل عليّ بعد أن بعدت حتى لا يكاد يراها، فلما ردوها بدأ يمسح سوقها وأعناقها، ايناساً لها ورغبة في رؤيتها كما يمسح أصحاب الخيل خيولهم حباً وإعجاباً ورعاية. وذهب الإمام الرازي إلى هذا القول وخالفه الكثيرون من بعده.

---

(١) الصافنات الجياد: الصفونَ الجمع بين اليدين في الوقوف، وصفها بالصفون والجودة ليجمع فيها وصفين محمودين وهما: واقفة وجارية، يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفاقاً في جريها.

ثم رأينا في هذا العصر من يتبع الإمام الرازي في هذا، ولكن وجدنا من يشنع عليه كذلك، فقد ذهب الشيخ حامد محيسن إلى هذا القول، ولكن الشيخ الذهبي ـ رحمه الله ـ في كتابه «التفسير والمفسرون» لم يرتضه منه، وشنع عليه، وما نجد ضرورة لذلك كله.

نحن لا ننكر التفسير الأول إذا كان هناك ما يدل عليه من الحديث الصحيح، أما إذا لم يوجد ولا نَخالُهُ ـ قد وجد ـ فلسنا ملزمين بالأخذ به ولا يحق لأحد أن ينال من الآخر بسبب رأي يترجح عنده، على أننا أَمْيَل إلى قبول الرأي الثاني لما يلي:

(١) إنه أليق بالأنبياء.

(٢) إنه ليس بحاجة إلى تقدير فاعل أجنبي كما هو في الرأي الأول؛ لأن الشمس التي قدرناها فاعلاً لقوله تعالى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ ليس لها ذكر، أما إن قلنا إن الخيل هي الفاعل فذلك ليس غريباً على السياق.

(٣) ما نظن أن نبياً يمكن أن يحدث منه مثل هذا، فيشغل عن صلاة العصر إن كانت هناك صلاة عصر مفروضة عليهم، الذي أود أن أقوله إن القضايا غير ذات الشأن حري بنا ألا نقف عندها وقفة طويلة، فنتقطع أمرنا بيننا تقطعاً عما هو الأهم، والأولى أن توجه له العناية وتستخرج منه الكنوز وتحل فيه الرموز.

هناك قضية أخرى ذكرت عن سليمان ـ عليه السلام ـ كثرت حولها الإسرائيليات كذلك وهي قوله تعالى:

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ

﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

وقد أكثروا من الإسرائيليات في تفسير هذه الآية ﴿وَلَقَدْ فتنّا سليمانَ وألقينَا على كُرسيه جسداً ثم أناب﴾ [الآية: ٣٤]. فذكروا ما ينافى مع عصمة الأنبياء، وهذا أثر الإسرائيليات التي أُبتلينا بها فشوه كثيراً من تراثنا، وأن لنا أن نتخلص منه.

والذي نذهب إليه في تفسير الآية ما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه: «ان سليمان ـ عليه السلام ـ أقسم أن يطوف على نسائه فتلد كل واحدة فارساً يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فلم تحمل إلا واحدة ومع ذلك فقد ولدت مولوداً غير سوي، فلما جيء به ووضع على كرسيه جسداً غير سوي، فلما رأى هذا أناب إلى ربه وطلب ان يغفر له»، كما طلب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، ويتساءل البعض كيف جاز لسليمان أن يطلب مثل هذا؟ ولا نرى بذلك بأساً فهو إنما طلب ملكاً لا ينبغي لأحد من الناس، وكان نبياً، فأحبَّ أن يكون ملكه قاهراً لقومه الذين كانوا يقولون فيه الأقاويل، وان يكون معجزة له كذلك، والعجيب اننا نرى بعض أهل الكتاب لا يؤمن به نبياً فجعل الله له هذه المعجزة، وآتاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. والنبي ﷺ وهو القمة في تعليم الذوق واللياقة كما صح عنه: أنه أراد أن يقيد شيطاناً في بعض السواري، ولكن ذكر دعوة أخيه سليمان فتركه، يا للعظمة في علو الخلق!! ﴿وإنك لعلى خلقٍ عظيم﴾. فأكرمه الله، فسخر له الريح تجري بأمره حيثُ أراد وقصد، والشياطين بناءين وغواصين[1] وآخرين «مقرنين مصفدين»[2] مقيدين، هذا عطاؤنا فامنن أو مسك بغير حساب، ومع ذلك فإن له عند الله زلفى وحسن مآب.

---

(١) كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ.

(٢) أي كان يقرّن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد، والصفد: القيد.

(٢) أما سورة النمل: فقد تحدثت حديثاً مفصلاً، فبدأت بما أكرم الله به داوود وسليمان ﴿ولَقَدْ آتينا داوودَ وسليمانَ علمًا وقالا الحمدُ لله الذّي فضّلنَا على كثيرٍ من عباده المؤمنينَ﴾ [الآية: ١٥] فبعد هذا الإجمال مما أكرم الله به الأب والإبن معاً، وحمدهما لله على هذه النعم، بدأت السورة الكريمة تفصل لنا في الحديث عن سليمان، وكيف أنه ورث داوود أباه ﴿وقال يـٰأيُّها الناس عُلّمنا منطقَ الطير وأُوتينا من كل شيء. إن هذا لهو الفضلُ المبينُ﴾.

وتحدثنا السورة حديثاً شائقاً ذا أهداف عالية سامية، فلقد حُشر له يوماً جنوده من الجن والإنس والطير وسار بجنده، ﴿فلما أتوا على وادِ النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمانُ وجنوده وهم لا يشعرون﴾ من غير أن يشعروا بكن لصغر حجمكن، فأدرك قولها وإشارتها لجنسها، ﴿فتبسم ضاحكاً﴾، وتوجه إلى ربّه يشكره على نعمه ﴿ربِّ أوزعني أن أشكرَ نعمتكَ التي أنعمتَ عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾.

ثم تبين الآيات حرص سليمان على رعيته وتفقده لهم ـ ولا عجب فهو النبي الملك ـ وكل راع لابد أن يكون على علم برعيته، ألم يقل الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لو عثرت بغلة في العراق لرأيتني مسؤولاً عنها لأنني لم أُعَبِّد لها الطريق، وهذا ما فهمه وما اكتسبه من سيد الأنبياء ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من حيثُ سيرتُه وعمله، ومن حيثُ قولُه ـ عليه السلام ـ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»(١).

يتفقد سليمان الطير فلا يجد الهدهد، ﴿مالي لا أرى الهدهد، أم كان من الغائبينَ لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾. ولكن لم يطل الوقت، ويأتي الهدهد بخبر مهم أحطت بما لم تحط به، سبحان الله! الهدهد يحيط بما لم يحط به سليمان! وجئتك من سبأ بنبأ يقين، ولقد آلم الهدهد وأغاظه أن ما وجده

---

(١) صحيح البخاري كتاب الاستقراض باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، باب رقم (١٠) حديث رقم (٢٢٧٨)، وكتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن باب رقم (١١) حديث رقم (٨٥٣).

من خبر أولئك القوم الذين تملكهم امرأة، ولها عرش عظيم، والذي أغاظ الهدهد وأساءه إنه وجدهم يسجدون للشمس من دون الله، زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ومالهم لا يسجدون لله الذي خلق الشمس، والذي يخرج الخبء، كل ما هو مخبوء في هذه الأرض، والذي يعلم إنه يخفون وما يعلنون، إن الله الواحد الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، إنه التوحيد المرتكز في كل ما خلق الله من هذه المخلوقات حتى تلك التي لا تعقل وهي الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها؛ إلا أن الكثيرين انحرفوا بهذه الفطرة عن طريقها السوي فما أعظمه من درس! وما أجلها من عبرة! ويقول سليمان للهدهد سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ويكتب له كتاباً ليذهب به إلى أولئك يلقي الكتاب إليهم، ثم يدعهم موليًّا عنهم ﴿ثُمَّ تولَّ عنهم فانظر ماذا يَرجعونَ﴾ أي الق الكتاب، وتنح ناحية تسمع قولهم، وبماذا يرجع بعضهم إلى بعض القول.

وتقرأ الملكة الكتاب وهو موجز جامع لم يزد سليمان فيه على أن قال من سليمان بسم الله الرحمن الرحيم ألّا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين. وتسأل قومها الرأي فليست قاطعة أمراً من دونهم، ولكنهم لم يكونوا على شيء من هذا الرأي. كل الذي قالوه نحن أولوا بأس شديد والأمر إليك، فانظري ماذا تأمرين. أرادت أن تستعين بمشورتهم، فلم يمدوها بشيء، وأرجعوا الأمر إليها أولاً وأخيراً. وهنا تدلي المرأة برأيها، إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذل يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرةٌ بمَ يرجعُ المرسلونَ.

لقد كان رأياً ينم عن حصافة وفكر وروي وحكمة، ما أضيع الشعوب التي لا تملك رأياً، ولا تستطيع التصرف حينما تدلهم الحوادث!! وما أضيع الشعوب التي تحرم هذا الرأي!! لقد قدرت ملكة سبأ أنها إن استطاعت أن تغري سليمان بالهدية فإنها تستطيع أن تحاربه وتقاومه وتتغلب عليه، وإلا فليس بها قدرة عليه؛ لأنه ليس بملك كبقية الملوك. وتصل الهدية، وكانت هدية عظيمة يدلنا على ذلك قول سليمان ـ عليه السلام ـ كما سجله القرآن الكريم، أَتمدُّونني بمالٍ فالذي أكرمني الله به وآتاني إيّاه خير مما آتكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَلَ لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون.

ويدرك سليمان ـ عليه السلام ـ أنهم آتون لا محالة فيقول لبعض جنده من ذوي القدرة والبأس، أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، ويقول عفريت

من الجن: «أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وكان مقامه نصف النهار ـ كما يقولون ـ وإني عليه لقوي أمين» ولكن الذي عنده علم من الكتاب قال: «أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك» وقد اختلفوا في هذا الذي عنده علم من الكتاب، فقيل: إنه آصف.

والذي نرجحه ـ والله أعلم ـ أنه سليمان نفسه ويكون معنى الآية حينئذ أن سليمان قال للعفريت من الجن إذا كنت تأتي به وكان إتيانك به يحتاج إلى هذه المدة وهي نصف النهار فأنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك، ونستدل لهذا بما يلي:

(١) إن سليمان نبي، وهو الذي منَّ الله عليه في أو القصة فقال: ﴿ولقد آتينا داوود وسليمان علمًا﴾ ولا يعقل أن يكون أحداً من الناس أكثر علمًا من نبي.

(٢) كان ذلك من قبيل المعجزة لسليمان ـ عليه السلام ـ.

(٣) قوله ـ فيما بعد ـ كما قص الكتاب الكريم ﴿فلمّا رآه مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبي ليبلُوَني ءأَشكُرْ أم أكفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فإنَّما يشكُرُ لِنَفْسِهِ ومن كَفرَ فَإنَّ ربي غَنيٌ كَريمٌ﴾ فيشكر الله على المنة التي أكرمه بها، ويصل عرشها قبل أن تصل ويريد أن يتبين سليمان من حصافتها ورأيها ﴿نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ وتصل الملكة وتُسأل أهكذا عرشك فلا تجيب بالنفي أو الايجاب، وإنما تقول: كأنه هو، وتلك مرة ثانية تظهر فيها حصافة المرأة، ويقال لها ادخلي الصرح، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، فيبين لها أن لا حاجة لذلك لأنه لا ماء كما تتوهمين، وإنما هو صرح ممرد من قوارير، وتدرك المرأة الملكة أن ما أعطيه سليمان ليس مما يعطاه ملوك الدنيا، وإنما الرجل يجمع إلى الملك النبوة، فتدرك خطأها الذي كان فيه من عبادة غير الله فتعلن إسلامها ﴿ربِّ إني ظلمت نفسي وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين﴾.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا
وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ
لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ

أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا
فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾
وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى
عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا

نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

(٣) ثم تأتي سورة سبأ وتبدأ الحديث عن داوود وما أكرمه الله به من تسبيح الجبال معه، وتسبيح الطير وإلانة الحديد له ﴿لقد آتينا داوود منّا فضلاً ياجبال أوّبي معه والطير وألنّا لهُ الحديدَ﴾[الآية: ١٠] ولا عجب في ذلك فكل شيء يسبح بحمده تبارك وتعالى، ألاَن الله له الحديد، ومن طريف ما قالوه: «لقد ألين لأبي داوود الحديث كما ألين لداوود الحديد» يعنون أما دوود السجستاني ـ رحمه الله ـ صاحب السنن[1] ﴿أن اعمل سابغاتٍ وقدِّرْ في السَّرْدِ واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾ [الآية: ١١] هكذا كان عمل داوود. والسابغات الدروع، والتقدير هو إحكامها وإتقانها ولقد ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ «أن خير الناس من يأكل من عمل يده ولقد كان داوود يأكل من عمل يده»[2].

ثم تحدثت الآيات بعد ذلك عن سليمان. وما أكرمه الله به، وكيف أنه سخّر له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأسال له معدن النحاس، كما سخّر له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه، أما من ينحرف منهم عن الجادة والطريق المستقيم؛ فإنه يعذب ويذاق من السعير، وكان هٰؤلاء الجنّ يعملون المحاريب وهي أمكنة مخصّصة للعبادة، ومجالس للحكم والقضاء، كما

(١) وهو أحد الكتب الستة وكتابه أكثرها علمًا من حيثُ الأحكامُ.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده باب رقم (١٥) حديث رقم (١٩٦٦).

يعملون التماثيل والجفان الكبيرة التي تشبه الجوابي. وهي جمع جَابية ليوضع فيهـا المـاء. والقدور الكبيرة: وهي جمع قدرة. الراسيات التي توضع على الأثـافي، وهي الحجارة التي يوضع عليها القدر ﴿اعملوا آل داوود شكراً﴾ ويقول الله تعالى: ﴿وقليلٌ من عباديَ الشكورُ﴾. والشكور: هو الذي وجّه كُل طاقته لشكر الله تبارك وتعالى، بقلبه ولسانه وجوارحه وهو الذي يرى نفسه عاجـزاً عن الشكر؛ لأن نعم الله كثيرة. إن أولئك قليل، فلقد سمع عمر ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يوماً يقول: اللهمّ اجعلني من القليل، فقال له ما هذا الدعاء. قال إن الله يقول ﴿وقليلٌ من عباديَ الشكورُ﴾ فأسأل الله أن يجعلني من أولئك القليل. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كل الناس أعلمُ من عمر!!

فلما قضى الله على سيدنا سليمان الموت، والجن يعملون له، ما دلهم على موته إلا دابّه الأرض، وهي الارَضة، تأكل منسأته، وهي العصا فوقعت فخر سليمان حين ذلك تبينت الجن موته.

ثم يأتي التعقيب القرآني ليصحح خطأ لا يزال عند كثير من الناس حتى اليوم وهو ما يتوهمه كثيرون من أن الجن تعلم الغَيْب، فيقول الله: إنهم لا يعلمون الغيب، ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾.

وترى أن القصة القرآنية تعقب بحقائق تكون ذا هدف سام، وغاية غالية جادة يريد القـرآن تحقيقها، فليس سرداً لأحداث فحسب، وإنما هي ذات مغـزىً ودلالات، ذات أثـر إيجابي. ذلكم هو حديث سورة سبأ عن داوود وسليمان ـ عليهما السلام ـ.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ

ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

(٤) ثم تأتي سورة الأنبياء، تتحدث عن داوود وسليمان ـ عليهما السلام ـ حديثاً لم يمر من قبل، وذلك في قوله سبحانه:

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

تحدثت الآيات عما أكرم الله به داوود وسليمان من تعليم قواعد الحكم وأصوله. والنفش: هو انتشار الغنم في الليل، وكانت هذه الغنم قد انتشرت فأتت على حرث فَرَعتهُ وأذهبته، فجاء القوم يتحاكمون عند داوود وسليمان، فكان حكم داوود ـ عليه السلام ـ أن تُعطى الغنم لصحاب الأرض؛ لأنه لحق به الضرر، ولكن سليمان ـ عليه السلام ـ رأى بتوفيق الله سبحانه ان لو كان هناك حكم آخر يكون أرفق بهما، قال الأب لابنه: ما حكمك هذا؟! قال: أن تعطيَ الأرض لأصحاب الغنم يفلحونها ويزرعونها حتى إذا عادت كما كانت ترجع الأرض لأصحابها ويأخذ أصحاب الغنم غنمهم، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿ففهّمناهَا سليمانَ وكُلاًّ آتينا حكمًا وعلمًا﴾، وأظن أن في ذكر

مثل هذه الحوادث في سورة الأنبياء ما يتلاءم مع موضوع السورة، ثم هي بعد ذلك تبصرة وتعليم لأولئك الذين يقلدون مهمة الحكم بين الناس فلا يرى أحدهم بأساً أن يرجع عن خطأ كان منه أو أن يرجع إلى ما هو خير مما حكم به، وقد رأينا الأب يرجع إلى حكم ابنه.

وبعد هذه المنّة ذكر الله منّة أخرى ذكرت من قبل، ولكنها جاءت هنا بأسلوب آخر، جاءت بلفظ التسخير ﴿وسخّرنَا مع داوودَ الجبالَ يُسَبّحْنَ والطّيرَ﴾. وتقديم الجبال على الطير؛ لأنها أعظم وأدل على سياق القدرة؛ لأنها جماد ولا يحس، فالتسبيح منها أعجب. ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى ﴿وكنّا فاعلينَ﴾. وما أجمل أن تأتي كلمة الفعل هنا وهي صدور الأثر من المؤثر بقصد أو بدون قصد، وهو بالنسبة لله تعالى ظاهر الحكمة والهدف، ولكنه من الجبال والطير يختلف عن أن يكون من الإنسان المدرك الهادف.

ثم يقول الله بأنّه علّم داوود صنعة لبوس، وهذه الآية الكريمة تدل على أن داوود كان أول من فعل ذلك؛ لأنه أسند التعليم إليه ﴿لِتُحْصِنَكُم مِنْ بأسِكُم فهل أنتُم شاكرونَ﴾ وهذه منّة لا على الذين كانوا في عهد داوود فقط، ولكن على أولئك الذي خوطبوا في عهد النبي ﷺ، وهي نعمة تستحق الشكر.

ثم بيّن القرآن ما أنعم الله به على سليمان فذكر نعمتين اثنتين:

أولاهما: نعمة الريح، وقد جاء في الآية هنا ﴿تجري بأمره إلى الأرض التي بَاركْنَا فيها﴾

أما النعمة الأخرى: فهي أن من الشياطين من يغوصون له ويعملون عملًا دون ذلك، وذلك كله بحفظ الله تبارك وتعالى. هذا خبر داوود وسليمان.

ثم جاءت سورة البقرة لتنفي عن سليمان السّحر كما اتهمه المنحرفون، ولتثبت ما أكرم الله به داوود حينما قتل جالوت ﴿وقتلَ داوودُ جالوتَ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ [الآية: ٢٥١] فأين مظاهر التكرار في هذه الأخبار جميعاً!؟

إن هناك قضية واحدة ذكرت وهي قضية الريح ، وقضية عمل الشياطين، ولكن كان لكل مجالها وموضوعها. ففي سورة سبأ مثلاً بين أن الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وفي سورة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ذكر أنها تجري إلى الأرض التي باركنا فيها.

وهكذا ندرك أن أمر التكرار منتفٍ انتفاء تاماً بل هو غير مُتصور.

تعقيب على قصة داوود وسليمان عليهما السلام

ونقف متأملين عند قصة داوود وسليمان، النّبيين الملكين، الأب والإبن، وقد نقل صاحب المنار ـ رحمه الله ـ عن أن النصارى ينفون نبوة سليمان ويزعمونه فيلسوفاً حكيمًا فحسب؛ لأنهم يتحكمون في إثبات النبوة ونفيها عمن يشاؤون من أنبياء بني إسرائيل، وعلل ذلك بما نقله عن بعضهم[1]. وأما المسلمون فموقفهم من الأنبياء يستمدونه من كتابهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن السنة الصحيحة التي نقلت عن النبي عليه وآلة الصلاة والسلام.

لقد امتن الله على داوود وسليمان في أكثر من آية بالعلم، وهو فضل الله على من يشاء من عباده، ولقد كان هذا العلم لجوانب كثيرة من الكون، ولكننا نلحظ أن الله تبارك وتعالى وقد منّ عليهما بالعلم شرفهما بوصف آخر ذكر أكثر من مرة وهو العبودية ﴿واذكر عبدنا داوودَ﴾ ﴿ووهبنا لداوودَ سليمانَ نعْمَ العبدُ﴾، فمع هذه النبوة والملك والعلم تأتي العبودية الصادقة لتتوج ذلك كله، وقد ذكر في خبرهما ما استغله بعض القُصّاص، واحتل مساحات بعد ذلك من كتب التفسير، والحق الذي لا مِرية فيه أن ما ذكره القرآن عن هٰذين النبيين ـ وعن غيرهما بالطبع ـ ينسجم مع ما يستحقه الأنبياء من الإجلال والتقدير، ومع ما أُكرموا به من العصمة، ومع المنهج التربوي المتكامل الذي اختص الأنبياء به ـ عليهم السلام ـ، لقد أُستغلَّ نبأ الخصْمين اللذين تسوروا المحراب فقالوا فيهما ما ينافي عصمة الأنبياء، كما أُستغلت بقية الأخبار التي تحدثنا عنها في سورة (صٓ) وفي سورة النمل، وفي سورة سبأ.

---

(١) تفسير المنار جـ٦ ، ص٣٢٣.

إن أخبار الأنبياء في القرآن لا تشوبها شائبة شك، ولا تحوم حولها شبهة، فهم المصطفَوْن الأخيار، ويمثل الشيخ رشيد ـ رحمه الله ـ أخبار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في القرآن الكريم، وفي غيره فيقول: «إن مثل الأنبياء في غير القرآن الكريم كبستان فيه الشجر المثمر وغير المثمر، وفيه الشوك والعوسج، وغير ذلك مما لا فائدة فيه؛ بل فيه الضرر المؤكد.

أما أخبارهم ـ عليهم السلام ـ في كتاب الله فكبستان ليس فيه إلا الزهرة النضرة الندية، والثمرة الشهية». وهكذا نجد أن داوود وسليمان ـ عليهما السلام ـ، قد أسهما بنصيب وافر في البناء الإنساني المحكم، فغاية النعمة تستلزم غاية العبودية. . . وهكذا كلما عظمت نعم الله تبارك وتعالى خلصت عبوديته لله تعالى.

ولقد ردّ القرآن الكريم عن هذين النبيين الملكين العبدين كل ما أثير حولهما مما لا يليق بعباد الله وأنبيائه، فالسحر الذي نُسب لسليمان يرده القرآن رداً عنيفاً ويحكم على الذين أثاروا هذه الشبهات بالكفر فلم يكن ساحراً ولم ينزل عليه ولا على أبيه سحر. . . ولقد خصّه بكتاب فيه الحكمة وذكرهما مع النفر الذي أكرمه الله بالوحي والفضل، فقال سبحانه في سورة النساء ﴿إنّا أوحينَا إليكَ كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ واسحق ويعقوبَ والأسباط وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينا داوودَ زبوراً﴾ [الآية: ١٦٣] وقال في سورة الإسراء ﴿وَرَبُّكَ أعلمُ بِمَنْ في السماواتِ والأرضِ ، وَلَقَدْ فَضّلْنَا بعضَ النبيينَ على بعض وآتينا داوودَ زبوراً﴾ [الآية: ٥٥]، وهكذا كلما شكر العبد ربّه، وافتقر بعبوديته لله، أكرمه الله بنعمه وأحاطه بفضله ومننه. . . اللهم اجعلنا من الشاكرين. . . آمين.

المبحث الحادي عشر

قصة أيوب عليه السلام

أولاً: ما ذكر فيها من إشارات

١ ـ سورة (صٓ).

٢ ـ سورة الأنبياء.

ثانياً: تعقيب على قصة أيوب عليه السلام



قصة أيوب عليه السلام

أولاً : ما ذكر فيها من إشارات :

ثم جاءت قصة أيوب وقد ذكرت في سورتين اثنتين: سورة (ص)، وسورة الأنبياء.

(١) ففي سورة (ص): نقرأ قول الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾

تفصّل السورة هنا تفصيلاً ما في خبر أيوب، وقد نادى ربه أنه قد مسّه الشيطان بمرض وضرر ومعاناه، وهذا من الأدب مع الله تعالى فلم يَنسب ذلك له وكيف أن الله تبارك وتعالى منّ عليه فقيل له: ﴿اركض برجلك﴾ فنبع ماء ليغتسل فيه ويشرب، فيكون بذلك بُرْءه مما به من سقم، ووهب الله له أهله ومثلهم معهم[1] رحمة منه تبارك وتعالى، وذكرى لأولى الألباب الذين يصبرون ويستقبلون ما منَّ الله بالرضا والطمأنينة.

ثم تتحدث الآيات عن رخصة جعلها الله له، وقد أقسم أن يضرب امرأته

---

(١) وآتيناه أهله: أي جمعنا شمله بهم بعد أن تفرقوا عنه.
ومثلهم معهم: أي كان لهم الأولاد، مثلهم وهمَ أحفاده عليه السلام.

عدداً من الضربات فقال الله له ﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾ وهي حزمة مجمعة من عيدان متعددة فاضرب به ولا تحنث، كان ذلك تكفيراً ليمينه، ثم يثني الله عليه بقوله ﴿إنا وجدناه صابراً﴾ فليس للصابر إلا الجزاء الأوفى، ثم يثني الله عليه سبحانه بقوله ﴿نعم العبد إنه أواب﴾.

(٢) وتأتي سورة الأنبياء بعد ذلك على ما نعرف من إيجازها في الحديث عن الأنبياء، وفيها نقرأ قول الله تعالى: ﴿وأيوب إذ نادى ربه اني مسني الضر وأنت أرحم الرحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ والضُر: بالضم هو المرض، والضَر بالفتح أعم منه حيث يكون بالنفس والأهل والمال غير ذلك، ويبين ربنا تبارك وتعالى أنه استجاب له نداءه وآتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده سبحانه وذكرى للعابدين، ألا ترى معي أننا حينما نجمع الآيتين نخرج بنتيجة رائعة وهي أن أولى الألباب لن يكونوا كذلك، إلا إذا كانوا من العابدين الذين كانت العبادة ديدنهم، ونحن نرى أن كثيرين يوصفون بالعقل الراجح والفكر المستنير وهم أبعد ما يكون عن عبادة الله تعالى. أرأيت كيف أن القصص القرآني يمدنا بحقائق ويصحح لنا أخطاءاً، ويخرجنا من متاهات مظلمة. ذلكم الكتاب ﴿ذلكَ الكتابُ لاَ رَيْبَ فيه هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢].

ثانياً: تعقيب على قصة أيوب عليه السلام

نقف عند قصة أيوب النبي الصابر لنُشير باديء ذي بدء إلى أن ما قصّةُ القرآن علينا من خبر أيوب ـ عليه السلام ـ، لم يكن فيه من غرابة الشأن ما يخرجه عمّا ألفه النّاس، ومع ذلك وجدنا القصّاصين عشاق الإسرائيليات ينسجون حول هذا الخبر ما يجوز، وما يصح وما لا يصح، بل ما يتنافى مع عصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ. . . كل ما أفادته قصة أيوب ـ عليه السلام ـ، أنه ابتلي بمرض وببعض المصائب، ولكنه صبر وتضرع إلى ربه فمنّ الله عليه بالشفاء وهداه إلى ماء يمكن أن يغتسل به ويشرب منه؛ ليكون بُرءاً لمرضه، ثم إن أهله قد تفرقوا عنه فأكرمه الله حيث ردهم عليه وكان مثلهم معهم من بينهم، كما قص علينا القرآن الكريم بأن أيوب ـ عليه السلام ـ حلف أن يضرب بعض أهله، لأمر حدث منهم لم يقصه

علينا القرآن؛ لأنه لا عبرة فيه، حلف أن يضربهم عدداً معيناً؛ فأوحى الله إليه أن يأخذ بيده ضغثاً فيضرب به. . . ولكنهم أثاروا حول ذلك كثيراً وكثيراً فذكروا أخباراً في سبب ما أصاب أيوب، وهي أخبار كاذبة بالطبع.

ثم ذكروا أن مرضه ـ عليه السلام ـ كان من تلك الأمراض المنفره فذكروا أن جسمه كان مرتعاً للدود، إلى غير ذلك من الأخبار الكاذبة الشاذّة. . . ثم قالوا إن أهله قد ماتوا جميعاً، ولكن الله أحياهم له بعد ذلك وأعطاه مثلهم معهم. . . ثم ذكروا أن امرأته أخطأت خطأً حيث تصور لها الشيطان ودلها على شفاء أيوب بعمل شيء محرم فحلف أيوب أن يجلدها مئة جلدة. . . كل ذلك مما لا ينبغي أن يعول عليه، بل ينبغي أن لا يركن إليه. . . ولعل هذا جعل عند بعض الكاتبين ردة فعل قوية عنيفة فأوّل هذه الآيات وحملها على غير ما تحمل عليه فراراً مما نسج حول هذه الآيات الكريمة ففسر قوله تعالى ﴿أنِّي مسنِّيَ الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذابٍ﴾ اعراض الناس واستهزاءهم بالدعوة والداعين فإن ذلك من عمل الشيطان، فشكوى الأنبياء لم تكن إلا بسبب إعراض أممهم عن الاستجابة، وحزنهم لم يكن إلا بسبب بطء في سير الدعوة، واستدل بقوله تعالى ﴿ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيق مما يَمكرون﴾. أما قوله تعالى ﴿اركض برجلك﴾ المراد ﴿اركض﴾ عقد العزيمة وتأكيدها، واستتمام الثقة وإكمالها؛ وذلك لأن الشكوى تشعر بالوهن وعدم القوة في السير إلى الغاية لذلك. هذا ما كان من جواب تلك الشكاية.

أما قوله تعالى ﴿هذا مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ﴾ لما كان تردد المرء في غايته ووهن عزيمته مرضاً يضايق الصدور كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلاً للروح من صدئها، وشفاء للنفس من مرضها. فالمراد من المغتسل هو عقد العزيمة واستكمال الثقة، وهنا اسم الإشارة يكون راجعاً إلى الركض بالرجل التي هي كناية عن عقد العزيمة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أي: هدينا أهله فآمنوا به واستجابوا لدعوته، وهدينا له مثلهم من غير أهله، فالهبة هنا هي هبة الهداية والإرشاد، لا هبة الخلق لأن ما يهتم به الأنبياء هو أن يهدي الله بهم لا أن يولد لهم. وقوله تعالى ﴿وَخُذْ بيدكَ ضِغثاً فاضرب به ولا تَحنَثْ﴾ أي: لا ترفع في وجوه قومك رمحاً ولا عصا ولا تغلظ لهم في القول، بل لوّح لهم في وجوههم بالرياحين ولا تأثم بالغلظة.

وهذه التأويلات ـ كما نرى ـ بعيدة كل البعد عن مدلول اللفظ القرآني، ولا ينبغي أن نحمل الألفاظ ما لا تحمل، ولقد ردّ العلامة الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ شيخ الأزهر الأسبق هذه التأويلات وأطال الكلام في ذلك.

والآيات ـ كما قلنا من قبل ـ بعيدة عما أثير حولها من قصص إسرائيلي، كما ينبغي أن تبقى بعيدة عن هذا التكلف كذلك، وإذا كان داوود وسليمان قد وضعا في البناء المحكم لبنة الشكر: فإن اللبنة التي وضعها أيوب ـ عليه السلام ـ كانت لبنة الصبر. . . والشكر والصبر أساسان لابد منهما في هذا البناء الإنساني. . . ولهذا ذكر هؤلاء الثلاثة معاً في قوله سبحانه ﴿وداوود وسليمان وأيوب﴾ نسأل الله أن يمنّ علينا بالشكر والصبر.

المبحث الثاني عشر

قصة يحيى وزكريا ومريم عليهم السلام

أولا: قصة يحيى وزكريا عليهما السلام

١- في سورة مريم.

٢- في سورة الأنبياء.

٣- في سورة آل عمران.

ثانياً: قصة مريم عليها السلام.

١- سورة مريم.

٢- سورة الأنبياء.

٣- سورة المؤمنون.

٤- سورة آل عمران.

٥- سورة التحريم.

٦- سورة الصف.

٧- سورة المائدة.

ثالثاً: تعقيب على قصص زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام.

قصة يحيى وزكريا عليهما السلام

ومن القصص التي ذكرت أكثر من مرة ما حدثنا القرآن الكريم عن خبر زكريا، فقد جاء الحديث عنه وعن زوجة وابنه يحيى عليهما السلام.

أولاً: في سورة مريم حيث بدأت السورة بهذا الحديث:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

وتبين الآيات الكريمة كيف أكرمه الله تبارك وتعالى وامرأته عاقر وقد بلغ من الكبر عتيا:

قَالَ كَذَٰلِكَ

قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾

ويسأل ربه آية فتكون آيته ألا يكلم الناس ثلاث ليال دون أن يصيبه مرض من بكم أو غيره ثلاث ليال سويا: أي صحيحاً غير مريض.

ثم يبين الله ما منّ به على يحيى عليه السلام:

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

(٢) أما سورة الأنبياء: فيأتي النسق فيها متلائما مع هذا الإيجاز الهادف الوافي:

وَزَكَرِيَّآ

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

ونحن نرى أن كلاً من السورتين اشتملت على قضايا جديدة يدرك ذلك من وقف أمام النص القرآني يستجلي معانيه، ويتفهم مقاصده، وهاتان السورتان مكيتان.

(٣) ثم جاءت سورة آل عمران المدنية، وكان الحديث فيها عن آل عمران حيث فصّل فيها ما لم يفصل في السورتين الأوليين، فزكريا كفل مريم فلما رأى من عجيب قدرة الله حمله ذلك على أن يدعوَ ربه ليمنَّ عليه بشيء من هذه العجائب وفعلها زكُريا:

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

هذه الحلقة لحكمة ما اختصت بها هذه السورة؛ لأنها هي السورة التي تحدثت عن آل عمران، وما اختصوا به، بل سميت السورة باسمهم كذلك. وتبين هذه السورة أن تكليمه للناس في الأيام الثلاثة لا يكون إلا رمزاً، وهذا ما لم يشر إليه في سورة مريم، وإنما ذكرت ليالي ثلاث ونأخذ م السورتين أنها كانت أيام بياليها.

والذي جاء في سورة مريم أنه دخل على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً. أما هنا فليس الأمر كذلك فهو المذكور بالذكر والتسبيح ﴿واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشي والإبكار﴾. . وما أبعد ذلك عن التكرار!!

ثانيا: قصة مريم عليها السلام

أما قصة مريم فقد ذكرت أول ما ذكرت في السورة التي سميت باسمها وهي أكثر سورة فصّل فيها الحديث عنها، فبعد الحديث عن زكريا ويحيى - عليهما السلام -، يحدثنا القرآن عن مريم ﴿واذكرْ في الكتاب مريمَ إذ انتبذتْ من أهْلِهَا مكاناً شرقياً فاتخذتْ من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها رُوحَنَا فتمثل لها بشراً سَوياً﴾ يبدأ الحديث عن مريم من هذه الحلقة المتأخرة نسبياً من حياتها، وهي بداية تتسق وتتفق مع ما قبلها وما بعدها في السورة الكريمة، ففي أول السورة: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. كهيعص ذكـرُ رحمةِ ربّك عبدَه زكريا﴾ وفي بداية قصة مريم ﴿واذْكُرْ في الكتاب مريمَ﴾ ويأتي بعدها هذا ﴿واذكرْ في الكتاب إبراهيمَ﴾ ﴿واذكرْ في الكتابِ مُوسى﴾ ﴿واذكرْ في الكتابِ إسماعيلَ﴾ ﴿واذكرْ في الكتاب إدريسَ﴾.

يحدثنا القرآن أن مريم - عليها السلام - اعتزلت أهلها فانتبذت منهم مكاناً شرقياً، واتخذت من دونهم حجاباً، ويظهر يظهر أن هـذا الحجاب لم يكن مجرد حائل وساتر من أجل أن تمشط رأسها أو تفلي شعرها -كما تقول بعض الرويات-، وإنما كان ذلك الحجاب حاجزاً فيه بُعد يدلنا لذلك قوله تعالى: ﴿مَكاناً شرقياً﴾ فلم يكن الحجاب مجرد ساتر رقيق.

ويحدثنا القرآن عما كان لمريم بعد ذلك، ونلحظ هذه الفاءات الكثيرة، وهي تدلُّ على أن هذه الأمـور كان بعضهـا عقب بعض دون مهلةٍ أو تريث، وتلك مقـدمـات ممهـدة نستشف منها ما يتفاعل في نفس مريم من أمور ﴿انتبذت﴾ ﴿فاتخذت﴾ ﴿فأرسلنا إليها﴾ ﴿فتمثل لها﴾.

والروح التي أرسل إليها جبريل - عليه السلام - وقد منح الله الملائكة القدرة على أن يتمثلوا بغير صورهم، ولقد كان جبريل - عليه السلام - يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أحيانه في صورة دحية الكلبي - رضي الله عنه -. تمثل لها بشراً سوياً كأحسن ما يكـون البشر، وتكـون المفاجأة لمريم ذات النشأة الدينية والعاطفة الدينية، لذلك نجدها تلجأ إلى الله تبارك وتعالى وتستجير به من هذا الذي رأته على غير ميعاد؛ فهي تعوذ بالرحمـٰن منه وتلجأ إليه سبحانه إن كان هذا الذي رأته تقياً يخشى الله تبارك وتعالى كأنما تستعطفه وتذكره بالله، فهي تستعيذ

بالله منه إن كان تقياً خيّراً، والناس عادة يستعيذون بالله من غير الأتقياء. أما هي في هذا الموقف فهي تستعيذ بالله حتى من الأتقياء. فالموقف موقف حساسية لا يحتمل صبراً، ولكنه يجيبها ﴿إنّما أنا رسولُ ربّك﴾ بأسلوب القصر الذي يدل على بساطة في الأمور، كأنما القضية من المسلمات وهو ما تدل عليه «إنما» كما يقول علماء البلاغة ﴿إنّما أنا رسولُ ربِّك لأهب لك غلاماً زكياً﴾، وتدرك مريم أنها لابد أن تجابه الموقف بصراحة وجرأة فكيف يكون لها غلام وهي العذراء التي لم تتزوج، الطاهرة التي لا تعرف الخنى ﴿أنّى يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بَشَرٌ ولَمْ أكُ بَغياً﴾، ويجيبها الروح الأمين ـ عليه السلام ـ بأنه ليس له من الأمر شيء، إنما هو أمر الله الذي قضاه، وهو عليه هيّن، وسيكون رحمة للناس بما ييسر عليهم في التشريع وآية على القدرة الإلـٰهية؛ لأن ميلاده سيكون صفعاً للمادة والماديين، وهذا معنى قوله سبحانه ﴿ولنجعلَه آيةً للناسِ ورحمةً منّا﴾.

وتنتهي مهمة الروح الأمين، وقد بلّغ الرسالة التي أمر أن يبلغها، ولهذا لا يحدثنا القرآن بعد ذلك شيئاً عن هذه المحاورة، وإنما يكون الحديث عما جرى لمريم فيما بعد حديثاً معطوفاً بعضه على بعض بهذه الفاءات المتعددة ﴿فحملته﴾ ﴿فانتبذت به مكاناً قصيّاً﴾ ويلجئها المخاض الذي يأتي النساء الحوامل عند ولادتهن إلى جذع النخلة، ولا تسل عمّا أصابها من ضيق! وعما أحاط بها من ألم! ﴿يا ليتني مِتُّ قَبْلَ هَذا وكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا﴾ وما أن تنتهي من تلك الكلمات؛ وإذ بها مباشرة تسمع صوتاً يناديها يبين لها ما أكرمها به الله فحريٌّ بها أن لا تحزن؛ فلقد أكرمها الله تبارك وتعالى بالماء شراباً، وبالرطب غذاءاً، فما هي إلا أن تمسك جذع النخلة تهزه بيدها محركة له متحركة به، وما أحسن الحركة لذوات المخاض! فلتأكل ولتشرب ولتهنأ وليكن غذاؤها من هذا الرطب الذي يعينها على إجتياز تلك المرحلة الصعبة الحرجة، ولتنذر للرحمـٰن صوماً ألا تكلم أحداً من الناس.

ويجمل أن ننقل شيئاً مما كتبه صاحب التصوير الفني -رحمه الله- يقول: «فهاهي ذي في خلوتها مطمئنة إلى انفرادها، يسيطر على وجدانها ما يسيطر على الفتاة في حملها؛ ولكن هاهي ذي تفاجأ مفاجأة عنيفة تنقل تصوراتها نقلة بعيدة، ولكنها بسبب مما هي فيه أيضا: ﴿فأرسلنَا إليها روحنَا فتمثّل لها بشراً سوياً، قالت إنّي أعوذُ بالرحمـٰن منك إنْ كُنْتَ تقياً﴾ إنها انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها فتلجأ إلى استثارة التقوى في نفسه ﴿إن كنت تقيا﴾!.

ولئن كنا نحن نعلم انه «الروح الأمين» فإنها هي لا تعلم إلا أنه رجل، وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة الطيبة البريئة ذات التقاليد العائلية الصالحة، وقد تربت تربية دينية وكفلها زكريا بعد أن نذرت لله جنيناً. هذه هي الهزة الأولى ﴿قال: إنما أنا رسولُ ربِّك لأهب لك غلاماً زكياً﴾، ثم ليتمثل الخيال مرة أخرى مقدار الفزع والخجل، وهذا الرجل الغريب -الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها، فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها- يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول وهو يريد أن يهب لها غلاماً وهما في خلوة وحدهما، وهذه هي الهزة الثانية.

ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها. قالت: أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً؟ هكذا صراحة، وبالألفاظ المكشوفة، فهي والرجل في خلوة، والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً -فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً، وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها ﴿إنّما أنا رسولُ ربِّك﴾ فقد تكون هذه خدعة فَاتِكٍ -كما قلنا- فالحياء إذن ليس يجدي والصراحة هنا أولى.

قال: «كذلك قال ربك: هو علي هينّ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً». ثم ماذا؟ هنا نجد فجوة من فجوات القصة، فجوة فنّية كبرى تترك للخيال يتصورها كما يهوى، ثم تمضي القصة في طريقها لنرى هذه العذراء المسكينة في موقف آخر أشد هولاً:

﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت: ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ وهذه الهزة الثالثة.

فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة، ثم هي تواجه آلاماً جسدية بجانب الآلام النفسية، تواجه الألم الجسمي الحادّ الذي أجاءها إجاءة إلى جذع النخلة وهي وحيدة فريدة، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء ولا معين لها في شيء فإذا هي قالت: ﴿يا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسياً﴾ فإننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها «فناداها من تحتها: ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولي: إني نذرت للرحمـٰن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾.

وهذه هي الهزة الرابعة، والمفاجأة العظمى، وإنا لنكاد -نحن لا مريم- نهب على الأقدام وثباً، روعة من هذه الهزة وعجباً: طفل وليد اللحظة يناديها من تحتها، ويمهد لها مصاعبها ويهيىء لها طعامها، ألا إنها الهزة الكبرى.

ونحسبها قد دهشت طويلا وبهتت طويلا قبل أن تمدّ يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطباً جنياً -لتتأكد على الأقل، ويطمئن قلبها لما تواجه بها أهلها- ولكن هنا فجوة تترك للخيال أن يقيم عندها قنطرة، ويعبرها. . . ﴿فأتت به قومها تحمله﴾

فلتطمئن الآن مريم ولتنتقل الهزات النفسية إلى سواها ﴿قالوا: يامريم لقد جئت شيئاً فرياً. يا أخت هارون: ما كان أبوك إمرأ سوء وما كانت أمك بغياً؟﴾.

إن الهزة لتطلق ألسنتهم بالسخر والتهكم على أخت هارون: وفي تذكيرها بهذه الأخوة ما فيه من مفارقة، فهذه حادثة في هذا البيت لا سابقة لها ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾.

﴿فأشارت إليه﴾ ويبدو أنها كانت مطمئنة لتكرار المعجزة هنا؛ أما هم فما عسى أن تقول في العجب الذي يساورهم والسخرية التي تجيش بها نفوسهم، وهم يرون عذراء تواجههم بطفل، ثم تتبجح فتشير إليه ليسألوه عن سرها ﴿قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾؟

ولكن هاهي ذي المعجزة المرتقبة: ﴿قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً». . .

لولا أننا قد جربنا من قبل لوثبنا على أقدامنا فزعاً أو لسحرنا في مواضعنا دهشاً، أو لفغرنا أفواهنا عجباً، ولكننا جربنا فلتفض أعيننا بالدمع من التأثر ولترتفع أكفنا بالتصفيق من الإعجاب، وفي هذه اللحظة يُسدل الستار والأعين تدمع للإنتصار والأيدي تدوي بالتصفيق. وفي هذه اللحظة نسمع في لهجة التقدير وفي أنسب فرصة للإقناع، الإقتناع:

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي

نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

ولقد برز الغرض الديني هنا وبرزت مشاهد القصة، ولكن مما لا شك فيه أن قوة إبرازَ العواطف والإنفعالات هي الغالبة، وإن هذا اللون هو الذي يطبعها، ويغلب فيها على الألوان الأخرى»[1].

(٢)- ثم تأتي سورة الأنبياء لنقرأ فيها هذه الإشارة:

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

(٣)- أما سورة المؤمنون فتذكر فيها هذه الزيادة ﴿وجعلنا ابْنَ مَريمَ وأُمَّهُ آيةً وءَاوَيْنَـٰهُمَا إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. نعم آية؛ لأن كلاً منهما إنما صار آية بالآخر فليس آيتين؛ فما أبدع النصم القرآني وأحكمه!

(٤)- ثم تأتي سورة آل عمران لتحدثنا عن الحلقة الأولى وكيف أن امرأة عمران نذرت لربها ما في بطنها محرراً ليتقبل منها فهو السميع العليم:

---

(١) كتاب «التصوير الفني في القرآن» - سيد قطب - دار الشروق - بيروت والقاهرة ص١٥٨ - ١٦١.

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

هذه الحلقة الأولى ذكرت في هذه السورة، وذلك -لما قلنا آنفاً- من أنها سورة ال عمران جاءت تتحدث عن مناقبهم وما أكرمهم الله به، وفي هذه السورة يبين الله ما أكرم به مريم حيث أعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم وتقبلها بقبول حسن، وانبتها نباتاً حسناً ورزقها من عنده، وكيف أخبرتها الملائكة أن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، فلتكن من القانتين الساجدين الراكعين، ثم أخبرتها الملائكة بأن الله يبشرها ﴿بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسَى ابنُ مريَمَ وجيهاً في الدنيا والآخرةِ ومن المقرَّبينَ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ في المهد وكهلاً ومنَ الصالحينَ﴾، ثم تتحدث عن أن ذلك ما أراده الله ﴿كَذَلِكِ الله يَخْلقُ ما يشاءُ إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكونُ﴾.

ثم تحدثت عما أكرم الله به المسيح ـ عليه السلام ـ حيث علمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولاً إلى بني إسرائيل ليعلن لهم بأنه قد جاءهم بآية من ربهم، ثم يبين أن هذه الآية التي أمده الله بها ﴿أنّي أخلقُ لكُمْ من الطّينِ كهيئةِ الطّيرِ فانفخُ فيه فيكونُ طيراً بإذنِ الله﴾. وهناك أخرى ﴿وأُبرِيء الأكْمَهَ والأبرَصَ وأُحيي الموتَى بإذنِ الله﴾. أما الثالثة ﴿وأُنبئُكُم بما تأكلونَ وما تَدّخِرونَ في

بُيوتِكَمْ إنَ في ذلك لآيةَ لَكَمْ إنْ كُنْتم مؤمنينَ﴾.

ثم يُبين ـ عليه السلام ـ بأنه لم يخرج عن شريعة موسى ـ عليه السلام ـ فهو مصدق لما بين يديه من التوراة ولكن خفف الله به عنهم فجاء ينسخ بعض أحكام التوراة ﴿ولِأُحِلَّ لكُم بعضَ الذي حُرِّمَ عَليكُمْ، وجئتُكُم بآيةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قيل: هي آية التوحيد دلالة على ما كان يجيء به الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ويمكن أن تكون الآية شيئاً آخر ﴿فاتَّقوا الله واطيعُونِ إنَّ الله ربِّي وربُكُمْ فاعبُدُوهُ هذا صراطٌ مُستقِيمٌ﴾. فلما علم عيسى واستشعر وأدرك أنهم كافرون لا محالة سأل مَنْ أنصاري إلى الله ﴿قال الحواريون نحن أنصارُ الله﴾. وننبه هنا لهذا الملحظ الدقيق وهو أن عيسى ـ عليه السلام ـ سألهم من أنصاري إلى الله فلم يجيبوه «نحن أنصارُك إلى الله»، وإنما قالوا: نحن أنصار الله، وها هم يعلنون ويشهرون إيمانهم ويدعون ربهم، وقد آمنوا بما أنزل واتبعوا رسوله أن يكتبهم مع الشاهدين.

ثم تخبرنا الآيات عن مكر بني إسرائيل ومحاولتهم قتل عيسى ـ عليه السلام ـ ولكن الله كان أسرع وأقوى منهم مكراً، ثم تبين الآيات ما قاله الله لعيسى:

(١) متوفيك. (٢)رافعك إلّي.

(٣) مطهرك من الذين كفروا، مفرق بينك وبينهم حتى لا تصيبك منهم لوثة.

(٤) جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

ولقد اختلف المفسرون كثيراً في الأولى والثانية ﴿متوفيك﴾، ﴿ورافعك﴾ فبعضهم يحمله على التوفي الذي هو الموت، وهؤلاء بعضهم فسر الرفع بأنه رفع حقيقي كان بعد الموت، وبعضهم لم يجعله كذلك. وبعضهم ادّعى أن في الآية تقديماً وتأخيراً، فقال: إن المعنى «إني رافعك إلّي ومتوفيك».

وأنا لا أقبل مثل هذا أبداً فنحن لا نرضى أن نقدم ما أخره الله وأن نؤخر ما قدمه. وإن كان هذا مُشتهراً عند كثيرين من الناس. وبعضهم حمل التوفي على غير الموت، وحمل الرفع على الحقيقة بأنه الجسم والروح، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء قديماً وحديثاً، وإلى الأول ذهب بعض العلماء الـمُحْدَثينَ الذين ينازعون في استمرار حياة عيسى حتى اليوم، كما ينازعون في نزوله. مع أن الأحاديث

الصحيحة وردت تبين ذلك ومن الذين أنكروا هذا الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت. وليس من غرضنا أن نطيل في الخلافيات إنما الذي نريد أن ننبه إليه أن هذه القصة جاءت في سورة آل عمران وهي السورة التي أقامت الحجج على نصارى نجران وغيرهم من النصارى وغيرهم من أهل الكتاب. ولا يرتاب أحد في أن الذي ذكر في هذه السورة الكريمة رغم إجماله إذا قورن بما ذكر في سورة مريم إلا أن فيه زيادات بل فيه الجدّة كل الجدّة[1].

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

(١) وينبغي أن نلحظ هنا أن الذي ذكر في هذه السورة كان ترتيبه مغايراً لسورة مريم حيث قدم ذكر زكريا هناك وفصّل في أمر الميلاد، أما هنا فلقد كان الحديث عن آل عمران مرتباً ابتداءاً من الحلقة الأولى حيث نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرراً.

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾
رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ
ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ
فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

(٥) **ثم تأتي سورة التحريم،** ولها موضوعها ذو الصلة العميقة بأمور النـ
ومنهن المؤمنات وغير المؤمنات، وقد حدثتنا أولاً: عما كان من شأن أزواج
صلى الله عليه وسلم ﴿ياأيُّهَا النَّبيُّ لِمَ تحرّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ تبتغي مرضاتَ أزو
والله غفورٌ رحيمٌ﴾، وفي آخر السورة يضرب الله مثلا للذين كفروا إمرأتين اثـ
امرأة نوحٍ، وامرأة لوط، ويضرب مثلا للذين آمنوا إمرأتين اثنتين: امرأة
﴿إذْ قالتْ ربِّ ابني لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعونَ وعملِهِ ونجـ
القوم الظالمين، ومريمَ ابنةَ عمرانَ التي أحصنت فرجَهَا فنفخنا فيه من
وصدّقَتْ بكلماتِ ربِّها وكتبِه وكانتْ من القانتينَ﴾.. لكل سورة مذاقها
وأسلوبها، بل وموضوعها الذي اختصت به واختص بها.

(٦) **أما سورة الصف التي تحدثنا عنها من قبل فقد جاء فيها آيتان** تـ
عن عيسى ـ عليه السلام ـ عما كان بينه وبين قومه.

الأولى: هي قول الله تعالى ﴿وإذْ قالَ عيسى ابنُ مريمَ يابني إسر
رسولُ الله إليكم مصدِقاً لما بينَ يديَّ من التوراةِ ومبشِّراً برسولٍ يأتي مِـ
اسمُه أحمدُ فلمّا جاءَهُمْ بالبيناتِ قالوا هذا سحرٌ مبينٌ﴾، فهذه الآية الكريـ
الغاية منها بيان هذه البشارة بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم.
البشارات! ولكن الآية تبين لنا بعد ذلك أن عيسى بعد أن جاءهم
أنكروها وكذبوه، وقالوا هذا سحر مبين.

وأما الآية الثانية: فهي في آخر السورة وهي قول الله -وقد جاءت
خطاب المؤمنين أن يكونوا أنصار الله- ﴿ياأيُّها الذين آمنوا كونوا أنصار اللـ
عيسى ابنُ مريمَ للحواريين مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريون نحنُ أنـ
فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرتْ طائفةٌ فأيّدنا الذينَ آمنوا على
فأصبحوا ظاهرينَ﴾. وهذا يختلف عما جاء في سورة آل عمران؛ لأن الـ
لم يكن سياق الحديث عن عيسى، وإنما ذكرت في سياق الحديث عـ
ومناداتهم ـ كما رأينا ـ فما أبعد هذا عن ذاك!!.

(٧) **ثم تأتي سورة المائدة:** وقد حدثتنا في آخرها عن عيسى ـ عليه
وينبغي أن ننبه قبل كل شيء إلى أن الحديث في سورة المائدة لم يكن عما -

عيسى وبين قومه، وإنما كان له سياق آخر وهو ما كان بين الله تبارك وتعالى وبين نبيه عيسى ـ عليه السلام ـ. وهذا ما تنطق به الآيات الكريمة:

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

ثم تذكر الآيات نبأ المائدة، وبعد هذا يوجه النداء إلى عيسى مرة أخرى ﴿وإذْ قالَ اللهُ يا عيسى ابنَ مَريمَ ءأنتَ قَلْتَ للنّاسِ اتخذُوني وأُمِّي إلـٰهين مِن دونِ الله قالَ سُبْحَانَكَ ما يكون لي أَنْ أقولَ ما ليس لي بحقٍّ إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ علمتَهُ تَعْلَمُ ما في نفسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنّكَ أنْتَ علاّمُ الغيوبِ. . .﴾ الخ الآيات الكريمات. وغني عن القول أن هذا الأسلوب يختلف كلية عما قرأناه في سورة آل عمران؛ لأن هذا كان امتنان من الله على نبيه. وما جاء في سورة آل عمران كان حديثا بين عيسى وبين قومه ـ عليه السلام ـ.

هذه هي القصص التي ذكرت في كتاب الله أكثر من مرة، ولعلي إن شاء الله قد وفقت في تجليته فإن وفقت فمن الله وإلا فمن نفسي.

ثالثاً: تعقيب على قصص زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام

وإذا كان لابد من وقفة مع آل عمران في ما أخبر به القرآن الكريم عنهم؛ فإنها -والحق يقال- وقفة تمدنا بشفافية الروح وصادق الإيمان فهي آيات تبدد -كما رأينا- وتهدم كل ما أراده الماديّون مما يتنافى مع آثار القدرة الإلـهية، وعظيم الحكمة الإلـهية، فأخبارهم جميعاً إبتداءاً من ولادة يحيى لزكريا عليهم السلام وما كان من خبر مريم وولادة المسيح، كل ذلك كان صفعة قويةً لأولئك الماديين الذين يريدون أن يقفوا عند ظواهر الأشياء دون النظر إلى ما وراءها، كما أن فيها بياناً شافياً لتعنت اليهود، وقسوة قلوبهم وتنكرهم للحق، وما أعظم اللبنة التي وضعها هـؤلاء، إنها الإنطلاق من مجال المادة الضيق، ومن أرجائها المظلمة، ومن آفاقها العتماء إلى ما هو أوسع وأرحب مما تبدعه يد القدرة.. ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين إن هذا لهو القصص الحق وما من إلـه إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم، فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين، قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾.

اللهم لك أسلمنا ولك آمنا، وعليك توكلنا، وإليك أنبنا، وبك خاصمنا، وإليك حاكمنا، اللهم اغفر لنا ما قدّمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنّا، وما أسرفنا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إلـه إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تلكم هي اللبنات لهذا البناء ومع دقتها، واحكامها؛ إلا أن هذا البناء لازالت تنقصه لبنة تكمل بنيانه وتتم أركانه... وتلك اللبنة التي لا يتم البناء إلا بها كانت وشاء الله لها أن تكون بالنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ.. وهذا هو الحديث الشريف «إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا

موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاّ وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[1].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ حديث رقم (٣٥٣٥)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/٥٥٨.

المبحث الثالث عشر

القصص الذي لم يذكر إلا مرة واحدة:

١- قصة إلياس عليه السلام.

٢- قصة يوسف عليه السلام.

ثالثاً: تعقيب على قصصة يوسف عليه السلام

١ - قصة إلياس عليه السلام:

ولا بأس أن نذكر هنا مشيرين إلى بعض القصص الذي لم يذكر سوى مرة واحدة في كتاب الله تعالى، وقد أشرت إلى ذلك من قبل. واذكر هنا قصة إلياس التب وردت في سورة الصافات:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

هذه هي قصة نبي من أنبياء الله وهو إلياس، ويقال انه إدريس نفسه ولعله «إيليا»، وإنما ذكرت هذه القصة هنا لنبين أن من قصص الأنبياء لأقوامهم في العهد المكي لا يذكر إلا مرة واحدة، وذلك يرجع لمقدار ما في القصة من عبرة، ومن عظة ﴿إذ قال إلياس لقومه ألا تتقون أتدعون بعلاً﴾. ويظهر إنه اسم صنمهم، يبكتهم وينكر عليهم أن يدعوا بعلا، وأن يذروا أحسن الخالقين الله تبارك وتعالى ربهم ورب آبائهم الأولين؛ ولكنهم كذبوه فلابد أن يحضروا للعذاب الذي يستحقون ثم يقول الله: ﴿وتركْنا عليه في الآخرين﴾ أي تركنا عليه بما جعلناه له من الذكر الحسن والثناء الذي سيكون عليه إلى يوم القيامة ﴿سلامٌ على إل ياسين﴾ وهي لغة في إلياس أو يمكن أن يكون له ولمن آمن معه.

نياً: قصة سيدنا يوسف عليه السلام:

ما دمنا نتحدث عن القصة القرآنية نرى أن نختم هذا الحديث بلمحات ـذرات عن قصة الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ن اسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبي الله صلاة الله وسلامه.

صحيح أن قصة يوسف ـ عليه السلام ـ لم تذكر سوى مرة واحدة، ونحن حدث عن دعوى التكرار وهو منفي ـ بالطبع ـ فلا حاجة للحديث إذن عن كل هو مماثل لهذه القصة، ولكن رأينا تتميًا للفائدة ولما فيها من فصول بديعة غايات عظيمة أن نتناولها من بعض الجوانب والزوايا.

قصة يوسف عليه السلام ذكرت مرة واحدة -كما قلنا- وهي دليل على عجاز القرآن؛ ذلك لأن الله تبارك وتعالى لو شاء أن يفرد لكل نبي قصة على حدة ، سورة واحدة -كما رأينا في قصة يوسف- لو شاء سبحانه لفعل؛ ولكن هذا لقرآن معجز وقد قلنا في أول هذا الكتاب إن القصص التي لم تذكر إلا مرة واحدة -رغم ما بها من أهداف ورغم ما تشتمل عليه من تربية- ليست ذات صلة مباشرة بالدعوة التي كانت بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وبين أقوامهم، وربما تكون هناك أسباب أخرى كما يذكر بعض الكاتبين، فيذكرون مثلا أن قصة يوسف لم تذكر إلا مرة واحدة؛ لأن فيها مراودة امرأة العزيز، وذلك ليس من شأنه أن يذكر أكثر من مرة. ونحن إذ نكاد نوافقهم على مثل ما يقولون إلا اننا نجد فيها أيضاً إباء يوسف وامتناعه وهذا شيء حريّ به أن يذكر، كما أن هناك قصصاً آخر ليس فيه شيء من هذا. . . على كل حال الأمر أولا وآخراً لله، وندع الخوض في تعليل هذه القضايا، ولكل وجهة هو موليها.

بدأت قصة يوسف ـ عليه السلام ـ بالحروف المقطعة ﴿الر﴾، وبذكر الكتاب المبين، وبأن الله أنزلة قرآناً عربياً لعلهم يعقلون، ثم أشارت إلى أمر خطير عظيم

سنعرض له بعد هذا المبحث إن شاء الله، ذلكم هو قول الله ﴿نحنُ نقصُّ عليكَ أحسَنَ القَصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآن﴾ [الآية: ٣]، إنه أحسن القصص انتقاءاً واختياراً، وانه أحسن القصص نظمًا وترتيباً وتفصيلاً وتبويباً، وإنّه أحسن القصص شهادة صدق وبرهان حق، وإنّه أحسن القصص حكمًا وأحكاماً، ويبدأ الحديث عن قصة يوسف ـ عليه السلام ـ ولكن لا عن ولادته كما كان لموسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ، ولكن عن طور متأخر من طفولته وقد كان يدرك ويميز. تُحدثنا السورة الكريمة أول ما تحدثنا عما خصه الله به من هذه الرؤيا ﴿يـأبَتِ إني رأيْتُ أحَدَ عشرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ والقَمَرَ رأيْتُهُمْ لي ساجِدِينَ﴾ [الآية: ٤]، ويدرك الأب النبي ما سيكون لابنه من شأن، إذن حريٌّ به أن لا يقص هذه الرؤيا على إخوته فيكيدوا له كيداً ويدبروا له أمراً، وقد أخذ الشيطان على عاتقه أن ينزغ بين الناس، وكما منّ الله عليه بهذه الرؤيا فكذلك سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث، ويتم عليه النعمة كما أتمها على أبوية إبراهيم وإسحاق، والله هو الحكيم العليم فيما يقدر ويختار، ويبرز عنصر المنافسة ظاهراً ويبين القرآن ذلك، وهناك من يسأل عن هذه القصة لأنها نسجت حولها أمور مختلطة بين حق وباطل، وأحسن القصص في هذا القرآن.

يبدأ عنصر المنافسة ويقول الإخوة وقد رأوا من أبيهم ما لا تطيب به نفوسهم ﴿ليوسفُ وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا منّا ونحنُ عصبةٌ إنّ أباناً لفي ضلالٍ مبينٍ﴾ ويتشاور الأخوة فيما بينهم، وجلّهم يرى أن يقتلوا يوسف حتى يخلو لهم وجه أبيهم، ولا يشاركهم أحد في حبّه وعاطفته، ويرى واحد منهم غير هذا الرأي، فليس القتل من الأمور السهلة المتقبلة، ولكن ليلقوه في غيابت الجب، ولكن كيف يمكنهم ذلك والأب لا يقوى على مفارقة ابنه؟؟ ويظهر أنهم أدركوا أن يوسف أحب إليه من أخيه فهم يريدونه إذن ويحتالون ليقنعوا أباهم أن يخرجوا ومعهم يوسف ليرتع ويلعب وهم له ناصحون حافظون، وتهيمن على الأب مشاعر الخوف ﴿أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ [الآية: ١٣]، ولكن لابد لأمر الله أن يتم.

وهنا لابد أن نقف نستوحي من الآيات درساً تربوياً يتعلق بشؤون الأسرة ترشد إليه الآيات الكريمة. إن أخوة يوسف فعلوا ذلك لما رأوه من معاملة أبيهم

وتفضيله يوسف عليهم، وهي من القضايا التي تغرس في الأسرة البغض والكراهية وتقطيع الأواصر، وما نظن إلا أن الآيات الكريمة كانت تهدف لتقرير هذه الحقيقة، وهي تعليم الآباء أن لا يشعروا الأبناء بتفضيل أحد على أحد، ونجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد على هذه القضية في أحاديثه وأحكامه فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحة عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «أن أباه وهبه بستاناً وأن أمه أعجبها أن يشهد النبي ﷺ على ذلك فأخذه أبوه وقال يارسول الله: إني نحلت ابني هذا بستاناً وإن أمه أعجبها إن تشهدك على ذلك ويقول الرسول الكريم ألك غيره؟ قال نعم. قال: ءاعطيتهم كلهم مثل ما أعطيته: قال: لا فيقول النبي الكريم: أرجعه -أي ارجع ما أعطيته له- فإني لا أشهد على جور ثم يقول ﷺ: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

تلكم الحلقة الأولى في قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وقد رأينا مواطن العبرة الذي لابد أن نقف عنده قبل أن نغادر هذه الحلقة، ويلقي يوسف في غيابت الجب ويجيئون أباهم عشاءاً، هكذا يقول القرآن ﴿عشاءاً﴾ وهي كلمة لها هدفها هنا ﴿يبكون﴾ وكأن البكاء أمر لا يدل على ما في النفس، وقد يكون متصنعاً يراد به أمر آخر، ويجيئون على قميصه بدم كذب، ويقول الأب كلمته المؤمنة ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ﴾ وتجيء السيّارة ويكون ما يكون ويصل يوسف إلى مصر، ويقول الذي اشتراه من مصر لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، الزوج هنا هو الذي يقول: وليست المرأة كما جاء قصة موسى ـ عليه السلام ـ.

وتبدأ حلقة جديدة في حياة يوسف ـ عليه السلام ـ وحينما يبلغ مبلغ الرجال ﴿تراوده التي هو في بيتها عن نفسه﴾، ولا تترك وسيلة إلا وتسلكها ليتم لها ما تريد، حاولت إغراءه بأنوثتها، وغلبتها وسيطرت عليها الشهوة البهيمية ﴿راودت﴾ و﴿غلقت﴾ و﴿قالت﴾ كلها كلمات ذات أهداف بعيدة، ولكن يوسف ـ عليه السلام ـ، وهو الذي يفيض شبابه نضارة وجمالاً ـ ولكن نفسه تملؤها الخشية ـ، يصدها ويردها ويذكرها بالله ﴿معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلحُ الظالمونَ﴾، ولكن هذه الكلمات الهادية النيّرة لا تقف أمام شهوتها العارمة ويستبقان الباب، وتقدُّ قميصه من دبر، وتكون المفاجأة. وفي هذه اللحظة يصل

الزوج، وهنا يظهر كيد المرأة: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذابٌ أليمٌ﴾. ويقول يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾. ويأتي ثالث من أقرباء المرأة: «ويظهر أنه كان من ذوي الحكمة والرأي، ولم يكن طفلاً في المهد -كما تقول بعض الروايات- ويشهد شهادته ويتبين صدق يوسف، ثم يطلب من يوسف أن يخفي هذا الأمر ولا يفشيه، وسرعان ما ينتشر الخبر في المدينة ـ ومثـل تلك الأمور وبخاصة إذا كانت تتعلق بذوي الشأن وعِلية القوم تكون سريعة الإنتشار ـ. ويكون من أمر النسوة ما يكون وتقول بعد أن رأت من أمرهن ﴿ذلك الذي لمتنني فيه﴾ والنساء فيما بينهن لهن أحاديثهن الخاصة التي يخفينها عن الرجال، وتقول بصراحة ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننَّ وليكوناً من الصاغرينَ﴾، ويسأل يوسف ربه أن يصرف عنه كيدهن حتى لا يصبو إليهن ويكون من الجاهلينَ ويستجيب له ربه. لتبدأ حلقة ثالثة في حياة يوسف ولكن قبل أن نواصل المسيرة مع هذه الحلقة لابد أن نقف هنا عند هذه الحلقـة الثـانية فلقـد أغربت الروايات والكثيرون يتساءلون عن قول الله تعالى ﴿همت به وهمّ بها﴾ وعن البرهان الذي رآه يوسف ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾. يُسف بعض الناس وبخاصة عشاق القصص الإسرائيلي فينسجون خيالات كاذبة حول يوسف ـ عليه السلام ـ، وكيف أنه استجاب للمرأة ولم يمنعه من ذلك إلا أنه رأى أباه وقد تمثل له فنهاه عن ذلك وتوعده إن فعل ويقول البعض أنه رأى جبريل، وهذا الكلام لا ينسجم مع منصب النبوة وجلالة قدر الأنبياء، ويوسف ـ عليه السلام ـ قد شهدت ببراءته الشهود، شهد الله ببراءته، ـ والله أكبر شهادة ـ حيث قال إنه من عبادنا المخلصين، ثم شهد قريب المرأة المراودة، ثم شهدت المرأة نفسها بعد ذلك، حتى إن إبليس اللعين شهد ببراءة يوسف فلقد حكى القرآن ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾.

وفريق آخر على النقيض أولئك قالوا: إن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يحدث منه أي همّ، بل مجرد تفكير، وفسروا الهم بمحاولة الضرب، أي أن حاول أن يدفعها عن نفسه بالضرب، لكن الله تبارك وتعالى صرف عنه هذا السوء كما صرف عنه الفحشاء.

وفريق ثالث: وقف وسطاً بين الفريقين، ونحن مع هذا الفريق الوسط. وقد

فسّر هـٰؤلاء الهم بالميل ونحن نقرر رأيهم إن شاء الله فنقول:

أي فعل من الأفعال قبل أن يقع يمر في النفس، وهناك خمس مراتب يمر بها الفعل وهذه المراتب هي: الهاجس، والخاطر، وحديث النفس، والهمّ والعزم.

أما الهاجس والخاطر: وهما أول ما يطرأ على النفس. وتأتي المرتبة الثالثة وهي حديث النفس وذلـك حينـما يتم الأمر فيحدث به الإنسان نفسه. وهنا مفترق الطرق فإما أن يرفضه وتنتهي الفكرة من أساسها، وإما أن يقبله. فإن كانت الأولى انتهى الأمـر ومات قبل أن يولد، وإن كانت الثانية بأن قُبل هذا الفعل ورُجّح العمل فهذا القبول والترجيح يسمّى همّاً وهذه المراحل الأربع ليس عليها مؤاخذة.

أما الهاجس والخاطر فالأمر فيهما ظاهر.

وأما حديث النفس: فلقد بين النبي ﷺ أن الله تبارك وتعالى «لا يؤاخذنا بما تحدثنا به النفوس، هكذا قال حينما سأله الصحابة رضي الله عنهم حينما وجدوا في أنفسهم ما يتعاظمونه.

وأما الهم: فلأن النبي ﷺ يقول في الحديث: «فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها وفعلها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعـمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها وفعلها كتبها الله عنده سيئة واحدة»(١).

تبقى المرحلة الأخيرة وهي العزم وهذه المرحلة الأخيرة هي التي يحاسب عليها الإنسان؛ العزم على الفعل إنها النية وقد فسّرت بها الآية الكريمة ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾، ويوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن منه هذا العزم، وإنما الذي كان منه هو الهم فقط.

ويتساءل المتساؤلون ولكن كيف ذلك وكيف يمكن للنبي أن يكون منه هذا، ونجيب على هذا التساؤل وهو تساؤل وجيه فيما يظن، إنّ يوسف ـ عليه السلام ـ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة رقم (٦١٢٦)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب رقم (١٣١).

بشر ومثله في جماله ونضارته وشبابه وفي النعيم الذي يعيش فيه وهو سوي في رجولته لا مانع من أن يفكر في هذا، ولكن لا يقف الأمر هنا، بل ان هنا سر العظمة أن يفكر أحدنا في شيء تتوق إليه نفسه ولكن يمتنع عنه رغم كل الظروف والموجبات، أن يوسف ـ عليه السلام ـ لو لم يكن منه هذا الهمّ لكان عديم الشهوة وانتزعت منه الحاجة إلى النساء، وإذا كان كذلك؛ فليس هناك عظيم فضل في امتناعه عن إجابة المرأة.

إن هناك فرقاً كبيراً بين من يترك الشهوة خشية الله، وبين من تتركه هذه الشهوة؛ لأنه لا يقدر عليها، إن ما أراده الله تبارك وتعالى هو أن يكون في خبر يوسف درس لأولئك الذين تتوافر لهم ظروف الشهوة، ولكنهم مع دلك يأبَوْن ويمتنعون، ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله كما حدثنا سيدنا رسول الله ﷺ «شاب دعته إمرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»[1].

أما برهان ربه الذي رآه: فهو ما أودعه الله في قلبه من الخشية مما منَّ عليه به من مراقبته، ومن هنا كان من المخلصين الذي استخلصوا من الصفوة المختارة، أما أن يكون البرهان رؤية أبيه أو جبريل فذلك ما لا نظنه؛ لأن أي أحد يرى أمراً غريباً فإنه سيشعر به فهذه ليست ليوسف خاصة. فما أعظمة من درس أراد القرآن أن يسجله؛ وهو لا يقل شأناً عما وجدناه في الحلقة الأولى من حياة يوسف ـ عليه السلام ـ إلا أن ذاك كان درساً أُسرياً، وهذا درس للشباب العارم الفتي، وأنقل هنا كلمة لجار الله الزمخشري رحمة الله قال:

«فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها؟

قلت: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد باب رقم (٨) حديث رقم (٦٢٩)، وأخرجه مسلم في الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة رقم (١٠٣١).

تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمّى همّاً لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالإمتناع؛ لأن استعظام الصبر على الإبتلاء على حسب عظم الإبتلاء وشدته، ولوكان همه كهمها عن عزيمة، لما مدحة الله بأنه من عباده المخلصين»[1].

ونواصل المسيرة مع الآية الكريمة في الحلقة الثالثة من حياة يوسف حينما دخل السجن، ورغم ما للسجن من قسوة، وما فيه من عزلة إلا أن أصحاب العقائد ذوي الأفكار يجدون فيه متنفساً ليبثوا أفكارهم وعقائدهم، وهكذا كان يوسف ـ عليه السلام ـ رأى فيه نزلاء السجن من الصفات الخيرة ما جعله موضع حبهم وتقديرهم. ولعله كان ينتهز أي فرصة ليدعوهم إلى الخير، وشاع عنه تأويل الرؤيا وقص صاحباه في السجن كل رؤياه، وهنا يسجل القرآن عن يوسف ـ عليه السلام ـ قضية كبرى حُقَّ لها أن تسجل؛ فقبل أن يأوِّل لكلٍ رؤياه نجده يدعو إلى عقيدة التوحيد وهو يشعر أن كلامه متقبل، لأن النفوس مشرئبة إليه:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ

---

(١) الكشاف جـ٢، ص٤٥٦.

وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾

وبعد هذه الخطبة الموجزة البليغة يأول الرؤيا ويطلب من الذي ظن أنه ناج اذكرني عند ربك وينسيه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين، وسواء هو الذي أنساه الشيطان ذكر ربه تبارك وتعالى أم كان الناسي هذا الذي نجا؛ نسي أن يذكر يوسف عند ربه وسيده وهي قضية اختلف فيها المفسرون.

أقول: إن كان هذا أو ذاك فليس لذلك كبير خطر، وكثير فائدة، وإن كنا تنرجح القول الثاني. ويشاء الله أن يتم حكمته ويرى الملك رؤيا ويطلب تأويلها ولا يستطيع أحد أن يأولها وهي رؤيا غريبة تزعج الملك، ويذكر هذا الذي نجا يوسف ـ عليه السلام ـ ويطلب من الملك أن يتصل به وكأنه محظور أن يتصل به الناس حينما رأوا منه أنه يبث عقيدته بين السجناء أفهم هذا من قوله ﴿أرسلون﴾، فأرسلوه والله أعلم، ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ ويأوِّلها يوسف، وهنا تتوق نفس الملك لرؤيته ويجيئه المنادي بالبشرى، بشرى الإفراج عنه والإخراج من السجن ولكن يوسف يأبى، وهي حكمة وحصافة، كيف لا وقد آتاه الله حكمًا وعلمًا، يأبى أن يخرج ويقول لهذا المبشر الذي جاءه ﴿ارجع إلى ربك﴾. ارجع إلى هذا الملك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، إن ربي بكيدهن عليم.

وهنا نجد أن يوسف لا يريد السؤال عن المرأة نفسها فقط، وإنما عن النسوة جميعا، وقد أبدت لهن المراودة ما في نفسها صراحة فهن أعلم بها، كما نلحظ معجزة تاريخية للكتاب الكريم وهي قول الله تعالى: ﴿الملك﴾ ولم يقل فرعون، وهذا يدل على أن الأسرة التي كانت تحكم مصر في عهد يوسف لم يكن يطلق عليها لقب الفراعنه، ولقد افتخر النبي ﷺ بهذه المكرمة ليوسف وهذا إن دل على شيء فإنما

يدل على عظمة النبي ﷺ حيث قال: «لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي»[1]. ما بالك بمن يلبث في السجن بضع سنين ليست شهوراً ولا أياماً، ومع ذلك يأبى الخروج حتى يدرك الملك براءته وحتى يعرفة على حقيقته؛ لأن هناك أمراً عظيًما ينتظره فلابد إذن أن تبرأ ساحته، ولابد من أن يدرك الجميع أنه طاهر الذيل، زكي النفس، بريء من كل ما وجه له ويسأل النسوة ويقلن: حاشا لله ما علمنا عليه من سوء، يالله ياللحكمة العادلة!! يالعظمة الموقف!!.

وهنا تقول إمرأة العزيز ﴿الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه إنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبريء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾.

ويختلف المفسرون في هذا القول هل هو قول يوسف وأنه أراد أن يعلم زوج المرأة أنه لا يخونه في غيبته أو هو قول إمرأة العزيز وقد رجعت إلى رشدها وأرادت أن تعلم يوسف انها لا تخونه ولاتدعي عليه ولا تفتري عليه في غيبته، وهو ما نرجحه وإن كان الأول محتملا كذلك.

وحينما يرى الملك هذا الموقف يقول وقد أعجب بيوسف قبل أن يراه، وأحبه قبل أن يأتيه، ائتوني به استخلصه لنفسي، ولقد كان يوسف عظيًما، ولو أنه خرج من السجن لأول مرة ما كان له في نفس الملك هذا الحب والتقدير، يدلنا على ذلك ما نجده من كتاب ربنا ﴿استخلصه لنفسي﴾ فهذه الجملة لم يقلها الملك حينما أرسل إليه أول مرة، ولكنه قالها الآن، أما قول النبي ﷺ فهو تعظيم لشأن يوسف عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه.

وهنا تبدأ الحلقة الرابعة في حياة يوسف عليه السلام «إنك لدينا مكين أمين» ويأنس يوسف من نفسه رشداً فيطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض فهو حفيظ عليم، ويوسف إذ يطلب هذا إنما يطلبه وهو يعرف أنه لن يقوم بهذه المهمة

---

(١) أخرجه الإمام مسلم / صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة جـ٢، ص١٨٣، وأخرجه البخاري كتاب الأنبياء باب قوله تعالى ﴿لقد كان لكم في يوسف وأخوته آيات للسائلين﴾ حديث رقم (٣٢٠٧).

غيره، وهو يذكر أنه سيكون له شأن في هذا، وهو يذكر قول الله حينما ألقاه أخوته في غيابة الجب ﴿وأوحينا إليه لتنبأنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ يمكن الله ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴿نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ وإذا كان هذا ما يخص الله بها عباده في الدنيا فإن أجر الآخرة أكبر. . .

وتمر الأيام وتبدأ السنون صعوبة وقحطاً وشدة، وتكون مصر مقصد البلاد المجاورة ويجيء إخوة يوسف، ما أعظم حكم الله!! سبحانك ربنا!! تختار ما اخترت لنا لا نستبدل به غيره،يجيء إخوة يوسف، وتلك في ظننا لحظة من اللحظات الفريدة في حياة يوسف ـ عليه السلام ـ، إنها البداية التي كان يترقبها، يعرفهم ولكنه يتمالك نفسه، ويستطيع رغم كل ما يتفاعل فيها أن يخفي الأمر، وهو موقف لا يستطيعه كثير من الناس، ياللحصافة والحكمة!! يا لأصحاب النهى وأولي الألباب!! أما هم فلا يمكن أن يدور بخلدهم أو أن يمر في نفوسهم أن ذلك هو يوسف. كيف يمكن أن يكون ذلك؟؟ وقد ألقوه في غيابت الجب؟؟ ومن يدري ألازال على قيد الحياة، وإن كان كذلك ففي أي بيت يخدم أو أي عمل شاق يقوم به وما درى أولئك أن الحكمة العليا تتصرف في هذا الكون وتصرفه بما يغفل عنه كثير من الناس. . . وقد طوى القرآن بعض الأحداث التي لا تتعلق بها العبرة، ولكن الذي يفهم من السياق أنه سألهم وقد رآهم كثراً فعرفوه أنهم إخوة، ولعله أبدى استغرابه لذلك أنتم عشرة أخوة؟ فقالوا له: إن لنا أخا آخر ولكن من أبينا، فزاد استغراباً لذلك وقد عرّفوه أنهم من بيت النبوة وإن جدهم إبراهيم ولم يكن خبر إبراهيم بعيداً عن مصر وأهل مصر فرحب بهم وأكرمهم، ولكنه طلب منهم وألح عليهم أن يأتوه بالأخ الذي لهم من أبيهم ورغبهم في ذلك، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين؟؟ ولاطفهم بقوله فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون، والقوم يشعرون بما فعلوه بيوسف لذلك لم يعزموا على الأمر وقالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون، وطلب من فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم بضاعتهم التي جاؤوا ليشتروا بها مؤونتهم جعلها في رحالهم، ليكون ذلك أدعى لرجوعهم ومجيئهم مرة أخرى وإحضارهم أخاهم معهم.

ويرجع القوم إلى أبيهم ليحدثوه عما لقوا من إكرام، ويجدون بضاعتهم قد ردت إليهم حينما يفتحون أمتعتهم، ويكون ذلك أدعى لهم ليقنعوا أباهم بإرسال

أخيهم معهم، ويكون بينهم وبين أبيهم ما حدثنا عنه القرآن، وأخيراً يأخذ عليهم عهداً أن يحافظوا عليه ويحفظوه ﴿فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾، وينصحهم أن لا يدخلوا من باب واحـد وأن يدخلوا من أبواب متفرقة، ويرى البعض أن ذلك خشية أن تصيبهم العين، وربما كان يقصد يعقوب أمراً آخر، وهو أن يتحسسوا الأخبار، على كل حال، وكما قال الله تبارك وتعالى ﴿ولّما دَخَلُوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله شيء إلا حاجةً في نفس يعقوبَ قضاها وانّه لذو علم لما علمناهُ﴾.

ويدخلون على يوسف ـ عليه السـلام ـ، وهنـا يطوي القـرآن ما كان عند دخولهم، وكيف انفرد يوسف بأخيه وأعلمه الحقيقة، وقد قيل إنه أكرمهم فوضع كل اثنين على خوان، وهو ما يوضع عليه الطعام وبقى أخوه وحيداً فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيًّا لجلست معه، فقال لهم: أنا أجلس مع أخيكم هذا، لأنه ليس له من يجالسه، فقال له: لا تحزن ألا ترضاني أخاً لك، فقال أخوه: ومن لا يرضاك أخاً، ولكن لم يدلك يعقوب، فبيّن له الأمر وسواء أن صحت هذه أم لم تصح إلا أن يوسف ـ عليه السلام ـ انتهز الفرصة ليخبره بأنه أخوه دون علمهم. وجهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخية ويقص علينا القرآن ما كان بعد ذلك. والذي يهمنا هنا مايدلنا على حصافة يوسف ـ عليه السلام ـ وهو سؤاله لهم ما جزاؤه إن كنتم كاذبين، وأخبروه أن جزاءه أن يسترقّ من وجد في رحله وهذه شريعة يعقوب أن السارق يسترق بسرقته، ولم تكن تلك شريعة المصريين هذا أولا.

وأمـا ثانياً: فمما يدل على حصافته ورجاحة عقله ـ عليه السلام ـ أنه بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيهِ، ويقول الله تعالى: ﴿كذلك كدنَا ليوسفَ ما كان ليأخذَ أخاه في دين الملكِ إلا أنْ يشاءَ اللهُ﴾، أي دبّرنا له ليصل إلى هذه النتيجة، وقد توسع الفقهاء كثيراً فجعلـوا هذه أساساً للحيل الشرعية التي لا تجوز وليس هنا محـل النقـاش في هذه القضية، المهم أن ذلك كان تدبيراً من الله تعالى ﴿نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علـم عليم﴾ ويقولون حينما رأوا ذلك ﴿انْ يسرق فقدْ سرقَ أخ له من قبل﴾ ويسر يوسف في نفسه قوله: ﴿أنتم شرٌ مكاناً﴾ أسرها دون أن يسمعوهـا.

وهذه ثالثة: تدل على ما أكرم به من حكمة، وتحدث المحاورة بينهم وبينه محاولين أن يأخذ غيره ويأبى وتستمر الآيات بنظام بديع مشوق تشرح لنا ما كان منهم، ويرجعون إلى أبيهم معتذرين ويقول الشيخ ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾، ويأمرهم أن يرجعوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه ولا ييأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ويدخلون على يوسف ولكن بحال غير التي كانوا عليها من قبل ﴿يـٰأيُّها العزيزُ مسَّنَا وأهلَنَا الضُرُّ وجئنـا ببضـاعَـةٍ مزجـاةٍ[1] فأوفِ لنَـا الكَيْلَ وتصـدَّق علينَا إنَّ اللهَ يجزي المتصدقينَ﴾ ولابد للبداية من نهاية، وقد رأى ما بهم ـ عليه السلام ـ، وهو يدرك ما أصاب أباه وما حل به من ضعف وألم.

وهنا تكون المفاجأة التي تذرف لها العيون، وترتجف الأفئدة ﴿هَلْ عَلمتُمْ ما فَعَلْتُم بيوسفَ وأخيه إذْ أنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ وما ألطف هذا الأسلوب وأعذبه!! إنه كلام الأنبياء، وقد عرف القوم أن هذا كلام لا يصدر إلا عن الحنفاء ذوي الدين ولا يعلم أحد من أهل مصر بما فعلوه فقالوا: ﴿أئنكَ لأنْتَ يوسفُ﴾ فيقول يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿أنا يوسفُ وهذا أخي قد منَّ اللهُ علينا﴾ ثم يبين السبب في ذلك، وهي قاعدة ينبغي أن نعضّ عليها بالنواجذ، تلك هي قول يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿إنّه منَ يَتَّقِ ويَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لايُضيعُ أَجْرَ المحسنينَ﴾، نعم إن التقوى والصبر أساس لكل خير، ويعتذر القوم ويقول يوسف: ﴿لا تثريبَ عَلَيْكُم﴾ ويكون من شأن القميص ما يكون وتبدأ مرحلة جديدة لبني إسرائيل في مصر ﴿ادخلوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ﴾، ويرفع أبويه على العرش ويخرون له سجداً، ويذكر يوسف ما قصه على أبيه في طفولته: ﴿ياأبتِ هذاَ تأويلُ رؤيايَ منْ قبلُ قدْ جعَلَهَا ربِّي حقاً﴾، والفضل كله لله فقد أحسن به إذ أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين أخوته، وما أجمل هذا الذوق! وما أعظم تلك اللياقة! ﴿إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاءُ إنّه هو الحكيمُ العليمُ﴾، ﴿ربِّ قد آتيتني من الُملكِ وعلمتني من تأويلِ الأحاديثِ فَاطِرَ السمـٰواتِ والأرضِ أنتَ وليِّ في الدنيا والآخرة تَوَفَّني مُسْلمًا وألَحقني بالصالحينَ﴾، ذلك هو دعاء يوسف وشكره لربه. . . وبهذا الدعاء والشكر تختم قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وهي

---

(١) مزجاة: كاسدة غير مرغوب فيها.

القصة التي جاء في أولها ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾، وجاء في آخر السورة نفسها ﴿لَقَدْ كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب﴾، وما أكثر الصبر في قصة يوسف ﴿ماكان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنونَ﴾.

ولا نجد خاتمة نختم بها الحديث في هذه القصة خيراً مما جاء في الآية الكريمة.

ثالثاً: تعقيب على قصة يوسف عليه السلام

في أول السورة الكريمة قرأنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القصصِ﴾، وفي آخرها قرأنا قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كانَ في قصصهِم عبرةٌ لأولي الألباب﴾، وما أجمل أن نقف عند أحسن القصص نتلمس فيه العبرة! والمتدبر للسورة الكريمة يجدها ثريّة بما تعطيه من قيم، وبما تفرزها من نتائج، وما تبرزه من مباديء، وبما تشتمل عليه من ألوان المعرفة المتعددة إجتماعية ونفسية وخلقية وعقدية وإقتصادية.

ابتدأت القصة من الأسرة ذات البيت الواحد والأب الواحد، والأسرة آية صلاح المجتمع أو فساده، بدأت القصة بالرؤيا، رؤيا يوسف ـ عليه السلام ـ وإذا كانت السورة الكريمة لا تحدثنا بادي ذي بدء عن حب يعقوب ليوسف، إلا أن قول الأب لإبنه: لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً، إشارة لهذا الحب، ولا عجب أن يستشف يعقوب النبي بعض حجب الغيب، وتلك منّة من الله يمنّ بها على من يشاء من عباده، ولقد دفع يعقوب ثمن هذا الحب الذي لم يستطع أن يخفيه عن الآخرين، دفعه لوعة ألم وسقم جسد، ومرارة فراق، وتلك قضية لازالت أُسرٌ كثيرة تجني من آثارها البغضاء والحقد والغل، ولقد أشرنا إلى هذا من قبل.

ولا يمكننا أن نتحدث عن العبر الكثيرة التي يمكن أن نستنتجها من السورة الكريمة وعن القضايا العلمية والقيم الأخلاقية، والإشارات النفسية النفيسة، ولكننا نقف عند قضية واحدة، وهي اللبنة التي أضافها يوسف ـ عليه السلام ـ

لقد مرّ يوسف بأطوار مختلفة، فما أحبّه إلى أبيه! ولكن ما أبغضه إلى إخوته! وبين عاطفتي الحب والبغض كان هذا التاريخ المليء بالمتناقضات فمن غيابت الجبّ إلى غيابت السجن، ومن بضاعة بيعت بثمن بخس مع زهد من بائعيه إلى غير ذلك من أطوار الضيق، من ذلك كله إلى حافظ عليم مؤتمن على خزائن الأرض يقول فيستمع له، ويأمر فيطاع، هذه الأحوال المختلفة التي مرّ بها ـ عليه السلام ـ لم تغير من جوهره شيئاً فلم يضعفه الإبتلاء، ولم تطغه النّعماء ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، ولَعَمْرُ الحق لن يطيق. ذلك إلا أصحاب النفوس الكبيرة وهم الذين رسخت العقيدة في قلوبهم، وهذا يذكرنا بقول النبي ﷺ: «عجبت من قضاء الله للمؤمن إن أمر المؤمن كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»(١).

وها هو القرآن يحدثنا عن محنته، ولكننا لم نسمع كلمة واحدة منه تحدثنا عن ضيق نفس أو تسرب يأس، وإنما الكلمات التي استمعنا إليها منه كانت صرخات يتضرع بها إلى ربّه أن يعصمه فلا يفتنه لنستمع إليه وهو يقول لامرأة العزيز ﴿إنه ربي أحسن إليَّ إنه لايفلح الظالمون﴾، ولنستمع إليه وهو يناجي ربه ﴿ربِّ السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه﴾، حتى أنه كان يطوي كثيراً من المواقف والمشاهد التي تذكر الآخرين بجرائمهم ولنستمع إليه وهو يشكر ربه ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن﴾، مع أن إخراجه من الجبّ كان أولى أن يذكر، ولكنه طوى ذكره حتى لا يذكر أباه بما فعل إخوته ولا يذكرهم بما أقدموا عليه ومن قبل هذا لم يزد على أن قال لإخوته ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ ولنستمع إليه وهو يشكر ربه وقد آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث ﴿فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

تلكم لبنة عظيمة أضافها يوسف إلى اللبنات التي وضعها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من قبله وهي جديرة أن تحفظ لمن أراد أن يحفظ الله عليه دينه، وما أجمل الصبر في موضعه، والشكر في موضعه، وما أجمل هذا القول من يوسف حتى وهو في السجن ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ٦، ص١٥ عن صهيب رضي الله عنه.

المبحث الرابع عشر

نماذج من القصص القصيرة

الأنموذج الأول: الأمة التي أحاط بها الذل ورضيت المهانة (قصة طالوت).

الأنموذج الثاني: لمنْ تملّكه الغرور فطغى كل الطغيان (قصة قارون).

الأنموذج الثالث: لمن تملكهم الأنانية فقست قلوبهم ونزعت منها الرحمة (أصحاب الجنة).



نماذج من القصص القصيرة

ومادمنا تحدثنا عن قصة يوسف عليه السلام، وهي القصة الطويلة فجميل أن نتحدث عن بعض[1] القصص القصيرة التي لا تحدثنا عما كان بين الأنبياء وأقوامهم في مجال الدعوة إلى الله، وإنما جاءت تعرض بعض أنواع السلوك التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، وسأختار نماذج ثلاثة مما ذكره الله تبارك وتعالى في كتابة ليكون عبرة للمسلمين وتذكرة وتبصرة.

أما **الأنموذج الأول**، فهو أنموذج الأمة التي أحاط بها الذّل ورضيت المهانة، وأناخت رحالها في أزقة الظالمين، وأما **الأنموذج الثاني** فهو لذلكم الذي تملكه الغرور فطغى كل الطغيان لأنه يحسب أن ماله أخلده؛ إنه انموذج الذي أطغاه المال فصدّه عن الحق بعد أن زاق حلاوته، أما **الثالث**، فهو لأولئك الذين تملكتهم الأنانية فقست قلوبهم ونزعت منها الرحمة، وفي هذه النماذج ما يدعو المسلمين للتخلص من الواقع المظلم الذليل.

أولاً: ونختار للأنموذج الأول، هذه القصة من كتاب الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الملأِ مِنْ بني إسرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، بدأت القصة هكذا ﴿ألم تر﴾، وهي صيغة تدل على التعجيب كأن يقول «ألم تعجب من شأن هؤلاء» بلى إنه حري أن يُتعجب منهم، ولكن ما قصتهم وما شأنهم؟ إليك حديثهم.

إنهم الوجهاء من بني إسرائيل المتنفذون في أقوالهم رأوا ما هم فيه من ذلّ؛ فأضاءت في نفوسهم ومضة حرية فجاؤا بنبيهم، يقال: إنه صموئيل، وطلبوا منه أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله، هكذا يحدثنا القرآن ﴿ابعث لنا مَلِكاً﴾

---

(١) يطلق بعض الكاتبين على هذا النمط أقصوصة ولا نحب هذا الإطلاق فلئن جاز ذلك في الأدب والحكايات فنحن لا نحبذه في كتاب الله.

والبعث إنما يكون في الأمور المهمة ذات الشأن والخطر، وكأن القوم أرادوا أن يقنعوا نبيهم من أول وهلة أنهم جادون في الأمر مصممون، وليسوا هازلين ولا عابثين، ولكن نبيهم ـ وقد تقدمت به السنّ ـ لم يكن ليخفى عليه قومه، وكيف يمكن أن يخدع، وهـو الذي أكرمه الله بالنبوة أولاً، وعاش معهم تجاربه ثانياً، فماذا قال لهم؟، ﴿قالَ هَلْ عسيتُم ان كُتِبَ عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ يقول لهم: إنّ ما أتوقعه منكم ويغلب على ظني، بل وأظنّه ثابتا ليس فيه ريب، بأنه إن كتب عليكم القتـال فستمتنعون عنه، وستحاولون أن تختلقوا المسوّغات الكثيرة لتمتنعوا عن القتـال، ولكنهم قالوا: ولم لا نقاتل! وأي مانع يمنعنا من القتال، سيما وهناك البواعث والحوافز الكثيرة التي ينبغي أن تدفعنا لهذا القتال، إنك تعلم حالنا وماذا بعد أن يخرج الإنسان من داره وأهله؟ وماذا بعد أن يحال بينه وبين أبنائه؟ وماذا بعد أن ينفصل عن تراث الأجداد ورعاية الأبناء؟ إن هذه الحوافز والأسباب حري بها أن تهز القلوب، ولكن ماذا كان بعد ذلك؟؟؟.

يبين القرآن الكريم أن القول مهما اشتد به صاحبه، وأن الكلمات المختارة المنتقاة لم تكن في يوم من الأيام علامة صدق إذا لم يصحبها الفعل، ﴿كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾.

ولقـد صدق حدس نبيهم فيهم ﴿فلمّا كتب عليهم القتـال تَولـوا إلا قليلاً منهم﴾ وهكذا الأمم حينما تستمريء الضعف تحاول أن تتلمس الأسباب لتقنع بها نفسها حتى لا تدخل حرباً ولا تجابه عدواً، وهكذا كان أولئك، فهم يحتجون بالضعف تارة، وبعدم المناخ المناسب تارة، وبعدم جدوى الحل العسكري تارة أخرى، ومع أن أولئك قبلوا أن يكونوا مظلومين إلا أن الله سماهم ظالمين كذلك فقال سبحانه: ﴿إن الله عليم بالظالمين﴾، فهم قد ظلموا أنفسهم أولا، وظلموا الحق الذي يدّعون اعتناقه ثانيا، وثالثا ظلموا العدوّ الذي يظلمهم حيث زينوا له طغيانه.

لقد أجابهم نبيهم إلى ما طلبوه، فلقد قالوا له ابعث لنا ملكاً، وها هو يقول لهم ان الله هو الذي بعث لكم طالوت ملكا ليجمعكم فتقاتلوا معه ولكن الأذلاء المستضعفين يأبون الإنصياع للحق والإنضواء تحت راية واحدة، وها هم يقولون

وقد عرفوا أن الله هو الذي بعثه ولم يبعثه النبي -كما طلبوا- ولكن حتى مع علمهم بأن الله هو الذي بعثه فهاهم يتضجرون ويتبرمون به، كيف يكون له الملك علينا؟ ونحن أحق بالملك منه إنّه لم يؤت أسباب الملك، لا من حيث النسب، ولا من حيث المال.

ولكن نبيهم وقد قال لهم مقالته من قبل وعرف أنهم بعيدون عن القتال، بيّن لهم أن الصفات التي تتوفر فيه لا توجد في غيره فهو:

أولاً: ذو استعداد فطري وطبيعة كريمة.

وثانياً: ذو خبرة في فنون الحرب، وقد أعطي قسطاً من العلم ليضع الأمور في مواضعها.

وثالثا: منح القوة الجسمية.

ورابعاً: يستحق توفيق الله للأسباب المتقدمة، قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم.

ولكن القوم لم يقتنعوا بذلك كله، ولم تسكن إليه نفوسهم فأراد نبيهم أن يبين لهم بأن الأمر خارج عن إرادته هو، فالله هو الذي بعثه ملكاً وسيؤيده الله بآيه لتكون علامة على ملكة ليذعنوا ويسلموا تسليمًا فيبين لهم أن هذه العلاقة الصادقة على ملكه أن يأتيهم التابوت، وهو صندوق كان فيه بعض آثار موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ، وكان قد غلبهم العمالقة (الفلسطينيون) عليه، وسيأتيهم هذا التابوت لتطمئن قلوبهم، وليكون علامة لهم إن كانوا مؤمنين.

ويفصل طالوت بالجنود ويتجاوز البلد الذي خرج منه، وهو يدرك أن الذين معه لا يصلحون جميعاً للحرب، بل إن منهم المثبطين عنه الذين لا يزيدون المحاربين إلا خبالاً، لابد إذن من أن يميز الخبيث من الطيب، بين لهم أن الله مبتليهم بنهر فمن شرب منه، فليس حرياً بالقتال، ولا يصلح للجندية، اللهم إلا إذا اغترف غرفة بيده يبل بها شفتيه ويذهب بها بعض ظمأه، ومن لم يطعمه ولم يذقه فذلك في المنزلة الأولى، ولكن ما الذي كان بعد ذلك، شربوا منه إلا قليلا

منهم، ولما جاوز طالوت النهر هو ومن آمن معه وقد تخلفت الكثرة الكثيرة الذين شربوا من النهر، حتى هذه القلة التي بقيت مع طالوت انقسموا فئتين.

كل هذا يصور لنا النتائج السلبية للضعف حينما يستولي على النفوس، حتى هذه القلة الذين جاوز بهم طالوت النهر قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده لكن فئة منهم، وهم الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم وخشوا الله تبارك وتعالى هؤلاء الذين يؤمنون بأن ما عند الله خير قالوا لأصحابهم ويحكم! متى كانت الكثرة سبباً في النصر ﴿كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

وبدأت المعركة ودعا المؤمنون ربهم بهذه الكلمات الثلاث «أن يفرغ عليهم صبراً **أولا**: لأن الحرب لابد لها من الصبر، أن يثبت أقدامهم **ثانيا**: حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها، وأن ينصرهم على القوم الكافرين **ثالثا**: ويستجيب الله الدعاء دعاء المؤمنين فتهزم القوة الكافرة، ويقتل داود جالوت ويؤتي الله داود الملك والحكمة «النبوة»، ويعلمه صنعة لبوس وهي عمل الدروع ومنطق الطير وغير ذلك.

وتختم هذه القصة بهذا التعقيب البديع ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ لولا أن الله يدفع أهل البغي والسوء والباطل بأهل الحق، لولا أن الله تبارك وتعالى يهييء أهل الحق حتى لا يتمادى أهل الباطل بغيهم وباطلهم لفسدت الأرض.. ولكن الله ذو فضل على العالمين، لأنه لم يمكن الباطل من أن يعيث في الأرض فساداً ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟
لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ
هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا

مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ
إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ
لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ
قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ
مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ
عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ
يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾
فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم
بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ
مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا
مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ
لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

أما الأنموذج الثاني: فنختار له نبأ قارون، وقارون كما يحدثنا القرآن الكريم من قوم موسى، ولكنه بغى عليهم، ولأمرٍ ما كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعين بالله من «الحور بعد الكور» وفي رواية بعد «الكون»(١)، والكور: هو إجتماع الأمر كالعمامة يكور بعضها على بعض، والحور هو الإنتقاض. لقد تكبر قارون بعد أن أنعم الله عليه بالثراء. وكثيرون أولئك الذين لم يشكروا النعم فتزيدهم طغياناً. يحدثنا القرآن أن الله تبارك وتعالى أعطى قارون من الكنوز ما يثقل العصبة القوية مفاتحها أي العصبة القوية تنوء بحمل مفاتح هذه الكنوز، وبطر قارون وحاول قومه وذوَوه وكأنهم لا يزالون يظنون به خيراً، حاولوا إرشاده وإصلاح أمره ﴿لا تفرح ،.إن الله لا يحب الفرحين﴾ وليطلب بما منحه الله من هذه النعم الدار الآخرة ولكن ليصلح دنياه كذلك، وليحسن فيما أنعم الله عليه ولا ينبغي أن يتكبر ويعيث في الأرض فساداً، فالله الذي لا يحب الفرحين لا يحب الفساد كذلك.

ولكن هذا الإنسان يطغى أن رآه استغنى، ويشمخ قارون، فيخرج عن طور

---

(١) الكور: هو اجتماع الأمر كالعمامة يكور بعضها على بعض، والحور هو الانتقاض.

الحق ويتملكه الشيطان فيعلن أن ما أوتيه إنما كان بسبب علمه وخبرته ومهارته، وكما يطغي المال صاحبه فإن العلم كذلك مع أن العلم والمال نعمتان حريٌّ بهما أن تصلح النفوس، وتنعم المجتمعات وكما حدثنا القرآن عن إطغاء المال لصاحبه، ﴿كلا إنّ الإنسانَ ليطغى أن رآه استغنى﴾، حدثنا كذلك عن العلم فقال سبحانه ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبيناتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِنَ العلم وحَاقَ بهم ما كانوا به يستهـزئـون﴾، ولكن أي علم هذا الذي أعطيه قارون، إن من أوليات العلم وبدهياته أن يعرف ما أصاب السابقين من قبله وقد كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعاً أفلم يعلم أن الله قد أهلكهم جميعاً ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون؟ ثم ألم يعلم الذين جاؤا بعد قارون، ولم يبلغوا معشار ما بلغ، ألم يعلموا خبره كذلك؟.

ويطغى قارون ويخرج على قومه في زينته مختالاً[1] فرحاً فخوراً، ويراه الناس. أما ذووا النفوس الضعيفة فيسيل لعابهم يتمنون أن يكون لهم شيء مما أعطيه قارون وأسعده!. أما الذين أوتوا العلم ولكن ليس العلم الذي ادعاه قارون وليس العلم الذي ينحرف به صاحبه عن الجادة، إنما العلم الذي يصقل النفوس، قال أولئك العلماء الذين يرفعهم الله درجات في الدنيا والآخرة، لأولئك الذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون ويلكم أن ما عند الله من الثواب خير، وإن الذخيرة الباقية هي الإيمان والعمل الصالح ولا يلقى هذه المثوبة إلا الصابرون.

وتأتي النهاية؛ نهاية كل ظالم، ويخسف الله بقارون وبداره الأرض، ولم يجد من يمنعه من الله. أما أولئك الذين تمنوا مكانه بالأمس فيعضون أيديهم ندماً، ويدركون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء دون أن يكون لذلك دخل في تكريم الله تبارك وتعالى ويخشون أن يخسف بهم، ولكنها منّة الله تبارك وتعالى أن نجاهم مما أخذ به قارون ﴿وي كأنه لا يفلح الكافرون﴾.

ويعقب القرآن على هذه القصة كما عقب على القصة السابقة بأن الدار الآخرة في عظمتها وارتفاعها إنما يجعلها الله للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً،

---

(١) المختال: المتكبر في هيئته، والفخور: المتكبر في لسانه.

(٢) الحديث رواه الترمذي / سنن الترمذي كتاب الدعوات باب ما يقول إذا خرج مسافراً باب رقم ٤٢ حديث رقم ٣٤٣٥، جـ٩، ص١٣٥ قال أبو عيسى حديث حسن صحيح.

وما أبدع هذا الأسلوب! وما أدق التعبير! لم يقل القرآن نجعلها للذين لا يستعلون ولا يفسدون وإنما للذين لا يريدون العلو ولا الفساد وشتان بين التعبيرين الذين يريدون الآخرة إذن، ينبغي أن يكونوا بعيدين لا عن العلو والفساد فحسب، بل عن إرادتهما والتفكير بهما كذلك، والعاقبة للمتقين.

۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟

مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

أما النموذج الثالث: فنختار له خبر أصحاب الجنة في سورة القلم، وسورة القلم جاءت تكريمًا للنبي عليه وآله الصلاة السلام، وتسلية له وتثبيتاً لفؤاده وتذكيراً للمؤمنين، وإنذار للطاغين:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾

وبعد أن حذر الله نبيه المصطفى وحبيبه المجتبى عليه الصلاة والسلام من أن يطيع من اتصفوا بصفات السوء ﴿ولا تطع كلَّ حلاّفٍ مهين﴾، عقب على ذلك بقوله: ﴿إنَّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾، ويظهر أن القصة كانت معروفة عند القوم، يدلنا على ذلك النظم الكريم ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾، وسواء كان أصحاب الجنة عرباً من اليمن أم غير عرب من بني إسرائيل، فذلك أمر لا تتعلق به عبرة، والقرآن الكريم يطوي مثل هذه الجزئيات -كما عرفنا من قبل-.

وأصحاب الجنة الذين حدثنا القرآن عنهم كان للمساكين نصيب في جنتهم في زمن أبيهم، ولكنهم بعد موته هيمنت عليهم الأنانية وسيطر عليهم الشح، فأقسموا ليصرمنّ جنتهم مصبحين، ليقطعن ثمارها مبكرين قبل أن يراهم أحد من ذوي الحاجات، ولا يستثنون، وأكثر المفسرين يفسرون هذه الآية الكريمة ﴿ولا يستثنون﴾ أي أنهم لا يستثنون في يمينهم فلم يقولوا إن شاء الله، ولكن الذي يبدو لنا في تفسير الآية -والله أعلم- أنهم عزموا على أن لا يتركوا شيئاً من ثمار جنتهم للفقراء والمساكين فقد أقسموا أن يقطعوا جنتهم ويجذوها مصبحين دون أن يستثنوا من ثمرها شيئاً، إن الإستثناء في اليمين أي قول -إن شاء الله- اصطلاح متأخر عن العهد المكي: وهو أمر لا يحمد عليه هؤلاء، فما داموا قد عزموا على أن يمنعوا

ذوي الحقوق حقوقهم، وأقسموا على ذلك، حتى لو فطنوا أن يقولوا إن شاء الله فإن ذلك ليس مكرمة لهم وليس لهم فيه مثوبة.

ولندع أولئك بعد أن أقسموا ليصرمنها مصبحين تداعبهم أحلامهم. فماذا عن الجنـة؟ يحدثنا القرآن أنه طاف عليها طائف من ربك بهذه العبارة المصورة الموحية، لقد أحاط بها هذا الطائف، هذه الجائحة السماوية فلم تترك منها سرباً واحداً، بل لم تترك شجرة بل فرعاً بل ثمرة واحدة، كل هذا وهم نائمون، ويأتي الصباح؛ يتنفس الصبح فماذا عن الجنة؟ فأصبحت كالصريم كأنها الليل، سوداء أحرقها الإعصار فهل ترى لها من باقية، كل هذا وهم بعيدون لا يدرون بالأمر.

تلك هي الجنة أما هم فتنادوا مصبحين كلٌّ منهم ينادي الآخر يستعجله قبل أن يفوت الأوان كأن كلاً منهم ينادي صاحبه ينادي بعضهم بعضاً أن اغدوا على حرثكم، واخرجوا مبكرين إن كنتم صارمين وينطلق القوم يمشون على عجل وهم يشعرون أنهم متخلفون كأنما يريدون أن يستدركوا ما فاتهم، هذا ما تعطيه هذه الكلمة الكريمة «انطلقوا» أما قوله تعالى ﴿وهم يتخافتون﴾ فما أكثر ما تعطيه هذه الجملة وما تلقيه من ظلال فعلى الرغم من أنهم وحدهم سائرون في الصباح لا يسمعهم أحد ومع ذلك فهم يتسارّون فيما بينهم، ولا داعي لهذا الإسرار ولا حاجة له، ولكن القرآن يصور لنا هذا الجشع، وتلك الأنانية، وذلك الشح وصدق الله ﴿قلْ لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً﴾ كانوا يتخافتون فيما بينهم أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، وغدوا على حرد قادرين، صاروا في غدوتهم متوهمين أنهم قادرون على حرد: أي قادرون على منع الفقراء والمساكين من أن يدخلوا جنتهم، قادرون على أن يجلبوا لهم النكدة والمقت، ويصل القوم إلى جنتهم وهنا تكون المفاجأة لم يجدوا شيئاً، إنه الضلال إذن، إنهم تائهـون؛ ولكن أليست هذه المعـالم الكثـيرة تدل على أن المكان هو المكـان، بلى إذن ليسوا تائهين، بل تبددت كل آمالهم وطارت كل تلك الأماني ﴿فَلَمَّا قالوا إنا لضالونَ. بل نحن محرومونَ﴾ وهنا يتدخل أعقلهم كأنما يريد أن يذكرهم بما كان منه ويقررهم بما حدث، ألم أقل لكم لولا تسبحون، ألم أنهكم عما عزمتم عليه من منع ذوي الحقوق حقوقهم، ألم أحثكم على أن تذكروا الله، ولكن أي أثر لذلك القول، إنه لم يترك أثراً حتى في نفس صاحبه، كان لزاماً على صاحب

هذا القول أن يستمر على قوله، أن يستمر على نصيحته وأن يدوم على معارضته، ولكنه ضعف أمامهم، وصاحب الحق حري به أن لا يضعف، ومن يدري لو أن صاحبهم هذا كان ذا إصرار وحزم وعزيمة لاستطاع أن يقيهم شر ما حلّ بهم، والقرآن الكريم يبين لنا تلك الحقائق لتكون لنا فيها العبرة فلا نضعف عن حقٍ نوقن به، كما ضعف ذلكم الرجل الذي تحرك في نفسه وازع الخير ولكنه لم يستطع أن يقاوم الهواجس والوساوس في داخله كما ضعف عن مقاومة إصرار أخوته على باطلهم وجشعهم، ويدرك القوم فداحة ما حل بهم ويعترفون بظلمهم، وأي ظلم أعظم من أن يمنع صاحب الحق حقه وأي ظلم أعظم من أن تجحد نعمة الله تبارك وتعالى ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾.

ويصور القرآن الكريم هذا الذهول الذي أصابهم فإن كل واحد منهم كان في وادٍ بعيداً عن صاحبه، كان في شرود وذهول وهلع، يصور لنا القرآن كل هذا بهذه الكلمة المعبرة ﴿فأقبلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يتلاومونَ﴾ أقبل بعضهم على بعض وكأن كان بعيداً عن صاحبه يتلاومون، كيف لا، وقد كان أملهم أن يغدوا على حرث، ولكنهم غدوا على حرد لقد صمموا أن يكون هذا الحرد وهذا المنع لغيرهم فأبى الله إلا أن يكون لهم، وها هم يلوم بعضهم بعضاً وكأنك بهم يقه[1] أحدهم وأصواتهم يختلط بعضها ببعض يقول بعضهم لبعض:

أحدهم: ويح فلان لقد كان هو السبب في كل شيء هو الذي اقترح فكرة الشؤم.
الثاني: لا، لست أنا الذي بدأت، أنت الذي قلت هذا.
الثالث: ويحكما لقد اجتمعتما دون أن نعلم وقررتما هذا القرار الخبيث.
الرابع: إيه لقد نصحتكم فأبيتم الإستماع.
الخامس: ويحك ولكنك قلتها كلمة في فمك كأنما قلتها وأنت مستحي من نفسك.

وقد أفرغوا ما في جعبتهم من تلاوم ولكن ماذا يجدي؟ لا يجدي شيئاً، وهاهم يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك يا ويلنا إنا كنا طاغين، وتثور في نفوسهم جذوة إشراق، ولكن بعد ماذا؟ بعد حلول الدبرة وخراب البصرة عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون، إلى الله لا إلى غيره لأن غيره لن ينفعهم شيئاً.

ويعقب القرآن على هذه القصة ﴿كذلك العذاب ولعذابُ الآخرة أكبر لو

كانوا يعلمون﴾، هل رأيت تعقيباً يصلح لهذه القصة أكثر من هذا التعقيب اللهم لا. ! وعد بنفسك إلى كل تعقيب عقب على القصص السابقة، تجد الإحكام البديع، والنهاية الرائعة ارجع إلى التعقيب على قصة قارون وقصة طالوت وغيرهما من القصص وأقل قوله سبحانه ﴿كتابٌ أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾، واقرأ قوله سبحانه ﴿الله نزل أحسن الحديثِ كتاباً متشابهاً مَثانيَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلى ذكرِ الله﴾ ويقولَ الأستاذ محمد رجب البيومي :

«أعد قراءة السطور القرآنية التي تتحدث عن أصحاب الجنة مرة ثانية واسأل نفسك عن تأثرها النافذ بعمق بعيد إلى أطواء أطوائك، وتذكر هل قرأت في القصص البشرية القصيرة مايبلغ مبلغها من النفاذ والتأثير؟ ثم حاذر أن تصدق كل ما يقوله بعض ما تناوله بالتحليل الأدنى في ضوء مقاييسه المنهجية، إذ ذهب إلى أنها مثال جيد للأقصوصة التي تدور على الحدث كما اختار قصة قرآنية ثانية لتكون مثالاً للأقصوصة التي تدور على الشخص واهماً أنه بذلك يقيم المعالم النقدية ذات الحدود والأبعاد، ولا أدري لماذا أشفق من بعض هذه المعالم بدليل أنه لا توجد في الأداب جميعها قصة تنفرد بالحدث وأخرى تنفرد بالشخص، لأن الحدث لا يصدر إطلاقا إلا عن شخص يقوم به وفي أقصوصة أصحاب الجنة أناس أصروا واعتزموا وحاولوا التنفيذ فباءوا بالخذلان، ثم لم يجدوا في النهاية بدًّا من الإذعان والنكوص عن العناد فكيف تكون مثالاً للقصة القائمة على الحدث وحده، كما أن قصص الأشخاص مجموعة أحداث قام بها البطل، ولو قدر له ألا يقوم بهذه الأحداث ما كان بطلاً ذا وقائع !

إن التقسيم المنهجي في مجال النقد القصصي إذا أتيح له أن يبلغ مبلغه المنطقي من التحديد والتركيز يجب ألا يكون ذا اشتباه واختلاط تتدانى فيه الفوارق إلى درجة الإقتراب كما نرى الآن وقد يكون من الجائز أن يطغي الحدث على الشخصية في بعض القصص أو تطغى الشخصية على ما يحيط بها من الأحداث، ولكنه طغيان يتساءل علن علته بحيث تتلمس له المسوّغات لا أن يكون منهجاً من مناهج الأسلوب؟؟؟[1].

---

(١) البيان القرآني تأليف الدكتور محمد رجب البيومي ربيع الثاني ١٣٩١هـ، مايو سنة ١٩٧١م الكتاب الواحد والثلاثون ص١١٣، ١١٤

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

ذلكم هو القصص القرآني في حلاوته وطلاوته، في جماله وروعته، في عظاته ونفحاته، في أهدافه وغاياته، في مشاهده ومواقفه، نرجو أن يكون لنا فيه قبس يضيء لنا الطريق حتى لا نضل المسيرة ولا نزِّل في عماية وحيرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والله يجزي سيدنا محمد ﷺ خير ما يجزي نبياً عن أمته.

ولكي يكون موضوعُنا متكاملاً نختمه بخاتمة نعرض فيها لبعض الشبه عن القصة القرآنية.

خاتمة

شبهات حول القصة القرآنية

١- القائلون بالخيال: صاحب الفن القصصي.

٢- القائلون بالتأويل: الشيخ محمد عبده.

٣- المفتنون بالنظريات: د. مصطفى محمود.

خاتمة الكتاب

شبُهات حول القصة القرآنية

كان من المتوقع ، بل من الواجب وقد اتصل الشرق بالغرب أن يفيد المسلمون من ذلك التقدم العلمي الذي كان للغرب فيه قصب السبق، وكنّا نرجو أن تنقل هذه التقنية العلمية حتى يفيد منها المسلمون ولكن كان الأمر على العكس من ذلك حيث وجدنا أن أولئك المثقفين الذي هيأت لهم ظروفهم أن يتصلوا بالغرب وقضوا فيه حقبة من أعمارهم، رجعوا حرباً على هذا الدين وحضارة هذه الأمة، فوجدنا حملة مسعـورة في النصف الأول من هذا القرن. وهذه الحملة المسعورة لم تكن لتقتصر على زاوية واحدة من زوايا تلك الحضارة، وإنما جاءت لتشمل التاريخ والتشريع بل اللغـة كذلـك. . . ثم تعـدّت ذلـك كله فتحـدت مشـاعر الأمة وعواطفها لتنال من هذا القرآن الكريم والسنة المطهرة وقدسيتهما.

وكانت في ذلك كله حاكية مقلدة لا تصدر عن أساس من المنهجية والبحث العلمي اللذين تدّعيها هذه الفئة على الرغم من أنها لبسَت -خداعاً- ثوب الوطنية ورفعت زوراً شعائر التحرير إلا أنها كان أشد فتكاً وأكثر ضرراً وأنكى إيذاءاً من المستعمر الذي أرضعهم لبان حقده وكفره وفجوره.

والذي يتصل بموضوعنا هو ما أثاروه حول القصة القرآنية، وكلهم يغرفون من مستنقع واحد، ويظهر أن القصة القرآنية إنما كانت الهدف؛ لأنها الموضوع الذي يستطيعون أن يتسربوا من خلاله إلى الموضوعات القرآنية الأخرى، هذا أولاً.

وأما ثانياً: فلأنهم ظنوا أن التمويه في قضية القصة قد يسهل عليهم أكثر من غيره من بقية الموضوعات.

وأما ثالثاً: فقد رأوا أن هناك عوامل مشتركة بين القصة القرآنية والقصة الحديثة؛ ومن هنا يمكنهم التخليط، كما يمكنهم أن يدسوا سمومهم وهم يتظاهرون بتطبيق قواعد القصة الحديثة على القصة القرآنية بحسن نية دون أن يثير عليهم ذلك أي عاصفة من قبل المسلمين المؤمنين بكتاب الله.

ونستدل لما نقول بأنهم نفثوا سمومهم وكفرهم، ومع ذلك فهم يعلنون مدّعين أنّ هذا الذي قالوه لا يتنافى مع إعجاز القرآن، بل هو يصدقة ويؤكده، ويذكّرني أولئك بقول النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام وهو يبين لنا المداخل التي يمكن أن يدخل منها أعداء هذا الدين دون أن يحدثوا ضجة أو يثيروا شبْهة، وإنما يدخلون من مداخل مقبولة غير مستنكره. يحدثنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام محذراً «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا»[1] وهذه أسئلة معقولة في ظاهرها؛ لأن الإجابة عليها أجابة بدهية، فالله هو الخالق ولكن الشيطان لن يكتفي بهذا، وهذا وليس بالطبع هو الذي يريده وإنما يسترسل في تساؤلاته بعد ذلك ليصل إلى غايته فيقول «من خلق الله»، وفي حديث النبي الكريم ﷺ أعظم الحكمة وهو درس يريدنا الرسول الكريم أن نعيه؛ فإن شياطين الإنس أقدر على التشكيك من شياطين الجن، ولهذا قدموا في الآية الكريمة ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غروراً﴾ ويقيننا أن المسلمين حري بهم أن يقفوا عند هذا الحديث العظيم الفوائد، العميق في هدفه وغايته، وأولئك القوم يسلكون ذلك النهج، فهم يأتون باسم العلم تارة، والأدب تارة، والغيرة تارة ليقرروا ما في نفوسهم من شبهات معلنين أن ذلك دفاع عن هذا القرآن أمام هذه النهضة العلمية والأدبية العارمة، فإذا تم لهم التشكيك في قصص القرآن، وأنّى لهم ذلك انتقلوا إلى موضوع آخر وليكن موضوع الصلاة أوالصيام أو أمراً يتعلق بالمعاملات، ثم يصلون إلى قضية البعث واليوم الآخر، ولقد كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ذا حكمة وحزم حينما لم يفرق بين من امتنع عن الزكاة مع رضاه بجميع قواعد الإسلام، وبين الذين ارتدوا عن الإسلام بكل قواعده وعقائده، رأينا من أولئك من أنكر بعض ما أخبر عنه القرآن كقصة إبراهيم وإسماعيل مدّعياً أن هذه القصة

---

(١) أخرجه البخاري في باب بدء الخلق.

إنما نسجت قبل نزول القرآن لتوثيق العرى بين العرب واليهود الذين يعيشوا في الجزيرة. ذهب إلى هذا القول الدكتور طه حسين، وقد انبرى العلماء -جزاهم الله خيراً- فردوا عليه مقالته رداً علمياً مما جعله يعلن تراجعه وتوبته ونرجو أن تكون توبة صادقة.

وهذا آخر يعلن أن القصص القرآني، ومعجزات الأنبياء من المتشابه، وهو محمد فريد وجدي وقد ردّ عليه صاحب المنار ـ رحمه الله وجزاه خيراً ـ.

ثم جاء أمين الخولي، وقد تخرج الشيخ أمين الخولي في مدرسة القضاء الشرعي، وتسنى له أن يدرس اللغة الإيطالية ثم عين مدرساً في كلية الآداب، وكان له رأي يتلخص في وجوب تجديد هذه الدراسات الأدبية والذي يهمنها نظرته إلى دراسة التفسير، فالقرآن كتاب العربية الأكبر كما يقول، ومن هنا فالواجب أن ينظر إليه أولاً وقبل كل شيء من هذه الناحية.

لذا فهو لا يرضى أن يكون المقصد الأول للقرآن بيان الهداية في العقيدة والتشريع والأخلاق وإنما واجب العرب مسلمهم وغير مسلمهم أن يدرسوا القرآن أولاً من حيث هو فن العربية الأقدس.

أولاً: القائلون بالخيال صاحب الفن القصصي:

وهذا كلام له خطورته ونتائجه، والتي رأيناها تتمثل أول ما تتمثل في رسالة الفن القصصي في القرآن للدكتور محمد أحمد خلف الله حيث كان الشيخ يتولى الإشراف على هذه الرسالة، هذه الرسالة التي أحدثت ضجة في مصر وفي العالم الإسلامي كله، حيث هبّ المسلمون من ذوي الغيرة على هذا الدين، علماء ومثقفين وأدباء من الأزهر وغير الأزهر يستنكرون بشدة وبقوة ما جاء في هذه الرسالة منكرين على كاتبها والمشرف عليها، والمؤيد لها من أمثال الكاتب والمشرف، والمؤيدون بالطبع هم من أولئك الذين يسيرون على هذا المنوال المفتتنين بآراء المستشرقين الحاقدين، وفي هذه الرسالة التي ردت أكثر من مرة ولكنها نشرت بعد ذلك وطبعت أكثر من طبعة ولم يرجع كاتبها عن غيّه، انحرفات ومنزلقات بل كلها كذلك، وأخطر ما في هذه الرسالة وإن كانت كلها خطيرة زعمه أن القرآن لا

يخلو من الأساطير، وإن الأنبياء أبطال روايات غرامية، وأن الصحابة لم يكونوا على قدر من العلم فيرميهم بالجهل.

يزعم أن القصص القرآني لا ينبغي أن نفهمه على أنه حقائق ثابتة قصد القرآن إلى تقريرها وإنما هي أنماط من الخيال الخصب والفن المدبج لما تعارف عليه الناس في عصر نزول القرآن أو جاءت تحكي ما عرفه السابقون ويفرّع على هذا أن القرآن الكريم لم ينف عن نفسه أن تكون فيه أساطير وإنما الذي أنكره على العرب أنهم لم يؤمنوا أنه من عند الله فإذا قال القرآن: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً﴾ فليس معنى هذا أنه أنكر وجود الأساطير، ولكن الذي أنكره القرآن أن يكون النبي هو الذي اكتتبها، فكأن القرآن يقول هي أساطير، ولكن ليست من عند محمد، وإنما هي أساطير من عند الله ويستدل لذلك بما جاء بعد الآية الكريمة ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السمـوات والأرض﴾ فيقول إن هذا القول لا يفهم منه نفي الأساطير كل الذي يفهم منه أن الله هو الذي أنزلها فهي أساطير منزلة، أنها مغالطة شرٌ من مغالطات السفسطائيين الذين حدث عنهم التاريخ، وما نظن الكاتب والمشرف عليه غاب عنهما فساد هذا القول وبطلانه. إن قول الله تعالى ﴿أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض﴾ إنما هو ردٌّ على أن يكون القرآن أساطير فهو ردّ على القيد والمقيد. ونحن نرى أن القرآن الكريم ردّ هذه الفرية في مواطن كثيرة، وها هو يصف صاحب هذا القول بشر الصفات ﴿ولا تطع كل حلاف مهين همازٍ مشّاءٍ بنميم منّاعٍ للخير معتدٍ أثيم عُتلٍ بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ بل إن القرآن يردّ بصراحة على أولئك الذين قالوا هذا القول وعلى الكاتب والمشرف ومن حذا حذوهم ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون﴾.

فأنت ترى أن هذا القول صريح بأن الله لم ينزل الأساطير كما يدعي الكاتب وا لمشرف عليه، ونتيجة لما قرره من بهتان يدّعي أن القصة القرآنية قد يكون الحدث فيها بدون بطل، وذلك كنبأ ابني آدم في قوله تعالى ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾ وتناسى قوله تعالى ﴿بالحق﴾، وقد يكون هناك بطل دون حدث، وذلك في قوله تعالى ﴿وإذ قال الله

ياعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأميَ إلـهين من دون الله﴾ والقصة -كما ترى- إنما هي تصوير واقع هدفه إلزام الحجة، وهو يقرر كذلك أن النبي ﷺ لم يلتزم بالصدق التاريخي في القصة، وهذا ما قرره المستشرقون ولكنهم قالوا: إنه كان يجهل التاريخ فأخذ مقالتهم ولكن وضَعَها في قالب آخر.

وحينما استفتي علماء الأزهر في شأن هذه الرسالة والمشرف عليها، أجمعوا على تكفيرهما، وقد بنوا هذا الحكم على ما يلي:-

(١) أن الحرية الفنية تقتضي عدم القيد بالصدق العقلي ولا بتصوير الحقائق تصويراً صادقاً، بل قد يتقول القرآن ما لم يحصل ولن يحصل.

(٢) أن تاريخ الأنبياء الوارد في القرآن، لا ينبغي أن يؤخذ على أنه حقائق.

(٣) أن القصص القرآني قد يكون لتصوير واقع نفسي لا لحوادث حصلت، وإنه حرب أعصاب، لا أقل ولا أكثر.

(٤) أن القرآن يشتمل على الأساطير وما فيها من حوادث ملفقة أو مكذوبة.

(٥) أن مصادر القصص القرآني هي كتب الأديان الأخرى، والحكايات الشعبية، والأفراد العاديون من الناس، والخلط، والمزج بين عناصر القصص الشائعة في عدة أمم.

والمؤمنون بالقرآن، والمنصفون من غيْرِهم، مستشرقين وغير مستشرقين يدركون أن في هذا غشاً وخداعاً ومجانبة للصواب، ولهذا نجد من المستشرقين من شنع على مرجليوث الذي نقل عنه الدكتور طه حسين لمغالطته ومجانبته للحق.

ان القرآن هو الوثيقة الوحيدة الخالدة الصادقة من وثائق السماء ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾، ﴿بالحق أنزلناه﴾ فهو من عند الله تبارك وتعالى ﴿وبالحق نزل﴾ فكل ما فيه لا يخرج عن الحق. والقرآن الكريم كان يؤكد دائماً على هذا القصص بأنه حق لا مرية فيه ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾، ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾، ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾، ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾، ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به

فؤادك﴾، ﴿وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾، ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

ونحن نعجب من أولئك كيف يقنعون أنفسهم فضلا عن أن يقنعوا غيرهم كيف يدّعون الإيمان بهذا القرآن وهم يقولون ما يقولون؟؟ وهذه النصوص لا تحتمل تأويلاً.

إن لوثة المادية والشعور بالضعف وعدم رسوخ العقيدة وضعف الإيمان والثقة بأعداء هذا الدين وشهوة الظهور كانت تلك الأسباب المباشرة التي دعت أولئك فحملتهم على هذا الإنحراف الخطير، ولازلنا نسمع منهم حتى اليوم ما يتنافى مع ما قرره الإسلام الحنيف، وهم مع كل ذلك لازالوا يتظاهرون بحرصهم على الإسلام ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾. هذه فئة انحرفت عن الجادّة في حديثها عن القصة القرآنية وقد سمّاهم الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق ـ رحمه الله تعالى ـ بالمتفلسفة، وهؤلاء هم القائلون بالتخييل، وقد رد عليهم رداً محكمًا في تفسيره لسورة البقرة، ومما قاله ـ رحمه الله ـ «ولا شك أن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط والإدعاء، فقد اقتحمت قدسيته وزالت عن النفوس روعة الحق فيه، وتزلزلت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار[1]».

ثم قال عند تفسير سورة المائدة «بقي أن جماعة من متفلسفة هذا العصر، حاولوا أن يعيدوا بعض آراء قوم حكموا عقولهم فيما قصّه الله فقالوا -إن مثل هذا القصص لا يلزم أن يكون صادقاً يحكي واقعاً صحيحاً، وإنما يجوز أن يكون القرآن جارى فيه معلومات عامة اشتهرت على تعاقب العصور، من غير أن يكون لها أصل كوني، وأن القرآن حدث القوم بما يتناقلون من معارف مأثورة، وإن لم يكن لها واقع صحيح قالوا: ومن الجائز أن يكون القرآن هو الذي وضعها ابتداء، بقصد التمثيل لغرض صحيح، وهو التأثير على القوم في سبيل اعتناق الحق الذي يدعون إليه، وعليه يكون سؤال الحواريين افتراضاً وتخييلاً، واجابة عيسى لهم افتراضاً

(١) «تفسير القرآن الكريم» للشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق رحمه الله ص٤٧.

وتخييلا، واجابة الله لهم على هذا النحو الذي أجاب به افتراضاً وتخييلاً. وكل ما تضمنته هذه الآيات، من نسب هي حكايات عن مفروض ومتخيل لا واقع له تنطبق عليه، وإنما هي تخييل واختراع في اختراع ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾. رحم الله الشيخ وجزاه خيراً.

ومن عجيب أمر أولئك أنهم يدّعون أنهم ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه حتى يخلصوا القرآن مما فيه من تناقض في قصصه، ويضربون مثلاً لذلك ما جاء في قصة إبراهيم من أن البشارة كانت له تارة وكانت لامرأته أخرى ويعدون هذا من قبيل التناقض، وليت شعري هل هم مقتنعون بذلك؟!! نحن نعرف أن التناقض إنما يكون في الخبر الواحد بحيث لا يمكن أن يجمع بين ما قيل فيه، كأن يقول أحد جاء فلان، ويقول الآخر لم يجيء فهذا تناقض ظاهر. أما أن تكون البشارة تارة لإبراهيم وتارة لامرأته فأين التناقض هنا؟؟! والآيات الكريمة في أسلوبها الفذ - وقد تقدم لنا هذا من قبل - تبين أن الرسل بشّروا إبراهيم وامرأته قائمة فضحكت فبشروها كذلك، وهذا من الأمور البدهية التي تحدث كثيراً بأن يلقى القول لأكثر من واحد دفعة واحدة أو تفصيلاً ويصدق القول على أنه قيل لهذا تارة ولذاك أخرى.

وأخيراً فإن ادّعاءهم ان قصص القرآن إنما جمعت مما كان معروفاً لدى العرب، أو مما اختلقه القرآن لأول مرة ليثبت دعواه بقوله الذين يدعون أن الغاية تبرر الوسيلة. وهذا بعيد كل البعد عن الإسلام كتاباً وسنة، وهذه قضايا القرآن وأحداث السنّة خير شاهد على الدقة والصدق واللذين يأمر بهما الإسلام ﴿وإمّا تخافنَّ من قومٍ خيانة فانْبذ إليهم على سواء إن الله لا يحبُّ الخائنين﴾ والقرآن بعد ذلك وقبله جاء يصحح كثيراً من الأخطاء التي كانت شائعة منتشرة عند نزوله. ويذكرنا صنيع أولئك بما وجدناه عند بعض الفلاسفة الذين ذهبوا إلى التخييل في تفسير آيات البعث، وبعض الآيات التي تدل على صفات الله تبارك وتعالى وقد رد عليهم الأئمة - رحمهم الله - كما فعل الغزالي في كتابيه «مقاصد الفلاسفة»، و«تهافت الفلاسفة» وابن تيمية في «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول».

وإذا تركنا أولئك المدّعين بأن القصة القرآنية لا يلزم منها الصدق في الحقيقة والواقع، إذا تركنا أولئك فإننا نجد آخرين ذهبوا مذهباً آخر في فهم القصة القرآنية

وهم المؤولون، ولئن التقى هـؤلاء مع أولئك في صرف اللفظ عن ظاهره، إلا أنهم يفترقون؛ لأن الأولين ينفون الصدق عن القصة القرآنية. أما هـؤلاء فلا يَدَّعون هذا؛ بل يؤمنون أن القصص القرآني صادق منسجم مع الواقع، وهـؤلاء المؤولون ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه دفعاً لما يثيره خصوم القرآن حول القرآن كما يقول الشيخ شلتوت، كتأويل بعضهم ما جاء في قصة أيوب ﴿واذكر عبدنَا أيوب إذ نادى ربَّه أنّي مسني الشيطانُ بنصبٍ وعذاب اركض برجلك﴾ بأن معنى النصب والعذاب ما لاقاه من اعراض قومه عنه، وإن قوله اركض برجلك، أي اثبت على ما أنت فيه واعزم عزماً مؤكداً.

وكتأويل الجن في سورتي الأحقاف والجن في قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾، وقوله: ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾، بأن المقصود بهم الأنصار. وكتأويل المائدة عند بعض المتصوفة كما ذكر الإمام البيضاوي بأنها الغذاء الروحي. وتأويل النمل في قصة سليمان بأنه قبيلة ضعيفة، وتأويل إحياء الموتى في قصة عيسى بأنه إحياء روحي... إلى غير ذلك مما هو مبثوث في كثير من الكتب.

وهذا التأويل غير مقبول، وأي تأويل لكتاب الله تعالى قصصاً وغير قصص لابّد أن نعتبر فيه أموراً ثلاثة: - اللغة، والصحيح المأثور عن النبي ﷺ، والسياق فأي تأويل ينسجم مع هذه الثلاثة فهو تأويل مقبول، وأي تأويل ينفر عنه واحد من هذه الأمور الثلاثة فهو تأويل مردود. ونضرب مثلا لهذا التأويل بما ذهب إليه الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ في تأويله في قصة البقرة والذي دعاه لذلك أن اليهود لم يعـرفـوا هذه القصـة عندهم فأوّلها بأن ذلك كان من باب الفصل في القتيل المختلف في قاتله، وجاء ببعض ما ذكرته التوراة في ذلك وهو تأويل ترفضة اللغة ويأباه السياق.

ونختار هنا أنموذجين لهذا التأويل كلاهما في قصة آدم؛ وأولهما للأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ وقبل أن أذكر هذا الأنموذج ومع ما سيراه القاريء من ردنا على الشيخ في تأويله إلا أنه يؤلمنا حقاً أن نجد بعض الكاتبين يقرن الشيخ ـ رحمه الله ـ بمحمد أحمد خلف الله صاحب «الفن القصصي» الذي تحدثنا عنه من قبل فقد اطلعت

أخيراً على كتاب يظهر أنه رسالة لنيل درجة علمية «منهج المدرسة العقلية في التفسير» يذهب كاتبه إلى هذه المقارنه بين الشيخ محمد عبده ومحمد أحمد خلف الله، ولا نعتب على الكاتب مقدار ما عتبنا على المشرف على الرسالة، ونحن نعرفه منصفاً يعطي كل ذي حقٍ حقه، والحق أن لا مجال للمقارنة بين الأستاذ الإمام وبين صاحب الفن القصصي مع مخالفتنا ـ كما قلت ـ للأستاذ محمد عبده فيما ذهب إليه، وسيرى القاريء ردنا عليه.

وهذان الأنموذجان اجتزأتهما من كتابي «مناهج المفسرين»، و«التفسير تطوره واتجاهاته».

أما الأنموذج الأول فهو من كتاب مناهج المفسرين، وهو مما ذهب إليه الأستاذ الإمام في تأويل قصة آدم ومناقشتنا له وردنا عليه.

قال رحمه الله: «وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب -مذهب الخلف- هكذا:- ان أخبار الملائكة هو عبارة عن تهيئة الأرض... لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها. وسؤال الملائكة عن جعل خليفة هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك. وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لإسنعداد الإنسان لعلم كل شيء في هذه الأرض وانتفاعه في استعمارها. وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنه، وتَنَصّلهم في الجواب، تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدداً لا يتعدى وظيفته، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى، ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك، وإباء ابليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن اخضاع روح الشر ويصح أن يراد بالجنة الراحة والنعيم... وبآدم نوع الإنسان... ولسكنى الجنة والهبوط منها أمر التكوين... والمعنى على هذا أن الله تبارك وتعالى كون النوع البشري على ما نشاهد في الأطوار التدريجية التي قال سبحانه ﴿وقدْ خلقكم أطواراً﴾ فأولها طور الطفولة، وهذا معنى قوله ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمي، للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية، فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين. أي أنه تعالى خلق البشر ذكوراً واناثاً وأمرهما بالأكل حيث

شاءا، عبارة عن اباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير. والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر. وهذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان في الطور الثاني، وهو طور التمييز، هي المراد بقوله تعالى ﴿وهديناه النجدين﴾ ووسوسة الشيطان وإذلاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة، التي تلابس النفوس البشرية، فتقوى فيها داعية الشر. أي أن إلهام التقوى والخير، أقوى في فطرة الإنسان أو هو الأصل ولذلك لا يفعل الشر إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته إليه. والخروج من الجنة، مثال لما يلا فيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن الإعتدال الفطري.

وأما تلقي آدم الكلمات وتوبته، فهو بيان لما عرف في الفطرة السليمة، من الإعتبارات بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة، ورجوعه إلى الله عند الضيق والتجائه إليه في الشدة وتوبة الله تعالى عليه، عبارة عن هدايته إلى المخرج من الضيق، والتفلت من شرك بعد ذلك الإعتبار والإلتجاء... فحاصل القوى أن الأطوار الفطرية للبشر ثلاثة: - طور الطفولة وهو طور نعيم وراحة، وطور التمييز الناقص، وفيه يكون الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة. وطور الرشد والإستواء وهو الذي يعتبر فيه بنتائج الحوادث ويلتجيء فيه عنده الشدّة إلى القوة الغيبية العليا، التي منها كل شيء، وإليها يرجع الأمر كله، فهكذا كان الإنسان في افراده مثالا للإنسان في مجموعة... وبقى طور آخر أعلى من هذه الأطوار وهو منتهى الكمال وأعني به طور الدين الإلـهي والوحي السماوي الذي به كمال الهداية الإنسانية»[1].

هذا ملخص ما ذكره الإمام في تفسير قصة آدم. ولقد شعر ـ رحمه الله ـ بأن تفسيره هذا سيثير عليه الكثيرين. فبدأ يدافع عن نفسه، كما دافع عنه صاحب المنار، ونقل مقالة كتبها الإمام بيده يبين فيها أنه لم ينكر وجود الملائكة، ولم يقل إنهم قوى غير عاقلة وإنما قصد التقريب لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالدين، ثم ينعي في آخر كلمة على هؤلاء الذين ظنوا به سوءاً، وحملوا كلامه على غير محمله وهو أعرف منهم بالله وأرسخ منهم إيماناً.

---

(١) تفسير المنار جـ١ / ٢٨١ ـ ٢٨٤، الطبعة الأولى.

مناقشة هذا التأويل:

هذا أسلوب في التهجم ما كنا نرضاه من الإمام ـ رحمه الله ـ، وأنا أحسن الظن به ولا أقول إنه ينكر وجود الملائكة، ولكن ليس معنى هذا أن يسلم له ما جاء به من هذا التأويل.

لقد أراد الإمام أن يقرب البعيدين عن الدين، ولكنه ـ رحمه الله ـ نسي أنه بعمله هذا يقرب المتدينين من غيرهم كما قال الشيخ مصطفى صبري ـ رحمه الله ـ، ولقد قدم الإمام تنازلات كثيرة حينما فتح باب التأويل، هذه التنازلات رأينا لها أسوأ الأثر فيما بعد، وبخاصة عند هؤلاء الذين لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم بينما يعجبك قولهم في الحياة الدنيا.

كنا نود من الإمام ـ رحمه الله ـ أن يكتفي بما قاله السلف حتى والخلف، في تفسير تلك الآيات. وألا يشتط في التأويل، وهو أعلم بسنن الله من كثير من الناس في مثل قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] إن هذه الآيات التي أولها الإمام لا تحتمل هذا التأويل. وكما هي قطعية في ثبوتها فهي قطعية في دلالتها كذلك. نعم إن قطعية الدلالة. وإن لم تستفد من اللفظ نفسه، لكنها هنا تستفاد من أمر آخر وهو ذكرها أكثر من مرة فلقد ذكرت هذه القصة في القرآن الكريم مرات عديدة، كما ذكر أكثر منها لفظ الملائكة. وقول الإمام بأن مجموع ما ورد في الملائكة، فيه إيماء للخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، لا نرضاه منه ولا نسلمه له، ذلك أن عبارات القرآن غاية في الوضوح، بحيث يكون الخروج عن ظاهر معناها ذهابا إلى الرمزية والإشارات الخفية التي يستنكرها أمثال الإمام. وإذا كانت أخبار الملائكة في القرآن يمكن أن يفهم منها ما هو أدق من عباراتها، فجائز أن يقال ذلك كذلك في آيات البعث ومعجزات الأنبياء وغير ذلك من الآيات.

وقوله بأن الذي لا يقول بالتوقيف يسميها قوى طبيعية، وبأن الحقيقة واحدة وبأنه يحظى بها المؤمنون قول خطير عجيب، وأعجب منه أن يصدر من الأستاذ الإمام.

إن ألفاظ القران عربية واصحة محددة المفاهيم. وتعم الفوضى حينما تفقد الألفاظ مفاهيمها ودلالتها، وهناك تفقد الحقيقة كل قيمة، وتعيش الإنسانية عيشة تعاسة وشقاء، كما رأينا عن السفسطائيين لذا كان أول عمل قام به سقراط هو تحديد مفاهيم الألفاظ، وعند الفرق الباطنية المخربة. ولقد رأينا أن الإسلام مع كونه لا يعتبر الشكليات إلا أنه راعى تماما مفاهيم اللفظ ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾ وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال لأحد الصحابة، وهو البراء بن عازب وهو يعلمه دعاء النوم، «آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الـذي أرسلت» فقال البراء ورسولك الذي أرسلت فقال النبي الكريم ﷺ قل ونبيك الذي أرسلت» وهذه ليست أخطر مما نحن بصدده. إذا أجزنا أن نسمي الملائكة قوى طبيعية فإن من الممكن أن يقول قائل «أنا لا أؤمن بأن الله هو الخالق كما تسمـونه وإنما أُسميه الطبيعة، ولا أُسمي رسولكم نبياً إنما أسميه عبقرياً أو فيلسوفاً، وهذا باب إن فتح فلن تكون منه إلا معاول الهدم لهذا الدين.

ويستحيل كذلك أن نسمي الخواطر الحسان ملائكة. والتمثيل الذي أورده الإمام في القصة، فضلاً عن أنه يفتح أبواب التأويل للذين في قلوبهم مرض ورغم ما في الكثير منه من تكلف ظاهر، فإنه مخالف صراحة لكثير من النصوص وعلى سبيل المثال: - تمثيله سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس، بتسخير القوى الطبيعية وتحكم الإنسان فيها، إلا الشر الذي لز في هذا العالم لزاً. مع أن سجود الملائكة ذكر كثيراً في القرآن وفي بعض الآيات تحديد لهوية إبليس بأنه من الجن. وهذه المحـاورات الكثـيرة في القرآن تنفي هذا التمثيل. وكون المقصود من آدم النوع البشري ومن الجنة الراحة والنعيم ينفيه مثل قول الله تعالى ﴿يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾.

لقد اعتبر الكتاب والسنة الإيمان بالملائكة ركناً من أركان الإيمان، في مثل قوله تعـالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْـبِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرِ وَٱلْمَلَـٰئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كلٌّ آمَنَ بِاللهِ ومَلَـٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وفي مثل قول الرسول ﷺ رداً على سؤال جبريل: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1]. ولقد

(١) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان جـ١، ص١٥٠.

ورد في القران مثل قول الله : ﴿مَلَـٰئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم : ٦]. ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السمٰواتِ لا تُغْنِي شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ [النجم : ٢٦]. ﴿الله يصطفي من المَلَائِكَةِ رسلاً ومن النَّاسِ﴾ [الحج : ٧٥]. وفي السنة المطهرة عن تعاقب الملائكة بالليل والنهار، والنصوص أكثر من أن تحصى وكلها لا تساعد، بل لا تسمح بأن يطلق على الملائكة معنى القوى الطبيعية.

كما لا تسمح أن يحظى منكر الملائكة ولو للتسمية فقط، بما يحظى به المسلمون فضلاً عن المؤمنين. ولقد كان جبريل ـ عليه السلام ـ يتمثل أحياناً بصفة إنسان، كما مر في الحديث السابق، وكان رسول الله ﷺ يراه أحياناً في صورته الحقيقية.

ولا أود أن أسترسل، فلقد كان تأويل الأستاذ بدعاً من التأويل، لما فيه من الخروج البين من ظاهر الألفاظ، وكان من الخير أن يقف عند هذه الحدود، وأن يستخرج العبر الكثيرة من الآيات، بغير هذا المسلك، الذي يتم عن مدى أثر الأستاذ بالحضارة الغربية التي لا تؤمن إلا بما هو في دائرة الحس.

أما الأنموذج الثاني: فهو من كتاب «التفسير تطوره واتجاهاته» وهو مناقشة لما ذهب إليه الدكتور مصطفى في كتابه «محاولة لفهم عصري للقرآن».

ونسير مع المؤلف وهو يحدثنا عن قصة خلق آدم بفنون من القول، يمزج فيه بين بتر الآيات وتأويلها تأويلاً يبعد عن أهدافها وغاياتها، كل هذا وقع فيه المؤلف، وذلك لأنه اعتقد صحة نظريات، فأراد أن ينزل عليها آيات القرآن. وخلاصة ما ذكره «أن الله حينما خلق آدم في الجنة وأمر الملائكة أن يسجدوا فسجدوا إلا إبليس أراد إبليس أن يغوي آدم فلما أكل من الشجرة رده الله إلى مستنقعات الطين وبدأ هناك رحلة طويلة من الأميبا إلى الإسفنج إلى الحيوانات الرخوية إلى الحيوانات القشرية إلى الفقريات إلى الأسماك إلى الزواحف إلى الطيور إلى الثدييات إلى أعلى رتبة آدمية بفضل الله وهديه وإرشاده، ولقد استمرت تلك الرحلة خمسة آلاف مليون سنة، وعاد آدم جديد، على هذه الأرض كآدم الذي كان من قبل في الجنة. إذاً هناك آدمان: آدم الصورة والمثال: وهو الذي كان في الجنة فعصى ربه، وآدم الأرض: وهو الذي مر بتلك المراحل كلها، ولم يحدثنا المؤلف عن حواء أمرت بما مر آدم كذلك. وقد حشد لهذا القول كثيراً من النصوص، جاء بها لتوافق ما قرره.

ومن هذه النصوص قول الله تعالى ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾[2] ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾[3] ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾[4] ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾[5] هذه بعض نصوص استشهد بها المؤلف مستدلاً على ما ذهب إليه ومعلناً أن لنا وجوداً سابقاً على وجودنا.

اما الشجرة فيرى أنها «رمز للجنس والموت اللذين تلازما في قصة البيولوجيا»[6]، وأكرر هنا أن النظرية التي جعلها أصلاً ليطابق القرآن إنما هي نظرية أبى العلم أن يمنحها هويته، لتدخل في نطاقة، والآيات التي ذكرها حينما نمعن النظر فيها نجدها بعيدة عن المعنى الذي أراد وقصده.

فالآية الأولى ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ يرى كثير من المفسرين أن التراخي فيها تراخٍ رتبي لا زمني، والتراخي في الرتبة من الأساليب التي لا يستطيع أحد أن ينكرها، وحتى إذا اعتبر هذا التراخي زمنياً فإننا لا نملك أن نسير مع المؤلف أو أن نوافقه ونسكت عليه، حينما اعتبر أن آدم مر بهذه الأزمنة الطويلة إلى أن تكامل خلقه. ولا يلزم من حرف التراخي أياماً أو ساعات. وفي القرآن شواهد كثيرة لهذا، وهذه المغيبات التي لا ينبغي أن نقول فيها لمجرد الظن.

وأما الآية الثانية ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾. فلقد تجاهل المؤلف ما جاء عقبها ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١١).

(٢) سورة نوح: الآية (١٤).

(٣) سورة التين: الآيات (٤ ـ ٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٧٢).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٨١).

(٦) كتاب «محاولة لفهم عصري للقرآن» للدكتور مصطفى محمود ص٦٢.

الصالحات﴾ فالمقصود بالإنسان هنا جنسه. هذا النوع الإنساني، سواء اعتبرنا الإستثناء منقطعاً أم متصلا، فإن الآية لا تساعده على ما أراد، وتنفر من تأويله الذي ذهب إليه، وللمفسرين في الآية أقوال وجيهة، فيرى بعضهم: أن معنى ﴿أسفل سافلين﴾ أي «الهرم» الذي يدرك بعض الناس مثل قول الله تعالى: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ ويكون معنى الآية. ثم رددناه إلى تلك الحالة التي تغير فيها شكله وقوامه ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإن لهم من الأجر في حال هرمهم مثل الذي كان لهم في حال الشباب والقوة فيكون الإستثناء متصلا ويكون الذين آمنوا ممن ردوا إلى أسفل سافلين، إذا أدركهم الهرم. ويرى بعضهم «أن أسفل سافلين» إنما هي الدركات من العذاب يوم القيامة. فيكون المعنى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ولكننا رددناه لما كفر وأعرض، ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر عظيم، فليسوا ممن ردّ إلى تلك الدركات، ويكون الإستثناء منقطعاً. وعلى كل حال فإن تأويل أسفل سافلين بالأميبيا فما بعدها تأباه الآية سياقاً ونصاً.

وأما قوله تعالى: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ فإن هذا الإجمال في الآية، بينته وفصلته آية أخرى هي آية «المؤمنون» ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحمًا، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1]. وآيات كثيره فصلت هذا الإجمال مثل آية الحج: - ﴿يَـٰأَيُّهَا الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب... الآية﴾[2]. فلا يعقل أن تكون الأطوار هذه، ما ذكره المؤلف مع وجود هذا البيان والتفصيل في كتاب الله.

بقي أن يقال: إن قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ لايساعد على ذلك التأويل الذي ذهب إليه، لأن المماثلة التي قال إنها وشيجة من وشائج القربى. مماثلة في غير ما ذهب إليه، فتلك مخلوقات لها طبائعها وانظمتها والظروف الملائمة لها. فهناك صلات قوية بين هذه المخلوقات في أسس الحاجة والتنظيم، وليست إذن وشيجة قربى.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات (١٢ - ١٤).

(٢) سورة الحج: الآية (٥).

أما وجودنا الروحي الذي تحدث عنه واستدل له بآية الأعراف، فأمر لا نسلمه له، ذلك لأن الآية تقول: ﴿وإذ أخذ الله من بني آدم﴾ ولم تقل من آدم نفسه، وهـذا إشارة إلى ما زود به الإنسان من الفطرة السليمة كما ذهب إليه أكثر أئمه التفسير، ولو كان لنا وجود سابق على وجودنا هذا لتذكرناه أو تذكرنا بعضه لأن وجودنا اللاحق سوف لا ينسينا وجودنا الدنيوي، كما نص القرآن الكريم نفسه، فإننا في الآخرة سوف لا ننسى بهذا الوجود الدنيوي.

أما آية آل عمران فإن قصارى ما تفيده: أن الله أخذ الميثاق على النبيين حينما أرسلهم إلى أقوامهم أن يؤمنوا بالرسول الكريم وينصروه إذا أدركوه.

وأما آية الأنعام، وهي قول الله تعالى ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ فإنه عليه الصلاة والسلام أول مسلمي هذه الأمة، ولا داعي أن نغرب في التأويل، ونغرق في البعد عن ظاهر الآيات المحكمات.

بقيت كلمـة أخـيرة في هذا الموضوع، وهي أن تأويله للشجرة، بأنها رمز للجنس لا أخـال مفهـوم الـزوجية نفسـه يعينه على هذا التأويل، فالله يقول: ﴿اسكن أنت وزجك الجنة﴾ ﴿وخلق منها زوجها﴾ فمعنى أن يكون المقصود من الشجرة «اللقاء الجنسي» بعد أن كانت زوجا له بنص القرآن.

ومن أعجب ما استنتجه المؤلف هنا أن القرآن خاطب آدم وحواء بألف التثنيه قبل الأكل من الشجرة فقال «فكلا» وخاطبهما بواو الجماعة بعد الأكل «لأن اللقاء الجنسي - وهـو الأكـل من الشجـرة - أدى إلى التكاثر» فهم عجيب والله!!، وأعجب منه أن يقبله من عرف لغة القرآن وتذوق أساليب العربية!!.

ولقد كنا نود من المؤلف أن يقتصر على كلمته الأخيرة في الشجرة، وهي أنها من أمـور الغيب ومن المبهمات التي لو علم الله في بيانها خيراً لنا لبينها، ونقول للمؤلف: إن ألف التثنية كانت لآدم وحـواء، وأما واو الجماعة فلهما ولابليس، بدليل قوله تعالى في الآية نفسها ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ وليت المؤلف كان يقف عند كل آية ليصل نهايتها ببدايتها وآخرها بأولها، وليته كذلك كان يسترشد بهذا

القرآن، وعقله ونفسه خاليان من كل نظرية تؤثر عليه في مسيرة فهمه للنص، لكنه لم يفعل!!

إن قصة آدم عليه وعلى نبينا ومن بينهما من الأنبياء وصلوات الله وسلامه. كما يبينها القرآن دون تمحل أو تكلف. بينة الأهداف، واضحة المقصد والغاية، انها قصة آدم واحد لا آدمين، أنه هو الذي أسكنه الله الجنة، وأهبطه إلى الأرض يستأنف حياة الإنسان. بما فيها من جهد وكدح وراحة ونصب، فليس هناك آدم المثال وآدم الأرض. وحينما نستعرض آيات القرآن متدبرين، فإنه لا يسعنا إلا أن نقرر هذا.

لقد خلق الله آدم ـ كما تقول ـ الآيات من عنصرين أحدهما: أرضي: وهو ذلك الطين الذي كان حمأ مسنوناً: فصلصال كالفخار، وأما العنصر الآخر فهو الروح. وإذن فمن اللحظة الأولى التي تكامل فيه خلقه هيء بما يستلزمه هذان العنصران، وأعني هذه الإستعدادت الفطرية التي هي نتيجة لابد منها، تستلزمها طبيعة هذين العنصرين. وهاهو القرآن يحدثنا عن آدم في الجنة، وقد طمأنه الله بأن لا يخشى غائلة الجوع وحياة العري ومشقة الظمأ، وحرارة الضحوة، أفليست هذه كلها تستلزمها طبيعة الجسم الترابي والعنصر الأرضي!!، ثم هذا هو القرآن يحدثنا كذلك، عن هذه الإستعدادت الفطرية، والتي يطلق عليها بعض العلماء الغرائز، وهي: الجنس، وحب التملك، وحب البقاء، والتدين، ونقرأ قول الله تعالى: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ ﴿ان هٰذا عدو لك ولزوجك﴾ ﴿وخلق منها زوجها ليسكن إليها﴾، كل هذا يدلنا على الإستعداد الجنسي. أما الحرص على البقاء وحب التملك فيشير إليها قول الله: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾[1]؟ وقال: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾[2]، أما التدين فيظهر في قوله تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[3].

---

(١) سورة طه: آية (١٢٠).

(٢) سورة الأعراف: آية (٢٠).

(٣) سورة الأعراف: آية (٢٣).

هذه هي الأمور الفطرية التي زود بها آدم في الجنة بعضها يستلزمه الجسم، وبعضها تستلتزمه الروح. أفبعد هذا كله، يمكننا القول بأن هناك آدمين، آدم المثال، وآدم الأرض؟ وهل آدم هذا الذي تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، هو الذي أهبطه الله إلى الأرض سواء أكان هذا الإهباط مادياً أو رتبياً في أول ما تتطلبه الأرض وليس يتلاءم ويتناسب مع كرم الله، ولطف الله وحكمة الله أن يحوله بعد أن أعلن توبته من هذا الخلق السوي الذي سجد له الملائكة إلى الأميبيا مروراً بالمراحل المختلفة التي تتنافى مع الإنسانية كل التنافي ﴿وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾[1].

هذا هو آدم في القرآن فإذا جاء بعد ذلك من يدعي، وقد بهرته الفطريات وأسرت عقله ـ أنه ينبغي أن تؤول الآيات حتى لا تتنافى مع تلك المقررات فإنا نرفض قولـه أياً كان ـ، ومن هنـا فأنا أسأل الرحمة للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار، الذي يفهم القاريء لكتابه «قصص الأنبياء» وكأنه متخوف من مثل تلك النظريات حينما يتكلم عن قصة آدم، حيث يقرره، بأنه إن ثبتت تلك النظريات فلا تنافي بينها وبين القرآن. ونحن نقول: لا، القرآن هو الحجة والمهيمن على كل ما عداه، سواء كان ذلك قبله، كالكتب السماوية أم بعده من النظريات، وهو أحرى بالهيمنة على هذه من غيرها. ونكتفي بما نقلناه.

ونكتفي بما نقلناه.

وإذا كنا لا نرضي القول بالتخييل أو التأويل في القصة القرآنية فنحن لا نرضي كذلك الإنسياق وراء القصص الإسرائيلي الذي كان وبالاً على تراث هذه الأمة وعقـولها، والذي رأينا بعضه يخالف العقيدة وعصمة الأنبياء وطبيعة الملائكة، والذي حشيت به كثير من كتب التفسير. . . وبعد!

فهذه ولله الحمد جولة في أرجاء القصة القرآنية شرفنا بها تلاوة، ونعُمنا بها عبقـاً، واستنارت نفوسنا بها هداية وحكمة، واثلجت بها صدورنا إمتاعاً وأُنساً واهتـدينـا بها شهـاُب قبس. ناقشنـا دعوى التكرار، ووقفنا على بعض الحكم

---

(١) سورة النجم: آية (٢٨).

واللبنات التي وضعها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في هذا البناء الإنساني المحكم إلى أن جاء خاتم الأنبياء ـ عليه السلام ـ فأتم هذا البنـاء. . وكنا نرد على بعض الشبهات التي نجدها في طريقنا ما أمكن وأرجو الله أن أكون قد وفقت، وأستميح القاريء عذراً من سبق لسان، أو زلة قلم بها لا ينبغي أن يكون. . وتبقى للقصة القرآنية بَعْد ذلك جوانبها النفسية والتصويرية والبيانية، تبقى بحاجة لذوي البصائر يفجروا منها ينابيع الحكمة والنور، ومن عيونها العذبة ماء الحياة، ليبلّوا صدىً، ويذهبوا ظمأً، ويخرجوا خبأها، وينشروا ضوءها، ونشكر جهود المتقدمين كالأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ.

والحمد لله في الأولى والآخرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٤٠٤ هـ.
الموافق الأول من شهر شباط سنة ١٩٨٤ م.

المراجع

١- تأويل مشكل القرآن /أبو محمد عبد لله بن مسلم بن قتيبه /دار إحياء الكتب العربية /عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه /عبد الكريم الخطيب /ملتزم الطبع دار الفكر العربي سنة ١٣٨٤ هـ - سنة ١٩٦٥ م (طبعة أولى).

٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني /محمود الألوسي /الناشر المطبعة المنيرية بمصر.

٤- تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار /محمد رشيد رضا /الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر /بيروت (طبعة ثانية).

٥- البرهان في علوم القرآن /الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي /تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم /دار إحياء الكتب العربية /عيسى البابي الحلبي وشركاه /(الطبعة الأولى) سنة ١٣٧٨ هـ - سنة ١٩٥٩ م.

٦- البيان القرآني /محمد رجب البيومي /ربيع الثاني سنة ١٣٩١ هـ - سنة ١٩٧١ م /الكتاب الواحد والثلاثون مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية.

٧- مجلة لواء الإسلام /العدد السابع /السنة الرابعة.

٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل / محمود بن عمر الزمخشري /الناشر المكتبة التجارية الكبرى /مطبعة مصطفى محمد /مصر (الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ - سنة ١٩٣٥ م).

٩- التصوير الفني في القرآن /سيد قطب / دار الشروق - بيروت - القاهرة.

١٠- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن /(الخطابي والرماني والجرجاني) /تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام /(الطبعة الثالثة) دار المعارف /مصر.

١١-*حقائق عن قضية فلسطين /الحاج أمين الحسيني.

١٢- القصص القرآني /رسالة مقدمة من محمد عبده بلبول لنيل درجة الدكتوراه جامعة الأزهر كلية أصول الدين.

١٣- صحيح مسلم بشرح لنووي.

١٤- سنن الترمذي /أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي /مطابع الفجر الحديثة /(الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧ هـ سنة - ١٩٦٨ م).

١٥- مختصر سنن أبي داوود /للحافظ المنذري /تحقيق محمد حامد الفقي /مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٦٩ هـ - سنة ١٩٥٠ م.

١٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل /المكتب الإسلامي ودار صادر للطباعة والنشر /بيروت /(الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩ هـ - ستة ١٩٦٩ م).

١٧- صحيح البخاري /دار القلم / بيروت /(الطبعة الأولى سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).

١٨- مناهج المفسرين /الدكتور فضل حسن عباس (مخطوط).

١٩- نظرات في إعجاز القرآن /الدكتور فضل حسن عباس (مخطوط).

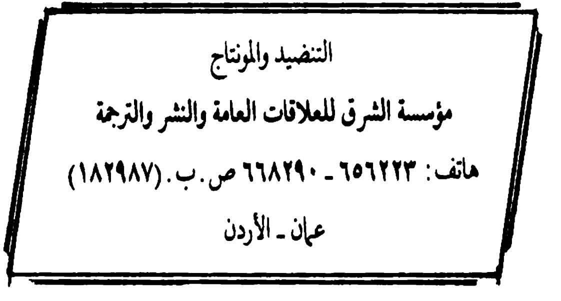
٢٠- التفسير تطوره واتجاهاته /الدكتور فضل حسن عباس (مخطوط).

٢١- محاولة لفهم عصري في القرآن / دكتور مصطفى محمود.



الفهـــرس

** ...... ● ...... **



التنضيد والمونتاج

مؤسسة الشرق للعلاقات العامة والنشر والترجمة

هاتف: ٦٥٦٢٢٣ ـ ٦٦٨٢٩٠ ص.ب. (١٨٢٩٨٧)

عمان ـ الأردن